

أشتات فى الأدب واللغة

أ . د . إبراهيم السامرائى

الطبعة الأولى

(١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١م)

إهـــــــداء 2005 -

الكاتب الإعلامي/ فاروق خورشيد

أشتات
في الأدب واللغة







أ.د إبراهيم السامرائي

الطبعة الأولى
(١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م)

مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة

الهيئة العامة
لدار الكتب والوثائق القومية
رئيس مجلس الإدارة
سمير غريب

أشتات فى الأدب واللغة

للأستاذ الدكتور/ إبراهيم السامرائى.

الطبعـــة الأولى : ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١ م .

إخراج وطباعة : مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة.

رقم الإيداع بدار الكتب ٢٠٠١/٧٢٧٢

الترقيم الدولى : 9 - 0192 - 18 - 977

بسم الله الرحمن الرحيم

{وقل ربي زدني علما}

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

هذه أشتات لى كأنى وجدت بينها وشيجةَ رحم فآثرت أن أجمعها ، ولم أرَ بأسًا أن أضمَّ كُلاً منها إلى أخواتها . لقد خشيتُ أن تتقطع السبلُ بين هذه وتلك فكان لى ما أردت . ولقد حملنى نفرٌ من أصحابى على أن أسعى هذا المسعى فأجعل من البعيد الذى قد يُرَى مختلِفًا مؤتلفًا . لقد رأى هذا النفر من صحبى أن شيئًا مما لدى ينبغى أن يكون سِفْرًا ، ولا يمكن أن يتفرّق فى بطون المجلات . أقول : لو كان لى أن أقوم بهذا على نحو ما يفعل الأساتيذ الفرنسيون فيكون لهم مما يدعونه Mélange لكان لى من ذلك جملة مجلّدات . ولا أدرى أيكون لى هذا ، وقد أقبلت على الثمانين ؟ .

أَفَلى أن أُنشد قول عَوف بن مُحلِّم من قصيدته الشهيرة التى أثبتها ياقوت فى «إرشاده» فقال :

إنّ الثمانين وبُلِّغتَها ... قد أحوَجَتْ سمعى إلى ترجُمانْ

وبدَّلَتْنى بالشِّطاط الحَنَا ... وكنت كالصَّعْدة تحت السنانْ

وإلى أخى القارئ أقول : الشطاط : امتداد القامة ، والصعدة : قناة الرمح .

وقارَبَت منى خُطًا لم تكن ... مُقاربات وثَنَتْ من عنان

ولم تَدَعْ فىَّ لمُستَمْتَعٍ ... إلاّ لسانى وبحسبى لسان

وأعود إليك صاحبى القارئ ألاّ تحسبنى قاسيًا متجبِّرًا حين أبحثُ لنفسى هذا الصنيع فجمعت بين أشتات ما أرانى قد جُرت فى العمل وتَنَكَّبت السبيل .

وإنى لأحمد لأخى الأستاذ سمير غريب الذى تسمّح فطلب منى أن يسعى إلى نشر هذه الأشتات فيما تقوم به وزارة الثقافة فى جمهورية مصر من نشر ذخائر العلم والأدب .

إبراهيم السامرائى

فتنة المعاصرة

امتُحن الناس بالجديد فى كل عصر ، فهرع إليه فريق بحماسة يدعون له ويبشرون به ، عازفين عن كل قديم ، واصفين ما كان عندهم منه بـ « السقيم البالى » .

وربما ذهبوا إلى أبعد من هذا فنعتوا ما كان من «القديم» ولوازمه أسوأَ النعوت ، وأنه غير «عقلانى» ، وأنه كيت وكيت ، وأن «الجديد» هو العقل ، وهو الواقع ، وهو «الموضوعية» ، وهو خير عميم .

ومن هنا كان لا بد أن ينهض فريق آخر يأخذه ضَرْبٌ من التعصب لما عنده من مأثور فى القول والعادات والسلوك . وربما غلا نفر من هذا الفريق فذهب إلى أن ما لديه هو الكمال والجَمال ، وأن ليس فى الإمكان أَبْدَعُ مما كان .

ومن هنا كان كلا الفريقين قد ابتعد عن الصواب ، وتجنَّب الحق ، ولم يخدم العلم . ولى أن أقول لهذا الفريق الآخر المأخوذ ببركة « التراث» و«المأثور» : إن التراث من صنع البشر قولاً وأدبًا وعاداتٍ وسلوكًا ، وإن هذا الذى ورثناه مما ندعوه «التراث» يحتجن الجيدَ والردىء ، ويشتمل على الخير والشر ؛ فكما كان العقل والخلق الحميد ، وطائفة كثيرة أخرى ، يعدّ كلٌّ مِن مآثر العرب ومفاخرهم ، كان إلى جانبه حشد كبير من مواد الشرّ مما يمكن أن يكون من مثالب مَن اتصف به وقال به ومارسَه .

إننا نضع الغَزَل العفيف ، والغزل الماجن ، وأدب الزهد ، وأدب الخمر ، والمدح والهجاء فى حيّز التراث . ومن هنا فليس لنا أن نَسِمَ هذا الحشد كله بميسم القدسية والإكبار ، ولكننا نعتبر الخير كما نعتبر الشر ، ونرى كُلاً منهما من لوازم «البشر»[1] .

وقد كان أهل الجديد فى كل عصر يَرَوْنَ الرفعةَ والعقلَ والواقعيةَ فى جديدهم ، وهم يغضّون الطرف عن المحاسن التى يتصف بها القديم . وقد يكون لى أن أذهب إلى

(١) لقد وردت كلمة «بشر» فى لغة التنزيل ٣٦ مرة ، وأنت واجد هذه الكلمة فى كل آية تشعرك أن «البشر» فانٍ هالكٌ ليس له أن يتجاوز ما أودعه الله فيه ، وأن الله هو القادر الحكيم البصير الخبير . ولى أن أقول : إن « البشرَ» بهذا المعنى يومئ إلى «البشرة» وجمعها «البشر» وإن هذه من جملة «خلق الإنسان» فانية بالية مستهلكة . لقد لمح هذه الصلة التاريخية المستشرق الفرنسى « ر . بلاستير» فى ترجمة «بشر» هذه التى وردت فى لغة التنزيل ، وهو ينقل لغة القرآن إلى الفرنسية فترجمها فقال «Mortel» وهذه الكلمة تعنى الهالك الفانى ، وهى فى سياق الآيات الكريمة صحيحة صائبة ؛ ذلك أن «البشر» فى القرآن متصف بالعجز والفناء والقصور ، إلى جانب القدرة الإلهية العليّة ، والبقاء السرمدى لله ـ سبحانه ـ وهو الخالد الباقى «Immortal» .

أن أبا نواس كان فى عصره من الداعين إلى الجديد ، مسفِّهاً طريقة الأقدمين فى الوقوف على الأطلال ، والبكاء فيها ، ومناجاتها فقال فى هذا عائبًا مسفّهًا منكرًا :

عاجَ الشقىُّ على رَسْم يُسائله ... وعُجْت أسال عن خمّارة البَلَد
لا يُرقئ اللهُ عَيْنَىْ مَن بكَى حجرًا ... ولاشَفَى وَجْدَ مَن يصبو إلى وَتِدِ
قالوا : ذكرتَ ديارَ الحىِّ من أسد ... لادَرَّ دَرُّك قُلْ لى : مَن بنو أسَدِ
ومَن تميمٌ؟ ومَن قيسٌ وإخوتُهم ... ليس الأعاريب عند الله من أحدِ
دَعْ ذا عدمتُك واشربْها معتَّقةً ... صَفْراء تفرُق بين الروح والجسدِ

أقول : هى دعوة إلى «الجديد» ونبذ «للقديم» ، وليس لنا أن نحملها على «شعوبية» أبى نواس ، وأين هو من الذهاب مذهب الموالى ، وهو يفخر فى أبيات معروفة بنسبه القحطانى ، ولكنى أحمل أبياته المتقدمة على مذهبه فى الحضارة وانصرافه إليها ، وإنكاره البداوةَ ولَوازِمَها .

ولعلّي أجد فى قوله الذي سأذكره ما يؤيد دعواى من أن إنكاره البداوةَ أو استهجانه الوقوفَ على الأطلال كان بدافع انغماره فى الجديد الحضارى وليس لتأثره بالشعوبية ؛ قال :

صفة الطلول بلاغة الفَدْم ... فاجْعَلْ صفاتكَ لابْنةِ الكَرْمِ
لا تُخْدَعَنَّ عن التى جَحَبَتْ ... سُقْمَ الصحيحِ وصِحّةَ السُّقْمِ

إن ذهاب أبى نواس إلى الجديد ، ودعوته له ، واستهجانه للقديم كان مما جرّت إليه «الحماسة» إلى شىء جديد يرفض ما درج عليه الناس ، وهذا حاصل فى كل عصر . وإلا كيف لى أن أجعل وقوف ذى الرمة على الأطلال وقوفًا تقليدياً وأدبًا ميتًا لا يتصل بعنصر من عناصر الحياة ؛ قال ذو الرمة :

وأبكيهِ حتّى كادَ مِمّا أبثُّه ... تكلِّمنى أحْجارُه وملاعِبُهْ

وقال أيضًا :

ألا يا اسْلَمى يا دارَ مَىَّ على البِلَى ... ولا زال مُنْهَلاً بجَرْعائك القَطْرُ

وقال أيضًا :

عَشيَّةَ ما لى حيلةٌ غيرَ أنّنى ... بلَقْطِ الحَصَا والخطِّ فِى الدار مُولَعُ
أخُطُّ وأمحو الخطَّ ثم أعيده ... بكَفَّىَّ والغِرْبانُ حولىَ وُقَّعُ

أقول : ما أظن الشاعر فى هذه النماذج كان منساقًا بالتقليد فيأتى بشىء لا يتجاوز طريقة الأقدمين ؛ ولكنى أراه قد وقف بالديار ، وأحب الوقوف وبكى واستبكى وعبّر عمّا فى نفسه .

ولم يكن لدعوة أبى نواس فى استهجانه الوقوفَ على الأطلال أثرٌ كبيرٌ ؛ فلم يقبل الشعراء فى عصره أو الذين خلفوه جديد أبى نواس ، ونستمع إلى الشريف الرضىّ فى القرن الرابع الهجرى فى قوله :

ولقــد مَــررتُ على ديارِهمــو وطلولُهــا بِيَــدِ البِلَى نَهْبُ
فــبكيتُ حــتى ضَجَّ فى لَغَبٍ نِضْــوى ولجَّ بَعــذْلِىَ الركبُ
وتلفــتت عــينى ومــذ خَــفِيَتْ عَنّى الطلولُ تلفَّتَ القلبُ

قد تقول : كان الشريف حضريًا ، وهو يسكن بغداد مدينة السلام ، حاضرة الدنيا ، فكيف كان وقوفه هذا ؟ .

والجواب : أن ذلك صحيح ، ولكنه رضى طريقة القدماء وقبلها وتأثّر بها .

أو قل : أن وقوفه الذى استحسنه ضَرْبٌ من الرمز ؛ فهو يرمز فيه إلى ديار أهله فى الحجاز ، وهو يحنّ إليها بعد أن فقد آلُ علىّ الخلافةَ والرياسةَ ، ويدل على هذا قوله فى مدح الخليفة العباسى فى عصره :

عــفــوًا أمــيــرَ المــؤمنين فــإننا فى دَوْحــة العلــيــاء لا نتــفــرَّقُ
إلا الخــلافــة مــيَّــزَتْك فــإنّنى أنا عــاطِلٌ منهــا وأنت مُطوَّقُ

أخلص بعد هذه «المقدمات» إلى أن معركة الجديد كانت فى كل عصر ، وكان لها أنصار وخصوم .

ونأتى إلى عصرنا هذا الذى تبعنا فيــه الغَرْبَ وتأثرنا به كلَّ التأثر ، والعربُ والمسلمون ـ أو قل عامة الشرقيين إلا القليل ـ فى هذه التبعية سواء .

وهذه «التبعيّة» حاجة فى أغلب الأحيان ؛ ذلك أننا لا نملك ما ملكوه من العلم ، ولم نصل إلى ما وصلوا إليه ؛ فنحن أبدًا محتاجون إلى «جديد» الغرب ، والجديد الآخر

الذى هبط علينا من ديار مشرقية اتبعت نهج الغرب فى التقدم . إن ما يدعى بـ «التكنولوچيا» شىء فُتِنَّا به أشد الفتنة ؛ ذلك أن فينا حاجةً إليه ، ولسنا فى غِنًى عنه ، وإن كان فى هذه التكنولوچيا عبث من العبث كان لنا فتنة وجهالة .

ولكننا تجاوزنا حدّ التكنولوجيا فى الأخذ والاعتماد ، ورحنا نأخذ من الغرب فى شئوننا الخاصة ، وفى أساليب عيشنا وتفكيرنا وسلوكنا . وزاد الأمر حتى صِرنا نقلدهم حذوَ القُذّة بالقُذّة ، كما يقال ، فى علومنا الإنسانية .

نَعَم ، إننا أفدنا من الغرب طرائق الدرس والتحليل فى علومنا الإنسانية ، وليس الذى أفدناه شرّاً ، بل كنا فيه على المحجة البيضاء .

ثم تجاوزنا هذا القدر من الإفادة ؛ فراح المعاصرون يشككون فى ديننا وتراثنا ، ونهضوا يُسفِّهون من علمنا القديم بصورة مباشرة ، وبأخرى مكنّى عنها . ألا ترى أن أحدهم[١] قد ذكر فى بحث له فى «التراث والتجديد» عقده على اللغة :

أن الله لدى الفقير خبز ، ولدى صاحب رأس المال ماكنة واستغلال وربح . . . . .
وقال فى أول هذا الكتاب ما معناه : أن المسلمين ليس لهم أن يأخذوا بأسباب الحضارة والتكنولوجيا بسبب تعلّقهم بالدين ، لقد شغلوا بالقرآن فراحوا يتبارَوْن فى طبعه وتزويقه وإخراجه بنشرات مذهبة ، ثم يتسابقون فى إهدائه إلى الأمم الإسلامية الفقيرة . . .

أقول : هذه معاصرة كاذبة ؛ ذلك أن القرآن والإسلام ما كانا عقبةً حالت دون دخول الجديد إلى العالم الإسلامى فى عصور الإسلام . إن الفلسفة الإغريقية ، وهى فلسفة ليس فيها شىء من الفكر الإسلامى فى «ثوابته» ، قد دخلت العالَمَ الإسلامىَّ ، والخلافةُ العباسية قائمةٌ ؛ واستطاع المسلمون أن يوائموا بين الجديد والقديم ، ولم يدخلوا دائرة الكفر والإلحاد .

ولندخل فى «الجديد المعاصر» فى اللغة والنقد والأدب لنجد أن القوم قد فُتِنوا ونسوا من حقائقهم وهويّاتهم ما نسوا . وإنى لأَعرض من هذا الجديد الذى وقفت عليه فى كتب المعاصرين فى اللغة والتراث وما يُدعى بـ «اللسانيات» ودخولها ميدان الفن

(١) لم أرد فى قولى هذا أن أجرّح مؤلّفًا من المعاصرين ، ولم أرد أن يكون هذا الذى أبسطه بحثًا أكاديميا أثقله بالحواشى والتعليقات ؛ ولكنى أردت أن أبسط نماذج من المعاصرة التى رضى أصحابها لأنفسهم إلغاء «هويتهم» .

الأدبى ، فظهرت لنا أشياء جديدة هى البنيوية والأسلوبية والحداثة ، وإن علم اللغة على سعته فى العربية بين نحو وصرف وأسلوب وبلاغة قد امتُحن بهذا «الجديد» . ثم إننا فوجئنا «بالحداثة» الجديدة ، ونماذجها فى الشعر وغيره من أجناس الأدب .

وقد يكون لنا أن ندخل «علم الأسلوب» فنجد أشتاتًا من هذا الجديد الذى يتصل بجملة من هذا «الجديد الوافد» .

أقول : من الخير لنا أن نفيد من الجديد ، ومتى يكون لنا نهوض ورقىٌّ وإفادة من العصر إن لم نكن نعى الظروف التى نحيا فيها ، ونفيد من فكر القوم ، ولكننا مطالبون أن نكون واعين فى أخذنا للجديد بحيث يكون مما لا يَحمل الضَّيْمَ على الجيد الذى فينا ؛ فلا يلغى فنّاً ولا أدبًا ؛ بل يعين على تنشئته نشأة جيدة معتمدة على الأصول .

أقول هذا لأنى أجد المعاصرين فيما يكتبون قد انصرفوا عنّا كلَّ الانصراف . إنى أجد كتبًا عدّة فلا أحسبها عربية ؛ لأن صاحب «الأسلوب» يضرب فى مسائل جديدة ولا أجد فيها الطريق الذى يربطها بالعربية .

وكأن بعض هؤلاء الأساتيذ قد فطن إلى هذه الغيبة الواضحة لما هو عربىٌّ فراح يذيّل كلامه النظرىَّ بجانب تطبيقي فجاء بنماذج من شعر المعاصرين وراح «يحلِّل» على طريقته الجديدة التى لا أتبين فيها سماحة العربية لغةً وشرحًا وأدبًا .

قال الدكتور شكرى عياد فى كتابه «مدخل إلى علم الأسلوب»[1] :

«والخصم الذى يحاول هذا الكتاب تدميره ليس بلاغتنا القديمة العظيمة ، ولكنه الفوضى البلاغية ـ بل اللغوية ـ التى شاعت بيننا فى السنوات الأخيرة ، ولا سيما بين أدباء الشباب . فهؤلاء عازمون ـ كما يبدو ـ على تحطيم كل بلاغة مأثورة ، ولكنهم عاجزون ـ فى الوقت نفسه ـ على أن يحلّوا محلها بلاغة جديدة .

وهذا الكتاب يودّ (كذا) أن يقول لهم إن تجديد اللغة الفنية ليس أمرًا هيّنًا ، وإن وراء كل عمل أدبى جيد جهدًا هائلاً فى الصياغة اللغوية ، جهدًا يعتمد على الثقافة والفكر كما يعتمد على الشعور ، ويخلق تكويناته الجديدة من خلال التكوينات القديمة وبواسطتها . ويطمع (كذا) هذا الكتاب أن يقنعهم بأن الجرأة فى تجديد اللغة الفنية

(١) مدخل إلى علم الأسلوب (الرياض ١٩٨٢)ص ٧ ـ ٨ .

تتطلب كفأها تعمقًا فى دراسة لغة الآخرين . بهذا وحده يمكن للجديد أن ينافس القديم ، وأن يدخل معه فى رحاب التراث الذى يتسع لكليهما»[١] .

١ ـ فكرة الأسلوب عند الأدباء

أقول : قرأت هذا الكتاب فلم أَقِفْ فيه على شىء خدم «البلاغة القديمة العظيمة» كما أنى لم أجد شيئًا عمل على «تدمير الفوضى البلاغية» .

وقد حمدت للمؤلف توجهه إلى «أدباء الشباب العازمين على تحطيم كل بلاغة مأثورة ، ولكنهم عاجزون ـ فى الوقت نفسه ـ على أن يحلّوا محلها بلاغة جديدة » .

وقد أراد فى توجهه هذا أن يُشعرهم بالجهد الكبير الذى ينبغى لهم أن يقوموا به فى هذا الشأن ، و«أن الجرأة فى تجديد اللغة الفنية تتطلب كفأها تعمقًا فى دراسة لغة الآخرين . . . . . »[٢] .

وكأن المؤلف أراد أن يلقنهم درسًا ينبغى لهم أن يُتْقنوه ، وهذا الدرس يقتضى التعمقَ فى درس لغة الآخرين .

لا أدرى أَقَصَدَ «من لغة الآخرين» لغة الأجانب أم لغة الصفوة من أدباء العربية .

غير أنى قرأت هذا الكتاب وأردت أن أعرف مادة «علم الأسلوب» ؛ إذ لا بد لكتاب ينعقد على «مدخل علم الأسلوب» أن يكون مشتملاً على مادته فى أشتاتها ومفرداتها . ولكنى لم أقف فى قِسْمَىِ الكتاب على فصولٍ يشتمل عليها «علم الأسلوب» .

لقد وجدت المؤلفَ يشير غير مرة إلى أن علم الأسلوبَ لا يشتمل على كذا وكذا ، وأنه يتجنب هذه أو تلك ، وأنه لا يدخل فى هذا الخصوص من قريبٍ أو بعيدٍ . ولكنى لم أجد المؤلف متوجهًا إلى أن هذا من مواد علم الأسلوب ، وأن المسألة هذه تتصل بالفصل الأول أو الفصل الثانى من الباب الأول أو الباب الثانى .

وسأتابع المؤلفَ فيما كتب ، وأقف على الفوائد التى عرضت لها ، تلك التى غاب عنى فيها «علم الأسلوب» .

---

(١) مدخل إلى علم الأسلوب ص ٨ ـ ٩ .
(٢) انظر ما أثبته قبل أسطر .

ثم إني لم أقف على ما يخصّ الدفاع عن البلاغة العربية القديمة فى ثنايا الكتاب ، ولم أجد ما يشير إلى جهد المؤلف فى تخليص البلاغة من «الفوضى» ، وهو الغرض الذى أشار إليه فى « التقديم » .

نعم ، لا أظلم المؤلف فى مقالته التى عقدها على «فكرة الأسلوب عند الأدباء» ، وهى المقالة الأولى . لقد عرض فيها إلى ما كتبه العقاد فى الأسلوب ، فوجد أن القاضيَ على بن عبد العزيز الجرجانى فى القرن الرابع الهجرى كان أكثر تحررًا من العقاد فى القرن الرابع عشر (وهو المتحرر الذى يرد على الجامدين !)(١) .

وجملة ما فى هذه المقالة يتصل بفكرة الأسلوب عند الغربيين ؛ فأشار إلى عبارة : «الأسلوب هو الرجل» ، أو هو الإنسان نفسه ، وهى عبارة «بوفون» المفكر الفرنسى من رجال القرن الثامن عشر(٢) .

أقول : وكلمة «بوفون» هذه رددها فرنسيون آخرون ، وآخرهم بول كلوديل الذى عاش إلى سنوات قريبة من أيامنا .

وقد تأثر بهذا كله توفيق الحكيم ، فقال فى «زهرة العمر» مخاطبًا صديقه الفرنسى : «عزيزى أندريه ! هل حقاً أنت تفهمنى ؟ وهل تقدر ما أنا فيه؟ .... إنها دائمًا حالة القلق والبحث والتنقيب عن الأسلوب ! ...)(٣) .

بقى المؤلف مع صاحبه توفيق الحكيم يدير الكلام على مفهوم الأسلوب لديه ، ورفضه للأسلوب المنمق .

« ثم أشار إلى مصادر توفيق الحكيم التى اكتسب منها أسلوبه ؛ فأثبت من رسالة لتوفيق الحكيم خاطَب فيها صاحبه الفرنسى فى المصدر الفرنسى فقال : « إنى أضع دائمًا نصب عينى هذه المَصادرَ الثلاثة أستلهمها فنيّاً : القرآن ، وألف ليلة وليلة ، والشعب أو المجتمع ..... ولكن الأسلوب ! ... لَطالما شغلتك معى بالحديث عن الأسلوب الفنى الذى أبحث عنه ...... أين أجده أخيرًا ؟ ... ومع ذلك فى ذهنى أنه قد يكون على مقربة منى دون أن أشعر ! ..... » (٤) .

(١) مدخل إلى علم الأسلوب ص ١٩ وذلك أن الجرجانى دافع عن شعر المحدثين رادّاً على المتشددين .
(٢) زهرة العمر ص ١٥٥ عن كتاب «مدخل إلى علم الأسلوب» ص ١٤ .
(٣) المصدر السابق .
(٤) المصدر السابق ص ١٦ .

وكأن توفيق الحكيم رجع إلى العبارة الفرنسية (بعد أن وجد أسلوبه) فى حديثه عن الابتكار ؛ فقال : «وقد تسألنى بعدئذٍ : ما هو الابتكار الفنى؟ فأقول لك بسرعه وبساطة : هو أن تكون أنت . . هو أن تحقق نفسك ، هو أن تسمعنا صوتك أنت ، ونبرتك أنت»[(١)] .

ويوضح الحكيم الكلمة الفرنسية فيقول : «والجهد المضنى الذى يبذله كل فنّان ليصبح له أسلوبه الخاص أو صوته الخاص لا يعدو - فى الواقع - التحرر من تأثيرات سابقيه . ولكن حين ينجح فى صياغة أسلوبه يجد نفسه أَسِيرَ هذا الأسلوب . «وكيف يخرج عن طريقته وأسلوبه ؟ إنها ذاته . . . تلك مأساة الطابع والشخصية ، ما دام قد صار له طابع فلن يخلع عنه أبدًا . . . ولا بالموت»[(٢)] .

أقول : هذا كل ما فى «فكرة الأسلوب عند الأدباء» ، وهى الفصل الأول أو المقالة الأولى فى كتاب «مدخل إلى علم الأسلوب» .

وهل كان لنا فى هذا شىء من مادة «علم الأسلوب» الذى أدار عليه المؤلف كتابه؟ .

وكأن الدفاع عن البلاغة العربية القديمة ، ومحاربة خصمها وهو «الفوضى البلاغية - بل اللغوية - » كان فى عرض المؤلف لرأى القاضى على بن عبد العزيز الجرجانى الذى «رد اتهام اللغويين المتشددين فى أيامه وقبل أيامه لشعر المحدثين بما يشبه الإسفاف والركاكة ؛ فقرر أن شعرهم لا ينبغى أن يقاس بشعر القدماء ؛ بل ينظر إليه فى ذاته ويقاس بمقياس عصره ، وهو فى ذاته جَميلٌ ، وهو أَليَقُ بعصره من شعر القدماء»[(٣)] .

وقد أشار المؤلف إلى قول ابن خلدون فى تعريف «الأسلوب» ، الذى جاء فيه : «ولنذكر هنا سلوك الأسلوب عند أهل هذه الصناعة ، وما يريدون بها فى إطلاقهم .

---

(١) المصدر السابق .

(٢) المصدر السابق . أقول : إن المصادر التى أشار إليها الحكيم ، وهى « القرآن ، وألف ليلة وليلة ، والشعب أو المجتمع» شىء من خليط عجيب ؛ فأين القرآن من كتاب ألف ليلة وليلة الذى يحوى أوشابًا شتى بعضها فصيح وبعضها عامى دارج ، وبعضها بين الفصيح والعامى . إن إشارة الحكيم إلى هذا الكتاب كانت تقليدًا فتن به العرب ، وذلك أن الغربيين عامة نبهوا على فضل الكتاب ، وأنه مصدر لتصوير المجتمع العربى أو المجتمع الشرقى طوال عصور عدة ، فهرع العرب بعد سماعهم هذا إلى «ألف ليلة وليلة» فكتب غير واحد منهم ، أشير بالخصوص إلى أحمد حسن الزيات فى كتابه «أصول الأدب» وسهير القلماوى فى كتاب لها . وقد علق الدكتور عيّاد فى هامش له ص ١٦ قائلاً : «وحول هذه الفكرة الأخيرة يدور كتاب مهم للناقد الفرنسى المعاصر رولان بارت : «درجة الصفر فى الكتابة» ، ولا نظن أن الحكيم قد قرأ كتب « بارت» . . . . . .

(٣) المصدر السابق ص ١٩ - ٢٠ .

فاعلم أنها عبارة ـ عندهم ـ عن المِنوالِ الذى يُنسَج فيه التراكيبُ ، أو القالَبِ الذى يُفرَغ فيه» .

وعلّق الدكتور عيّاد فقال :

«ويحرص ابن خلدون على تأكيد أن المراد بالمنوال والقالب هنا شيء غير النحو ؛ بل غير البلاغة والبيان» . ثم يمضى فى إيراد تتمة قول ابن خلدون :

«وإنما يرجع إلى صورة ذهنية للتراكيب المنتظمة كلية باعتبار انطباقها على تركيب خاص ، تلك الصورة ينتزعها الذهن من أعيان التراكيب وأشخاصها ، ويصيّرها فى الخيال كالقالب أو المنوال ، ثم ينتقى التراكيب الصحيحة عند العرب باعتبار الإعراب والبيان ، فيرصّها فيه رصّاً كما يفعل البَنّاء فى القالب أو النَّسّاج فى المنوال» [١] .

أقول : ولا أدرى كيف فسّر الدكتور عياد قول ابن خلدون فى «المنوال» و«القالب» وذهب بهما إلى غير النحو والبلاغة والبيان ! وها هو ذا ابن خلدون فى آخر عبارته قد أشار إلى «الإعراب والبيان» واعتبارهما أصلاً فى انتقاء التراكيب الصحيحة عند العرب .

وكأن الدكتور عيّاد أراد أن يبرهن على وجاهة رأى ابن خلدون ؛ فعمد إلى مجاراته لما قال «تشومسكى» . وكأن قول الخواجا «تشومسكى» هو المعيار الذى توزن به آراء من تقدمه من العرب . ومن هنا فرح المعاصرون وراحوا يكبرون ابن خلدون ـ كما راحوا يكبرون عبد القاهر الجرجانى ـ لأن قول ابن خلدون صادَفَ «ملحظًا دقيقًا» فى عملية الخلق اللغوى لا يكاد يختلف عن النظرية التى يقول بها «تشومسكى» الآن ، وهى أن ثمة «أبنية عميقة» (كذا) فى ذهن كل مستعمل للغة»[٢] .

وقال الدكتور عيّاد فى إيضاح هذه «الأبنية العميقة» : «ولا يهمنا الآن إن كانت هذه الأبنية فطرية أو مكتسبة يستطيع بمراعاتها أن يخلق عددًا لا يُحصَى من الجمل التى لم يسبق له سماعها ، ولكن الذى يعنينا هنا أن ابن خلدون تصوّر «البنية العميقة» أو «الهيئة الذهنية» التى يصدر عنها الشعر أو النثر تصورًا لا يكاد يختلف عن تصور النحويين

---

(١) المقدمة ، الباب السادس ، الفصل السادس والأربعون ، عن «مدخل إلى علم الأسلوب» ص ٤ .
(٢) مدخل إلى علم الأسلوب ص ٢٤ .

لقواعدهم إلا فى شىء واحد : وهو أن البنية الذهنية فى الأسلوب بنية معنوية»[١] .

ثم أشار الدكتور عياد إلى رأى حازم القرطاجنى فى الأسلوب وهو «هيئة تحصل عن التأليفات المعنوية ، والنظم هيئة تحصل عن التأليفات اللفظية»[٢] .

أقول : والنظم الذى أشار إليه حازم هو «النظم» الذى ذكره عبد القاهر فى كتابه «دلائل الإعجاز»[٣] ، وهو لا يخرج عن توخِّى معانى الإعراب ؛ قال عبد القاهر :

«واعلم أنك إذا رجعت إلى نفسك علمت عِلْمًا لا يعترضه الشك ، أن لا نَظْمَ فى الكلم ولا ترتيب حتى يُعلَّق بعضُها ببعض ، ويُبنَى بعضها على بعض ، وتجعل هذه بسبب من تلك . هذا ما لايحيله عاقِلٌ ولا يَخفى على أحد من الناس» .

والجرجانى فى هذا الفصل يشير إلى الجملة وتركيبها من فعل وفاعل ومفعول ، أو تركيبها من اسمين فتجعل أحدهما خبرًا عن الآخَرِ ، كما أشار إلى تراكيب نحوية أخرى .

أقول : فهم المعاصرون من «نظم» الجرجانى موافقتَه لقول تشومسكى فى «الأبنية العميقة» ، وأن الإنسان يختزن فى ذهنه عددًا لا يُحصَى من الجمل . . . أين هذا من ذاك ، شتان ما بينهما .

ومن هنا كَبُرَ الجرجانى فى ميزانهم لأن ما كان من «نظمه» وافَقَ قولاً للخواجا تشومسكى .

ثم ألا يرى معاصرونا أن «تشومسكى» بين الغربيين ليس الذى لا يردّ كلامه ، وليس الذى لا يقال فيه شىء ؛ ذلك أن غير واحد من الفرنسيين وغير الفرنسيين لم يروا ما يراه . ومن هؤلاء جورج مونان الذى قال : إن «تشومسكى» أغرق فيما هو لسانى بحت فى الطريقة التحويلية القديمة جداً . . . فى خليط فلسفى مجازف به»[٤] .

---

(١) أقول : هذا الذى ذهب فى «الأبنية العميقة» وهو أن الإنسان يستطيع بمراعاتها أن يخلق عددًا لا يحصى له من الجمل» هو قول تشومسكى ، وهو غير مقبول فى العربية ؛ ذلك أن فى العربية صوابًا وخطأ ، والصواب يكون كذا وكذا وقد يتغير قليلاً تقديمًا وتأخيرًا وحذفًا وذِكرًا ، ولكنه لا يكون «عدداً لا يُحصى من الجمل» .

(٢) مدخل إلى علم الأسلوب ص ٢٤ .

(٣) دلائل الإعجاز (تحقيق محمود محمد شاكر) ص ٥٥ .

(٤) مفاتيح الألسنة (تعريب الطيب البكوش) ، تونس ١٩٨٠ ص ١١١ .

ثم أليس لى أن أقول : إن منطق التاريخ يأبَى أن يقوِّم هؤلاء المتقدمون تقويمًا حسنًا المنطق ، وأنت واجد شيئًا من هذا القدر أو يزيد عليه فى كل لغة . إن النحو فى اللغات الغربية يحمل آثارًا عميقة من منطق أرسطو . وما زال هذا هو النحو فى النهج المدرسى والأكاديمى ، ولم تكن الآراء الجديدة والاجتهادات إلا آراءً خاصة بأصحابها .

ولكننا نقول إن الاجتهادات الجديدة بدت واضحةً فى تفسير البناء اللغوى . إن «الأسلوبية» ثم «البنيوية» ما زالتا موضع درس ، وإن الكثير منها قد تجاوزها الزمن ، ولكننا نحن الدارسين العربَ نوحى إلى أبنائنا أن هذا الذى عرفه الغربيون منذ بضعة عقود ، هو نهاية العلم ، وهو آخر الإبداعات الغربية .

لقد فات الدارسين عندنا أن هذا الذى جال فيه الغربيون مسائلُ درس يتناولها الدارسون بين أخذ وردّ ، وأن النحو «التوليدى التحويلى» له مَن يؤيده وله مَن يرفضه .

ثم عرض الدكتور شكرى عياد لعلم اللغة و دخول النظرة التاريخية المقارنة ، وما وصل إليه الدارسون من اكتشاف خطوات التطور فى اللغة الأندوأوربية التى كانت أساسًا للغات الأوربية وبعض لغات وسط آسيا[١] .

وعرض لإفادة الدارسين من الفلسفة الوضعية التى قال بها «أوجست كونت» التى تؤمن بالعلم التجريبى كمرحلة أخيرة فى تطور البشرية ، غلبت دراسة المجتمعات الإنسانية .

ثم عرض لدور «فرديناند دى سوسير» العالم السويسرى الذى دعا إلى دراسة اللغة لبناء متكامل فى فترة زمنية محددة ، قبل دراسة التطورات الجزئية التى تطرأ على نطق حرف من الحروف مثلاً فتؤدى إلى التغير فى بعض القواعد أو بعض المفردات [٢] .

أقول : إن ما جاء به «دى سوسير» يعطى الكلام «parole» أهميةً كبيرةً ، وأن اللغة تستخلص من أفواه الناس لا من الكتب فحسب ، وقد أشار إلى هذا الدكتور عياد .

غير أن ما جاء به العالم السويسرى كان موضع اهتمام فى الغرب ، وكان الأساس

(١) المصدر السابق ص ٢٤ .
(٢) المصدر السابق ص ٢٤ ـ ٢٥ .

الذى اعتمد عليه أصحاب «البنيوية» . ولكن أصحابنا العرب نسوا أو قُلْ تناسَوا أن هذا لا يمكن أن يكون ذا فائدة فى العربية ؛ ذلك أن لغتنا العربية المعاصرة هى القدر المشترك بين الناطقين فى العربية فى مختلِف الجهات فى الوطن العربى . وهذا يعنى أن «الكلام» الذى يدرج به الناس فى كل بلد من البلدان العربية لغةٌ أخرى تختلف فى هذا البلد عمّا يدرج به أهلُ بلد آخر . ومن هنا لم يكن هذا الدارج مادة علم ودرس نفيد منها فى معرفة عربيتنا المعاصرة ، اللغة المشتركة .

ثم أعود إلى «دى سوسير» الذى أشار إلى أن البحث التاريخى الرأسى أو العمودى (Diachronique) ليس ذا قيمة فى الدرس اللغوى بحسب رأيه واجتهاده ، وأن البحث المتزامن ، أو الأفقى كما دعاه الدكتور عياد ، هو البحث القيم الذى يوصل إلى معرفة اللغة ويقيم علمها على أساس قويم ، وهو الذى سماه (sinchroniqve) .

ولكن الدكتور عياد قد رفض ـ وهو على حق ـ إنكارَ البحث الرأسى الذى قال به «دى سوسير» ، وأكد أن البحثين متكاملان . . .[1] .

ثم تكلم الدكتور عيّاد على المعاجم وأشار إلى أن المعجم الحديث ينبغى أن يراعى فيه عِلْمُ اللغة الحديث الذى يبدأ تفسيرَ الكلمة بالإشارة إلى أصلها فى اللغة السامية القديمة ، وطريقة نطقها وتطور معناها واستعمالاتها المختلفة فى العصر . . . .[2] .

أقول : وهذا الذى ذهب إليه الدكتور عيّاد يتصل بالمعجم التاريخى لا المعجم الحديث ، والكلام فى هذا الشأن متفق عليه ، وأن ما أشار إليه من صنع مجمع اللغة العربية فى القاهرة فى «المعجم الكبير» هو شىء غير راقٍ للمعجم التاريخىّ .

وأشار الدكتور عيّاد إلى أن علمَ اللغة الحديثَ لا يقتصر على الكلمة : تاريخها واستعمالاتها ؛ بل يدخل فى باب النحو التاريخى .

أقول : إن علم اللغة الحديث لا يتناول النحو التاريخى ؛ بل يتناول النظام النحوىّ فى اللغة الحديثة ، كما تشير إلى ذلك آراء أهل الأسلوبية والبنيوية[3] .

---

(١) المصدر السابق ص ٢٦ .

(٢) المصدر السابق ص ٢٧ ـ ٢٨ .

(٣) لابد من الإشارة إلى أن اشتقاق «البنيوية» فى نسبتها إلى «البنية» من الخطأ ؛ ذلك أن النسبة إلى «بنية» هو «بِنَوىّ» مثل النسبة إلى «لِحية» لِحَوىّ .

ثم أشار الدكتور عياد إلى الفرق بين «اللغة» و«القول» وهو الذى قال به «دى سوسير» الذى أشرنا إليه . لقد ترجم الدكتور عَيّاد كلمة parole بـ «قول» ، والذى درج عليه النَّقَلة أنه «كلام» كما بيّنا .

وقد توسع الدكتور عيّاد فى معنى «قول» ، وأشار إلى أن القول يختلف لدى أصحاب الاختصاصات المختلفة ، وأنه يختلف أيضًا باختلاف المناسبات» (١) .

ثم عرض لما جاء به شارل بالى فى علم «الأسلوب» وقال :

«والمدرسة الفرنسية فى علم الأسلوب هى التى وضعت القواعد النظرية الأولى لهذا العلم . إن علم الأسلوب يجب ألا يبحث فى كيفية استخدام الأدباء لهذه التأثيرات الوجدانية ؛ فلا يُسأل عن مدى مناسبتها للموقف الوجدانى الذى يصوره الشاعر ، أو الشخصية التى يقدمها الروائى أو الكاتب المسرحى . فمثل هذه الأسئلة خارجة عن عمل الدارس الأسلوبى إذن ـ فى رأى «بالى» ـ دارس لغوى محض ، يدرس«الخامات اللغوية من حيث دلالاتها الإضافية (وقد فصّل «بالى» أنواع هذه الدلالات تفصيلاً دقيقًا) مهما تكن طبيعة النص الذى يدرسه ، إن كان مأخوذًا من الأدب أو العلم أو الإدارة أو شئون الحياة العادية . والمسألة عنده مسألة منهج : فالعالم اللغوى يبحث عن قوانين لغوية تحكم عملية «الاختيار» التى يقوم بها أى شخص يستعمل اللغة ، ولا يبحث عن القوانين الجمالية التى تخص الأدب دون غيره من الأغراض التى تستخدم فيها اللغة(٢) .

ثم أشار إلى الخلاف بين «بالى» وتلميذه «كرسو» حول القصد والاختيار الذى هو «موضوع علم الأسلوب»(٣) .

أقول : لو أن صاحبنا الدكتور عياد شرح لنا النظرية الأولى لِعِلْم الأسلوب كما وضعها الفرنسيون ، كما أثبت ، ولا أرانى مستفيدًا كثيرًا إذا وجدت الدكتور عيّاد يثبت ما لا يدخل فى علم الأسلوب ؛ فقد قال : إن علم الأسلوب يجب ألا يبحث فى كيفية استخدام الأدباء لهذه التأثيرات الوجدانية . . .

---

(١) المصدر السابق ص ٢٨ ـ ٣٠ .
(٢) المصدر السابق ص ٣٢ .
(٣) المصدر السابق ص ٣٢ ـ ٣٣ .

ولم يقل الدكتور عيّاد شيئًا عن «التأثيرات الوجدانية» وإنْ أشار لها بـ «هذه» . ولم نعرف «الخامات» اللغوية التى ذكرها من قول «بالى» .

ولم يضرب مثلاً «للاختيار» الذى هو «موضوع علم الأسلوب» كما قال .

ولم أفد كثيرًا من قوله : إن علم الأسلوب «لايبحث عن القوانين الجمالية» دون أن يقول لى شيئاً عن «مواد» هذا العلم .

ثم أليس من المفيد أن يشير إلى «القوانين الجمالية» التى لا تدخل فى علم الأسلوب؟ .

٣ ـ علم الأسلوب
النقد الأدبى ، تاريخ الأدب[١]

وهذه هى المقالة الثالثة من كتاب الدكتور شكرى عياد قال فيها :

«اللغويون الخُلّص من علماء الأسلوب يسجلون الخصائص التعبيرية (بالمعنى الضيق لكلمة التعبيرية كما يستعملها بالى مثلاً) لنوع ما فى الاستعمالات اللغوية ـ (ويفضلون الأنواع البسيطة مثل حديث تلفونى ، أو إعلان صحفى ؛ أو وثيقة شرعية ، ألخ) مفصلين السمات المميزة للنص من حيث نطق الحروف ، وصيغ المفردات وأنواعها ، وأشكال الجمل وطرق الربط بينها ، غير متجاوزين ظاهر اللغة . وربما استخدموا منهج «تحليل المحتوى» المعروف عند علماء الاجتماع ؛ فصنّفوا أنواع الدلالات فى مجموعة من النصوص . وبذلك يوضحون أسس «الاختيار» فى مجالين من المجالات التى تستخدم فيها اللغة [٢] .

أقول : لَعلّ هذه المواد الموجزة هى مادة ما دُعى بـ «علم الأسلوب» . وإذا كان لنا أن نحسب «للحديث التليفونى» الحساب الذى خصّه عالم الأسلوبية الفرنسية ، فهل لنا أن نحصل على شىء ذى قيمة يخص «الأسلوبية العربية»؟ .

(١) المصدر السابق ص ٣٥ ـ ٤٣ .
(٢) المصدر السابق ص ٣٥ .

ثم ذهب الدكتور عياد فى بسطه لهذه الفوائد وقال :

« . . . . وربما جاء بعدهم متخصص فى «علم الاجتماع اللغوى» يستنتج الدلالات الاجتماعية للخصائص التى سجّلوها عن اللغة «المستعملة فى الأوامر الإدارية» فى قطر من الأقطار مثلاً ، أو عن اللغة التى يستعملها تلاميذ المدارس فى حىٍّ معين خارج فصول الدراسة ، إلخ . وفى كل هذه الأنواع من التحليل اللغوى يقف المحلل دائمًا عند ظاهر اللغة . أمّا الناقد الأدبى الذى يستخدم التحليل اللغوى فإنه يتعامل مع نصٍّ لا يمكنه الوقوف عند ظاهره . فلو ظل واقفًا عند الظاهر لما وصل إلى شىء مهم ، وإن قام بكل أنواع التصنيفات والإحصاءات التى يمكن أن يقوم بها عالِمٌ لغوى .

إن النتائج اللغوية الصرف (كذا) التى يمكن الوصول إليها من تحليل شعر زهير أو شعر المتنبى لا تغنى الناقد ، وكل ما يستطيع العالم اللغوى أن يدعيه فى هذه الحالة هو أن النتائج التى وصل إليها بالتصنيف والإحصاء ستظل تنتظر الناقد الأدبىَّ الذى يستنتج منها دلالات فنية[١] .

كأن الدكتور عيّاد أحسَّ أن صحبته قد طالت مع الأعاجم : تشومسكى ، دى سوسير ، بالى ، كرسو ، وغيرهم ، وقد نسى فيها أن «علم الأسلوب» لا بد أن يتصل بالعربية ، فكان ذلك من شأنه أن يذكِّره بـ «زهير والمتنبى» .

وقال :

« . . . . . . فالعالم اللغوى يهتم بكل شىء فى لغة المتنبى أو لغة زهير ؛ لأنه يريد أن يجمع صورةً كاملةً للغة . وإذا تحدث عن «أسلوب» زهير أو غيره فهو لا يعنى أكثر من مجموع الخصائص التى تميزهما ، ولا شك أن استخلاص هذه الخصائص عملية بالغة العسر والمشقة ؛ لأنها تتطلب المقارنة باللغة «القياسية» المستعملة فى عصر المتنبى أو عصر زهير» [٢] .

أقول : كأن الأستاذ عيّاد أراد أن يبقى فى حيز الغامض فجعل «استخلاص الخصائص الأسلوبية عمليةً بالغةَ العسر والمشقة» ، فكيف نلمسها فى كتابه ؟ ولست

(١) المصدر السابق ص ٣٥ ـ ٣٦ .
(٢) المصدر السابق ص ٣٦ .

أدرى ما المراد «باللغة القياسية» المستعملة فى عصر الشاعرين؟ .

ولنمضِ معه فى قوله : «فسيكون عليه أن يحدّد اللغة القياسية أولاً . لهذا لم يخطئ اللغويون الذين نفروا من دراسة الأساليب الأدبية . فالنصوص الأدبية يمكن أن تدرس دراسة لغوية فقط ، أما أن تدرس دراسة لغوية أسلوبية فهذا مطلب يوشك أن يكون مستحيلاً . إنما يستطيع أن يقوم بالدراسة الأسلوبية للنصوص الأدبية ناقدٌ أدبىٌ ، تكون مهمته تمييزَ النص الأدبى من أىّ نص لغوى آخر ، بل من أى نصّ أدبىٍّ آخر» [١] .

أقول : ليته أشار إلى «دراسة لغوية أسلوبية» قديمة أو حديثة لنعرف كيف تكون طلسماتها . وسأفزع إلى تطبيقات المؤلف فأقف على أسرار «علم الأسلوب» تطبيقًا .

وقال المؤلف : إن الاختيار ات التى يجمعها الناقد الأسلوبى لا يمكن أن تظهر إلا مرتبطة بوظفيتها فى أداء موقف شعورى معين صدر عنه النصُّ الأدبىُّ . وكثيرًا ما يظهر فى هذه الاختيارات . «اجتراء» واضح على اللغة . . .» [٢] .

كأن المؤلف قد أشار إلى خروج الشعراء عن النهج اللغوى وتمسكهم بضرب من السطوة ، بما خرجوا فيه ؛ كما حدث للفرزدق مع الحضرمىّ النحوىّ . وقد أشار المؤلف من بعيد إلى هذا ، ثم قال :

«وما تمسك الشعراء بحقهم فى هذا الاجتراء إلا لأنه امتياز طبيعى تخولهم إياه وظيفتُهم . فما دامت وظيفتهم هى اقتناص شوارد الشعور فمن حقهم أن يَلْوُوا عُنُقَ اللغة إذا بدا لهم ذلك ضرورياً . ومِن ثَمّ يولى الناقد الأسلوبى هذه الاختيارات المتطرفة عناية خاصة ، وقد سماها النقاد الأسلوبيون «انحرافات» ، وأَعطَوْها هذا الأسم فى الدراسات الأسلوبية ، كلّ ما يمكن من آيات الاحترام التى لا يحظى بها فى أمور الحياة العادية ، حتى قال «بعضهم» معرّفًا علم الأسلوب : إنه علم الانحرافات» [٣] .

أقول : قوله : إن بعضهم سمّاه علم الانحرافات . وبعضهم هذا أشار إليه المؤلف فى الهامش ، وهو كتاب «اللسانيات والأسلوب» لـ : «ستيفن أولمان» من المؤلفين الإنكليز .

---

(١) المصدر السابق ص ٣٦
(٢) المصدر السابق ص ٣٦ .
(٣) المصدر السابق ص ٣٦ ـ ٣٧ .

إن «الانحرافات» التى وردت أكثر من مرة فى النص تعنى الأخطاء ، وإذا كان هذا ، فهل يعنى أن تتبع الأخطاء من الأعمال الأدبية الأسلوبية؟ وهذا يشير إلى أن جمهرة المتسقّطين للأخطاء باحثون أسلوبيون .

لا ، ليس هذا من «علم الأسلوب» ولكننا فُتِنّا بـ «المعاصرة» نتلقّفها بخيرها وشرها ونوليها التقديرَ والاحترامَ ، أليست هذه فتنة؟!

وكأن المؤلف أدرك هذا الذى عرضته فقال :

«وإذا كان الأمر كذلك ، فليس بوسعنا أن نزعم أن علم الأسلوب كما يراه النقاد الأسلوبيون ينطوى على أيّة قوانين كما هو شأن العلوم الوصفية . . . فإذا كان فى وسع الأسلوبيين اللغويين أن يستخلصوا قوانين مطّردة تحكم الاختيارات اللغوية فى شتى الفروع فكيف يمكن أن يصاغ قانون «للانحراف» ، وهو بحكم تعريفه نفسه ، خُروجٌ على القانون ؟»[1] .

وكأن المؤلف أراد أن يعرض طريقته فى النقد الأسلوبى فأتى ببيت لامرئ القيس يصف فرسه :

على الذّبل جيّاش كأنّ اهتزامه إذا جاش فيه حَمْيُهُ غَلْيُ مِرْجَلِ

فقال : نجد فيه كلمتين تحكيان صوتين : «جياش» وقد كُرِّرت فى الفعل «جاش» و«اهتزام» . وقد وضعت هذه الكلمات الثلاث فى إطار من الكلمات يحكم بمجموعة تردّد أنفاس الفرس ، فيشعرك بروعة الإعجاب ، ولا سيما إذا تمثّلت بخيالك قدرًا ضخمًا يغلى فيه الماء فينبعث منه نشيش وبخار[2] .

وضرب مثلاً آخَرَ هو بيت أبى ذؤيب الهُذَلِىّ ، وهو مطلع قصيدة رثى بها أبناءه الخمسة وقد ماتوا فى يوم واحد :

أَمِنَ المنونِ ورَيبِها تتوجَّعُ والدهر ليس بمُعْتِبٍ مَن يجزَعُ

فقال : وتأمّل هذا الاستفهام الغريب فى الشطر الأول ، وما حفل به من المشاعر المتناقضة : هل ينكر الشاعر على نفسه أن يتوجّع من الموت ؟ وأيّة وجيعة أشد من

(١) المصدر السابق ص ٣٧ .
(٢) المصدر السابق ص ٣٨ .

وجيعة الموت؟ ولكنه يذكِّر نفسه بأن الجزع لا يُجدي فإذا غضب فإن الدهر لن يترضاه ، لأن الذاهبين لن يعودوا . لقد بلغ الحزن مداه فتحوّل إلى استسلام .

وانتبه إلى تقديم الجارّ والمجرور «من المنون» على بقية أجزاء الجملة الاستفهامية . ويقول البلاغيون : إن التقديم فى مثل هذه الحالة يفيد القصر ، أو إن المُستفهَم عنه هو ما تلا همزةَ الاستفهام . فكأن موضع تساؤله ليس التوجع فى ذاته ، بل التوجع من نزول الموت لا من أى شىء آخر . وهذا ما يجعل الاستفهام أشدّ غرابة ؛ فليس ثمة فجيعة أشدّ من الموت المفاجئ ، فما بالك إذا كانت الفجيعة مضاعفة؟ .

وتقول لنا البلاغة : إن الاستفهام هنا قد خرج عن معناه . . . . . . إلى التقرير أو الإنكار أو التعجب ، ولكننا فى الحقيقة لا نستطيع أن نطمئن إلى معنى واحد من هذه المعانى الثلاثة ، ولعلها جميعًا لا تفى بوصف الحالة الوجدانية المعقدة . . . . .

مثل هذه الطريقة فى النقد ستبتعد بالضرورة عن الحكم بالجودة أو الرداءة . . . . فإذا كان عمل الناقد الأسلوبى هو تبين الارتباط بين التعبير والشعور ، فيجب أن يكون قادرًا على الاستجابة للقطعة الأدبية التى يدرسها ، وإلا فإنها ستظل بالنسبة له حروفًا ميتة . لهذا يصرح علماء الأسلوب بأن الناقد الأسلوبى لا يمكن أن يدرس عملاً لا يتذوقه[1] .

* ثم أشار إلى الفرق بين الناقد الأسلوبىّ والناقد الانطباعىّ ، وأن الأخير ينطلق من مشاعره الخاصة إزاء العمل ، في حين أن الأول أكثرُ موضوعيةً .

أقول : ولم يضرب المؤلف مثلاً يدل على هذا الفرق .

ويخلص المؤلف إلى أن علم الأسلوب والنقد الأدبى يتعاونان ويتكاملان . ثم يقول : إن النقد الأدبى فى طريقه إلى أن يصبح ـ بدوره ـ علمًا ، وهو قادر ـ حتى بحالته الحاضرة ـ على أن يستعين بعلم الأسلوب دون أن يتنازل عن حقه فى الوجود .

(٢) المصدر السابق ص ٣٨ ـ ٣٩ .

ثم قال :

ويصدق القول على تاريخ الأدب . فتاريخ الأدب كما يدرس اليوم هو تاريخ لأى شىء وكل شىء إلاّ الأدب .

إن منهج علم الأسلوب فى تحليل النصوص الأدبية ـ يمكن أن يوصلنا ـ وحده ـ إلى كتابة تاريخ الأدب بصورة أمثل (١) .

أقول : طالت المَسيرةُ ولم نَهتدِ إلى مراد علم الأسلوب ، وأخيرًا وجدنا ذرءًا فى هذين النموذجين من «تحليل النصوص»!

٤ ـ علم الأسلوب وعلم البلاغة

قال المؤلف فيما قال :

« والهدف النهائى لعلم الأسلوب ـ كما يراه كثير من علماء الأسلوب ـ هو أن يقدِّم صورة شاملة لأنواع المفردات والتراكيب وما يختص به كلٌّ منها مِن دلالات ، وهذا هو ما يصفه علم البلاغة . فنحن نعرف مثلاً أن علم البلاغة يتناول طرقًا معينة فى استعمال المفردات كالاستعارة والمجاز المرسل والكناية ، ويبحث قيمة كل طريق من هذه الطرق ، ويتناول أنواعًا معينة من الجمل الخبرية والجمل الاستفهامية .... ويبحث قيمة ذلك كله . ولعلك تلاحظ أننا حين أخذنا فى تحليل بعض نماذج فى اللغة الشعرية فى الفصل السابق وجدنا من الضرورى أن نستخدم بعض المفاهيم البلاغية»(٢) .

ثم يمضى المؤلف فى بسط الفرق بين العلوم اللغوية الحديثة ، كعلم الأسلوب ، وبين البلاغة ، ويقول فيها : إن علم البلاغة علم معيارىّ ، على حين أن علم الأسلوب علم وصفىّ .

---

(١) المصدر السابق ص ٤١ .
(٢) المصدر السابق ص ٤٣ ـ ٤٤ .

وقال أيضًا : إن مادة علم الأسلوب هى التأثيرات الوجدانية للظواهر اللغوية .

وهنا يلوح لنا شبح الذاتية الذى حسبنا أننا نخلص منه . إن نظرية الأسلوب كلها تعتمد على فكرة «الاختيار» وفكرة «الانحراف» . وإذن فنحن عندما نقرأ نصّاً ما قراءةً أسلوبيةً ، نحاول أن نميز الاختيارات والانحرافات فيه ؛ لأنها هى المفاتيح التى تمكننا من الولوج إلى العالم الشعورى الكامن وراء القطعة الأدبية . ولكن مَن أدرانا أن ما نعدّه اختيارات أو انحرافات ذات دلالة ، قد لا يكون كذلك عند قراء آخرين؟[١] .

أقول : كأن المؤلف حين يذهب فى علم الأسلوب متعصبًا أو غير متعصب يستدرك على نفسه بقوله : «ولكن» فيدلّ هو نفسه على أن هذا ليس من العلم ؛ لأنه لا يتصف بصفات العلم الذى يجمع عليه الدارسون .

ولكن المؤلف يَعِد القارئ برسم الخطوات العلمية للدراسة الأسلوبية لنص ما [٢] .

وهو يشير إلى قسم التطبيقات التى صنعها فى تحليل قصائد لإبراهيم ناجى وأبى القاسم الشابى .

نعم إنه شرح ووقف طويلاً على عناوين القصائد ، وبسط ما بدا له أن الشاعر أراد كذا - بحسب روية الباحث ، ولكننا لا نجد بوضوح موادَّ علم الأسلوب ؛ ذلك أن هذا الشرح قد يتغير لدى باحث آخر ، وهو يتناول هذه القصائد المختارة .

٥ - ميادين الدراسة الأسلوبية

تخرج من هذا إلى أن المؤلف بسط المواد التى لا بد للدارس الأسلوبى أن تكون لديه ، ومنها : متن اللغة ، وكتب النحو والبلاغة ، وما يتصل بعلوم العربية عامة .

والدراسة الأسلوبية تشغل مساحة واسعة تمتد من القوانين اللغوية العامة التى تشمل عدة لغات إلى القوانين اللغوية الخاصة بلغة بالذات .

(١) المصدر السابق ص ٤٥ - ٤٦ .

(٢) المصدر السابق ص ٤٦ .

ويبسط المؤلف هذا فيشير إلى :

١ ـ النوع الأول للدراسة الأسلوبية للقوانين اللغوية العامة (ويمكننا أن نسمى هذه الدراسات «علم الأسلوب المقارن») . . . .

. . . .

ويبحث عِلْمُ اللغة العامُّ فى الخصائص التى يستمد منها الشعر موسيقاه . . . . فيبحث فى المقاطع وطولها .

ويسهب المؤلف فى بسط المقاطع ؛ القصير منها والطويل[١] .

٢ ـ النوع الثانى ما يتناول لغة واحدة بعينها .

وجاء فيه :

أما الدراسات العربية فى علم الأسلوب فيجب أن تعنى عناية خاصة بالتمييز بين علم الأسلوب المقارن وعلم الأسلوب الوصفىّ .

وهنا عرض المؤلف لعبد القاهر الجرجانى فى كلامه على «معانى النحو» ، كما سماه المؤلف ، وهو يريد به «النظم» الذى أشرنا إليه .

ويمضى المؤلف فى الكلام على الجملة العربية ، وما يتصل بالكلمة وأصواتها ، والكلمة فى حشو الجملة وحاجتها إلى الأدوات كالاستفهام والشرط .

وهو يشير إلى «النمط المتسلسل» الذى يقدم ركن الجملة (المسند إليه) ، و«النمط المتصاعد» الذى يقدم جزءاً منها ، ولا سيما المتعلقات كالظرف[٢] .

٣ ـ الدراسات الأسلوبية التكوينية أو الفردية :

وهذه تتناول جزءاً صغيراً يرى فيه الدارس فائدة ؛ وذلك أنها تقدِّم قيمة تعبيرية خاصة تلقى الضوء على العمل كله ؛ كاستعمال أداة التعريف ، أو استعمال بعض الظروف . . . .

ويمضى المؤلف فى هذه الدراسات متناولاً هذه الفوائد التى يلجأ إليها بعضُ الدارسين .

---

(١) المصدر السابق ص ٥٢ ـ ٥٨ .

(٢) المصدر السابق ص ٥٨ ـ ٦٢ .

وينتهى المؤلف بنبذة يسيرة عن «كيفية قراءة النص الشعرى» . ثم يأتى إلى تطبيقاته وتحليله للنصوص التى أَوردها كما بيّنا .

أقول : ألا نخرج بعد هذه المسيرة وفينا حاجَةٌ إلى معرفة هذا العلم الذى سلب علومًا عدة ، ومع ذلك لا نعرف منه ما يتصل به خاصة .

هذه فتنة المعاصرة التى لم نَهتدِ إلى الإفادة منها بحسب ما نحن فيه ، وما بنا حاجة إليه ، وما لا ينقض أصلاً من أصولنا . ولست فى هذا متعصبًا لواقع يفرض علينا أن نقول ما لا نؤمن به ؛ ذلك أن فى واقعنا فى العلوم الإنسانية ، ولا سيَّما اللغوية والأدبية ، أشياءَ كثيرةً لا نرضاها ولا نقبل قول الأقدمين فيها . ومن هنا كان علينا أن نعطيه حقه ؛ فلا نحمل عليه قدسية لا يملكها ، ولا ننكره ، ولا نغض الطرف عما به مما لا نرضاه فى عصرنا .

وقبول «التراث» بهذه الخصوصيات من العلم الجيد الذى نصبو إليه .

أَلَيْسَ مِن فتنة المعاصرة أن نقبل الأوهام والأباطيل مدفوعين بالتقليد الذى هبط علينا شراً مستطيرًا ؟ إن لم يكن هذا فكيف أقول فى كتاب هو :

الصورة فى الشعر العربى حتى آخر القرن الثانى الهجرى

دراسة فى أصولها وتطورها

صاحب الكتاب الدكتور على البطل .

حقاً إنه بَطَلٌ فى جرأته التى استوحاها من أساتيذ عرب فى مصر .

أراد مؤلف هذا الكتاب فى تحليله للشعر أن يَعقد صِلةً وثيقةً بينه وبين الأساطير القديمة التى عرفها العرب ، وتلك التى لم يعرفوها فى حياتهم . وعرض لنماذج عدة من الشعر ، ولنقفْ على أبيات لامرئ القيس هى :

ويا رُبَّ يوم ناعمٍ قد لهوتُه	بمُرْتجَّة الحاذَين ملتَفَّة الحشا
بَرَهْرَهَة كالشمس فى يوم ضحوها	تضىء ظلام البيت فى ليلة الدُّجَى
أسيلة مستَنّ الوشاح كأنما	تكسَّر فى أوراكها هابر النَّقا
مضمَّخَة الأردان سهل حديثها	لطيفة طىّ الكشح وَهْنانة الخُطا

أقول :

لا أريد أن أشرح الكلم في هذه الأبيات ، ولا أريد أن أشرح معانيها ، ولا أقول : «أحلِّلها» على طريقة أصحابنا الجدد ، ذلك أنها معروفة لدى أهل الجدّ والدرس .

ولكنى أشير إلى كلام «البطل» الأستاذ الذى ذهب إلى أن الأبيات تصوِّر تمثالاً من «فينوسات لوسيل»(كذا) .

غفر الله لك ، أيها البطل ، ما أجرأك!! لقد قلتَ قولاً إفكًا ، وتقوَّلتَ على امرئ القيس ما لم يقله ، وأَفسدتَ عليه «لهوه» .

أقول : هذه فتنة المعاصرة التى أفسدت علينا واقعنا . إن أصحابنا الجدد رأوا فى خُلُوِّ أدبنا القديم من الأساطير الوثنية ــ على النحو الذى يعرف لدى الإغريق والرومان وغيرهم ــ عيبًا .

وفاتهم أن للعرب معتقداتهم الوثنية ، وفى كتب الأصنام والأوابد بَسْطٌ لها . وقد أدّت بهم رؤيتهم هذه إلى اصطناع شىء هو الكذب عينه . وإنى لأجتزئ بما ذكرت عن كثير لا يخرج عن هذه الصنعة الفاسدة .

ضرب من التطور
فى الصحافة العربية

سأذهب إلى القول بالتطور ، ولا أجنح إلى النبز فأرمى جملة ما يثبت فى الصحف من وجوه القول بالخطأ ؛ ذلك أن هذا الذى يشقى به العاملون فى هذا الميدان عربية جديدةً . وإن هذه العربية قد اكتسبت الشيوع حتى راحت تغزو مساحات واسعة فى الذى يُقال والذى يُكتب . ولست بعيدًا عن هذا الذى تقرؤه فى الصحف وأنت تسمع المعربين فى البيت والمدرسة والجامعة والمسجد . ومِن ثَمّ فليس لك أن ترمى جملة هذا بـ « لغة الجرائد» .

وقد بدا لى أن أَعرض لطائفة مِن هذه النماذج اللغوية ، وما أرانى مستوفيًا أو قريبًا من هذا وأنا أبسط بين يدى القارئ هذا الموجز ، وقد جمعته مِن هنا وهناك من الصحف فى بلدان المشرق العربى . وقد خصصت المشرق العربى لأنى سأعود إلى شىء مثل هذا وقفت عليه فى صحافة بلدان المغرب العربى .

إن لغة الصحافة جديدة فى نظم جملها وتراكيبها ، وهى جديدة فى انصراف الكلم فيها إلى معانٍ جديدة تندرج فى المجازات الجديدة والمصطلح الجديد . ولكن هذه الجدّة تدخل فى باب الضعف وفساد التركيب وسوء الأبنية بسبب أن الذين شقوا بهذه الحرفة لم يكونوا على مقدرة من العربية . ثم إن جل هذه اللغة فى مصطلحاتها ومجازاتها وطريقة نظمها منقولة من اللغات ولا سيما الإنكليزية .

غير أن هذه اللغة تؤلف فى عصرنا ضربًا من العربية المعاصرة بدأ يتجاوز حدّ الصحف إلى غير ذلك من مجال القول ، فأنت تجد منها اليوم قليلاً أو كثيرًا لدى أهل ما يسمَّى بالعلوم الاجتماعية عامة كالجغرافية والتاريخ والاجتماع والاقتصاد وغير هذا . ولا نعدم أن نجد لمادة هذه اللغة حضورًا فى الأدب الجديد من شعر وقصة ونحو هذا .

وسيكون لى فى هذا الموجز أن أعرض لما وقفت عليه فى الصحف العربية فى بلدان المشرق العربى متخذًا من ذلك نماذج تشير إلى خصائص هذه اللغة الجديدة . ولا بد لى أن أقول : إنى لا أسعى فى عَرْضِى هذا إلى ما يذهب إليه أهل التصحيح اللغوى المعنيين بالصواب والخطأ الذين أخطَئوا السبيلَ وتعجَّلوا المسيرةَ فنَسبوا إلى الخطأ ما ليس منه ، وكان لهم فى سردهم لهذه المواد شىء من جديد يمكن أن يحمل على الخطأ

الذى باشَروه . وقد عرضت لطائفة من هذه المعجمات فوقفت فيها على ما يمكن أن يكون تجاوزًا للعربية .

ومن أجل هذا كان غرضى من هذا الاستقراء ، أن أثبت هذا الضرب الجديد من العربية مبتعدًا عن قصة التصحيح ومشيرًا إلى أن هذه العربية تؤلف نمطًا جديدًا لغويًا لعلّه سادَ وغلب وشاعَ حتى صار فى جملته عربية جديدة معاصرة . وسأذكر ما وقفت عليه ولا أسعى فيه إلى أن يكون لى فيه ترتيب خاص ، بل أقتصر على إثباته كما وقع لى شيئًا بعد شىء . وسأعلق على ما أذكره بالقدر الذى تقتضيه المناسبة فأقول : قرأت وأنا فى صنعاء صحفًا يمنية وأخرى مصرية ولبنانية وعراقية فوجدت فى بعضها مَن قال :

« . . . . فالدولة فى تعاملها مع مواطنيها على المستوى الداخلى أولاً ، وفى تعاملها مع الغير على المستوى الخارجى ، تسير . . . .

أقول : إن من خصائص هذه اللغة المتأثرة باللغات الأعجمية من إنكليزية أو غيرها ، طُولَ الجمل بحيث يأتى ما ندعوه المسند إليه فى ابتداء الكلام ، ولكنك لا تظفر بالمسند الذى يتم به المعنى إلا بعد كلام طويل ، وقد يتجاوز هذا المعترض فى طوله حدّاً يكاد القارئ فيه ينسى أولَ الجملة .

ثم إن «التعامل» مصدر الفعل «تعامل» قد استعير من حيز الاقتصاد فى دلالته فى البيع والشراء إلى هذا الحيز الجديد .

و«المستوى» وهو كلمة عربية قد وصلوا إليها لتؤدّى ما تؤديه كلمة أجنبية فى الإنكليزية أو الفرنسية بمعناها ، ووصف «المستوى» بالداخلى أو الخارجى كله مما يصادفه الذى يقرأ الصحف الأجنبية .

ولا أشير إلى «الغير» واقترانها بأداة التعريف ، فقد تجاوز هذا المنشئون منذ زمان طويل .

ومما قرأت أيضًا قول أحدهم ، والقول عام لاخاص فهو مما يتردد فى الصحف ، وهو : «على ضوء هذه النظرة المنطقية . . . . »

أقول : لا أتوقف فى استعمال حرف الجر «على» فأقول كما قال المصححون : إن الصواب هو استعمال «فى» ولكنى أقول إن استعمال «الضوء» فى هذا السياق أو فى قولهم : «إن إلقاء الضوء على هذه المسألة . . . .» جديدٌ مُستعارٌ مِن اللغات الأعجمية .

وقرأت أيضًا :

« . . . . . . وكما أشار الرئيس فلان إلى هذه «الإشكالية فإن أية دولة بمفردها مهما كانت لن تستطيع الوصول إلى تحقيق أهدافها الاقتصادية . . . .» .

أقول : إن «الإشكالية» مصدر صناعى أقيم على مصدر آخر للفعل «أشكَلَ» وهو «إشكال» ، وهذا المصدر الصناعى جديد فى العربية المعاصرة ، وقد شقى المعاصرون فى الوصول إليه ليكون مؤديًا ما يؤدّيه مثله فى اللغات الأعجمية ، وهو غير كلمة «مشكلة» بل إن فى «الإشكالية» شيئًا من «المشكلة» . ويراد بها ضَرْبٌ مِن الوضع فيه إشكال وفيه «وضع خاص» . وإنك لا تجد هذه «الإشكالية» فى العربية التى نعرفها قبل خمسين أو ثلاثين سنةً ؛ فهى جديدة .

أما استعمالهم «بمفردها» فمعناه «وحدَها» ؛ وهو من هذا الجديد الذى حفلت به العربية المعاصرة .

ثم إن ابتداء الكلام بـ«كما» يأتى بعدها جملة طويلة معلَّقة فى فهم المراد منها على كلام آخر مبدوءاً بقولهم : «فإن أيّة دولة . . . . » يُشعر القارئ أن القائل أراد بـ«كما» ما يراد من أدوات الشرط ، وأن الأسلوب شرطى . ومجىء الفاء يشعر بهذا . وليس هذا مما نعرفه فى العربية ، ولكنه جديد حفلت به العربية المعاصرة .

ومثله قولهم : « وعلى الرغم مما ورد . . . . فإن المقصود . . . . . .» .

وقرأت أيضًا :

« . . . . اعتقالات عشوائية بمدينة القدس عقب طعن مستوطن إسرائيلى» .

أقول : إن الوصف بـ «عشوائى وعشوائية» جديدٌ ، ومعناها معروف ؛ أى أن «الاعتقالات» جرت على غير قصدٍ ونظام ، وأن السلطات الإسرائيلية اعتقلت كلَّ مَن شُوهِد فى الحال ، لا يهمها أن يكون للمعتقل مشاركة فيما جرَى .

ومثل هذا قولهم : «لا بد من العمل للحدّ من الاستهلاك العشوائى . . .» .

ويراد بـ «الاستهلاك» الإنفاق الكثير ولا سيما ما كان من أجل الطعام والشراب وغير ذلك مما يدخل فى حاجات الناس ؛ كالاستهلاك للطاقة الكهربائية ونحو ذلك .

أقول : وجعل « الاستهلاك» منصرفًا إلى هذا يشير إلى تخصيص الإنفاق بدلالة اقتصادية معينة ، وهذا التخصيص عرفناه فى العربية المعاصرة .

ووصف «الاستهلاك» بـ «عشوائى» ؛ أى أن المستهلكين ومعهم الدولة لا يذهبون إلى تنظيمه وحصره فى نطاقٍ محدودٍ .

وهذا يعنى أن الوصف بـ«عشوائى» دلّ هذه الدلالة التى لا نعرفها إلا فى هذه العربية المعاصرة

ولا بد لنا أن نبسط القول على هذا الوصف ، وكيف اهتدى له المعاصرون ؛ فنقول : إن «عَشْواء» وصف مؤنث ، والمذكر «أَعْشَى» ودلالة «أعشى وعشواء» معروفة ، وهو سوء الإبصار أو ضعفه ، وهو « العَشا» بالقصر . وقد وردت الصفة «عشواء» فى بيت زهير بن أبى سلمى :

رأيتُ المنايا خَبْطَ عشواء مَن تُصِبْ تُمِتْه ومَن تُخطِئْ يُعَمَّرْ فيَهرمِ

أقول : «عشواء» هذه تشبث بها المعاصرون فاستعاروها وصرفوها على التوسع إلى ما أرادوا لإدراكهم أن «العشواء» تخبط على غير هدى .

وقرأت :

«جهود مكثّفة لتقييم نتائج الاستفتاء» .

أقول : «الجهود المكثّفة» هى الجهود الحثيثة المحصورة فى أمرها ، وهذه الصفة «مكثّفة» قد توُسِّع فى معناها ، والأصل أن الشىء الكثيف هو الثخين فى الجِرم والوزن ومنه جاء المصطلح العلمى «كثافة» وهو معروف فى علوم الطبيعة وغيرها .

وهذه الاستعارة ـ أو قل هذا التوسع فى الدلالة ـ جديدٌ اقتضته حاجة أهل العربية إليه .

ثم إن «التقييم» معناه تعيين قيمة الشىء ، وهذا المصدر للفعل «قيَّم» جديد ، وقد أخذ الفعل والمصدر من الاسم «قيمة» ، وتوهّم الآخذون أن الياء فى «قيمة» حرف أصلى ؛ فأثبتوه فى الفعل والمصدر .

وحقيقة اللفظ أن «قِيمة» وزان «فِعلة» فى الفعل «قام يقوم» ؛ والياء فيها من الواو ؛ ولذلك حين احتاج المعربون فى القرون التى خلت إلى حساب القيمة وضَبْطِها جعلوا الفعل مزيدًا وأثبتوا الواو فقالوا : قوَّم السلعة ؛ أى أعطاها قيمتها وسعرها .

على أن هذا قد هُجر فى الاستعمال فى عصرنا واستُبدل به «التقييم» فى المعنى نفسه ، وجُعل «التقويم» خاصاً بدلالة أخرى ، وكأنه بمعنى «التربية» يقال : تقويم

الأحداث . على أنك تجد «التقويم» مفيدًا شيئًا من معناه القديم ؛ كأن يقال : تقويم نتائج الامتحانات العامة .

وقرأت :

«إن المسئولين يعملون على تقديم الخدمات الأفضل للمواطنين» .

أقول : و«الأفضل» هنا «أفعل» للتفضيل ، وهى صفة للجمع «الخدمات» ، ولما كانت محلاّة بالألف واللام كان لنا أن نحملها على المطابقة فنقول : «الخدمات الفُضْلَى» . غير أن المعاصرين لايستشعرون معنى التفضيل فى «الفضلى والكبرى والعليا ونحو ذلك» ، وهم من أجل ذلك لا يُجرون حدّ التفضيل .

أقول : ومن هذا قولُ الكثيرين : «الدولتان الأعظم . . . » والصواب «الدولتان العظميان» ، فانظر كيف ننال من حدود العربية!!

وقرأت أيضًا :

«إن العاصمة الاقتصادية تتمتع بدورها الاقتصادى كمنطقة حرّة . . . .» .

أقول : إن «الدور» فى هذه الجملة قد دخل العربية المعاصرة وصار شيئًا من مادتها . ولم نعرف هذه الكلمة فى العربية التى عرفناها إلا منذ عدة عقود من السنين ، وقد جئنا بها فيما نترجمه من اللغات الغربية ، وأصلها شىء فى لغة أهل المَسْرح .

وأصل «الدور» فى العربية مصدر للفعل «دار» كالدوران .

ثم إن استعمال الكاف فى قول المحرر «كمنطقة» مأخوذٌ مما يقال ويكتب فى اللغات الغربية ، وهى ليست كافَ التشبيه فى العربية ، غير أنها دخلت هذه العربية المعاصرة وشاعَ استعمالُها .

وقرأت : «إن وزير الخارجية يتسلم رسالة من نظيره المصرى» .

أقول : إن استعمال المحرر لـ«نظير» مأخوذ من اللغات الأجنبية ، فالوزير المصرىّ لا يصحُّ أن نطلق عليه الوصف «نظير» ؛ لأنه يشغل هذا المنصب كالوزير اليمنى ، ولكنها اللغة الجديدة التى تنقل الذى يدور ويعرف فى اللغات الأجنبية .

وقرأت أيضًا :

« . . . . ضمن جولته الثالثة لمنطقة الشرق الأوسط ، «بيكر» (الوزير الأمريكى) بدأ أمس زيارته للسعودية» .

أقول : هذه لغة صحفية لا نعرفها فى العربية التى لا تجيز عَوْدَ الضمير على متأخر إلا فى سياقات خاصّة وردت فى بعض الشواهد الشعرية القديمة . غير أن هذا جائز فى اللغات الأعجمية ؛ فكان علينا أن نحمله على العربية ونهيّيء أذهان القراء وأذواقهم إلى تقبّل هذا الجديد المحمول إلينا .

ومثل هذا ما قرأت أيضًا :

«ناقلاً رسالة جوابية للأخ رئيس مجلس الرئاسة وزير الإسكان يعود من القاهرة» .

أقول : وهذه «الخلبطة» فى سوء النظم وفساد التركيب أَدْهَى وأَمَرُّ مما نحن فيه من أَمْرِ عود الضمير على ما هو متأخِّر فى البناء السليم من العربية ، وأنه «قرزمة» صحفية بل عَدْوَى داء حُملت إلينا .

وقرأت من نظائر هذا وأشباهه الكثيرَ من عبث الصحفيين بسماحة ، العربية وأنتهى منه بما أجتزئ فى هذا الموجز ؛ وهو :

«مبتدئًا أعمال الفترة الثالثة من الدورة الأولى . . . . السبت القادم مجلس النواب يناقش تقرير لجنة الحرّيات عن مشروع قانون الأحزاب . . .» .

أقول : لا أدرى كيف أقول فى عبارة لا أنت بالقادر على أن ترمّ بناءها ؛ فقد استهدم حتى بدا آيلاً إلى التدهور والسقوط . لقد مكر هؤلاء القائلون ، فهل أتى أهلُ العلم بنيانهم من القواعد؟ .

ثم إن هذه اللغة أقرّت الكلم الجديد فكان لنا أن ندرجه فى المعجم الجديد الذى لمّا نُباشِرْ منه شيئًا ومنه كلمة «مشروع» ؛ وهو مما قُوبل به المصطلح الأعجمى « Pro-jet» .

وقرأت قولهم :

«قافلة عسكرية أمريكية تدخل شمال العراق» .

أقول : و«القافلة» هى العائدة فى العربية ، وقد ذهب إلى التفاؤل بالخير ؛ فوصفوا الجماعة العائده التى لم تتعرض لأذًى فى رحلتها بـ «القافلة» . غير أن المعاصرين جهلوا هذه الخصوصية فى الدلالة فتوسعوا فيها بل قلبوا الكلمة إلى ضدها ؛ فهى لديهم الجماعة الذاهبة . ولا أعرض لـ «شمال العراق» فأقول : إن الشمال ومثله الجهات الأربع ينبغى أن تنسب عند الإضافة ؛ فقد قال أهل الفصاحة : شمالىّ العراق .

ومثل هذا قولهم :

«أبناء الجالية اليمنية يؤكدون حرصهم فى المملكة السعودية على أن يكونوا ممثلين لبلدهم» .

أقول : والجماعة اليمنية فى المملكة السعودية مِمَّن أقاموا فيها منذ سنين ؛ فهم الجماعة المستقرة ولم «يجلوا» عن المملكة السعودية ، فكيف يكونون جالية؟!!

وقرأت أيضًا : «إعداد ورقة عمل لما سيقوله الوفد فى ندوة الخبراء» .

أقول : و«ورقة عمل» هذه كثيرةُ الورود ، فاشيةٌ معروفةٌ ، وهى من الكلم الجديد الذى لا بد أن يندرج فى المعجم الجديد .

ومن هذه اللغة الجديدة ما نقرؤه كل يوم :

«البحث عن مصادر جديدة فى إطار الخطط والبرامج التنموية من إعطاء الأولوية للمشروعات الزراعية» .

أقول : قولهم : «فى إطار الخطط» من التعابير الجديدة التى تومئ إلى أصلها فى لغات أعجمية غربية فهى فى الفرنسية« dans le Cadre » .

إن «الإطار» معروف فى العربية وهو ما يؤطَر به أى يحيط بالشىء كإطار الغربال ونحو ذلك ، ثم استعير للصورة ، وللجداول ، وللإعلانات الرسمية .

وقولهم : «فى إطار» لا يشير إلى الظرفية المكانية ، ولكنه منقولٌ على هيئته فى اللغة التى نُقِل عنها .

ومثل هذه التعابير التى لاتشير إلى الظرفية استعمالُهم «من خلال» فى قولهم مثلاً : «وسيتحقق ذلك من خلال القيام بمشروع للرىّ واسع» .

وقولهم : «من خلال» يعنى «بما يقام من مشروع» فلو قالوا : «سيتحقق ذلك بالقيام بمشروع للرى» لأَوجزوا ولَوصلوا إلى ما أرادوا .

و«الباء» هنا للاستعانة وهذا معروفٌ . ولكن قولهم «من خلال» ترجمة لكلمة إنكليزية هى «Through» . ثم إن فى قولهم : «البرامج التنموية من إعطاء الأولوية ....» مجىء «التنموية» و«الأولوية» على النسب ، وقد كثر هذا النسب فى هذه اللغة الجديدة فقالوا : النظم التعبوية ، والحلول التصفوية ، وقد قالوا قبل ذلك : البرامج التربوية ،

واستعملوا النسب ، ولو أنهم عدلوا عن النسب إلى أسلوب الإضافة لأصابوا أكثر مما كان لهم كقولهم : برامج التنمية ونظم التعبئة وحلول التصفية . . . .» ، ثم صنعوا مصدرًا صناعيًا من اسم التفضيل «أولى» لفائدة مقتضاة جديدة .

وقرأت أيضًا :

«إن استخدام هذه الندوة لتنقية المياه من قبل الأهالى على مستوى فردى منذ قرون» .

أقول : و«الاستخدام» هنا بمعنى «الاستعمال» ، وقد ذهبوا بها هذا المذهب فى هذه اللغة الجديدة . وحقيقة «الاستخدام» غيرُ هذا ؛ يقال : استخدمت فلانًا ؛ بمعنى طلبت إليه أن يخدمنى .

وقد أرادوا بقولهم : «من قِبَل» ما يقال فى العربية : «من لدن . . . » .

وقرأت : « . . . . يُشكِّلون ٦ ٪ من الأمريكيين» .

أقول : وقولهم «يشكّلون» فِعْلٌ جديدٌ وهو المضاعف «شكّل» ، وليس فى مادة «شكل» فى العربية شىء يقرب من هذا ، ولكنهم أخذوه من «شكل» الكثيرة فى استعمال المعربين فى اللغة الدارجة وهى بمعنى «هيئة» أو «صورة» . ولو أنهم قالوا : «يؤلفون ٦ ٪ من الأمريكيين» لَكانوا فى مِلاك العربية .

وقرأت أيضًا :

« الناس الصبورون على الغلاء . . . .» .

أقول : والمسموع فى العربية أن الوصف على «فَعول» يأتى جمعه على «فُعُل» بضمتين ، قال تعالى : ﴿تلك الرسل فضّلنا بعضهم على بعض﴾ [1] . و«الرسل» جمع رسول ، وليس لنا أن نقول : رسولون ، وكذلك نقول : « صُبُر» ولا نقول : «صبورون» .

وقرأت أيضاً :

«وخلت البرامج الزراعية من أى تركيز على زراعة النخيل» .

أقول : وقولهم : «تركيز على» من الكلم الجديد ، وكأن «التركيز» قد عُدّى إلى

(١) ٢٥٣ سورة البقرة .

مدخوله بـ «على» ؛ لأنه أخذ من الفعل المجرّد «ركز» وهذا محتاج إلى الحرف «على» .

ثم إن «التركيز» من مصطلح أهل الكيمياء فى عصرنا ، والحامض المركّز لديهم هو الشديد الحموضة ، ودرجة التركيز شىء من هذا . وهذا كله جديد فى الصحف والكيمياء .

وقرأت أيضًا :

«قامت المؤسسة العامة للإذاعة والتليفزيون بإنزال مشروع «استبيان» خاص بالمشاهدين بغرض تقصّى آرائهم حول البرامج» .

أقول : و«الاستبيان» من الكلم الجديد ، وهو مصدر الفعل « استَبْيَنَ» الذى تحول فى العربية إلى «استبانَ» . وليس لنا إذاً «استبيان» لعدم وجود «استَبْيَنَ» ، ولكن أهل هذه العربية صاغوه ليأتى مقابلاً لـ « questionnaire» .

وقرأت :

«الجمعية العلمية تعرض استضافة أعضاء المؤتمر» .

أقول : و«الاستضافة» طلب الرجل من آخر أن ينزله لديه ضيفًا ؛ يقال : استضفته ؛ أى طلبت إليه أن أكون ضيفه ينزلنى عنده ، وليس هذا حاصلاً فى الاستعمال الجديد .

ثم إن «المؤتمر» من الكلم الجديد الذى ينبغى لنا أن ندرجه فى المعجم الجديد للعربية المعاصرة . وإذا عدنا إلى الفعل «إأْتَمَرَ» فى فصيح العربية فلا نجد شيئًا من دلالة «المؤتمر»[1] .

وقرأت :

«الدستور ما يزال فى حظيرة الإسلام» .

ومن دلالات «الحظيرة» ما يشير إلى أن من المناسب ألاّ تضاف إلى الإسلام .

وقرأت :

«انفتاح فى العلاقات الموريتانية السنغالية» .

أقول : و«الانفتاح» فى هذه العبارة يعنى «الانفراج» ، وهذا جديد يندرج فى باب

---

(١) قال تعالى : ﴿قال يا موسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك﴾ ٢٠ سورة القصص .

«تطور الدلالة» .

وقرأت أيضًا : «البرامج الشيّقة» .

وكأن «الشيق» هو «المشوّق» ، والصواب أنه «المشتاق» ، قال الشاعر :

مـــــا لاحَ بَرْقٌ أو تـرنَّـمَ طائرٌ إلاّ انثَنَيْتُ ولِى فـــؤادٌ شـــيّقُ

وقرأت :

«ليلة البارحة كنت وأحد أصحابى وتكلمنا فى حق الرأى والرأى الآخر» .

أقول : «البارحة» هى التى تصرمت وأعقبها الصباح ثم حلّت ليلة أخرى ، جاء فى المثل : «ما أشبه الليلة بالبارحهْ» .

وعلى هذا فعبارة الصحيفة بعيدة عن الصواب لأن «البارحة» فيها تعنى «أمس» . ثم إن فى العبارة شيئًا مِن سوء التركيب ؛ وهو أن العطف باسم ظاهر على ضمير المتكلم المعطوف عليه لا يكون إلا بعد توكيد الضمير المتصل بآخَرَ منفصل فيقال : «كنت أنا وأحد أصحابى . . .» .

ثم إن عبارة «الرأى والرأى الآخر» من الأساليب المنقولة إلى العربية . ولم نسمع بهذه العبارة ، ولم تظهر فى الصحف إلا منذ برهة[1] صغيرة لا تتجاوز عدة أشهر .

وقرأت أيضًا :

«أقرت حكومات أوربا الشرقية مبدأ «التعددية» اتباعًا للشرعية البرلمانية» .

أقول : إن «التعددية» و«الشرعية» من المصادر الصناعية الجديدة وقد شاعا منذ مدة غير طويلة فى الصحف . ويراد بـ «التعددية» تعدد الأحزاب السياسية ، ويراد بـ «الشرعية» اتباع القوانين ومبادئ العدل فى الحكم فى عامة المسائل التى تعرض لدى الحكومات .

ووصف«الشرعية» بـ «البرلمانية» يعنى أن الشرعية تأتى بموافقة أعضاء البرلمانات فى الدول ، وكذلك فى «مجلس الأمن» التابع للأمم المتحدة .

---

(١) دلالة «البرهة» هنا على الصواب ، وهى غير معناها لدى المعاصرين .

وكلمة «برلمان» ممّا عرب منذ زمان طويل .

وقرأت :

«الأمن الغذائى» .

والمراد به ما يتبع لدى الحكومات من وسائل لتأمين حاجة الشعوب من مواد الغذاء والطعام .

وقرأت أيضًا :

«الكابل البحرى» .

و«الكابل» يعنى السلك الذى يُمدّ فى البحر لغرض الاتصالات السلكية وغيرها ، وهو معرّب وأصله« cable» ، ولا أظنّة من «حبل» العربية .

وقرأت :

«ترشيد الاستهلاك»

وهذا يعنى أن ما يستهلك من الطعام والماء وسائر مواد الطاقة كالكهرباء والغاز ينبغى ألايفرَّط فيه ، والنتيجة تؤدى إلى تقليل «الاستهلاك» .

وهذا مصدر جديد فى بنائه ودلالته .

وقد كثرت المصادر على «تفعيل» للأغراض الجديدة فى لغة الصحف ؛ نحو : تشكيل الوزارة ، وتعديلها ، والمراد بـ «التشكيل» التأليف ، كما أن المراد بـ «التعديل» تغيير تأليفها بضم وزراء جُدُدٍ ، وإقالة آخرين .

وقرأت من هذه المصادر :

«تسريع عمليات الدمج» .

والمراد بـ «التسريع» الإسراع ، و«عمليات الدمج» يراد فيها الأعمال من أجل دمج بعض المؤسسات ونحوها .

وليس «التسريع» مما يخيل إلى القارئ أنه من الخطأ ، ولكنى لاحظت أن بناء «تفعيل» قد غلب فى المصادر فى العربية المعاصرة ؛ نحو : تصليح وتشجير وغيرهما .

وهم محايدون لا محايدين لا يشاركون فى مسائل تخص جملة المواطنين .

ومن هذه المصادر ما صار من المصطلح العلمى الخاص ، نحو : «تعويم العُمْلة» أى إنقاص قيمتها بالنسبة إلى عملة أخرى قويّة ، أو بالنسبة إلى سعر الذهب .

وقرأت :

«الإفراج على عدد المسجونين بأحكام قضائية» .

وتندرج هذه العبارة فى باب تجاوز استعمال حروف الجر لا على أساس من التضمين المعروف فى العربية ، بل إن ذلك التجاوز خطأ مَحْضٌ ، وهو هنا استعمال «على» والصواب استعمال «عن» .

وقرأت : «استمرار لجان القيد والتسجيل فى نشاطات الاستفتاء» .

أقول : و«القيد» فى هذه العبارة بمعنى «التسجيل» ؛ فلا حاجة أن يثبت «القيد» ويليه «التسجيل» ، وكلاهما بمعنًى فى هذه العبارة . ثم إن «القيد» فى فصيح العربية لا يعنى التسجيل ، ولكنه كذلك فى العامية الدارجة .

ثم إن جمع «نشاط» على «نشاطات» أو «أنشطة» يدخل فى باب جمع المصادر الذى شاع فى العربية المعاصرة بسبب ما ينقل من اللغات الأجنبية ؛ نحو : النجاحات والإنجازات ، والدفوعات ، والقبوضات (فى لغة المصارف) . وهذا كله جديدٌ شاع فى الحقب الأخيرة .

ولم يعرف جمع المصادر إلا فى أحوال صرف هذه الأبنية من المصدرية إلى الاسمية ؛ كما قالوا : الفتوحات والخصومات والنزاعات وغيرها .

وربما اندرج فى هذا ما ورد من قوله تعالى : ﴿فيهن خيرات حسان﴾ [1] .

وقرأت شيئًا فى لغة الصحف جاء من الألسن الدارجة ؛ ومنه قول أحدهم : «ردّيت عليه قائلاً» .

والصواب : «رددتُ عليه . .» .

وسأثبت شيئًا من مقالة موسومة بـ «كلمة الثورة» ، وهذه «الكلمة» تنشر كل يوم فى

(١) ٧٠ سورة الرحمن .

صحيفة «الثورة» اليمنية ، وكان لى وقفة على ما نشر فى ٣ / ٤/ ١٩٩١ جاء فيها :

«بالإضافة إلى أن الفترة الانتقالية هى فترة تستهدف إلغاء المؤسسات والقوانين الشطرية فى محاولة إعادة وبناء الهيكلية الواحدة وصياغة علاقات تكاملية وتلازمية لهذه المؤسسات ، إلا أنها أيضًا فترة تستدعى منّا اتباع أسلوب الشجاعة فى مواجهة التحديات والتغلب على الظروف الصعبة التى تعيشها دولة الوحدة على ساحة العمل السياسى والاقتصادى والاجتماعى ليست متطلبات عادية أو قضايا هامشية ، بل إنها تمثل محكًا أو اختبارًا لقدرتنا على إيجاد الحلول المناسبة لها دون أن تسمح لها بأن تحدّ من استمرارية تجذير مسار عملنا الوحدوى ، أو أن تتيح لها بأن تنحو بنا فى دوائر مغلقة من الاهتمامات الهامشية والاستثنائية غير المجدية . وفوق كل ذلك فإن الفترة الانتقالية لدولة الوحدة فرصة لإعادة ثقة المواطن بالكيان السياسى لدولته الواحدة» .

أقول : إن الجملة الأولى التى بُدئت بقول صاحب هذه «الكلمة» : «بالإضافة» لم نصل إلى المراد منها إلا بعد سطرين فى قوله : «إلا أنها . . .» . وهذا نمط مِن الجُمل التى تكثر فى لغة الصحافة ، وأكبر الظن أن ذلك بسبب تأثر هذه اللغة بما هو معمول به فى اللغات الأعجمية ، وليس هذا بالمقبول المعروف فى العربية .

وفى هذه العبارة الطويلة نجد «الفترة» التى تحوّلت مِن معناها ، وهو الانقطاع بين حقبتين أو بين أى شيئين يلى أحدهما الآخر ، إلى معنى الحقبة أو المدة .

قال تعالى : ﴿يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يُبيّن لكم على فترة من الرسل﴾[1] . وفى هذه الآية ورد معنى الانقطاع فى «فترة» ، وكذلك فى الفعل فى قوله تعالى : ﴿يسبحون الليل والنهار لا يفتُرون﴾[2] .

وأما «القوانين الشطرية» فلا يدركها إلا المقيم فى اليمن ، والمراد بـ «الشطرية» المنسوبة إلى «شطر» ؛ فتعنى القوانين التى كانت سائدة فى كل شطر من شطرى اليمن قبل «الوحدة» ؛ وهما الشمال والجنوب .

وأما «الهيكلية» فمصدر صناعى جديد أريد به البناء أو البنية ، وقد وصفت بـ «التكاملية» و«التلازمية» ، والمعنى أن كل جزء فيها يكمّل نظيره فى الشطر الآخر .

(١) ١٩ سورة المائدة .
(٢) ٢٠ سورة الأنبياء .

وقد شاع «التحدّى» و«التحدّيات» فى هذه العربية الجديدة ، والدلالة فيها تتجاوز معنى «وضع الحدّ» ، بل هو إلى إظهار الغلبة أَقربُ .

وجاء فيما نقلناه من هذه «الكلمة» : «الظروف الصعبة التى تعيشها دولة الوحدة» .

أقول : إن الفعل «عاش» يسند لِمَن يعيش من الإنسان والحيوان ؛ فأما إسنادها إلى غير هذا كأىّ شىء أو أىّ حال من الأحوال ، أو لِما ورد فى العبارة موضع الشاهد ، وفيها أن «الدوله تعيش» ؛ فليس من العربية ؛ ولكنه عرف فى هذه العربية المعاصرة التى تأخذ شيئًا من موادها واستعمالاتها من اللغات الأعجمية . ثم إن الفعل «عاش» قاصِرٌ لا يتطلّب مفعولاً به ، وأما ما ههنا فقد صير إليه من التأثر باللغة الأعجمية .

ثم إن «الظروف الصعبة تعيشها دولة الوحدة على ساحة العمل السياسى . . .» . أقول : «ساحة العمل السياسى» هو مما أخذته العربيةُ المعاصرةُ من اللغة الأعجمية . واستعمال «على» حرف الجر أفاد هنا الظرفية المكانية ، وهذه الإفادة صير إليها من التأثر باللغة الأعجمية أيضًا ؛ وذلك أن أكثر معانى «على» ، هو الاستعلاء ، وليس لنا تبيّن هذه الدلالة فى هذا الاستعمال .

ثم إننا نجد «قضايا هامشية» وهى التى لا تكون أساسية فهى خاصة بـ «الهامش» ، وهذا وصف جديد عرفناه فى عربيتنا المعاصرة .

وجاء فيها :

«دون أن نسمح لها بأن تحدّ من «استمرارية» . . . تجذير مسار عملنا الوحدوى . . .» . أقول : فى هذه العبارة جاء المصدر الصناعى «استمرارية» وهو جديد فى هذه العربية . وكأن «استمرار» لا يسد مسدّ «الاستمرارية» .

ثم إن «الاستمرارية» هذه أضيفت إلى «تجذير» وهو مصدر «جذّر» المضاعف ، وقد صار المعاصرون إلى هذا متأثرين بما يقابله أو يقرب منه فى اللغات الأعجمية . لقد ولّدوا الفعل من الاسم وهو «جذر» بكسر الجيم أو فتحها . والمراد من هذا المصدر الجديد معنى «التأصيل» أو «التأسيس» .

وجاء فى هذه العبارة وصف العمل بـ «الوحدوى» .

أقول : وهذا الوصف قد أُخذ من «وحدة» على طريق النسب . غير أنهم لم يقولوا : «وَحْدى» بل زادوا واوًا ليس من موجب صرفىّ لها . إننا ننسب إلى «وردة» فنقول : «وَرْدىّ» ولا نقول : «وَرْدوىّ» ، وكذلك إلى «وهدة» فنقول : ««وَهْدىّ» .

وجاء فى هذه الكلمة :

«ومن أجل تأكيد مثل هذه الحقائق فإن الحاجة ماسّةٌ لأن نعيد البناء الاقتصادى» .

أقول : إن استعمال «الفاء» فى قول المحرر «فإن الحاجة . . .» يشعر أنه حمل قوله : ومن «أجل تأكيد . . .» على أسلوب الشرط فجاءت الفاء فى الجواب .

وليس هذا من البناء السليم فى نظم الجملة العربية .

أقول : وهذا الضرب الذى تجاوز فيه المعربون حدودَ العربية نجده فى قولهم : «وبالرغم من جميع الصعوبات فإن الوصول إلى الحل ممكن . . . » .

على أننا نجد غير هذا مما حقُّه أن يُربَط بـ «فاء الجزاء» غير مربوط بها ؛ كقول صاحب هذه «الكلمة» :

«وإذا كانت القيادة قد اتخذت خلال الفترة المنصرمة العديد من الإجراءات . . . إلا أن المسئولية الوطنية تدفعنا إلى مطالبة الحكومة بالمزيد من المعالجات . . . .» .

أقول : حق «إذا» هنا أن يليها جوابٌ مرتبطٌ بالفاء ؛ لأنه لا يصلح أن يكون جوابًا ؛ فهو جملة اسمية ، والجواب فى حقيقته «فعل» . وأما مجىء «إلا» فغيرُ سديدٍ ، وليس الكلام فى حيّز الاستثناء .

و«الإجراءات» فى هذه العبارة ، وكذلك «المعالجات» وردتا جمعًا ، وهو من باب جمع المصدر الذى تحول إلى الاسم فى المعنى ، ولم يقصد به الحدث .

وجاء فى تكملة هذه العبارة : « . . . . . وبمشاركة مختلف القطاعات ومنها القطاع الخاص . . . .» .

أقول : و«القطاعات» و«القطاع الخاص» وكذلك «القطاع العام» من المصطلح العلمى فى علم الاقتصاد فى عصرنا .

وجاء فيها أيضًا :

« . . . . إن الدستور يطلق الطاقات الفردية بما يعود بالمردود الإيجابى على تطوير مستقبل الوطن . . . » .

أقول : إن «الطاقات» فى مواد العربية المعاصرة تجاوزت قليلاً معناها ؛ ذلك أن الطاقة مصدر الواحدة من مادة «طوق» أى الاستطاعة والقدرة . ولكنها هنا تجاوزت هذا .

وأعقب «الطاقات» مصطلح «المردود» ، وهو أكثر ما يتصل بالاقتصاد والنفقات ، وهو مترجم عن «Revenu» ومعناه أى ما يأتى من فائدة وربح .

وقد يكون لى أن أثبت هنا أن الجملة الجديدة فى هذه العربية أكثر ما ترد مبدوءةً بالاسم ثم يليلها الفعل ، وغلبة هذا الضرب من الجمل جاء من تأثر هذه العربية باللغات الأعجمية . ولى أن أستقرئ جملة مما يكتب فى الصحف ، ولا أقصد بهذا الاستقراء استيفاءَ ما كان من هذا ، وكثرته تدل على فشوّه وشيوعه ، وإليك نماذجَ من هذا :

١ ـ رئيس مجلس النواب يشارك . . . . . .

٢ ـ رئيس الوزارء يقدّم الخطّة . . . .

٣ ـ الوزير الأمريكى يصل دمشق . . . . . .

٤ ـ الرئيس يزور تركيا . . . .

٥ ـ اللجنة اليمنية تبدأ عملها . . . .

٦ ـ الرئيس يلتقى بأعضاء الوفد . . . . . .

٧ ـ المرحلة الأولى حقّقت النجاح المطلوب . . . .

٨ ـ الرئيس الفرنسى يصرِّح . . . .

٩ ـ بريطانيا تزيد إنتاجها . . . .

١٠ ـ وزارة الداخلية تحقق فى الجريمة . .

أقول : إن تقديم الاسم فى هذه الجمل لا يعنى أن ما يقدَّم يراد منه أنه مقصود بالعناية ونحو ذلك ، كما ذهب أهلُ البلاغة العربية ، بل أن ذلك هو السائد وليس غيره فى اللغات الأعجمية .

خاتمة :

هذا مجمل موجز عرضت فيه للعربية المعاصرة كما تبدو فى الصحف ، وهو فى الحقيقة يتجاوز هذا القدر ، ولكنى اجتزأت به لأشير إلى أنه من خصائص هذه العربية ، ولا أرمى من عَرْضى هذا إلى التنبيه على الخطأ والصواب .

أقول : وقد كان هذا من بعض ما بسطته فى «معجم العربية المعاصرة» .



حوار



حـــوار

أنا الديك ......

لعلكم جهلتم صياحى يا أهل هذا الحىّ أنا الديك ، إنى منذ أيام حللت هذه الديار ، بل جِيء بى إليها على كُرْهٍ .

أنا أصيح كل صباح فلا أسمع مَن يجيبنى مِن معشر الديكة . لقد علمت أن ليس للديكة من أسرتى مكان بينكم ، فأنا غريب الأهل واليد واللسان .

إن صاحبى هذا قد حَمَلنى وقذف بى هنا . إنه غريب مثلى رتّب حجارته العتيقة فجعلها بيتًا ، وهو يحرس هذا الذى يشاد وسيكون «الأبلق الفرد» .

إن هذا «الأبلق الفرد» ليس «تيماء منزله» ، ولكنه فى حىٍّ نفض عنه جلباب عروبته فصار يُدعى «جاردنز» ، ولا أعرف هذه العجمة .

لقد عنَّ لى أن أفيد من جارةٍ لى باسقة الفروع فسألتها فبعثت برسالتها قائلة :

أنا «النخلة» جارتك أبعث برسالتى إليك مع رفيقتى «الحمامة» التى تُجيد فَصيحَ الكلام فلا هى تنوح كما زعم القائل القديم :

أقول وقد ناحت بقربى حمامة ....

أقول أنا «النخلة» التى عرفت هذه الديار قبلك : إن هذا الحى الذى ألصقوا عليه اسم «الجاردنز» وهو برىء منه أرادوا به «الحدائق» الغُنّ ولا أقول «الغنّاء» كما تعلّمت فى أيام صباىَ . إن أهل هذه الديار ، وهم أهلنا ، تنكّروا «لأثْلتهم» فاستكثروا من هذا الدخيل الذى وجدوا فيه «أصالة» هذا العصر .

قال الديك : لقد سمعت بأخَرَة أن فى هذا الحىّ شارعًا عريضًا يتسم بالرفه والتأنق يُدعَى فى لسان ساقة سيارات الأجرة «شارع وصفى التل» ، ولا أدرى لِمَ عَزَف القوم عن صاحبنا «وصفى» هذا الذى أبى إلا أن يحمل اسم «التلّ» وفاءً «لأثلته» .

فقالت الحمامة : لا أعرف هذا «التلّ» ، ولكنى أجد فى شواهق هذه العمائر مع أمّى النخلة ملاذًا أنجو به من ظلم البشر .

قال الديك : كأن النخلة أدركت لُغاىَ ، فكان بيننا وصال أحسبه أغنانى عن مودة أهل هذه الديار الذين نسوا مودّة أسلافهم . إنى «أصيح» كل صباح وليس مِن سامعٍ كما كان عهدى بقومٍ مَضَوْا ، كان الحَدَث فيهم ينشد :

الصبح أعلن قربه والديك سبّح ربّه :

يا نائمين تَنَبّهوا وإلى الأمام إلى الأمامْ

قالت النخلة : وكان فى أدب عامّتهم مَن يقول : «الديك الفصيح من البيضة يصيح» . ولا أدرى لِمَ كان قول الراجز القديم :

* وزَقّتِ الديكُ بصوتٍ زَقّا *

قال الديك : أنا الديك ، وأنا صاحب القول وإن «شيطانى ذَكَر» ، وهذا ما صنعه أهل الصنعة مِن اللغويين الذين أنكروا فصاحتى فأعارونى «زَقَّ الدجاجة» ، وقالوا فى صنعتهم الرديئة :

أنَّثه (أى الراجز) إرادة الدجاجة لأن الديك دجاجة ! !

قالت النخلة : إنها صنعة رديئة فأنت «الديك» الفصيح ، وشيطانك ذَكَر ، وقد يكون لك أن تشكر صاحبنا الراجز أبا النجم العجلى ، وبينكم معشر «الديكة» وبين «بنى عجل» رَحِمٌ ووشائجُ موصولة ما أراها تتقطع ، وإنى لَواثقةٌ أنك تعرف صاحبك هذا «العجلىّ» القائل :

إنّى وكلُّ شاعرٍ من البَشَرْ

شيطانُه أُنثَى وشَيْطانى ذَكَرْ

قال الديك : أنا الديك صاحب القول الفصل ، وإنى كصاحبتك «جَهيزة» التى قيل فيها : «قطعت جَهيزة قولَ كلِّ خطيب» . غير أنك سعيت إلى أن يكون بيننا إخاء لا يعرفه أهلُ الزمان .

قالت النخلة : لقد تعلمت هذا وأنا أراقب نزيلتى الحمامة التى أمحضتها ودّى وبسطت لها عراجينى فمضت مطمئنة تعمر «بَيتَها» ولا أقول «وُكْنَتَها» . لقد رأيتها تحتضن بيضها ، وليست هى كتلك التى قيل فيها :

كتاركةٍ بَيْضَها فى العَراء ومُلحِفةٍ بَيْضَ أُخْرَى جَناحا

ورأيتها تتعهد صغارها بعد أن فقس البيض فتزقهُنّ ، ورأيتهنّ يَكَدْنَ يَطِرْنَ فرحًا إن أبصرنَها قادمةً إليهنّ بما يُؤكل أو يُشرب .

لقد تعلمت من هذه الحمامة درسًا هو أن بين الأحياء ممن خلقهم - تعالى - رحمًا موصولة ؛ فما بال بنى البشر قطعوها وجعلوها جذّاء؟ لقد أخطَئوا فى المثل فى قولهم : «أخرَق من حمامة»! .

قال الديك : وأقسم أنّكِ أحيَيْتِ منّى مَواتًا . لقد فقدت أسرتى غير صاحب مثواى غريب الدار . لقد فقدتُ «الدجاجة» التى كنت أقضى معها سحابة يومى وطرَفًا من ليلتى .

قالت النخلة : لك أن تقول ذلك ؛ فدجاجة اليوم فى عصرنا لا تنبس بشىء ؛ إنها صَمّاء بَكماء لا تتحرك . لقد حَكمَ عليها أهلُ الظلم من أبناء عصرنا أن تكون ذات سَمْن ولحم ، وكأنها أُعطِيَت «السُّمْنة» التى يدعونها Hormon ، فما غناؤك فيها؟ لقد جاءتك غريبة مزهوّة بلباس «أبيض» ألقى عليها سابغًا ، فأين لَبوسها القديم الأثيل؟ .

قال الديك : إنى لأحتسب خطبى إلى الله فى هذه «السُّمْنة» التى لُعِنَت فى الحديث الشريف :

« وَيْلٌ للمُسَمَّنات يوم القيامة من فَتْرةٍ فى العظام» .

قالت النخلة : وقد تَرَى صاحبتك قد حُملت إليك ذبيحةً ملفَّفةً بكيس جديد من بِدَع هذا العصر جىء بها من أمريكا أو فرنسا أو البرازيل فتكون بعض طعام أهل عصرنا . أأقول ما قاله حكيم المعرّة : «استضعفوكِ فذبحوكِ»؟

قال الديك : ومن أين أتِىَ بك أيتها الصديقة الغريبة النخلة ؟ .

قالت النخلة : لقد جىء بى من ركن بعيد كنت آوى فيه ، ولكنّى وجدت بينكم رحمًا موصولة من أسرة النخل وإن كنت غريبة ليس لى جود نخلتكم المِعْطاء ، وليس لى أن أخاطب سيدة من دياركم بما خاطب به ، جلّت ، كلمته العَذْراءَ البَتولَ :

﴿وهُزّى إليكِ بجذع النخلة تُساقِطْ عليك رُطَبًا جَنِياً﴾ .

أنّى لى هذا وليس من لقاح غبار الطلعة الكريمة يجتمع بنظيره من غبار «الفُحّال» فيكون منه ما تحمله العذوق والشماريخ ؟ .

قال الديك : كأنك عرفت ذَرءًا من أدب النخل وإنى لأظنك «مسلمة» أو ممن دَخَل الإسلامُ فى قلبك ، ومَثَلكِ كمثلى أنا الديك أسبِّح ربى وأدعوه أن يهدى مَن ضَلَّ عن سبيله من أهل هذا العصر .

قالت النخلة : وهل تطلب شفاءً لِمَرْضَى نخرهم الداء وعزّ الدواء ، وإن هى إلا بعض «أمارات الساعة» .

لقد قلتَ لى إنى حذقت شيئًا من أدب النخل ، وها أنا ذى أتلو قوله ـ تعالى ـ فأسعد بما فيه من أدبٍ عالٍ أفاد منه غير أهل عصرنا ، ومنه :

﴿ومن النخل من طَلْعها قِنوان دانية﴾ .

﴿والنخل باسقات لها طَلْع نضيد﴾

قال الديك : لقد أدركت أننا معشر الأحياء يجمع بيننا إخاء قديم ، وأنا أستظهر بقوله : ﴿والنجم والشجر يسجدان﴾ .

ولا تحسبى أن غير هذا كله بعيد فى حساب الحياة عما نحن فيه ، أَلَمْ تعلمى قوله تعالى :

﴿ثم استَوَى إلى السماء وهى دُخَانٌ فقال لها وللأرض ائتِيا طَوْعًا أو كَرْهًا قالتا أَتَيْنا طائِعينَ﴾ .

وقد يكون لى أن أَصحبكِ إلى صاحب مثواىَ هذا الذى نعمت بجوده وفضله ؛ فقد حبانى وأكرمنى على فقره وحاجته ، وهو يشارك فى عمارة هذا الأبلق الفرد ، ويسهر الليل حارسًا ، وكأنى حين أصيح كل صباح أراه معى يبدأ عمله وأذكر أنه قال لى :

إن فى تسبيحك أيها الديك رثاءً لِمَن برَّ فى عمله وفارق هذا العصر ، ولعنةً لهؤلاء الذين ضلّوا سواء السبيل .

فانبرى الرجل العامل يقول :

سمعت ما كان بينكما ، وأودّ أن أشارك معكما لأحيِّى مَن غبر عنّا وأَدَّى الأمانة ، فأسمعكم شيئًامن أدب الرحيل ، وهو قول صاحبنا «ذو الرمة» :

نظرْت إلى أظعان مىٍّ كأنّها ... ذُرى النخل أو أَثْلٌ تميل ذوائبهْ

أقول هذا ، وأنا غريب الدار ؛ لأشير إلى هذا الأدب الإنسانى الذى قلَّ أن نجد نظيره فى آداب الأمم الأخرى .

قال الديك : كأنك سيدى تشير إلى أن العصر قضى عليك أن تكون من الكادحين ، وقد كنت صاحب درس فى اللغات الأعجمية .

قال الرجل : أقصر عن هذا ولا تُثِرْ أو تُوقظ فىَّ شجونًا سعيتُ إلى طيّها .

قالت النخلة : الآن أدركت قول القائل :

وفتيانٍ كما النخْل
وما يُدريك بالدَّخْل

وكأن شاعركم أدرك ما بين النخل والأثل فكان فى هذا أدب إنسانى قديم .

قال الديك : لقد أدركت ما قيل من خبر صقر قريش وقد رأى بعضَ حواضر الأندلس ، وكأنه نظر النخلة فأومأت إليه فقال :

تبدّت لنا وَسْطَ الرُّصافة نَخْلةٌ   تناءَتْ بِغَرْب الأرض عن بَلَد النخْلِ

قال الرجل :

ولو عرفتم حديث نَخلَتَىْ حلوان فى عهد المنصور العباسى وما قيل فيهما لأدركتم البيان المشرق الذى أفدناه مما ظُنَّ فى الأثر الشريف :

«أوصيكم خيرًا بعمَّتكم النخلة» .

قالت النخلة : ألم أقل إليك صاحبى الديك المزهوّ بعُرْفه ونشاطه : إننا أسرة النخل أهلٌ ومَرْحب ، بيننا ما بيننا من أواصر موصولة ورَحِمٍ مبلولة .

وإنى لأرى بين الأثل والنخل نسبًا ؛ فالنخل ذو «أصل» مؤثَّل ، ومنه جاء الأصل والأصالة ، ولسموّ الأثلة واستوائها وحسن اعتدالها شبَّهوا المرأة بها ، ومثل هذا قولهم : غصن بان .

قال الرجل : لقد عرفت هذا الأدب فأيقنت أن «الغربة» تجمع الغُرَباء ، وأنا أقول الآن : طُوبَى للغُرَباء .

قال الديك : ألا تحدّثنا عن بعض ما نحن فيه من شئون أهل هذه الحياة؟ .

قالت النخلة : ألِى أن أقول : المرء قوىٌّ بأخيه؟ .

قال الرجل : لقد كان أهلنا ـ فيما غبر مِن أعصارٍ ـ يدركون الإخاء ، ويدركون ما اصطلحنا عليه فى عصرنا بالإنسانية . وإنى لأرى البدوىَّ القديم يخاطب جَمَله ويتخذه صديقًا ، يعرف من شئونه ما يعرفه من شئون الناس ، إنه يعرف صحّته ومرضه ويعرف ما يكون من ذلك من أثر فى سلوكه ؛ ألا تراه يقول :

شكا إلىَّ جَمَلى طولَ السُّرَى   يا جَمَلى ليس إلىَّ المُشْتَكَى

صَبْرًا جميلاً فكِلانا مُبْتَلَى

قال الديك : إنى لأظن أن صاحب مثواى ، وهو المُعدِم ، يعرف هذا الأدب الإنسانى ؛ فقد عرفه وعاش فيه .

قالت النخلة : لقد حدَّثَتنى رفيقى الديك عن مقولة قالها صاحب مثواك ؛ وهى قول القائل القديم :«فقد الإخوان غربة» .

قال الديك : إذا كان القدماء قد قالوا فى تجربتهم ما كان هذا فإنّى لأعلم أن من ضروب الغربة ما أومأ إليه أبو سليمان الخطّابى فى قوله :

وإنّى غَريبٌ بَيْنَ بُسْتٍ وأهْلِها   وإنْ كان فيها أُسْرتى وبها أهْلِى

وما غُرْبة الإنسان فى غربة النوى   ولكنها واللّهِ من عَدَم الشُّكْلِ

قال صاحب مثواى :

كان لى من هذا تجارب فأنا قلّما أحظَى بمَن يشاكلنى . لقد تقاطع الناس وتدابَروا وإن كنّا فى أى بَلَد ندعو غيرنا فى البَلَدِ الآخر «الأشقاء» وأننا «بُلدان شقيقة» .

قالت النخلة : ألم يكن هذا من «الشقاق»؟ .

قال الديك : صدق من قال :

إن كنتَ فى بلدٍ شقيقِ   ورَويتَ من «وادى العقيقِ»

فَلأنتَ أَضْيَعُ مَن تكونُ   وأنتَ فى «البلد الشقيقِ»

قال صاحب مثواى :

ولْنَعُدْ إلى ما كنّا فيه لنرى كيف تغيّرت بنا الحالُ ، لقد أحبَّ أسلافنا بيئتهم ، ومنحوها إنسانيتهم ؛ فكان لنا من ذلك ما لم يكن لغيرنا من الأمم فى أدب الرحيل .

قالت النخلة : كأنك تومئ إلى الناقة والجمل ، وهما «الإبل» التى قال فيها ربُّ الخَلْق أجمعين : ﴿ أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خُلقت ﴾ .

قال الديك : قد يكون لكِ أن تعجبى من الآية ، وأنتِ لست من أهل هذه الديار ، ولكن صاحب مثواى يدرك أفانينَ لا نعرفها .

فقال الرجل : لك أن تقول هذا صاحبى الديك ؛ فقد صحبتنى ، وسمعت من فوائدى ، وأنا أقول الآن :

لقد قرأ الدارسون شعر أبى الطيب ، ووقفوا على ميميته عائدًا من مصر وقد أصيب بحُمّى شديدة ، ولكنهم لم يفطنوا لغير حديثه عن «الحُمّى» التى قال فيها :

وزائرتِى كأنّ بها حَياءً فليس تزور إلاّ فى الظّلامِ

وعرضوا لما كان له من إجادة فى الحُمّى التى نزلت به .

قالت النخلة :كأن لك فيها شيئًا يتصل بـ «رواحله» . . . .

قال الرجل : كأنك وأنت الغريبة البعيدة على عِرقٍ بما يخصّنا نحن العرب .

قال الديك : وكيف كان هذا ؟ .

قال الرجل : قال أبو الطيب :

عيونُ رَواحلى إنْ حِرْتُ عَيْنِى وكُلُّ بُغامِ رازحةٍ بغامى

أتدرون ما البُغام ؟ .

قالت النخلة : أليس هو صوت «الرواحل»؟ .

قال الديك : نعم ، وهو صوت أحياء أخرى .

قال الرجل : والبغام صوت الظبية ، وإلى هذا أشار الشاعر القديم يصف مغنية حسنة الصنعة ولكنها ليست عربية فقال :

بأهلى مـا أَ لَذَّكِ عند نفـسى | لو انَّك بالكلام تُعـربينا
كـأنَّك ظبـيـةٌ مَضَغَت أراكـا | بوادى الجِزْع حين تُبَغِّمينا

قالت النخلة : إذا كان «البُغام» للظبية ، ثم كان للناقة ، فلعله كان لشىء آخر .

قال الديك : وكان لى أن حفظت فيما حفظت من فوائد صاحب مثواى أن «البغام» صوت البقرة فى قول لبيد يصف بقرة وحش :

خَنْساء ضَيَّعَتِ الفرير فلم يَرِمْ | عَرْضَ الشقائق طَوْفُها وبُغامُها

قال الرجل : لقد ذهبتم بعيدًا عما أردت فى قول أبى الطيب الذى نسب البُغام لناقته وله هو أيضًا ، وأراد أن يقول : إن «الحَيْرة» بَدَت فى «عيون رواحله» وإن بغامها ، وأراد صوتها عند تعبها الذى يخالف صوتها فى غير التعب ؛ هو «صوته» . أفكان لك أن تعجب وأنت تقرأ أدب أبى محسَّد كيف كان له من إخاءٍ مع راحلته !

قالت النخلة : ذلك ما سمعته عنك مما رواه صاحبى الديك ، وإلى هذا أشار التبريزى فى شرحه فقال :

«عيون رواحلى» تنوب عنِّى إذا ضللت أهتدى بها ، وصوته إذا احتَجْتُ إلى أن أصوِّت ، ليسمع الحىّ ، يقوم مقام صوتى .

قال الرجل : كأن التبريزىّ على عادة الشرّاح قد ذهب بعيدًا فى فهمه .

وقال الديك : لعل البغام ما أخبرنى عنه صاحب مثواى يفيد تقطيع الحنين وعدم مدّه ، وكأن هذا فى قول ذي الرمة :

لا يَنْعِش الطرفَ إلاّ ما تَخَوَّنه | داعٍ يناديه باسم الماء مبغومُ

قالت النخلة : لقد أفدنا من جمع هذا أن إنسانية الأحياء من الحيوان والنبات والشجر شىء مما حباه الإنسان القديم إلى شخوص بيئته ؛ فأنّى لنا هذا نحن أهل هذا العصر !!

قال الديك : وما زلتُ أطمع فى فوائد أخرى من صاحب مثواى . . . .

قال الرجل : لقد تقاطعنا وتدابَرنا ، ولا أرى فى جارى ، وهو مُقاربى ، ما يدفعه أو

يدفعنى إلى تحبّبه لأنّى مُزْوَرٌّ أبدًا قد وَرِمَ أنفُه ، ألا ترى أن أهلنا يأوون إلى مخادعهم فى هذه العمائر ، وكلّها «الأبلق الفرد» فهل فيهم حاجة أن يكونوا بعض شىءٍ منّى؟ .

قالت النخلة : أردت سُكنَى ما يُدعَى «الشقق السكنية المفروشة» .

قال الديك : أصبتِ ، وهذا هو السبب .

قال الرجل : إن «الشقّة السكنية» شىء استَحدثْناه من الكلمة الفرنسية appartement . لقد حُمِلت إلينا فيما حُمِل من مصطلح بغيضٍ فشاعَ .

قالت النخلة :

وما تقول فى جارك هذا الذى يزورك بين حين وآخر؟ .

قال الديك :

أهو الذى سعى مثلك إلى الحصول على «تصريح بالعمل»؟ .

قال الرجل : نعم ، لقد أدركت هذا ، وقد فرح صاحبى بما كان له ، وأقول : قال صاحبى : لو أنكم تعرفون شيئًا غير هذا لأدركتم أن صاحبى ممن عرف ما أنتم فيه ، وله مع نَخلة فارقها حديث ذو شجون ، لقد قال لى من حديثها ما رواه من قولها :

أمسَيتُ أضيَعَ ما أكونُ	فلقد دجا العصر الحزينُ
أنا نخلة الوادى فهل	وافاك من خطبى شجون ؟

وحسبكم هذان البيتان من شجون أخرى .

قالت النخلة : الآن وقد جئتَنا أيها الشيخ برفيقة صاحبك وسمعنا بعض حديثها جدّ لى ولصاحبى الديك الفصيح أن يفيد من حديث رفيقة صاحبك . وإنها أقرب إليكما منّى أنا البعيدة التى اجتُلبتُ إليكم من ركنٍ بعيد .

قال الديك : كأنك سيّدى صاحب مثواى قد اجتزأتَ بقليل مما لديك من حديث النخلة التى روت النبأ العظيم مما أسقطه الظالمون ، على نخيل الفاو وأبى الخصيب ، من وسائل الموت والفناء ، فأحرق العراجين والعثاكيل والعَواهنَ والسعف الذى يعلو شاهقًا تاجًا للنخلة ، فيا حَسرتى على ما كان وما جرى .

قال الرجل : حدثنى صاحبى قال :

كانت نخلة لى غرستها فى حديقة دارى فى بغداد قبل أكثر من ثلاثين سنة ونشأت وشَبَّت وربَت وآتت أكلها رُطَبًا جنياً . وكان لى أن فارقت بغداد إلى عمّان قبل أكثر من اثنى عشر عامًا ، وانقطعت عن الدار وما فيها ، وبقى لى من أمر «نخلتى» أثر أتصوّره على البعد .

وقد كنت بقرب هذه النخلة ليلة الثانى عشر من ربيع الأول سنة ١٤١٣ هـ وكان لى لقاء فيما يراه النائم من أطياف .

حدَّثتنى «نخلتى» طويلاً وشاركتها الحديث ، وكان من ذلك أن شكَت ظلم الزمن وفقر الأرض ، والعسف الذى لحق بها جرّاء ذلك ، وقد طمى الخطب وأجدبت الأرض ولحق بالنخلة وسائر الشجر وجمهرة كل حىّ عُسرٌ وبلاءٌ عظيمٌ . حدَّثتنى عن القوم الذين شملهم الخطب من أهل الفضل من المصطفَيْنَ الأخيار . . . .

أقول : هذا حديث صاحبى راويًا عن «نخلته» .

قالت النخلة السائلة : وماذا من أدب هذه النخلة الفصيحة ذات العراقة والأصالة؟ .

قال الرجل : أنشدَت النخلة العراقية المنكوبة :

أنا نخلة البَلَد الخصيب بَكَتْه من شَجْوٍ مَنونُ
فاستصرَخَت من جَدْب حاضرها السهولة والحزونُ
بينى وبين الأرضِ آصرة هى الحَبْل المتينُ
رَحِمٌ ألوذ بها وإنْ نال الحِمَى زَمَنٌ خئون
أنا «عمّة» المستَضعَفينَ كما رَوَى الأثر الأمينُ
إنّى لسيِّدة المكان الطُّهر والعِلْقُ الثمين
قد ضاقَ بى أهلٌ فهلاً ضاقت الأرض الحنون؟

. . . .

. . . .

قال الديك : أهذه «نخلة» صاحبك هذا سيّدى صاحب مثوايَ ، أم رمز على نحو ما يصنع الشعراء الأوائل كما أفادنا النقاد المحدثون؟ .

قالت النخلة : رفيقة حوارنا هذا :

دعك أيها الديك الفصيح عما قال هذا النفر الذى يسعى ليُحيل الكذب صدقًا والخيال واقعًا .

أكان «التين والزيتون» اللذان أقسَمَ بهما ربنا العظيم رمزًا كَذِبًا؟

قال الديك : معاذ الله أن أسعى إلى «قميصٍ بدمٍ كذبٍ» ، ولكنى أردت أن أميل إلى شىء من تأويل الأحلام .

قال الرجل :

لقد صدقت صاحبتنا النخلة الغريبة التى تشقى فى غربتها لولا ما يكون من عزاء يتعزّى به المغتربون وهم يتشبّثون بما ينال المكدودين فى كل مكان .

ولنأتِ لصاحبنا الديك وما عرض له من مسألة «الرمز» فأقول :

قد يكون لى ولغيرى ، ولا سيما الشعراء ، أن يذهبوا للرمز ، ولكن رمزهم ليس كذبًا أَفَتَرى الشريف الرضى يكذب ، وهو يقول :

مَن مُعيدٌ لىَ أيامى بجزْع السَّمُراتِ

وليالىَّ «بجَمْعٍ» ومِنًى والجَمَراتِ

أيُّها القانصُ ما أحسَنْتَ صيدَ الظَّبَيَاتِ

فاتَكَ السِّرْبُ وما زُوِّدْتَ غير الحَسَراتِ

لا : ما كان له فيما قال إلا أن يكون كغيره من الشعراء ؛ فهو فى رمزه هذا يعلم أن الصيد حرام فى «البيت» ، وهذا كما قال بشار : *كظِباء مكة صيدُهُنّ حرامُ* .

أقول هذا لعلمى بصلاح «الشريف» وتقواه .

قالت النخلة : صَدَقتَ سيدى الرجل : هذا هو الرمز الذى يشير إلى شىء تُزهَى به الأرضُ بما فيها من سَمُر ، وهو من رموز بلاد العرب ومثله الطَّلح ، وإن كان أمير الشعراء

قد أراد أن يغرسه فى الأندلس فى بكاء له ورثاء جميل قال فيه :

يا نائح الطَّلح أشــبــاهٌ عــوادينا نَشْـجَى لواديكَ أم تَشْـجَى لوادينا
مـاذا نقُصّ عليكم غـيـر أنّ يدًا قصَّت جناحَكَ جالتْ فى حواشينا

قال الديك : نعم هو «السَّمُر» الذى يصح أن نشير إليه بكينونته شجرًا ذا ظلّ ظليل . وليس كما قرأه أحد كبار الشعراء ، «السَّمَر» بفتحتين ، وهو يحيّى المعرّى : فى «عيده الألفى» مشيرًا إلى قول المعرّى :

يا ساهرَ البرق أيقِظْ راقِد السَّمُرِ تعلَّ بالجِزْع أعوانًا على السَّهَرِ

قال هذا الشاعر الكبير :

وسـاهر البرق والسُّمّار يُوقظهم بـالـجـــــزع ....

قال الرجل :

لا تلمِز شاعرنا الكبير هذا فقد غاب عنه «السَّمُر» من شجر الأعراب وذهب منه إلى «السَّمَر» فى دلالته المعروفة . وهو مثل الآخر ، الشاعر الكبير الذى قرأ «الأرِن» بمعنى النشيط من كرائم الخيل ، وجعله «الأَرَنّ» من الرنين .

قالت النخلة الغريبة : أفلا تُصلحون رسمكم للحروف وتثبتون ما تدعونه «حركات» فيتضح الأمر وينجلى الإغماض ؟ .

قال الرجل : وأعود إلى صاحبى وهو يروى ما سمعه من نخلته حين رآها طيفًا حبيبًا فقال : كأنى أجد هذه الرموز التى تصوّر ما هو كائن وأنا أتلو قوله ـ تباركت كلماته ـ فى وصف الجنّتَين فى أرض الجنّتين من مملكة سبأ فى سورة سبأ : ﴿لقد كان لسَبَإٍ فى مسكنهم آيةٌ جَنّتان عن يمين وشِمال كُلوا من رزق ربّكم واشكروا له بَلْدةٌ طيبةٌ وربٌّ غفور * فأعْرَضوا فأرسلنا عليهم سَيْلَ العَرِم وبدّلناهم بجَنّتَيْهم جنّتين ذواتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وأَثْلٍ وشىءٍ من سِدْرٍ قليلٍ﴾ .

قال الديك : كأنّ صاحبك سيدى يومئ إلى ما جرَى ....

قالت النخلة الغريبة :

ذلك حقٌّ فى قول الحق : ﴿فأوحَى إلى عبده ما أَوْحَى * ما كَذب الفؤاد ما رأى* أفتُمارونه على ما يَرَى * ولقد رآه نزلة أخرى عند سِدْرة المنتهى . . .﴾ .

قال الرجل : عُودا ، أنت أيتها النخلة البليغة ، وأنت أيها الديك الفصيح وأنشِدا ألحان الاغتراب وأنتما فى حىٍّ هو «الجاردنز» من أحياء عمّان فى الأردن ـ حرسها الله ـ وُسِمَ بالاغتراب فكان طابعًا رضيه أهلُه ، وفيه ما فيه ، ألم تقرأ مثلاً : «مُجمَّع الملك للّه التجارى» .

تعالى اللّه عما نأفك نحن أهل هذا العصر! أيحق لنا أن نجعل «الملك لله» شيئًا من عبثنا فننبزه بـ «التجارى» ، والتجارة فى عصرنا لا تأنف من الغشّ والخديعة .

إبراهيم السامرائى

حوار ....

حدَّث أبو الندى قال :

ما أحسبنى ، وقد هُرعت إلى مجلسك والليلة ، أشدَّ رغبة منى من ليالٍ خلت كنت فيها آتيك أشكوك بثى ، وأشركك فى أمرى ، وأطلعك على نجواى ؛ فقد عَزَب عنى لامح سرّائها ، وحَزبنى فادح ضرائها .

قلت : لقد عظم الخطب حتى صرتَ أنت ومثلك جمهرة الناشئة تحزبهم خطوبُ هذا العصر ، فهل لك أن تبثنى فتشرح صدرى بما كان ويكون ، وإن كنت لا أتوقع فيه بلسمًا لجرح ، وأنَّى لنا هذا ؟ .

قال أبو الندى :

حدَّثنى صاحبى النصرانى الذى ما فتئ يزورنى مساء كل يوم أحد ، وقد انقطع صحبى عنى فقال : لقد كربتنى صُوَر الديار وأنا أتبيّنها فى «شاشة التليفزيون» عرضت لسباقٍ فى الكرة بين فريق العراق وفريق دولة قطر . لقد أبصرت أنا وزوجى مشهد السباق وفيه شىء من رموز الديار ، فأبصرنا النخل الكئيب وألفاف الشجر ؛ فحزنت ولم يكن من صاحبتى إلاّ دمع سخين .

لقد أحزننى صاحبى بما حدَّثنى ، ورحتُ أستشعر أنّ العراق كئيب الليل ، وأن أهلنا فيه قد طحنتهم رَحَى حقبة شُغِل عنها العرب وغيرهم ، فمَن لهم!

قلت : لقد شَغَلت الناسَ أموالُهم وأهلوهم فمَن للمتعبين المكدودين ، ومن للطيّبين الأخيار الذى شقوا بهذا الذى يؤذيهم ليل نهار؟ .

وقد أخبرتَنى عن غيبة صحبك فأثرتَنى ودفعتَنى إلى أن أقول : أمسيتُ لا أرى أحدًا يطرق على الباب ممن عرفتُ إلاّ أن يأتى طالبًا حاجة من كتاب لى ؛ حتى إذا كان له ذلك غاب عنى كغيره الذين قد أراهم يلتمسون أن يتصلوا بجهاز الهاتف الذى فى دارى . وإنى لأَذكر نفرًا منهم لم يشأ أن يدخل الدار وألحَّ أن أسلّمه حاجته لدى الباب لينصرف ، فانظر ، رعاك الله ، كيف انتهينا قومًا آثروا القطيعة فابتعدوا وخفّوا إلى دنيا رضُوها متاعًا للغرور .

ثم إنّى لا أعجب أن يأتيك فلان النصرانى الذى ما زالت له نعمة مروءة لم تكن لدى أهلنا فى هذا العصر الذى تلقّفتهم فيه مُتَع ما أحسبها إلاّ فضول عيش . وكأنى أدركت من أمر صاحبك هذا أنه مزمع أن يلحق بمن آثروا الاغتراب فى دنيا جديدة هى أستراليا أو نيوزيلندة ، وكأنهم استبدلوا بالذى هو أسًى وعذاب ما هو خير ونعيم مقيم . لقد رضوا أن يكون من أمرهم ما كان من أمر أبى الطيب القائل :

* وكلُّ مكانٍ يُنبتُ العزَّ طيِّبُ *

قال صاحبى :

لا يذهبنَّ بك الظنُّ أن هؤلاء الذين أزمعوا على هجرة الدار قد آثروا الراحة ؛ فليس لهم فى غربتهم نعيم مقيم ، ولكنهم آثروا ركوبَ الصعب ؛ فما تقول فى أحد إخواننا ممن لقيت حين سمعت أنه يعتزم خَوْضَ الصعاب إلى أمريكا . سألته : أيفيد من ذهابه فى «تفرّغ علمى» زيادة معرفة؟ قال : لا ولكنى أذهب لأعمل فى حيّزٍ لأحد أقربائى يدعونه «سوپر ماركت» . فانظر أستاذى الجليل كيف استبدل هذا ما هو أدنى بالذى هو خير!! وقد علمت أنه ميسور الحال ؛ هو وزوجه يعملان ، ولهم أثاث ورياش منعّمون موفورون .

قلت : لا تعجب ؛ فعامّة قومنا قد ذهب عنهم ما ذهب عمن كان من أسلافنا ؛ فقد علمنا أن زياد بن منقذ من شعرائنا الأقدمين قد نزل صنعاء واستوبأها فتركها إلى أهله وبلده فى «وادى أُشَىّ» . لقد أعرب عن تجربته هذه فى أبيات هى خلاصة أدب إنسانى رفيع . وسأفضى إليك بشىء من هذا الأدب الذى بسطته فى كتابٍ لى .

قال صاحبى : وأعود إلى صاحبى النصرانى لأقول : إنه لم يكن من هذا اللفيف الذى أثر النفع ؛ فقد كان لهذا وَلَدٌ ظَلَمه معلّمه فى مادة «الدين» التى لا يعرف منها زادًا كافيًا لأنه غير مسلم ، وكان ينبغى أن يكون حساب خاص لهؤلاء الذين لم يكن لهم معرفة بالحدود التى تجب على المسلم . ولكن المعلم لم يكن له هذا ؛ فشقى التليمذ بشىءٍ لم يقصّر فيه ، وحُرِمَ وأُصِيب بالخيبة والحسرة ، وعَزَف عن الدرس ، وكان ما كان . وربّما ألحّ على أبويه أن يذهبا مذهب جارهم فلان وفلان . . .

قلت : لقد أذكرتَنى أننا خسرنا مروءتنا فأين نحن من الشريف الرضى ، وهو نقيب الطالبيين وإمام من أئمة الشيعة ، أمير الحج ، الشاعر المشهور الذى كان له مع صديقه

الحميم الأثير أبى إسحاق الصابى مكان أى مكان ، وهو صابئىٌّ بقى على دينه ولم يُسلم ، ولكن الشريف الرضى رأى فيه صنفًا من الرجال قلّ أن يجود الزمانُ بمثلهم ، وقد رثاه الشريف بقصيدة هى من فرائده قال فيها :

أرأيتَ مَن حَمَلوا على الأعوادِ أرأيتَ كيف خبا ضياء النادى
ما كنتُ أعلمُ قبل حطّكَ فى الثرى أنَّ الثــرى يعلو على الأطواد

ولو علمت أن الشريف قد مرَّ بقبره بعد سنوات وعاد يرثيه باكيًا أحرّ البكاء .

قال صاحبى : وقد يكون لى أن أضيف إلى مروءة الشريف الرضى شيئًا آخر يتصل بصلته بأبى الفتح عثمان بن جِنّى الذى أخذ الشريف عنه علم العربية . لقد وصلت بين الشاعر وشيخه ابن جنى مودّةٌ صميمةٌ ، فلمّا أنْ تُوفّى أبو الفتح سار الشريف فى جنازته وأنزله فى قبره بيديه وصلّى عليه .

والشريف هو الشريف بانتمائه ولقبه ، وأبو الفتح من عامة أهل السنّة ؛ فلينظر القوم فى عصرنا الذين شغلوا بالفتنة فكرهوا عَمْرًا لأنه سنّىّ على فضله ومكانته ، وقرّبوا زيدًا من الناس وهو غير مستحق لا يملك مروءة تدنيه من أهل الفضل .

قلت :

لم يَع أصحابنا هذه الدروس فيفيدوا عبرة ؛ لقد مسخوا فضاع الكثير فيهم من شمائل الإنسان . وكأنى أعود إلى ما عرضت له من أمر أبى الطيّب مخافة أن يذهب بك الظن أنه خلص إلى هذا الصنف من الناس الذين آثروا النعيم فأقول : لك أن تنظر إلى عتابه فى قوله :

كَفَى بك داءً أن ترى الموتَ شافيا وحَسْبُ المنايا أن يكنَّ أمانيا

وهو القائل يعاتب سيف الدولة الذى مدحه وأحبّه :

وما انتفاعُ أخى الدنيا بناظره إذا استَوَتْ عنده الأنوار والظُّلَمُ

قال صاحبى :

ما تفتأ أستاذى تسعفنى بزاد أفتقر إليه أشدّ الافتقار . وإنى لأحمد لصاحبى النصرانى الذى كان له من «سيدة» الشجر التى قيل فيها : «أوصيكم خيرًا بعمّتكم النخلة» ولاءً وانتماءً وهو يرى «سباق الكرة» بين العراق ودولة قطر .

لقد كان لى من حديثه أن ذكرت ما كان لك أستاذى من «حديث النخلة» الذى وعيته فيما يرى النائم وكان منه ما ترجمته أبياتًا عامرات :

أمسَيْت أضيَعَ ما أكونُ فلقد دجا العصرُ الحزينُ
أنا نخلة الوادى فهل وافاكَ من خطبى شجونُ
....
بينى وبين الأرض آصِرةٌ هى الحَبْلُ المتينُ
رَحِمٌ ألوذُ بها وإنْ نالَ الحِمَى زَمنٌ خئونُ
أنا عَمّةُ المُستَضْعَفِينَ كما رَوَى الأثرُ الأمينُ
....
....

قلت : أَقصِرْ ؛ فليس من سبيل إلى «نخلتى» ، وإنّى لأَتأسَّى بقول شاعر أصابته الغربة :

أَ زِيدَ فى الليل لَيْلُ أمْ سالَ بالصُّبْحِ سَيْلُ؟
ذَكَرتُ أهلَ دُجَيْلٍ وأينَ مِنّى دُجَيْلُ

وإلى لقاءٍ قريب .

إبراهيم السامرائى

حوار . . . .

حدَّث أبو الندى قال :

لقد فارقتك الليلة التى خلت ولم أكن قد استوفيت حاجتى ؛ فقد كنت أريد أن أبسط ما تحدَّث به نفر من صحبى عن إخوة لهم هجروا الديار إلى أقصى الغربة فشقوا أوّل مرة ، ثم كان لهم أن يوطّنوا أنفسهم فلقوا ضالّتهم وأصابوا ومنحوا «جنسيات» جديدة و«أجوزة سفر» .

قلت :

لا يَغُرَّنّك هذا الذى تربّعوا فيه فى سُرَّة دنيا ابتسمت لهم على ما رأوه وحسبوه . ولكنهم نسوا أن ما أصابوه ليس شيئًا ؛ فهم ما زالوا العناصر الغريبة التى لا يحفل بها أهلُ تلك الديار ، بل لا يعدونهم منهم . ألم يأتك نبأ المسلمين الأتراك وأصحابنا المغاربة الذين ركبوا الصعاب ثم كان مستقرهم فى ألمانيا وهولندة وغيرها ، وكثير منهم استبدلوا بجنسياتهم جنسيات فى هذه الديار ، ولكنهم لم يسعدوا بل كانوا فرائس العُداة الغربيين الذين رأوا فيهم أعداءهم بالأمس منذ أيام حملة الصليب قبل قرونٍ خلت ؛ فما الذى تعنيه جنسياتهم الجديدة ، وأين حقوق الإنسان؟ .

قال صاحبى :

وعَدِّ عن هذا كله واذهب إلى الأمريكيين الذين ما فتئوا ينادون بحقوق الإنسان وأين هى هذه إذا رأيت ما يعانيه السود الأمريكيون وبقايا الهنود الحمر الذين أطيح بهم ؟ إن عامة هؤلاء سبقوا الأمريكى الأبيض من شذّاذ الآفاق الذين تجمّعوا من كلّ حَدَبٍ وصَوْبٍ ، وعُدّوا أهل تلك الدنيا الجديدة .

قلت :

أَليس لى أن أقول فى أهل البوسنة والشيشان إنهم ضحايا التعصب الغربى المسيحى الذى استكثر أن يكون للمسلمين موضع فى ديار أحكمت الكنيسة قبضتها عليها ؛ فلم يكن للحبر الأعظم صاحب الفاتيكان أن يستنكر ما اقترف أصحاب كنيسته الذين ينادون بالمحبة والإخاء ؟ .

قال صاحبى :

غير أننا نحن المسلمين قد نجمت فينا جماعات كان لها من الإسلام «لبوس» و«رسوم» ، فعبثت وأساءت واعتدت وسفكت دماء أبرياء هنا وهناك ، فكان ذلك أن دعا الغرب إلى أن يتنادَى للوقوف إزاء الإرهاب الجديد فنسبوه إلى الإسلام ، ولم يكن له هذه الصفة ؛ ذلك أن الإسلام يحث على الخير والمعاملة بالحسنى ، وشواهدُ تاريخنا تثبت هذا . ويدرك أن له حدوده التى رُسمت له .

قال صاحبى :

لقد فاز بها فلان العراقىّ وفلان الشامىّ وفلان اليمنىّ ففاز كلٌّ منهم بالسهم الأخيَب .

قلت : وأى شىء بقى لنا مما تحبُّ أن تستوفيَه؟ .

قال صاحبى :

لا بد لى أن أبسط هنا أبياتك التى أشرت فيها إلى الطبيب الفلسطينى الذى لم يكن له أن يحظى بـ «الجنسية» التى حُمِل على طلبها ، وهى على لسانه :

أ أبتغى العيشَ بـ «جنْسيهْ»	عطريّة النفح «خليجيةْ»؟
أ أبتيغها طَلْقةً غَضَّةً	«نَجديَّة» العِرْق «كويتيَّهْ»؟
أ أبتغيها ، لا أُزهَى بِها	نقيَّةً فى الوَشْى «قطْريهْ»؟
أَصْحَرْتُ جَرّاها ، ومن همَّتى	أن أَلتَقيها وهى «بَحْريَّهْ»
خَطَبتُها ، و«المَهْرُ» قد هَدَّنى	والمَهْرُ قد يغلو لِزنْجيَّه
قد كان «مَهْرى» قبلها تُربةً	غَذَتْ عروقى وهى «قُدْسيَّهْ»
زَكَتْ جَنًى ، وقد سقاها دَمٌ	قد دِيفَ فى دَرِّ «عُروبيَّهْ»

* * * *

يا رفقةَ الأمس ، أَما نَفْحةٌ أَستَفُّ منها رَوْحَ «كَرْميَّهْ»
غُصِبْتُ أمسى واحتَجَنْتُ الشجا كأنَّنى حقَّقْتُ أُمنيَّهْ
عشرون عامًا وهى «مَهْرُ» الأَسَى فى خِدْمةٍ أمضَيتُ طِبّيَّهْ
أسلَفتُها ولم أَنَلْ مطلبى وهى لعمرى مِسْخُ «جنسيَّهْ»
هى المُنَى أكذَبُ ما نبتغى كأنّها فى الوَهْم جِنِّيَّهْ
يا قبَّح اللهُ منًى نَرتجى «فدِمْنَةٌ خضراءُ» مَشْنِيَّهْ
غريبةٌ عنّا ونعتامُها فإنْ لبسْناها فعاريَّهْ
وذيدَ عنّا ، والشَّجا غُصَّةٌ هذا الذى نرومُ « جِنْسيَّهْ»

* * * *

تقولُ «أمّ الخير» : لا أبتغى جنسيَّةً ليسَت «فلَسْطيَّهْ»
فقلتُ : كُفّى ، ويْكِ لم أقترفْ ذَنبًا ، فحالى غيرُ مَرْضيَّهْ
ألم تَرَىْ أنّى أخفى الضنَى ولم تَزَلْ رُوحىَ « قُدْسيَّهْ»؟

قلت :

دَعْ عنك وانظر ما يصنع أولو الأمر منّا هنا وهناك ؛ ألم يأتك النبأ العظيم الذى لحق بالفلسطينيين الذين أخرجوا من ديارهم بعد أن أخرجهم اليهود الذين هيّأ لهم الغرب وطنًا فى ديارنا؟ لقد تُرك هؤلاء الفلسطينيون فى الصحراء على الحددو المصرية فى خيامهم ، فأىّ محنةٍ هذه ، ونحن عامة العرب والمسلمين غَيْرُ مبالين ننظر الخطوب الدواهى غير مكترثين .

قال صاحبى :

لقد حدّثنى أحد الفلسطينيين فقال : كأنى رأيت فيما يرى النائم أن «الساعة» حلّت ، وحُشِر الناس فكان منهم أهل النعيم فى سُرر متقابلين ، وأهل الجحيم فى عذاب مقيم . ثم إنى لمحت حشدًا بين أولئك وأولئك ينتظرون رحمة الرحمن الرحيم ، قد

أفردوا فقيل لهم : أنتم الفلسطينيون انتظروا قليلاً لنُهيِّئ لكم «المخيّمات» . ثم أفقت من نومى فكيف أقول لأسرتى ولصحبى الذين تنكّرت لهم الأرضُ والسماء!!

قلت :

ولا تذهب بعيدًا ودونك ديارنا الجديدة الثريّة ـ حرسها الله ـ التى صارت تُدعَى «الخليجية» ومعها رقعة بلاد العرب فى شبه الجزيزة وأطرافها ، وانظر ما كتب للوافدين إلى هذه الدنيا التى أكرمها الله ففجّر فيها موارد دعيت «الذهب الأسود» ، وما كان لون السواد مما يأنس له العرب فى تاريخهم ، فكان من بركة هذه الديار أن نعم الوافدون إليها بالخير .

لقد علمت أن جمهرة الوافدين العرب إلى هذه الديار قد أفادوا وكسبوا ، وكانوا أهل جدٍّ وإحسان ، ولكنهم لم ينالوا ما يناله غير العرب ، والحديث فى هذا الأمر ذو شجون . ولا أريد أن أفصل القول فى هذا فالعبرة فى الخواتيم كما قيل .

قال صاحبى :

كأنى ، أستاذى الجليل ، قد قرأت لك أبياتًا قدّمت لها بشىء عن طبيب فلسطينى خَدَم فى أحد هذه البلدان «الخليجية» ما يقرب من ربع قرن ، ثم انتهى عمله ، فأراد أن يكتسب جنسية ذلك البلد ؛ لأن أبناءه كَبِروا وشبّوا وتزوّجوا هناك ، فسعى فى طلبه ولم يُفلح أن ينال هذه الحظوة .

قلت :

وقد فاتك أن تعلم أن هذه «الجنسية» هى غير جنسية أبناء البلد الأصلية . لقد قيل فيها : «ذات الدرجة الثانية» ، ولهذه حدودها ، وصاحبها يعرف!!

قلتُ :

وهل بعد هذا مما وافيتنى به من سؤال؟ .

قال صاحبى :

لى أن أعود إلى الأبيات فأسأل عن بعض رموزها؟ .

قلت : ما تفتأ تُعيدنا إلى الدرس اللغوى الذى فُتِنتَ بالوقوف على فرائده الفتية ، وهأنذا أبسط إليك ما أنت تتشوّف إليه فأقول :

«القِطرية» بكسر فسكون : ما عُرِف من النسب القديم إلى «قَطَر» التى هى دولة قطر فى عصرنا . قالوا : عبايَة قِطْرية .

أقول : هى عباية بالياء وليست بالهمزة كما فى عربيّتنا المعاصرة .

«البحرية» ما نُسب إلى «البحرين» ، وهذه النسبة تعنى الرجوع إلى الأصل وهو المفرد . وهى غير «البحرانى» و«البحرينى» فى النسبة الحديثة ، وأهل البحرين يُفرِّقون بينهما .

و«القدسية» ما نُسب إلى «القدس» ، وأريدُ بها فلسطين عامّة .

و«الفِلَسْطيّة» ما نسب إلى فلسطين . وكانت العرب أميل إلى الخفّة ؛ فقد وردت فى شعر أبى نواس فى نعت الخمر الخاصة بـ «فلسطين» .

و«الكرميّة» ما نسب إلى «طولكرم» من حواضر فلسطين . وأصل هذه «تل كِرم» أى «تلّ الكَرْم» ، ولكن العامة ذهبوا إلى الطاء ونسوا حقيقة الاسم .

وهذا مثل «تل أفيف» التى يحسبها العرب فى عصرنا إسرائيلية يهودية . إنها «تل أبيب» ، و«التل» معروف ، وأمّا «أبيب» فمعناها الكلأ فى العربية والعبرانية ، والكلمة جمع هُجِرَ فى العربية وبقى فى العبرانية תֵּל אָבִיב ، واليهود يحوّلون الباء إلى نطقٍ خفيف كالحرف (V) فى الإنكليزية .

قال صاحبى :

وإنى لأرى قوله تعالى : ﴿وفاكهةً وأبًا﴾ من هذا .

قلت :

نعم ، هو ذاك ، وبعد فهل لى أن استوفيتُ حاجتك ؟ وإلى لقاء قريب .

حوار ....

حدَّث أبو الندى قال :

كأنى أراك اليوم ، وقد ثقلت عليك وطاة السنين ، غَيْرَك بالأمس ؛ فما كنت أراك يومئذٍ محروبًا مكروبًا كحالك اليوم .

قلت :

كأنى أقول لك ما قاله الشريف الغرناطى لنفسه :

ومـــا ثقُلتْ كِـــبَـــرًا خطوتى ولكن جَـــرَرْتُ ورائِى السنينا

وخلِّ عنك حديث السنين وتوَخَّ حقيقة الخطب فى حديث الناس ، وأين ألقى ذاك الذى «جَبَّ الغيبة عن نفسه» فاكتسب رحمة الله لنفسه . غير أنى ألقى أهل الرأى قالوا بقول أبى الطيِّب :

خليلكَ أنت لا من قلت خِلِّى وإن كَـثُـر التـجـمُّلُ والكلامُ

قال أبو الندى :

كأنك تومىء إلى هؤلاء الذين كتب الله لك أن تكون منهم ، ولكنك لست منهم ، وقد نالك من سوئهم ما أنا به عليم ، وأنت كمَن قال :

ومـا سـاءنى إلاّ الذين عـرفـتُـهم جَزَى اللهُ خيرًا كلَّ مَن لستُ أعرفُ

قلت :

لقد أدركت أن خطبى أن أُحشَرَ مع هؤلاء الذين ليس لهم إلاّ بعض لقب حمل إليهم ما حمل من سوء فهم «الدكاترة» الذين لو سألتهم عن معنى «الدكتور» ما كان لديهم جواب . لقد زهوا بشىء لا يملكون منه إلاّ هذه الرسوم الزائلة : لقد أغرَى هذا اللقب السيئ جماعة ممن ساءت بضاعتهم ؛ فزعموا أنهم منهم ؛ فشمخ نفر بـ «الأستاذ الدكتور» وهم لا يملكون لا «الأستاذية» ولا «الدكترة» المزعومة .

قال أبو الندى :

لقد قيل : إنهم اشتروا بضاعتهم بثمن بَخْسٍ بالقياس إلى الثمن الربيح الذى هو العلم .

وقد قيل : إنهم زوّروا وأساءوا فكان لهم هذا اللقب ، ولم يعلموا أن «الأستاذ» قد أطلق تكريمًا للمملوك الذى أريد له ألاّ يشعر بمنزلته حقيقةً بين الناس .

قلتُ :

لا فُضّ فوك صاحبى أبا الندى ؛ فقد أشرت إلى الذى «ملأ الدنيا وشغل الناس» فى إحدى قصائده ؛ وهى البائية ، فى مدح كافور الإخشيدى .

وقد أومأت إلى فلان وفلان وغيرهما ، لقد كذبوا وادّعوا فقمّشوا مصنّفات ابتلى بها طلابهم وهم يدفعون ثمنها ، وربّما ذهبوا إلى الطريق السهل ؛ فعبثوا بكراريس دعوها بلغة أهل المطابع «ملازم» ، فأشاعوا «علم الملازم» ، أفما تعجب لهذا؟!!

قال أبو الندى :

وهل يجوز أن يتحوّل الأستاذ إلى بقال يسلخ جلود طلابه الفقراء فيما يكلفهم به من شراء «ألاعيبه»؟!!

قلت :

لا تعجل ؛ فقد كان من هذا وذاك ما هو أعظم ؛ فادعى بعضهم أنه البحر الطامى ، يحوى كل شىء ؛ فهو صاحب أغلب العلوم ، يعطى هؤلاء التربية وفنونها ، وهؤلاء العربية من أدب وبلاغة ونقد وفن فيشرف على رسائل فى هذه ، وهو لا يملك لنفسه العربية ، وهو يلقى فى جديد العلم الذى ذهب أهل الرأى فيه إلى الاجتماع فيحسب أنه «دركهايم» أو «جان پول سارتر» .

قال أبو الندى :

والذى يحزنك أن هذا ومعه غيره ، ولا أخصّ أحدًا بعينه بهذا السوء قد تظاهروا بلَبوس من إسلام هم منه براء بما كان منهم من سوء .

قلت :

لقد كان هذا أسلوب أهل عصرنا ؛ ألم تَرَ ما شاع فى دنيانا العربية من الابتكار الجديد فى السعى وراء الربح ؛ فكان لنا فى كل بلد كليات بل جامعات أهلية فتحت أبوابها فهرع إليها طلاب النفع يحصلون على «أوراقها» الكاذبة فى التخرّج؟ .

قال أبو الندى :

وقد تجاوزوا هذا فلم يكتفوا أن يكون لهم كليات فى العلوم الإنسانية ؛ بل تجاوزوا ذلك فكان لنا مما يدعَى جامعات وكليات فى التكنولوجيا ، وهم لا يملكون ملاك الأمر فيها . وانتهت بنا الحال إلى أن يكون لنا أسواق جديدة لبيع العلم . ولا أبرِّئ العاملين من الأساتذة من هذا اللعب الجديد فى «تسويق» العلم ؛ فهم المشاركون فى السوء ، فويل للمطفّفين الذين إذ اكتالوا على الناس يستوفون ، وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون .

قلت :

فأين نحن من عهد الأساتيذ الكرام الحفظة للعلم ومنزلته؟ لقد ذهب عصر أذكر من رموزه العالية الأستاذ طه الراوى رحمه الله .

لقد جاءنا ، ونحن طلبته ، ذات يوم فأقبل عليه أحدنا يسأله فخاطبه بقوله : «أستاذ» ، فبادر أستاذنا الجليل بقوله : «كفّوا عن هذا الكذب وهو يشير إلى كلمة «الأستاذ» لأن هذه بضاعة مزجاة قد أسىء فهمها .

قال أبو الندى :

لا بد أن كان للأستاذ الراوى ما جعله يذهب إلى ما ذهب إليه .

قلت :

نعم ، لقد كان شىء من هذا ؛ وهو أنه سمع مما أذيع من دار الإذاعة ، أن المذيع قد توجّه إلى سامعيه يخبرهم أنهم سيستمعون إلى تقاسيم على «القانون» من الأستاذ عزّورى ، وأغنية ريفية من الأستاذ حضيرى أبو عزيز . فعزَّ على الأستاذ الراوى ، ومعه أهل العلم ، أن يكون عزّورى وحضيرى من طائفتهم ؛ فكان للأستاذ الراوى وصحبه عزوف عن هذا اللقب الذى يستوى فيه الذين يعلمون والذين لا يعلمون .

قال أبو الندى :

وليت الأستاذ الرواى وصحبه قد أدركوا زماننا الذى مسخ فيه العلم ؛ فادّعاه كل زعنفةٍ لا يملك منه إلا الرسوم الكاذبة ، فكيف العمل وإلى أين المصير ؟!!

قلت :

خلٌ عنك ، وأقصر ؛ فلم يبق فى قوس الصبر منزع .

حوار . . . .

حدَّث أبو الندى قال :

كأنى لمحتك أمس متبئسًا ، وأنت قد اعتزلت جمهرة هؤلاء الذين شمخوا بـ«أستاذيّة» لم يملكوا أسبابها . وقد كان منّى مثل ما كان منك ، ولكنى تأسّيت بالشاعر الذى قال :

إنّى لأَفْتَح عَيْنِى حين أَفْتحها   على كثيرٍ ولكنْ لا أرى أَحَدا

قلت : هوّنْ عليك ؛ فقد ألفت هذا فرأيت عجبًا ؛ ألم أحدِّثك عما كان لى ، وأنا فى «معتَزَلى» فى مكتبة كلية الآداب ، من العجب؟ لقد جاءنى أحدهم قميئًا لا يكاد ينهض منه فوق الأرض إلاَّ جِرْم صغير قصير ، ولكنه يعالج ما هو فيه بلقب «الدكتور فلان» .

قال صاحبى :

أَفَلِى أن أتلو شيئًا سمعته من فرائدك فأفدت منه أى فائدة ؛ وهو قول الشاعر القديم :

أَكْنيهِ حين أُناديه لأُكْرِمَه   ولا أُلَقِّبُهُ والسَّوْأة اللقبا

قلت :

هذا بعض الفرائد من شواهد اللغة ، ولكن ألم تقرأ قوله تعالى : ﴿ولا تَلْمِزوا أنفسكم ولا تَنابَزوا بالألقاب﴾؟ .

قال صاحبى :

وعلى هذا كان «اللَّقَب» نبزًا وذمّاً فى الأغلب الأعمّ ، وإنْ صُرِف إلى المدح فى طائفة من ألفاظ الشهرة كالصادق والأمين والرشيد وغير ذلك؟!! .

قلت :

ومن هنا كانت الكنية تشريفًا وإعظامًا ؛ فقد كَنَى العرب الولد وهو طفل رضيع . وأنت صاحبى ما زلتَ على دأبك تصرفنى إلى «بُنَيّات الطريق» عما أنا فيه من جدٍّ يحزبنى ، أو خَطْبٍ يكربنى .

قال صاحبى :

أَفَلِى أن أعمل بالأثر الذى ورد فيه : «روِّحوا قلوبكم ساعة بعد ساعة فإنّ القلوبَ إذا كَلَّت عَمِيَت» .

قلت :

لك أن تذهب إلى هذا ، ولكنى ما أرانى إلا شقيّاً بما ثقلت على وطأته ؛ فأمر ذاك القميء يشغلنى ، وكيف كان له أن ينال من جامعة الأزهر هذة الدرجة التى يشمخ بها لأنه يحرص ألا يشار إليه إلا بلقب الدكتور فلان .

قال صاحبى :

ما أحسب أن إخواننا المصريين سعداء أن يتحوّل الأزهر الشريف من مركز للعلم عمرت به قرون إلى جامعة يشمخ فيها طلبتها ، وهم يعتمرون عمائمهم ، بالألقاب الجديدة التى أخذوها كما أخذها عامة العرب والمسلمين من النصارى .

قلت :

وإنى لأَعرف من هؤلاء الأزهريين الجدد مَن إذا ناديتَه بالشيخ فلان ابتأس وغضب ، وهو قد قال مَرّة : ألم أحصل على الدكتوراه كأصحابكم الذين علَوا بلقبهم ولم يشفع لهم علم يكون منهم فيما يحاضرون ويصنّفون !

قال صاحبى :

وكأن لقب الشيخ أمسى بِضاعةً قديمةً لا يحسب الناس حسابها ، وكأنّ عِمّة ذلك الشيخ حلية مضى زمانها فلم تكن لأصحابها إلاّ رسومًا خلت من مدلولاتها . إنها كالضمير المستتر الذى تخيّلَه أصحاب النحو فى قولهم : زيد سافَرَ .

قلت :

ما تنفك تلمز أساتذتك الذين أخذت عنهم النحو ، وما أراك إلاّ الوفىَّ الأمين .

قال صاحبى :

والله لن يكون منّى لَمْزٌ لمن أخذت عنهم حرفًا ، ولكنى أجتهد فيكون لى ما يكون .

قلت :

دعنا عن هذا كله ، واستمع لخبر هذا الذى لقيته فى مكتبة كلية الآداب . لقد جاء يبحث عن مصادر يجد فيها الشعر الذى قيل فى مطلع هذا القرن استنهض فيه أصحابه همم العرب فى دنياهم يدفعهونهم إلى الثورة على الحكم العثمانى ورموزه . وهو يريد أن يُصنِّف كتابًا يلتمس فيه أن يكون مادة للترقية إلى مرتبة أستاذ مساعد .

قال صاحبى :

وإنى لأعجب أن يجهل هذا هذه المصادر ، وهى قريبة مشهورة ما زال نفر من أصحابها أحياءً فى عصرنا .

قلت :

على رِسْلِكَ فستجد من أمر صاحبنا عَجبًا . لقد أشرت عليه أن يقرأ فى «تاريخ آداب اللغة العربية» لجرجى زيدان ما يتصل بهذه الحقبة من عصرنا فى أدب مصر وبلاد الشام والعراق .

كان فى يد صاحبى رقعة صغيرة فكتب فيها «جرج زيدان» ، وما إن لمحت هذا حتى انبريت له قائلاً : ومَن «جرج زيدان» هذا ؟ فقال لى : هذا الذى ذكرته أنت .

قال صاحبى :

إنه لأمر عجب أن يجهل مصرىّ فى الداسات الأدبية ، وفى «الأزهر الشريف» جرجى زيدان الذى شغل مكانًا أى مكان فى نهضة مصر الأدبية . وما كنت أعلم أن أحدًا يُنسَب إلى هذا الدرس يجهل صاحب «تاريخ التمدن الإسلامى» ، والروايات الأدبية التاريخية مثل : غادة كربلاء ، وعذراء قريش ، والعبّاسة أخت الرشيد وغير هذا . وكيف لأىّ مصرى مهما كان تعلّمه أن يجهل منشئ مجلة الهلال وما يلحق بها من مجلات أخرى؟!!

قلتُ :

لا تعجب أن يكون ما كان ؛ فأمر أهل عصرنا غَريبٌ ؛ لقد تعجّلوا الطريق وتجاوزا السُّبُل وجاروا عن السَّنَن .

لقد كان لى مع هذا أن قطعت الوصل ، ونصحته أن يذهب فيستأنف طريقًا فى التعلّم غير الذى كان منه فنال اللقب الذى ما أظنّه إلا نبزًا ينأى عنه أهلُ العلم .

قال صاحبى :

وليس هذا بدعًا بين حملة الألقاب فى عصرنا ؛ فقد نُمِىَ إلىَّ أن كثيرًا منهم نالوا ألقابهم فزهوا بها ووصلوا إلى مراكز تصرَّفوا فيها بمصاير الناس . لقد حصل نفر منهم على بغيته وهو متقدِّم بمكانته من الحزب العلىّ الذى يحكم الخلق ، كما حصل نفر آخر بوسائل أخرى بعيدة عن العلم اكتسب فيها رضى المشرف على رسالته وزمرة المناقشين بما قدم من هدايا هنا وهناك .

قلت :

حسبك أن تذهب إلى هذا ؛ فالسوء لا يخص بلدًا من بلداننا ؛ فهو عامّ ، ولكنى أثق بما بقى لنا من رموز الخير الذين تأبى مروآتهم أن ينزلوا فى هذا المنزلق الدنىء ، وكأنى شعرت أنك قد خصصت هذا السوء بقومنا فى ديار العرب والمسلمين ، وما أظنك على حَقٍّ فى هذا . لقد قيل إن أهل السوء من طلبتنا حاولوا أن يلعبوا هذه اللعبة فى غير بلاد المسلمين وأفلحوا فى مساعيهم ، ولكنى أتلو قوله تعالى : ﴿فأمّا الزَّبَدُ فيذهب جُفاءً وأمّا ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض﴾ .

حوار ....

حدّث أبو الندى قال :

لقد ثقلت عليّ رحلة الصيف التى اعتزمت على تحمّل خطبها كل عام ، فأنقطع عنك فأحتمل هذه القطيعة بعيدًا عن الدنيا والناس . وإنك فيها تذهب إلى عمّان حاضرة الأردن ، وما أراك إلا مضطراً على ركوب الصعب .

قلت :

لقد قيل : إن السفر قطعة من عذاب ، وأنا قد أقول مثل هذا : إن السفر قطعة من سَقَر ، وما أرانى مدفوعًا إلى شىء من العناية باللفظ ؛ فقد لقيت فى سفرى نَصَبًا ولكنى أعود إليه اضطرارًا .

قال أبو الندى :

وقد يكون لعامّة أهل العراق هذا ؛ فأنتَ منذ خمس سنوات مبغّض مرفوض لدى السفارات الأجنبية بسبب ما جرى لنا وللعرب عامّة فى دنيا الخليج ؛ فقد وقعت الواقعة وزلزلت الأرض وتبدلّت الدنيا ، وتبدّل معها الناس .

قلت :

دع عنك السفارات الأجنبية ، ودونك هذه الديار العربية والإسلامية التى لا يجد العراقى مكانًا فيها ؛ فلا يمنح تأشيرة الدخول إلى هذه البلدان التى ندعوها «شقيقة» فليس لنا إلا أن نذهب إلى الأردنّ واليمن وليبيا . ولا تحسب أن الإقامة فى هذه الديار مأمونة مضمونة ؛ فأنت فيها ضيِّق بنفسك إن أردت أن تجد ركنًا ضيقًا تكسب فيه قوت يومك .

قال أبو الندى :

لقد سمعت من أحاديث قومنا الذين نفروا إلى هذه الديار يبتغون الوسيلة فيها كل عجيب ؛ فما استقامت لهم طريقة ، وقد ثقلت وطأتهم على أهل هذه الديار فقال بعض أصحابنا :

مضى صديقى وعادَه بَرَمُ ... مما دَهانى فى شدّتى ضَرَمُ
فأين ألقى الشقيق أعتبه؟ ... حديث هذا خرافة زعموا

قلت :

دَعْك من نجوى كَفرَ بها أهل عصرنا ، ولا يغلبنّك ما أنت فيه من وشائج الرحم ؛ فقد آثر القومُ القطيعةَ وفقدوا نِعمةَ التواصل ، وهُرِع كل إلى منافعه يستمرئ دنياه لبنًا وعسلاً . فأين يكون الصديق وما معنى هذه الفرائد اللغوية التى استحدثناها ولا نؤمن بها ؛ فالبلدان الشقيقة قوم خصمون ينظر أهلُها أعداءَهم يدخلون ديارهم فلا يبتئسون ، ولكنهم يبتئسون من هذا الذى لا يرون فيه إلاّ سَقَطَ المتاع ، وإن كان فيه الخير كل الخير .

قال أبو الندى :

لقد شغلنا بما أصابنا من خطوب عن أشياء كثيرة كنا فيها نفىء إلى ما جُبلنا عليه من حبٍّ لمعرفة نتزوّد منها زادًا قلّ أن يدركه كثير منا .

قلت :

إن القاصد لهذه الديار التى آوتنا لم يكن له إلا أن يكون مع دهماء الناس الذين لايدركون الخطب ؛ فأنت تواجه السوقة من صاحب المتجر ، وصاحب الخان الذى تحمل نفسك أن يكون لك مكان فى ركنٍ منه ، وقد تكون فى حجرة فيها نفر لا تلقى معهم إلا الشّيْنَ ، ولكن كيف العمل؟!!

وإن كنت تطيق السكنى فيما يدعى «الشقق المفروشة» فستَلقى أصحابها قومًا غلاظًا شدادًا أولى دهاء ومكر . لقد فرضوا عليك سوءهم ؛ لأنهم حسبوك بقرة يتحلّبون عصارتها فكان منهم عسير صَعب .

قال أبو الندى :

وهذا يعنى ألا يُتاح لهذا القادم المنكوب إلا أن يعرف هؤلاء فينأى عن الطيبين فى كل مكان . وإنى لأدرك أن لك أصحابًا من الأخيار ، فهل كان لك وإيّاهم بعض آنسةٍ تبتعد فيها عن هؤلاء الأغتام الطغام ؟ .

قلت :

لقد حمل علينا عصرُنا هذا صنوف الضيم ؛ فقد شُغِل كلٌّ من أصحابنا بما يحزبه من خطوب ، فأنّى لنا أن نجد الظلّ الوارف فى ركنٍ منه نتحامى فيه وقدة كان لنا أن يَصلاها الأشقى الذى دفع إلى النار الكبرى .

قال أبو الندى :

لكنك لا بد أن توجهت إلى الجامعة الأردنية ومكتبتها ؛ فلك فى كلية الآداب إخوة بل «زملاء» كما يقال الآن .

قلت :

لقد كان لى أن أذهب إلى مكتبة الجامعة لحاجة لى ، ولكنى لم أَرَ أصحابى ؛ فقد قلت لك إن الناس قد شغلتهم شئونهم ؛ فليس بهم حاجة أن يشقوا بهذا الذى هبط عليهم يحسبونه من الوافدين الذين جاءوا يبتغون لهم حاشيةً من العيش يعافها الكثيرون الذين ألفوا الجديد من سبل العيش ، ولكنى أحتفظ لنفر قليل أولى مروءة .

قال أبو الندى :

ولكنى أعرف أن لك فى المجمع الأردنى نفرًا أولى قدرٍ علىٍّ لابد أن يكون لك وإياهم ساعات مفيدة .

قلت :

نعم ، لقد سعدت بما كان لى من فوائد فى المجمع الذى كنت أقصده مرّتَين أو ثلاثًا فى كل أسبوع ، فأخلد فيه إلى المكتبة أتزوّد مما أراه فيها من جديد من الكتب والمجلات . وكنت قد حملت معى بعض ما لم أنجزه وأتمّه وأنا فى صنعاء التى تفتقر خزائنها لكثير مما نشر فى سنوات عدّة . ورحت أشتغل فى مكتبة الجامعة الأردنية ومكتبة مجمع اللغة العربية . واستعنت فيما أنا فيه على الابتعاد عن دنيا السوق .

قال أبو الندى :

وماذا كان لك مع أصحاب دور النشر ؟ .

قلت :

لا تحسب أنى سأحمل عليهم ؛ فقد تعبت وليس فى طوقى أن أدخل فى معارك لا أخرج منها إلاّ مغلوبًا ، ولكنى عدلت عن هذا فأدركت أن الدنيا لم تخلُ من بعض بقية من أولى الخير . وإنك فى عالم النشر قد تلقى بعض هؤلاء ؛ فكان لى أن رغبت فى صحبة نفر منهم فى عمّان وآخرين فى بيروت ، حفظوا العهد وصانوا الأمانة ؛ فنلت منهم ما أرجوه .

قال أبو الندى :

أذكر أني كنت قد قرأت لك شيئًا عن الذين أتوا إلى هذه الصنعة التى كانت مما يتصل بأهل المروءة ثم تحولّت بيد الذين استحلّوا الحرام فسطوا على حقوق الناس، وكنت قد بسطت من سوء هؤلاء العجب العجاب . أفكان لك بعض ما جدّ من سوءتهم؟ .

قلت :

دعك من هذا ؛ فما أرى فيّ حاجة إلى أن أعود إليه ؛ فقد أوذيت وما أرانى إلاّ أن أنشد قول الشاعر القديم :

قد يتركُ الدهرُ فى خَلْقاءَ راسيةٍ وَهْيًا ويُنْزل منها الأعصَمَ الصَّدَعا

قال أبو الندى :

وكأنى لم أَستوفِ ما أنا مفتقر إليه أشدّ الافتقار ، وإنى لأَستظهر بقول أبى الطيّب :

وفى النفس حاجاتٌ وفيك فَطانةٌ سكوتى جوابٌ عندها وخطابُ

قلت :

كأنى مضطرٌ ألاّ أكون جوادًا كعهدك بى ، ولم يكن لى شىء أضنّ به عنك ، ولكنها الأيام حملتنى إلى هذا الذى اضطُررتُ عليه وحُمِلت عليه حملاً ، ولست منه . لقد شقيت فى رحلة العذاب هذه ، ولقيت ممّا كان لى مما لا أبوح به لأنى لا أريد أن أبسط شيئًا يضيق له صدرك ، فدعك عن هذا .

وإنى لَسعيدٌ بك فى صحبةٍ لا أملك غيرها فى دنيايَ التى أريد لها أن تُمسك دَرّها عنّى ، فهل لى غد آمله وقد نيّفت على السبعين؟ .

مما أستدرك به من سيرتى [١]

قال صاحبى :

لقد كان لى أن توقّفت وإياك فى صنعاء ولكنّى علمت أنك هَجَرتَ أرضَ «الجنتين» وعدتَ إلى عمّان ، فكيف كان ما كان ؟ .

قلتُ :

لا عليك ، كأنك سعيت إلى استثارتى فى إشارتك إلى «الجنتين» لقد كان للعصور ما كان فى كلٍّ من بلاد العرب ، فأين ما ازدهرت فيه بغداد ودمشق والقاهرة والقيروان وسوى هذا . وكأنّى بك تدرك أن إنسان الأمس قد خلفته أجيال تحدّر إليهم كما قال أهل العلم أجناسٌ فى خلائق أشبه بالقردة من الإنسان .

قال صاحبى :

كأنك تقول إننا قد مُسخنا «قِرَدةً خاسئين» بقول العلىّ الأعلى فى قرآنه المجيد : ﴿فلمّا عَتَوا عمّا نُهُوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين﴾ .

قلت :

لا تعجلْ «فرُبَّ عجلةٍ تَهَبُ رَيْثاً» ، وها أنا يا صاحبى وأثيرى أقول لك : إننا بعضُ مَن كفر بأنعُم الله فكان لنا ما كان .

ها هى ذى اليمن التى أطلق عليها هيرودوتس ومَن خلفه : اليمن السعيدة Felixe ، ولكن أية «سعادة» بقيت! لقد كان لنا يمن كأنما نسيه أهلُ العالم الجديد ومعهم العرب ، هذا اليمن ما زال قابعًا فى طرف من أطراف الدنيا فى القرون الأولى ، ولم يَسْعَ الواعون من أبنائه أن يحرّكوه ، وليس فى طوقهم ذلك .

قال صاحبى :

كأنى أتلو قوله سبحانه :

---

(١) كنت قد كتبت سيرتى فى كتاب دعوته : من حديث السنين .

﴿لقد كان لسَبَإٍ فى مسكنهم آية جنَّتان عن يمينٍ وشمال كُلوا من رزق ربِّكم واشكروا له بلدةٌ طيّبة وربٌّ غفور * فأعرَضُوا فأرسلنا عليهم سَيْلَ العَرِمِ وبدّلناهم بجَنّتيهم جنّتَين ذَواتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وأَثْلٍ وشىءٍ من سِدْرٍ قليل * ذلك جَزَيناهم بما كفروا وهل نُجازى إلاّ الكفور﴾ .

قلت :

كأنك صاحبى أعدتَنى إلى أيّام الطلب تلميذًا أفيد من كلماته سبحانه .

غير أنى أقول : تركتُ اليمن وهجرتها بعد تسع سنوات عِجافٍ ما أشعر أنى سعدت فيها ؛ لما كنت أراه من عزوف اليمنيين عن الخير وسلوكهم الدرب الذى لا يوصل إلاّ إلى الخراب . وقد ساءنى أن كان الوافدون معى إلى اليمن من العرب فى الأعمّ الأغلب لا يقولون لليمنيين إلا ما يرضيهم ؛ فيخبرونهم أن الثورة قد نقلت اليمن إلى القرن العشرين ، وأنهم أنجزوا وأنجزوا وحققوا ما لم يحقِّقه غيرهم .

أسمع هذا الكذب وأقرؤه فى الصحف فأقول : إننا معشر العرب أهل نفاق وكذب ، وقلت أيضًا : ألا ترى سبحانه لم يُحذِّرنا كثيرًا ويكثر من التحذير فى لعنه المنافقين ؛ فكان لنا من آياته البيّنات القدر الكبير فى لعن المنافقين .

قال صاحبى :

قد أذكر من قولك ما كنت تقول وأنت فى صنعاء : إنّ إنسان عصرنا فى اليمن طِرازٌ فريد ؛ فهو إنسان القرون الأولى يعبث بمقَدَّرات القرن العشرين .

قلت :

نعم ، لقد كان هذا منى ؛ وذلك أن اليمن تتلقّى إعانات كبيرة من الشرق والغرب ، ولكنّه يعبث بالعون وقد يسرق منها ؛ ألا ترى أن أجهزة متقدّمة زودتهم بها السويد وهولندة وفرنسا وغيرها تحولّت فى زمن يسير إلى مخلّفات لا يُعمل بها ؛ وذلك لأن شيئًا مهمّاً فيها قد سُرق ريثما يُسرق الأصل .

قال صاحبى :

وأنت الآن فى عمان فكيف الحال وما العمل؟ .

قلت :

عدت إلى عَمّان ، وقد سعدت بشيء ؛ هو أنى صرت أملك فيها شقّةً صغيرة استطعت شراءها مما وصل إلى مِن إرثٍ مِن أخ لى توفّاه الله ؛ فقلت الحمد الله الذى عَوَّضنى خيرًا عن عملٍ قضيته فى التعليم معلمًا ومدرِّسًا وأستاذًا فى مراحل التعليم كلها طوال أكثر من أربعين عامًا لم يكن لى إلاّ اليسير اليسير من الفائدة ، فكيف يكون لى أن أمتلك شقّة؟!

لقد تخلّصت بهذه الشقة من سوء أخلاق القوم أصحاب «الشقق المفروشة» الذين لا أشكّ فى أن سيكون لهم شقق مفروشة فى جهنم جزاءً وفاقًا بماكانوا يقترفون .

وأما عملى فهو عدد يسير من محاضرات فى الجامعه الأردنية ، واهتمام بمجمع اللغة العربية الأردنى وما فيه من جلسات علمية تتصل بمشكلات المعاصرة وموقف العربية منها .

قال صاحبى :

غير أنى أحسست أنك مبتئس فى مقامك الجديد ؛ فكيف كان ذلك ؟ .

قلت :

لا عليك ؛ فنحن العرب فى كل مكان لا نشعر بالمواطنة ، وأنت لا تشعر بذلك فى بلدك ، فكيف تطلبه فى بلدان أخرى؟ !

قال صاحبى : لقد حفظت مما قلت فى هذا قولك .

إنْ كنتَ فى بلد « شـقيقِ» ورويتَ من «وادى العـقيق»

فَـلأنتَ أضـيَعُ من تكون وأنتَ فى «البلد الشـقيق»

قلت :

لا تتعجّل الأمر فقد قال أعظمَ من هذا شاعرٌ عاش فى القرن السابع الهجرى وهو :

عُـرْبٌ رأيتُ أَصَحَّ ميثـاقٍ لهم ألا يَصِحَّ لديهمُ ميـثـاقُ

قال صاحبى : وماذا بعد ذلك ؟ .

قلت :

لا بد أن أصل إلى ما يصل إليه كل عربىّ حين يذهب إلى بلد عربىٍّ آخر ؛ وهو الحصول على «الإقامة» .

لقد انتهت الأشهر الستة التى منحتها دوائر الأمن لى ولزوجتى وولدى ، وعلىّ أن أحصل على إقامة لمدة سنة ، ودون ذلك خرط القتاد ، كما قال صاحبُ المثل القديم .

قال صاحبى :

ألم تكن فى عمان قبل أن تذهب إلى اليمن وما كنت تشكو من هذا؟ .

قلت :

لم أكن أشكو من هذا ؛ وذلك لأنى كنت فى الجامعة الأردنية ، وهى التى تتكفّل بالحصول على الإقامة بسبب أنى متعاقد معها .

وأما الآن فالجامعة الأردنية لا تُيسِّر هذا الأمر وإن كنت مُحاضِرًا ، وقد طلبتُ هذا فكان الجواب : أن إدارة الجامعة تفعل هذا للمتعاقدين ليس غير .

قال صاحبى :

ولِمَ لم تحصل هذا الامتيار فتكون متعاقدًا لتحصل على هذا الأمر؟ .

قلت :

إن الجامعة لا تتعاقد مع الذين بلغوا السبعين فى السنّ .

قال صاحبى :

هذا ما لم أعرفه فى البلدان المتقدّمة فى الغرب ؛ فالأستاذ فى جامعات الغرب يؤخذ لما يُقدِّم من علم إن كان من أهل السمعة وممن كتب وصنَّف وقدَّم .

قلت :

هذا هو الأمر فكيف يكون منّى؟ لقد طلبت من مجمع اللغة العربية كتابًا يشهد أنى عضو مؤازر فيه ، فكان لى هذا فى المجمع فذهبت إلى وزارة الداخلية مستظهرًا بكتاب «المجمع» ؛ فكان أن صدر أمر بمنحى الإقامة ؛ لأنى كما ورد فى هذا الأمر بـ«مهنة عضو مؤازر» . لقد ذهبت بهذه الورقة إلى مكتب «الأجانب» فأحالونى على مركز أمن الشميسانى فذهبت ، وكان ما كان . . . .

قال صاحبى :

عَجِّلْ علىَّ فقد ضاق صدرى بهذا .

قلت :

لقد طلب إلى شهادة صحيّة وحصلت عليها بعد دفع الرسم ، وليس فى هذه الشهادة فحص طبى ، ولكن الطبيب يشهد أنى سالم من كل مرض . ثم طلب منّى تصوير صفحات من جواز سفرى ، كما طلب أن آتِىَ بكتاب آخر من مجمع اللغة العربية يشهد فيه المجمع أنه يكفلنى ألا أقوم بشىء مخالف ، وإذا حصلتْ هذه المخالفةُ فالمجمع يدفع ٢٠٠ دينار .

قال صاحبى :

وهل المجمع يستطيع أن يفعل هذا وهو مؤسسة علمية؟ .

قلت :

لقد أكرمنى وأراد أن ييسِّر الأمر ، وقد انتهى كل شىء وذهبت بعد أيّام للحصول على بطاقة الإقامة وإذا شىء جديد أفسد علينا كل الأمر ؛ وهو أن أحد الضباط قد رأى فى كتاب وزارة الداخلية لمنحى الإقامةَ عبارة :

إن السيد .... بمهنة عضو مؤازر .

لقد قال هذا الضابط : لابدّ أن يكون لطالب الإقامة الموافقةُ من وزارة ؛ لأنه صاحب مهنة ، وهى : عضو مؤازر .

وإلى هنا بَطَلَ ما كنّا فيه من هذه المشكلة العويصة .

قال صاحبى :

فكيف كان الأمر بعد هذه «الغرائب»؟ .

قلت :

لقد ذهبت إلى صديق عراقى من رجال الأعمال فصنع لى عقد تجاريًا ، وكتب معه كتابًا إلى وزارة العمل ، فأنا الآن ماضٍ فيه ليتمّ التغلبُ على هذه العقدة .

قال صاحبى :

قد يقول أهلنا : الصبر مفتاح الفرج ، ولكنى أقول لك أستاذى الجليل : ﴿فاصبر كما صَبَرَ أولو العزم من الرسل﴾ . صدق الله ربّى العظيم .

مع «الجواهرى»

والحديث ذو شجون



مع «الجواهرى»
والحديث ذو شجون

لقد كان لى بعض صلة بهذا الشاعر الكبير الذى «ملأ الدنيا وشمل الناس» . وكان لى من ذلك أن أبسط شيئًا مما كان لى من ذلك ، وحديثى فى ذلك «ذو شجون» من هنا وهناك . ولن يكون من حديثى هذا شىء عن شاعرية الجواهرى وطاقته الفنية ومكانته الأدبية التاريخية فى هذا العصر فقد كنت عرضت لشىء من هذا كما عرض غيرى من المعنيين بهذا الدرس الفنى التاريخى . وما زال الناس يعودون إلى هذا ، وإنى لأَحسب أن كثيرًا مما قيل ويقال ، قد عرفه أهلُ الدرس .

قلت : إن «حديثى ذو شجون» وأنا أشير إلى حقيقة ما يكون الشىء «ذا شجون» . لقد كان لى أن شاهدت برنامَجًا « تلفزيونيّاً » فى إحدى محطات دولة الإمارات العربية تحدث فيه أحدهم عن ترجمة موجزة للشاعر ذكر فيها أن تاريخ ميلاده هو ١٩٠٣ م .

لقد ذكّرنى هذا التاريخ ما كان لى من هذا ؛ فقد كنت أحد الذين أعدوا الديوان للنشر فى بغداد الذى عهدت به إلينا وزارة الإعلام منذ أكثر من ربع قرن . لقد كان علينا أن نعرض لترجمة الجواهرى فى سطور ، وكنا رجعنا إلى كتاب «ماضى النجف وحاضرها» للشيخ محبوبة . لقد أثبت الشيخ محبوبة وهو يبسط الكلام على «آل الجواهرى» فى النجف ، فقال : ومن هذه الأسرة الشاعر المبدع محمد مهدى ، وجعل تاريخ ميلاده ١٨٩٨م .

لقد كان الجواهرى يطرقنا ونحن نعمل فى نشر الديوان بين حين وآخر ، وأذكر أننا سألناه عن تاريخ ميلاده فأفادنا أنه فى سنة ١٩٠٠م ، وأما ما أثبته صاحب كتاب «ماضى النجف وحاضرها» فغيرُ صحيح . ثم عاد الجواهرى بعد أيام وصحَّح تاريخ ميلاده فكان ١٩٠١م وانتهينا من هذا بما أقرّه وصحَّحه .

ولا أدرى كيف كان هذا ١٩٠٣م فى حديث المتحدِّث فى تليفزيون دولة الإمارات؟ أفكان هذا مما استفيد من الجواهرى نفسه؟ قد يكون هذا .

وأعود إلى الديوان لأشير إلى أنه طبع فى بغداد مرّتين قبل نشرة وزارة الإعلام العراقية التى أشرت إليها والتى أُنجزت فى عدة أُجزاء قبل أكثر من ربع قرن فى بغداد .

ثم كانت نشرة أخرى أخرجتها وزارة الثقافة السورية . ثم نشرة أخرى فى دار العودة ببيروت . ولكننا نجد فى النشرتين العراقيتين القديمتين ، وقد كانتا قبل الحرب العالمية الثانية ، قصائدَ عدّة لم نجدها فى نشرتَيِ الديوان فى العراق وسورية اللتين قامت بهما وزارتا الإعلام والثقافة ، وكذلك فى نشرة دار العودة ببيروت .

لم نجد مثلاً ، ولا أريد الحصر ، قصيدة عامرة ذات أداء فنّى جواهرى قيلت فى السيد نورى السعيد ، وقد كان مطلعها عامرًا بقوله :

لقد أزَمَت وأنتَ بها حفىٌّ ....

وما زلتُ أذكر فيها قوله :

ولو لم تُلهب الأشجان نفسى فتُوريَها لما التَهَب الروىُّ

ولو أنى قريب من خزانتى لأَثبتُّ بعض «ميميّة» له فى السيد مزاحم الباججى (من رؤساء الوزارات العراقية فى العهد الملكى) ، وهذه مما نفتقدها مع كثيرات من القصائد «المحجلة» للجواهرى الشاعر .

وأين قصائده فى جلالة الملك فيصل الأول وهى غير واحدة ؟ وأين قصيدته الداليّة فى الأمير عبد الإله التى لم يقل داليّة تضارعها ؟ .

وأين لاميته فى مدح الأمير عبد الإله الوصى على عرش العراق التى أفاد منها فاستعار بعض أبياتها فيما أنشده فى مدح جلالة الملك الحسين ، وجعل مطلعها قوله :

أسعف فمى يا سيّدى لأقولا فى عيد مولدك الجميل جميلا

وقد جاء فىُ قصيدته هذه قولُه الذى استعاره من قصيدته القديمة :

يا بْنَ الذين تَنزَّلَت ببيوتهم سور الكتاب وُرتِّلت ترتيلا

أقول : لم يكن هذا وغيره من شعره الذى ظهر فى نشرتَىْ بغداد ودمشق اللتين اضطلعت بهما وزارتا الإعلام والثقافة فى البلدين ، ولا نشرة دار العودة .

وإنى لأَعلم من أمر خلوّ نشرة بغداد من هذه الفرائد وهو أن القصائد فيهما مما أباح بنشره الشاعر نفسه فقد حجب عنّا شيئًا عرْفناه فى النشرتين العراقيتين القديمتين .

فهل لنا نحن الدارسين أن نعود إلى شعره مجموعًا جمعًا كاملاً لا نترك شيئًا منه؟[١] . أيكون لنا هذا فندرك من فنّه وصنعته ما ليس لنا فى هذه الدواوين الناقصة؟ .

ولى أن أذهب إلى شىءٍ آخر أتهيّأ فيه لإدارك صنعته التى تفرّد بها . وهذا ما أثبته فى أنه مخلص لصنعته ، يراها فى التمكّن مما أدركه الآخرون . لقد قال أهل تاريخ الأدب فى العراق فى عينيته التى نظمها فى أعقاب الثورة العراقية سنة ١٩٢١ ونشرت فى مجلة العرفان سنة ١٩٢٢ :

إنه ربما نظر فى شىء فيها إلى عينية للشاعر محمد رضا الشيبى الذى كان يرتضى فيه صفاء ديباجة ورثها عن أبيه الشيخ جواد الشيبى الذى قيل فيه : إنه أحسن من ناجى حمامة الدوح .

وعينيةُ الجواهرى صنعةُ شاعرٍ استوت لديه أدوات الصنعة فى علوّ موضعها فقال :

لعلّ الذى ولّى من الدهر راجع ... فلا عَيْشَ إن لم تبق إلا المطامعُ

أقول : فى هذه القصيدة لمح الجواهرى صفة «الحمراء» ؛ فجعلها للكوفة ؛ فقال :

وفى الكوفة «الحمراء» جاشت مَراجلٌ ... من الموت لم تهدأ وهاجت زعازع

قلت :

لمح «الحمراء» فأعجبه الوصف ، وكان أن رآه فى قول أمير الشعراء شوقى فى قافية له فى دمشق قال فيها :

وللحـــرّية «الحـــمـــراء» بابٌ ... بكلّ يدٍ مـــضـــرَّجـــةٍ يُدقُّ

وكأنى به نظر إلى قول الرصافى ، وهو فى بؤسه ويأسه مما آل إليه أمر الناس ، فى قصيدة لم يفطن لها جمهرة الدارسين فى عصرنا ، والتى بدأها بقوله :

---

(١) ما زلت أحتفظ بصفحة قديمة فيها قوله :

لى فى العراق عصابة لولاهُمُ ... ما كان محبوبًا إلى عراقُ

ولى شىء من مقطّعات لم أجدها حتى فى نشرتى ديوانه القديمتين .

لقد شرّق وغرّب ، وله أسوة بالمتنبى وأبى تمام فى الوقوف على الطبيعة ، وكما تغنى المتنبّى بـ «شعب بوّان» كذلك تغنى أبو فرات بـ «أم الحسَن دربند» . وليس لنا أن ندرك استفهامه على غير وجهه ، وهو يقول :

أحتى على إيران يهتاجنى الهوى ... .

يا قـــومُ لا تَتكلّمـــوا إنّ الكـلام مــــحـــرَّمُ
نامـــوا ولاتســتـــيـــقظوا مــــا فـــاز إلاّ النُّوَّمُ
وتأخّـــروا عن كلِّ مـــا يقـــضى بأن تتـــقـــدَّمـــوا
إنْ قـــيلَ : هذا شـــهْـــدُكُمْ مُـــرٌّ، فـــقـــولوا عَلْقَمُ
أو قـــــيـــلَ : إن بلادكم يا قـــومُ ســـوف تُقَـــسَّمُ
فـــتَطرَّبوا وتحـــمَّـــدوا . . . .

أقول : نظر الجواهرى هذه الأفكار فذهب إلى أبعدَ منها فى قصيدة له جعلها فى كلمة «طَرْطَرا» وكلمة «طرطرا» هذه فصَّحها الشاعر ، وهى فى عامية العراقيين تعنى ما هو مضطرب سيّئ بعيد عن السَّمت المعروف فى الهيئة والنظم ؛ فقال :

أى طَـرْطَـرا تَـطَـرطـرى تـقـــدَّمى تأخَّـــرى
«تَشَـيَّـعى» «تَسَنَّنى» «تهـوَّدى تَنَصَّـرى»
. . . .

أقول : وقد يقف غير العراقيين من العرب على هذه «الكلمة» فلا يدركونها ولا يصلون إلى المراد من معناها وإلى ما هو من «ظلال المعنى» فى لغة عاميّة أهل العراق .

وقد كان من صنعة الجواهرى «المعارضة» القديمة ، وهذه تتمثل فى أن يرى قصيدة يرضاها بناءً ووزنًا وقافيةً فيعمد إلى مضاهاتها . لقد كان له من هذا فى قصيدة له نظر فيها إلى شىء من قصيدة الشاعر محمد رضا الشيبى .

وكان له أن رأى لامية للرصافى أنشدها فى حفل أقيم ترحيبًا بـ «أمين الريحانى» فقال فى مطلعها :

إنّ العـراق بعـرضـه وبطوله وبرافـدَيه وباسـقـات نخـيله

ثم قال :

أ أمين جئتَ إلى العراق لكى تَرَى ما فيه من غُرَر العُلى وحجوله
عفوًا فذاك النجم أصبح آفِلاً والقوم محتربون بعد أفوله
أما الحَيَا فيه فذيّاك الحَيا ٠ لكن مسيل الماء غير مسيله

أقول : كأن الجواهرى أعجبه هذا السَّرد فراح إلى نظير له أبدع فيه أيّما إبداعٍ فى قصيدته فى سامراء ، قال فيها :

ودَّعْتُ شرخَ صبایَ قبل رحيله ... ونَصَلتُ عنه ولات حين نصُولهِ

ونَفَضْت كفِّىَ من شبابٍ مُخلِفٍ ... إيرافــه فى العَــين مــثل ذبولهِ

أقول : وأذكر أن هذه القصيدة حين نُشرت منذ أكثر من نصف قرن قد أشير فى تقديمها إلى القُرّاء إلى عنصر «المعارضة» لقصيدة الرصافى اللامية فى ترحيبه بأمين الريحانى . ولكن هذه الإشارة لم تُذكَر فى طبعة الديوان بعد ذلك .

وأعود إلى أوّل ما كان لى من «الحديث ذو شجون» فأين أهتدى إلى «شَجْن» آخر غير ما أنا فيه ؟ لقد اهتديت وأنا أتحدث عن شىءٍ يسير لدىّ من سيرة الشاعر الحافلة وصنعته الفائقة ؛ فأقول : إن حديثى وأنا أتحوّل من صنعته وهو ينظر فى أقوال المعاصرين إلى شىء آخر يشير إلى تلمذته التى أخلص لها ؛ فرأى أنه طالب علم يلزمه أن يستوفى من العربية موادّها ، وأن يكون له منها زاد وفير يعينه على بناء قصائده العامرة وإقامة هياكلها الخالدة .

لقد كان له من هذا ما أراده ؛ فراح يبنى القصيدة وهى مئة بيت ، وقد تطول به فتدفعه إلى أن يُعلى بناءها الشامخ ؛ فتكون مائتى بيت ، وقد تزيد . . . .

أقول : قد يذهب كثير من أهل العلم إلى أن التزام القافية الموحّدة مِن مَقاتل الشاعر والذهابِ بصنعته الفنيّة إلى ما يشبه اللغو . وليس لنا أن ننكر هذا ، ولكن الجواهرى يذهب فى مطوّلاته إلى أمور عدّة يفيدها مما جدّ فى عصرنا . وهو بهذا يجمع فى مطولته قصائد عدّة .

وأعود إلى ما ذهب إليه النقّاد من مساوئ التزام القافية الموحّدة فأقرّهم على رأيهم ، وأنا أنظر إلى مطوّلات ابن الرومى فأجدها فى الأغلب قد نظمت مدحًا لـ «فلان» من الوزراء والكتاب وغيرهم من علية القوم ، فأجد أن عدة أبيات قصيدته أربعمائة بيت أو خمسمائة ، ولكنى أقرأ وأحمل على نفسى فى المضىّ فى القراءة فأرانى فى أغلب الأحيان أضيق ذرعًا بهذا الرصف الذى لم يبق فيه إلاّ الوزن والقافية فأعافه بعيدًا عمّا أنا فيه .

أستدرك فأعرض لهذا لأخلص إلى أن صاحبى أبا فرات بعيدٌ عما كان لابن الرومى وغيره من أصحاب «المطوّلات» .

وأقول : عرضت لهذا الأمر لأشير إلى أن لدى الجواهرى معجمًا لم يكن لدى كثيرين ممن عاصرهم ؛ فقد قرأ ووعى ، وحفظ من الشعر ، وأدرك ما يكون فيه للكلمة من مقام . وقد أستدرك فأشير إلى أن ليس فى طَوق أيٍّ منا أن يملك العربية . ولك أن تفيد من كلمة الإمام الشافعى التى استظهر بها علماء العربية ؛ وهى قوله :

« لا يُحيط بالعربية إلاّ نبىّ» .

إن هذه الكلمة ذات قيمة عالية فى صدورها عن الإمام الشافعى من أئمة العربية الذى أخذ عنه الأصمعى اللغوىّ الشهير «أشعارَ هذيل» . إن مادة أشعار هذيل من مصادر هذه اللغة الشريفة التى اشتملت على أوابد لا نعرفها لدى غير الشعراء الهذليين .

قد يقول صاحبى القارئ متسائلاً : لِمَ ذهبتَ إلى هذا وابتعدتَ عن صاحبك الجواهرى؟ أ أردت أن تَقول : إن له من العربية زادًا وفيرًا ، أو إنه اجتهد وأصاب ، وزلّت به القدم فأخطأ ؟ .

والجواب عن هذا سيكون من هذا وذاك .

وللإجابة عن هذا أرانى أعود إلى القول الأول ؛ وهو أنّى مع جماعة من أصحابى شاركت فى إخراج ديوان الجواهرى فى نشرة وزارة الإعلام فى العراق . وأذكر أن الجواهرى كان يطرقنا بين حين وآخر ونحن مجتمعون فى العمل . وأذكر أنه جاء يومًا ، وكان الاجتماع فى دارى ، قبل أن يأتى أصحابى ، وكان لنا أن نبدأ العمل ببائيته فى أبى العلاء المعرّى ، فقلت له :

إن أصحابنا الأدباء الجدد ، ومعهم النقّاد ، يَذمّون القافية الموحّدة ، ويعدونها من عيوب الشعر القديم ، فكيف تقول لهولاء؟ فسكت قليلاً ثم انطلق كأنه أنشط من عقال ، وكأنه أحسّ أنه مستهدف مقصود ، فقال : ذهب هؤلاء مِن عجزهم ورضوا لأنفسهم السلامةَ وأبَوْا أن يشقوا كما شقيت أنا وغيرى ؛ نذهب إلى الكلمة فنواجهها وتغلبنا ونغلبها ، وقد نلقى الويل فى الوصول إليها .

ثم عرض لما كان منه ، وهو يريد أن يصل لصنعة يرضاها فيقول شيئًا فى الحفل تكريمًا لأبى العلاء ، فقال : طلبت إلىّ الحكومةُ العراقيةُ وأنا فى لبنان أن أمثّل العراق فى مهرجان ذكرى أبى العلاء المعرى الذى أقامه المجمع العلمى العربى فى دمشق سنة ١٩٤٤ ، وكان بينى وبين تاريخ المهرجان ثلاثةُ أَشْهُرٍ .

ومضى يقول : وبقيت كلما أردت أن أتلقّف مطلعًا لما سيكون لى لم أجده ، وصرت أفكر فى الأمـر بل أواجـه الخطب فلم يكن لى شىء . وكنت أريد أن أكـون نِداً لمن سيقول فى المهرجان من الشعراء ، وأنا لا أعدّ منهم سوى بدوى الجبل وبشارة الخورى ، وليس لى فيما عدا هذين شىء . وكنت أقضى يومى وليلتى فيما يحزبنى من هذا الأمر ، وقد أقطع الطريق بين بيروت ودمشق وأنا فى هذا الذى آمل أن يأتينى ، حتى إذا بقى لى ثلاثة أيام قلت لنفسى :

ويحك يا مهدى ألا تقول شيئًا وقد أزف الموعد ، وكأنى أوبّخ نفسى وأحملها على ما هو طَبْعٌ فيها فكان لى ما كان فقلت :

قِفْ بالمعرّةِ وامسَحْ خَدّها التَّرِبا ....

ثم قال :

لا يعرف أصحابنا الجدد من «أهل الحداثة» هذا الشقاء ، ولا يدرون أن لى وأنا أشقَى فى صنعتى أن أحسّ ما تحسّه المرأة العُشراء وهى تعانى المخاض ، فأين هؤلاء من هذا ! !

فقلت له :

لعلّ كلمة الشاعر الفرزدق قد غابت عنك وهو يسعى إلى قافيته فيلقى الأمرّين بل أَمَرَّ منهما ، فقال : وماذا قال؟

قلت : قال : لأَن يُخلَع ضرس لى أهونُ علىّ من اللحاق بقافيةٍ شرود .

فقال الجواهرى : لقد أحسن الفرزدق وأصاب .

فقلت : مع أن الفرزدق صاحب عربية شهد له بها أبو عمرو بن العلاء فى قوله : خذو ا ثُلثى العربية من شعر الفرزدق .

وقلت له : أراكَ تحوّلت إلى أبى تمام ونأيت عن صاحبك أبى عبادة البحترى ، أفذاك كان لأنك أردت أن تقتنص «الخدَّ التَّرِب» فى قصيدتك هذه فى أبى العلاء ، ووجدتها فى قول أبى تمام فى قصيدته فى «عمّورية» التى مطلعها :

السيف أصدقُ إنباءً من الكُتبِ ....

التى جاء فيها قوله :

مـا رَبْعُ مـيَّـةَ مـعـمـورًا يُطيفُ به غَيْلان أبهَى رُبًى من رَبْعها الخَرِبِ

ولا الخدودُ وأن أُدْمِينَ من خَجَلٍ أَشْهَى إلى ناظِرِى من خدِّها التَّرِبِ

قال : نعم ، هو ذاك ، وأنا عندى فرائد فنيّة أرى فيها معينًا أتذوّقه وأجد فيه راحتى ولذّتى .

وقلت :

وفى قصيدتك إشارات جميلة ؛ هى فى قولك فى هذه القصيدة :

والفجر لو لم يَلُذْ بالصبح يشربه من المطايا ظمـاءً شُـرَّعًـا شُـرِبا

وفى هذا إشارة إلى قول أبى العلاء :

يكاد الفـجـرُ تشـربه المطايا وتُمْـلأُ منه أوعـيـةٌ شِنانُ

و«الشَّنُّ» و «الشَّنّة» : الخَلَق من آنية من جلد[1] .

وفى قصيدتك هذه قولك :

والصبح مـا زال مـصـفرّاً لمـقـرنه فى الحسن بالليل يزجى نحوه العَتَبا

وفى هذا إشارة إلى قول أبى العلاء :

رُبَّ ليلٍ كأنّه الصبح فى الحسن وإن كان أسود الطَّيلسانِ

وقال أبو العلاء فى هذه القصيدة :

ليلتى هذه عروس من الزّنج عليها قلائدٌ من جُمانِ

(١) أقول : وفي المَثَل : «لايُقَعْقَع لي بالشّنان» . وفي شعر النابغة :

كأنّك من جِمال بنى أُقَيْشٍ يُقَعْقَعُ خَلْفَ رِجْلَيْهِ بِشَنِّ

وهذا كله من قصيدته التى مطلعها :

عَلِّلانى فإنّ بيض الأمانى فَنِيتْ والزمان ليس بفانِ

وقلت أنت فى أبى العلاء تشير إلى قوله : «ليلتى هذه عروس من الزنج» :

زنجيّة الليل تروى كيف قلّدها فى عُرسها غُرَرَ الأشعار لا الشهبا

وقلت أيضًا فى قصيدتك هذه :

يا حاقرَ النَّبْع مزهواً بقوّته وناصرًا فى مجا لى ضعفه الغَرَبا

وأشرت إلى ما أردته فى هذا وقلت : فى البيت إشارة إلى شجب[1] القوة بكل مظاهرها واحتضانه الضعفاء من كل جنس .

أقول : وكأنك تشير إلى ما قلتَه فى آخر قصيدتك فى المعرّى ؛ وهو :

آمنتُ بالله والنور الذى رَسَمَتْ به الشرائعُ غُرّاً منهجًا لَحِبا

وصنتُ كلَّ دُعاةِ الحقّ عن زَيَغٍ والمصلحين الهُداةَ العُجْمَ والعَرَبا

لكنّ بى جَنَفًا عن وَعْيِ فلسفةٍ تقضى بأن البَرايا صُنِّفَت رُتَبا

وأنّ من حكمةٍ أن يأكل الرُّطَبا فَرْدٌ بجَهد أُلوفٍ تَعلِك الكَرَبا

قلتُ : والحديث ذو شجون ، وأنا فيه أتحوّل فى قصيدة الجواهرى إلى قوله :

وساهر البَرق والسُمّار يُوقظهم بالجزع يخفق من ذكراه مضطربا

والجواهرى فى بيته هذا يشير إلى مطلع قصيدة للمعرّى ؛ هو :

يا ساهر البَرق أَيقظْ راقدَ السَّمُرِ لعلَّ بالجزع أعوانًا على السَّهَرِ[2]

أقول : قرأ الجواهرى بيت أبى العلاء هذا ، وذهب وَهْمُه إلى «السَّمَر» بمعنى الأنس واللهو ، وليس هذا ؛ فهو «السَّمُر» بفتح وضمٍّ من شجر الطَّلح وهو ضرب من العِظاه صغار الورق كثير الشوك ، واحدته «سَمُرة» ؛ فأَين هذا من السُّمّار فى بيت شاعرنا الكبير؟!!

---

(١) أقول : استعمل الجواهرى الفعل «شجب» بمعنى استنكر ، وهذا من المولّد فى العربية المعاصرة ، وليس هذا فى فصيح العربية ، وكأنه جاء من العربية النصرانية ؛ ففى «العهد الجديد» شىء منه .

(٢) ويلى هذا البيت قوله :

ويا أسيرةَ حِجْلَيْها أرى سَفَهًا حَمْلَ الحُلىِّ لِمَن أعيا عن النَّظَرِ

ولى هنا أن أقول شيئًا يشبه ما قاله الإمام الشافعى فى العربية الذى أثبتُّه فى هذا الموجز .

وإذا كانت الكلمة تندّ عن الجواهرى وهو فى سعة علمه واستظهاره لشذور العربية ، فكيف أقول فى غيره ؟!

وقد يذهب الوهم لدى الجواهرى فيسىء القراءة مدفوعًا بما يفرضه الوزن ؛ فقد قال فى قصيدة نونية وسمها بـ «أزف الموعد» ألقاها فى مؤتمر اتحاد الطلبة العام ببغداد فى ١٦ من شباط سنة ١٩٥٩ قال :

ليس بدعًا أن تجولوا مثلما ... جال فى مضماره مُهْرٌ أَرَنٌّ

وقد أشار الجواهرى إلى «المُهر الأَرَنّ» فقال شارحًا : الذى يصهل لنشاطه .

أقول : والصواب : مُهرٌ أَرِنٌ . من الأَرَنِ أو الإران بمعنى النشاط . وأكثر ورود هذا اللفظ فى الحيوان ؛ قال ابن أحمر يصف ثورًا :

فانقَضَّ مُنْحدِيًا كأنّ إرانَه ... قَبَسٌ تَقَطَّع دون كَفّ المُوقِدِ

والفعل : أرِنَ يأرَنُ مثل فَرِح يَفْرَح .

وليس فيه «رنين» كما توهَّم الجواهرىّ .

ولن تفزع أخى القارئ مما أنا فيه ؛ فقد أسلفت أن الحديث ذو شجون ، وأنا أقودك معى إلى شىء آخر كما كان لنا مع «الأَرَن»و «الإران» .

لقد وقفت من هذا على قصيدة له خاطب بها جيشَ العراق تحيةً بعد ثورة الرابع عشر من تموز فى سنة ١٩٥٨ جاء فيها :

وغدًا لنا مَعهُ يُفجّر موعدٌ ... يَنجاب عن صحيحٍ أرَنٌ أَرْوَنا

أقول : قد يكون لى أن أسير مع الشاعر فأقبل قوله : «أرنّ» كما أراد ، ولكن كيف السبيل إلى فهم «الأَرْوَن»؟ .

لقد قلت له ، وهو يطرفنا ونحن نعمل فى ضبط القصائد وما فيها وما لنا من حاجة يفرضها العملُ : ما المراد بـ «أروَن» ؟ فقال : مثل « الأَرَنّ» .

فقلت : ليس لنا فى العربية «أَرْوَن» بل لنا فيها «أَرْوَنان» فى قولهم : «يومٌ أروَنان» بمعنى يوم شديد فى حرّه أو برده أو غير هذا من حزن أو حرب وشبهه .

وكأنه وجد فيما قلت بعض ما يسعفه فقال : لى فى هذا ما يدفعنى إلى توليد الكلمة ، وهذا يعنى أن الجواهرى قد تمكّن من نفسه ، وشَعَرَ أنه يملك سعة لا يملكها غيره[1] .

أقول : الرُّون هو الشدّة ، والرَّوْن هو الصياح والجَلَبة .

وأعود فأقول : إنه قد قرأ وحفظ واستظهر وكان له أن يأتى بشىء لا يعرفه إلا خاص الخاص من أهل العلم . لقد قرأ قول كثيّر الخزاعى :

إذا قيلَ خيل الله يومًا ألا اركبى رضيتُ بكَفّ الأَردنىّ انسحالَها

فكان أن استعار «خيل الله» فأتى بها على الجمع «خيول الله» فى قصيدة له قالها بمناسبة الإنزال الذى قام به «الحلفاء» فى الحرب العالمية الثانية خلف جيوش المحور فى الشمالى الإفريقى ، قال :

رِدى يا خيولَ الله مَنهلَكِ العذبا ويا شرف عُدْ للغرب واكتسح الغَرْبا

أقول : وفى «خيل الله» فى قول كثيّر الخزاعى إشارةٌ إلى الفاتحين المجاهدين من المسلمين الذين فتحوا البلاد شرقًا وغربًا ، فأين هذا من ذاك؟!

ثم إن «الخيل» من أسماء الجمع التى لم يجد المعربون الأقدمون حاجةً إلى جمعها ليقولوا : «الخيول» ، ولكنها حاجة الجواهرى ، وهى حاجة الشاعر التى تحمل القائل على النادر والشاذ وقد يصل الأمر إلى الخطأ . ألا تراهم قالوا : التمر ولم يقولوا «التمور» التى

(١) لى أن أقول : إن هذا الذى كان من الجواهرى قد أعدّه شيئًا من سطوة الشاعر الشاعر ؛ ذلك أن الأوائل الكبار قد كان لهم شىء من هذا . لقد جاء من ذلك فى شعر الحطيئة أنه قال فى آخر بيت من قصيدة ميمية : «داود بن سلاّم» ، وهو يريد النبى داود بن سليمان .
وليس عجيبًا أن يكون زهير بن أبى سلمى قد عرض له قوله فى قصيدة له :
«وأحمر عاد» و هو يريد «أحمر ثمود» وليس لحجة من يقول : إن عاداً وثمودًا جاءا مقرونين لصلتهما فى النسب والقرب ، وكذلك هما فى لغة التنزيل .
وأحمر ثمود هو «قُدار» عاقر ناقة النبى صالح كما فى الأثر .
ولى أن أقول : إنها لغة الشعر . ولِمَ لايحقّ للشاعر الشاعر أن يولد لفظاً ويبدع معنًى؟ لقد قال النقاد الغربيون : إن شكسبير ولّد ألفاظاً إنكليزية ، ومثل هذا جرى للأدباء الكبار لدى الفرنسيين .

اضطُرَّ إليها المعاصرون ، وقالوا الغَنَم . ولم يقولوا «الأغنام» ، وكذلك الصوف والقطن ونحوهما .

أقول : وأعود ثانية إلى قصيدة الجواهرى فى ذكرى أبى العلاء فأجده يقول :

أبا العلاء وحتى اليوم ما بَرِحَت ... صنّاجة الشعر تهدى المترف الطَّرَبا

يستنزل الفكر من عَليا منازله ... رأس ليسمَحَ من ذى نعمة ذَنَبا

وزمرة الأدب الكابى بزمرته ... تَفَرَّقت فى ضلالات الهوى عُصَبا

تَصَيَّدُ الجاه والألقاب ناسية ... بأنَّ فى فكرة قُدسيّة لقبا

وأن للعبقرىِّ الفذِّ واحدةً ... إما الخلود وإما المال والنَّشَبا

من قبل ألف لَوَ انّا نبتغِى عظةً ... وَعَظَتنا أن نصون العلم والأدبا

وهل لى أن أسأل الآن ، وقد فات وقتُ السؤال ، ولكنى سألته وهو فى دمشق فلم يسمح لرسالتى أن تصل إليه . لقد قلت فى رسالتى : لقد أدركتَ الخلود فماذا يعنى المال وهو عَرَض زائل ولون ناصل؟ وما جدوى أن يكون الكبير الكبير «صنّاجة» لمترَف لا يهمه أن يطرب بل يهمه أن يتملقه ذو الفن الأصيل . وسأتبع هذا الفصل الموجز بشىء ضمّنته رسالتى فيه شىء من عتاب ومودّة .

والحديث ذو شجون ، وهأنذا أقف على شىء من صنعته وجده لدى الأوائل الكبار ؛ وهو أسلوب القَسَم وأسلوب الدعاء فأجد الجواهرى يسعى إليه صنعةً فنية وليس حاجة لقسم محض ودعاء محض . لقد جاء فى قصيدته فى ذكرى (أبو التمن) من زعماء العراق ، وقد ألقاها فى حفل فى الخامس من كانون الثانى ١٩٤٦ ، قوله :

قَسَمًا بيومكَ والفراتِ الجارى ... والثورةِ الحمراء والثُّوّارِ

والأرضِ بالدم ترتوى عن دمنة ... وتمجُّه عن روضةٍ معطارِ

....

قَسَمًا بتلك العاطفات ولم تكن ... لى قبلها من حِلْفةٍ بالنار

أقول : لم يكن أسلوب القسم إلا صنعة فنية تكاد تختصّ بالشعر ؛ فهو بعض لغة الشعر . وقد يكون لى أن أستشهد بقول أحيحة بن الجُلاح :

فــلا وأبيكِ مــا يُغنى غَنائى من الفـتـيـان زُمَّـيْلٌ كـسـولُ[١]

ومن «الدعاء» قوله فى مطلع قصيدته العامرة فى رثاء الإمام الحسين التى ما قيل مثلُها فى رثاء أبى الشهداء ، قال :

فــداء لمــثــواك من مــصــرَعِ تــنـــوَّر بـــالأبـــلَـــجِ الأروعِ

وأعود ثانية لأقول : لا بد مِن جمع جديدٍ لشعر الجواهرى ؛ ذلك أن ما نشر منه ، وهو كثير ، ناقِصٌ ، وفيه شىء عزّ وجوده . لقَد كانت للجواهرى مجموعة صغيرة أسماها «بريد الغربة» لا نجدها الآن ، وأذكر أن فيها شيئًا يتصل بـ «أدب الشيب» . وكأنى به نظر إلى أبى تمّام فى قصيدة مدح فيها الحسن بن سهل فقال :

أَبدَتْ أسًى أن رأتنى مُخلِسَ القَصَبِ وآلَ ما كان من عُجْبٍ إلى عَجَبِ

ستٌ وعشرون تدعونى فأتبعها إلى المشيب فلم تظلم ولم تحُبِ

يومى من الدهر مثل الدهر مشتهرٌ عزمًا وحزمًا وساعى منه كالحُقُبِ

فأصغرى أن شيئًا لاح بى حَدَثًا وأكبرى أننى فى المهد لم أَشِبِ

فلا يُؤرِّقْك إيماض القتير به فإن ذاك ابتسام الرأى والأدبِ

وأعود إلى دواوين الشاعر لأشير إلى أن آخرها قد سبق رحيلَه بما يقرب من خمس عشرة سنة ، وهو فى خلال هذه الحقبة يمارس فنّه على خير وجه . وعلى هذا كان علينا نحن المعنيين بأدبه أن يكون لنا شعره كاملاً .

وقد يجهل الكثيرون أن للجواهرى قصائده الأولى نشرها فى مجلة لغة العرب البغدادية التى كان يصدرها الأب أنستاس الكرملى . وأذكر أن بعض شيوخ الأدب قد عقّب على بعضها فأشار إلى اجتماع الأوزان فيها ؛ فقد عرض للشاعر ، وهو فى ميعة

(١) فى هذا البيت القديم شاهد على ورود «كسول» نعتًا للمذكّر ، وبهذا ندرك أن منهج أهل التّصحيح قاصر ؛ لأنهم لم يستوفوا الاستقراء ، فيتعجلون إلى القول بالخطإ .

صباه ، يجرّب هذه الصنعة العسيرة ؛ فاختلط لديه ما كان من السريع وبعض أعاريض الرجز .

وقد أجد له فى مظانٍّ قديمة بعضَ المقطوعات لم أجدها فيما طبع من شعره ، ومن هذا قوله :

يقولون والشوط لم ينتهِ لمن قَصَبُ السُّبَّقِ الضُّمَّرِ
مشى المؤمنون فقل للسيوف أطيلى سجودَكِ واستغفرى

وكأن هذا يذكّرنى ما كان منه فى قصيدته فى «جمال الدين الأفغانى» ؛ وهو قوله :

مَشَتْ خمسون بعدكَ مُرسِلاتٍ أعنَّتَها هجانًا لا جيادا
محمَّلةً وسوقًا من فجورٍ ومُثْقلةً لمخْصَنةٍ تَهادَى

وأختم هذا الموجز فأشير إلى أن الجواهرى كان مليئًا بنفسه ، وحق له أن يُزهَى ويظهر ويشمخ . وأذكر أنى كنت أشير إلى ما كان منه مما لا تسيغه العربيةُ فيتقبله منّى ، ولكنه يستدرك فيقول : ستجد شاعرك أبا فرات كأسلافه الآخرين من الكواكب الساطعة ولن يضيرها كَلَف ......

وقد يكون أن أبسط فى هذا الختام ما قرأته مما كتبه أحد الأساتيذ الذين زُهوا بأستاذيّتهم فى الغرب ، وهو من أصحاب الحداثة ، وما يكون فى أعلى درجة فيها ؛ فقد قال ، وهو ينال من الأدب القديم ومن الموزون المقفّى عامة : وأستثنى الجواهرى من كل هذا !!

وأذكر أنى علّقت على قوله الغريب هذا فقلت : ألم يدرك هذا الأستاذ ـ لا عفا الله عنه ـ أن الجواهرى يشعرك بأفانين القول مما تجده لدى أبى تمام والبحترى والمتنبى ، وأنه يضيف على ما كان لهؤلاء شيئًا مما جدّ فى عصره؟ .

أقول : إن صاحبنا الأستاذ هذا قد أدرك أن الجواهرى صاحبُ عصا سحرية يُسلّطها على مَن يناله منه شىءٌ فيكون مِن سحر عصاه قصيدةٌ فى الهجاء والتهكم تبقى أبد الدهر .

إنه (أى الأستاذ) أدرك هذا فدفع الشرّ عن نفسه .

ولم يكن هذا الأستاذ كآخَرَ من العراقيين وقد جاءنى يحمل مخطوطة كتبها عن الجواهرى ، وتركها عندى أسبوعًا ورجانى أن أقرأها وأقول ما أراه فيها .

قرأت المخطوطة فوجدت صاحبها ظالمًا ؛ همُّه أن يعيب الجواهرى بل يختلق العيوب ، ويخلط الفن بغيره ، ولم تَخْلُ مخطوطته من ريح خبيثة طائفية . لقد عاد إلىّ بعد أسبوع فقلت له : قرأت كتابك وإنى لأرى أنْ خيرٌ لكً أن تطويه ولا تنشره ، ولعلك بعد أن تطويه يعود إليك هُداك فترى غير ما رأيتَه .

وقلت له : إنْ نشرت كتابك هذا فسيأتيك من الجواهرى شرٌّ لاتدركه .

ثم نشر الكتاب حتى إذا اطلع الجواهرى عليه أرسل فيه لغة غريبة فيها شَتْمٌ وسبٌّ وتهكُّم وتحقير مع تصوير لهذه الأشتات .

مع الشاعر القديم

كثر الكلام على الشعر فى عصرنا هذا ؛ فقد ذهب النقاد ومؤرخو الأدب فى كلامهم على «صفة» الشاعر مَذاهبَ صعبة نخلص منها إلى أن ثقافة الشاعر زادٌ مُختلِفٌ ألوانُه ؛ فهو أديب مُلِمٌّ بالأدب والآداب قديمها وحديثها ، عارف بكثير من ألوان الثقافة التاريخية وغيرها ، مُدرِكٌ لتطور الفكر والحضارة . ثم إن له مما وهبه الله قدرةً على الإبداع ، وجملة هذا هى «الشاعرية» . فأنت ترى أن أدوات الشاعر وخصائصه تفوق أدوات الأدباء الكتّاب والنقّاد وسائر أهل الفكر مِن قِبل أن الشاعر جُبِل وفى نفسه شىء يمنحه القدرة على التجويد والإبداع . ومن هنا كان «الشعراء» عِدّةً قليلةً فى كل عصر وفى كل أمة من أمم الأرض ، وهذا يعنى أن جمهرة مَن يضطربون فى صوغ الكلم وتنظيمه ، لا يمكن أن يكونوا من هذه الصفوة التى رزقت دون سواها أن تأتى بالفن الأصيل .

وإذا كان هذا شيئًا يسيرًا موجزًا مقتضبًا مما يقال فى «الشاعر» الجديد فى عصرنا ؛ فإن ذلك لَيدفعنا إلى أن نتبين شيئًا من «صفة» الشاعر القديم . ولا بد أن نقف على الشاعر الجاهلى فنجده من صفوة خاصة . وهذه «الصفوة» تحفل بالمشاهير وغير المشاهير ، ولكنهم جميعًا ليسوا كسائر معاصريهم ؛ يدلّنا على ذلك أن القبيلة تحتفل بميلاد شاعرها وظهوره فى مناسباتها وما تقتضيه المنافرة والمفاخرة والدفاع عن حقها والإشادة بمجدها ومآثرها .

ومن أجل ذلك كان للشاعر منزلةٌ عظيمةٌ ، وحكاية بنات «المحلِّق» اللواتى لم يتقدم إلى الزواج منهن أحدٌ حتى إذا أشاد الأعشى بكرمه وفضله ومنزلته يقول فيه :

لَعَمْرِى لقد لاحت عيونٌ كثيرةٌ ... إلى ضوء نار باليفاع تُحَرَّقُ

تُشَبُّ لمقرورَيْنِ يَصطليانها ... وبات على النار الندى والمحلّقُ

لم يَنقضِ العامُ إلا وكلُّهن خُطِبْنَ وتزوَّجْنَ .

ولا يفوتنى أن أذكر ما كان من أمر الفرزدق القائل :

فهبْ لى خُنَيْسًا واحتسِبْ فيه مِنّةً ... لحوْبة أمٍّ ما يَسوغ شَرابُها

قال الشيخ ابن برّى : والسبب فى قول الفرزدق هذا البيتَ أن امرأة عاذت بقبر أبيه غالبٍ ، فقال لها : ما الذى دعاك إلى هذا ؟ .

فقالت : إن لى ابنًا بالسند فى اعتقال تميم بن زيد القينى ، وكان عاملَ خالد القسرىّ على السند ، فكتب من ساعته إليه :

كتبتُ وعجَّلت البرادة إننى	إذا حاجة حاولتُ عَجَّتْ ركابُها
ولى ببلاد السند عند أميرها	حوائج جَمّات وعندى ثوابُها
أتتنى فعاذت ذات شكوى بغالب	وبالحرّة السافى عليها تُرابُها
فقلت لها : إيه اطلبى كل حاجة	لدىَّ فخفَّت حاجة وطلابُها
فقالت بحزن : حاجتى أن واحدى	خُنَيسًا بأرض السنْد خَوَّى سحابُها
فهبْ لى خُنَيسًا واحتسِبْ فيه مِنّة	لحوْبة أم ما يَسوغ شرابُها
....	....

فلما ورد الكتاب على تميم ، قال لكاتبه : أتعرف الرجل؟ فقال : كيف أعرف مَن لم يُنسَب إلى أب ولا قبيلة ، ولا تحقّقت اسمه ؛ أهو خُنَيْس أو حُبَيْش؟! فقال : أحضِرْ كلَّ مَن اسمه خُنَيْس أو حُبَيْش ، فأحضرهم فوجد عدَّتهم أربعين رجلاً ، فأعطى كل واحد منهم ما يتسَفَّر به ، وقال : اقفلوا إلى حضرة أبى فِراس[1] .

أقول : إن هذا ، وغيره كثير ، يُظهر ما كان للشاعر فى المجتمعين الجاهلى والإسلامى من مكانة عالية .

ومن أدوات الشاعر معرفةٌ واسعةٌ بمأثر العرب وأيامها ومنافراتها ومفاخراتها ، بل قل : تمام العلم بالتاريخ القديم ، وبالأدب القديم مِن مَثَلٍ وقولٍ مأثورٍ ونحو ذلك ، وامتلاك واف للعربية وما لها من غريب وأوابد . وجملة هذا ثقافة علمية وافية تكون مَعينًا ثرّاً يتزود منه الشاعر موادّه .

وليس عجيبًا أن الشاعر كان يفد إلى المحافل والأندية التى هى شىء من «أسواقهم» فينشد وكأنه فى إنشاده يشارك فى «مباراة» شعرية كما نفعل فى عصرنا ،

---

(١) اللسان (حوب) .

وكما نتخذ فى الصحف والمجلات وغيرها أدوات للإعراب عن التبريز فى الميدان الأدبى .

وطبيعى أن الشاعر القديم الجاهلى والإسلامى ، كان يقصد فى تصدّيه للمناسبات أن يأتى بأحسن ما حصل له من الشعر الذى جهد فى إتقانه وتجويده وإحكام مادته . وليس عجيبًا أن دُعيت قصائدُ زهير بن أبى سُلمَى بـ «الحوليات» لِما كان يفرغ فيها من جهد فى البناء والصقل والتجويد ، فيتم له جمله ذلك فى «حول» كامل .

وهذا يعنى أن الشعر القديم كما كان وَليدَ اللمحة العابرة والإيحاءة السريعة فى مقطعاته الموجزة ، فذاك ليس بمانع أن يكون فى جملته وليد الفكر الغاصب ، والعمل الجاد ، والعناية بالشعر وإحكام نسجه لِيأتى مُحكَمَ البناء ، يعنى ذلك كله أن يسعى الشاعر فيجنّب شعره «العيوب» ، وإلى ذلك أشار ذو الرمة :

وشعرٍ قد أرقتُ له غريبٍ   أجنِّبُه المساند والمحالا

وهذا كالقائل وهو دائب فى إحكام «قصيدته» التى «قوّمَ مَيْلَها وسِنادَها»[٢] .

فأنت ترى أن الشاعر ذا الرمة قد «أرق» لشعره مجتهدًا أن يجنّبه «المساند» ، و«المحالا» وهذا يعنى أنه لم يأته شىء منه عفو الخاطر مما تسمح به قريحة مواتية سمحة . على أنى لا أنكر أن يأتى شىء قليل من هذا ، غير أن ما أثر من المطولات والقصائد ؛ لا بد أن يكون فيها قدر من جهد ناصب ، وفكر مبدع وصنعة لا يوصل إليها إلا بالكد والسعى مع طبيعة سمحة مواتية .

ولولا الطبيعة السمحة المواتية ، ما كان للجهد الناصب من أثر كبير فى الإبداع ، ولولا ذلك لَكان كل أديب شاعرًا ، ولم يكن شىء من هذا فيما نعلم من تاريخ الأدب العربى وغيره من آداب الأمم الأخرى .

---

(٢) قالوا : السناد من عيوبِ الشعر ؛ وهو اختلاف حركة ما قبل الأرداف ؛ كقول عبيد بن الأبرص :

فقد ألج الخباء على جَوار   كأن عيونَهن عيونُ عِينِ

ثم قال :

فإن يك فاتنى أسفًا شبابى   وأضحى الرأس منى كاللُّجَيْنِ

وقد عرض السناد للشعراء الجاهليين كما فى قول عمرو بن كلثوم :

شربنا من دماء بنى تميمٍ   بأطراف القنا حتى رَوينا

وقوله فيها :

ألم تَرَ أن تغلبَ بيت عزٍ   جبال معاقلٍ ما يُرْتقَينا

فكسر ما قبل الياء فى «روينا» وفتح ما قبلها فى « يُرتقَينا»

ونقف ها هنا قليلاً فنقول ونردد قول الراجز القديم :

الشعرُ صَعْبٌ وطويلٌ سُلَّمُهْ إذا ارتَقَى فيه الذى لا يفهمُهْ
زَلَّتْ به إلى الحضيض قَدمُهْ

وهذه الوقفة تفرض علينا أن نقف على «الشاعرية» أو ما يُدعى فى عصرنا بـ «الموهبة» فنقول : عبّر الأقدمون عن هذه «الموهبة» فى مصطلح أهل العصر فى طرائق نخلص منها إلى أن الشاعر قد يؤتى له من «شيطانه» ، وشيطانه هذا من عالم خاص هو عالم الجن . وقد كان لهذا النظر فى الجاهلية عقيدة وإيمان ؛ فقد قال الجاحظ فى الكلام على قول الشاعر :

بنت عمرو وخالُها مسحَل الخيـ ـر وخالى هُمَيْمُ صاحب عَمْرو

فإنهم يزعمون أن مع كل فحل من الشعراء شيطانًا ، يقول ذلك الفحل على لسانه الشعر ؛ فزعم البهرانى أن هذه الجنية بنت عمرو صاحب المُخَبَّل ، وأن خالها مسْحل شيطان الأعشى . وذكر أن خاله هُمَيْم ، وهو هَمّام . وهَمّام هو الفرزدق ، وكان غالب بن صعصعة إذا دعا الفرزدق قال : يا هُمَيم .

وأما قوله : «صاحب عمرو» فكذلك أيضًا يقال : إن اسم شيطان الفرزدق عمرو . وقد ذكر الأعشى مسْحَلاً حين هجا جُهُنَّام فقال :

دعوت خليلى مسْحَلاً ودَعَوا له جُهُنَّام جَدْعًا للهجين المُذَمَّم

وذكره الأعشى فقال :

حَبانى أخى الجنّىّ نفسى فِداؤه بأفيحَ جَيّاش العشيّات مِرْجَم[٣]

وجُهُنّام هو اسم عمرو بن قَطَن من بنى سعد بن قيس بن ثعلبة ، أو اسم «تابعته»[٤] .

وقال أعشى سليم :

وما كان جنىّ الفرزدق قدرة وما كان فيهم مثل فَحْل المُخَبَّلِ
وما فى الخوافى مثل عمرو وشيخه ولا بعد عمرو شاعرٌ مثل مسْحَلِ

وقال الفرزدق فى مديح أسد بن عبد الله :

---

(٣) الحيوان ، ٦/ ٢٢٥ - ٢٢٧ .
(٤) اللسان (جهنم) ، والمؤتلف ، ص ٢٠٣

لَيـبلُغَنَّ أبا الأشبـال مـدحـتُنا من كان بالغَور أو مَرْوَى خُراسانا
كـأنهـا الذهبُ العقيـان حبَّـرها لسـان أشعـر خَلق الله شـيطانا

وشيطان الشاعر أمير الجنّ وإلى هذا يشير الراجز :

إنِّى وإن كنتُ صغـيـر السنِّ وكـان فى العـين نبـوٌّ عنّى
فـإن شـيطانى أمـيـرُ الجنِّ يذهبُ بى فى الشعـر كل فَنٍّ(٥)

وجاء فى رسائل المعرى : أن أبا بكر بن دريد ذكر لأصحابه أنه رأى فيما يرى النائمُ أن قائلاً يقول : لِمَ لا تقول فى الخمر شيئًا ، فقال : وهل ترك أبو نواس مقالاً ، فقال له : أنت أشعر منه حيث تقول :

وحمراء قبل المزج صفراء بعده أتَتْ بين ثَوْبَىْ نرجس وشـقـائقِ
حَكَتْ وجنةَ المعشوق صرفًا فسلَّطوا عليها مزاجًا فاكتسَتْ لونَ عاشقِ

فقال له أبو بكر : مَن أنت؟ فقال : أنا شيطانك ، وسأله عن شيطانى ، فقال : أبو زاجية ، وخبَّره أنه يسكن الموصل(٦) .

ولأبى العلاء طرائف فى «رسالة الغفران» ، مما يتناقلها العرب من عالم الجنّ ؛ فهو يتحدث على لسان هذا الذى تنقّل فى رحاب «النعيم» فيقول :

فيركب بعض دوابّ الجنة فيسير فإذا هو بمدائن ليست كالمدائن فيقول : ما اسمُك أيها الشيخ؟ فيقول : أنا الخيتعور أحد بنى لشعبان ، ولسنا من ولد إبليس ، ولكنّا من الجن الذين كانوا يسكنون الأرض قبل ولد آدم ـ صلى الله عليه ـ فيقول : أخبرنى عن أشعار الجن فقد جمع منها المعروف بـ «المرزبانى»(٧) قطعةً صالحةً(٨) .

ويمضى هذا الخيتعور يتحدث عن شعر الجن الذى سبقوا فيه الإنسَ بقرون ، وكان لهم من بحوره خمسة عشر فيها الرجز والقصيد ، وأنه يكنى «أباهدْرش» وأن الجن فيهم

---

(٥) رسائل أبى العلاء ، وانظر ثمار القلوب للثعالبى ، ص ٥٦ .
(٦) رسائل أبى العلاء .
(٧) المرزبانى (صاحب الموشح وغيره) ، محمد بن عمران بن موسى أبو عبد الله ، المتوفى سنة ٣٨٤هـ ، (انظر الفهرست ص ١٣ ، ط أوروبا) ، وقد أشار أبو العلاء إلى كتابه فى أشعار الجن) .
(٨) رسالة الغفران ، ص ٢٨٩ ، إلى ص ٢٩١ .

المؤمنون أصحاب الجنة ، وفيهم الكفار أصحاب النار . . . وفى أثناء كلامه عن الجن طرائف كثيرة يختمها بقوله : (وهى قصيدة تنيف على العشرين بيتًا) وفيها :

حَمدتُ من حطٍّ أوزارى ومزَّقها عنّى ، فأصبح ذنبى اليومَ مغفورا
وكنت آلَفُ من أتراب قرطبةٍ خَودًا ، وبالصين أخرى بنت يغبورا
. . . .
. . . .

فيقول : للّه درّك يا أبا هَدْرش[٩]! ، لقد كنت تمارس أوابد ومنديات[١٠] ، فكيف ألسنتكم؟ أيكون فيكم عَرَب لا يفهمون عن الروم ، وروم لا يفهمون عن العرب ، كما نجد فى أجيال الإنس ؟ فيقول : هيهات أيها المرحوم! إنا أهل ذكاء وفِطَن ، ولا بد لأحدنا أن يكون عارفًا بجميع الألسن الإنسية ، ولنا بعد ذلك لسان لا يعرفه الأنيس ، وأنا الذى أنذرت الجن بالكتاب المنزل[١١] .

ثم يمضى «أبو هدرش» يجيب سائله عن أسئلته فيأتى بكلام على شعر المتقدمين من الجاهليين كأوس بن حجر وغيره ، ثم يروى قصيدة طويلة فى حديث «الرجم» أولها :

مكّة أقوَتْ من بنى الدردبيس فما لجنى بها من حَسيسْ

ويمضى فى روايتها ، وهى تنيف على الستين بيتًا[١٢] .

فإذا تبينًا «عالم الجن» فى تصور العرب فى جاهليتهم وما بقى من آثار ذلك فى أوهامهم فيما بعد الجاهلية ، أفلا يكون أمر «شيطان الشاعر» شيئًا غير غريب ، وأنه وسيلة لتفسير إبداع الشاعر وإجادته فى فنّه مما يطلق عليه عصرنا بـ «الموهبة الشعرية»؟ .

---

(٩) كنية الجنى (الشاعر) .
(١٠) كذا فى رسالة الغفران ، ولا وجه لها ، أقول : لعلها : متبدّيات .
(١١) رسالة الغفران ، ص ٢٩٦ .
(١٢) المصدر السابق ، ص ٢٩٧ ، إلى ص ٣٠٤ .

من « نوادر » الكلم

لا أريد بـ «النوارد» ما كان من ذلك لدى القدامَى من اللغويين الذين جعلوها شيئًا من الأوابد الفرائد التى لا تنأى عمّا عدّوه مندرجًا فى «الغريب» . غير أنى سأبسط موادّ استعلمت فى حيّز خاص فأفادت معنًى خاصًا أو قل معنى يتصل بالناس وشئونهم . وقد يكون من المفيد أن نقف فى هذه اللغة القديمة على فوائد حضارية ، وأخرى تشير إلى حِذق المعربين الذين كان لهم سعة فى النظر ؛ فذهبوا بالكلمة القديمة كلَّ مذهب . وقد تعجب أن تجد من فروق المعانى شيئًا لا تجده فى اللغات المتقدمة فى عصرنا هذا . وقد تعجب أيضًا حين ترى أصول الألفاظ ، وهى مواد حسية ، تحولت إلى دلالات أخرى معنوية أو مجردة .

وفى هذا الاستقراء سأتى على طائفة من هذه المواد فأشير فيها إلى شىء من هذه الأشتات ذات الفائدة اللغوية جاريًا على حروف المعجم فأقول :

١ ـ الأبُّ : النزاع إلى الوطن .

أقول : والكلمة مضاعفة وإنى أراها ذات صلة بكلمة «الأبُ» وهى ناقصة ، وقالوا إنها « أبَوٌ» .

وكأن «النزاع إلى الوطن» رجوع إليه كما يرجع الولد فى نسبته إلى أبيه (وأمّه) .

قال الأعشى :

صَرَمْتُ ولم أَصْرِمْكُمُ وكصارمٍ أخٌ قد طَوَى كشْحًا ، وأبَّ ليذهبا

(٢) والأَمُّ : القصْد :

أقول : لابد أن تكون «الأُمُّ» أصلَ كثير مما ذُهِب إليه فى هذه المادة .

وكأن الذى يقصد ينزع ويذهب كما ينزع فى رجوعه إلى أمّه نسبًا وانتماءً .

(٣) الأدب : بمعنى الحَسَن من الكلام شعرًا كان أم نثرًا .

أقول : إذا كان «الأَدَب» من معانيه الأولى : دعاء الناس إلى طعام ، فهو دلالة إلى

الخير الذى تُوسِّع فيه فدَلّ على ما كان من خير فى الكلام ونحوه .

ومن هنا صار الأدب تربية وتقويمًا للولد ، فأَدَبُ الأولاد تربيتهم وتقويمهم ، وقولهم : أدِّبوا الولد والصبىَّ ؛ بمعنى كونوا له مؤدِّبين رعاة .

وقد يكون الأدب للولد والصبى كقولهم : سياسة الصبيان ، وسنأتى فى مادة «سياسة» على هذا .

(٤) تاريخ : وهو معروف ، وقالوا : كلمة معرَّبة .

أقول : وهى معرَّبة ، ولا سبيلَ إلى ضمها مع مادة «أرخ» وفيها «الإراخ» وهو بقر الوحش . وكأن الأصل أعجمىّ قديم ، وقد تومئ الكلمة إلى «ارك» اليونانية ، ومنها جاء «أركيولوجى» .

(٥) الأَزَل : القِدَم .

أقول : والفعل «يزلْ» فى قولنا : «لم يَزَلْ» شىء يومئ إلى هذا الأصل البعيد وليس العكس كما ذهب أصحاب اللغة الذين قالوا ـ كما ورد فى «مجمل اللغة» ـ :

«وفيما أحسب أنهم قالوا للقديم : «لم يَزَلْ» ثم نُسبَ إلى هذا فلم يستقم إلا بالاختصار فقالوا : يَزَلىّ ، ثم أُبدِلَت الياء أَلفًا لأنها أخفّ ، فقالوا : أزَلىّ .

والذى أراه أن «يَزَن» وهو علم قديم فى «سيف بن ذى يَزَن» مثل هذا ، وهو «أزَن» بمعنى القِدَم ، وقد ظهر الأصل فى قولهم : رُمْح أَزَنىّ أى منسوب إلى ذى يَزَن .

(٦) الأَزْمة : السنة .

أقول : والمراد : السنة الشديدة . وقد يطلقون «السنة» من غير وصفها بـ «الشديدة» ويريدونها على الخصوص ؛ كقولهم : أصابتنا سنة ؛ أى قحط وحاجة .

وأعود إلى «الأزمة» فى إفادتها للسنة الشديدة فأقول : إنها من «الأزم» بمعنى الشدّ والإمساك والتضييق ، وهو مثل «الحَزْم» .

وقد تحولت «الأَزْمة» فى العربية المعاصرة إلى ما يطلقون عليه «الضائقة» و«العُسْر» . و«الأزمة الاقتصادية أو السياسية» شىء من هذا .

(٧) المؤاساة والمواساة بمعنى العون والإسعاف ونحو هذا .

أقول : وهذا غير بعيد من قولهم : أسَوتُ الجُرحَ أسْوًا إذا داويته ، والآسِى : الطبيب الذى يطُبّ الجُرْح ، وكأنه يدخل فيه شيئًا نحو «المِيل» ، وهو سَبْر الجرح ، والآلة المسبار .

وكأن الذاهب فى هذا الكلم القديم والدخول فيه لا يجد عُسرًا فى الوصول إلى «الأَسَى» وهو الحُزْن . . . .

(٨) الأُفُق واحد الآفاق ، وهى النواحى .

وأَفَقَ الرجل إذا ذَهب فى الأرض ، ويقال : هو «أُفُقى» .

أقول : والمعاصرون ذهبوا إلى النبز فى هذه فولّدوا «الأفّاق» الذى يذهب على غير هُدًى لايُطْمأَنّ إليه ولا يُحمَد .

وأهل الجغرافية فى عصرنا جعلوا «الأُفُق» من مصطلحهم ، و«أفق الأرض» موضع التقاء السموات بالأرض .

(٩) الأَفَنَ : قِلّة العقلِ ، ورجل مأفون .

قالوا : وأصل ذلك من قولهم : أَفَنَ الفصيل ما في ضَرْع أُمّة : إذا شَربه كلّه ، وأَفَنَ الحالب الناقة ، إذا لم يَدَع فى الضرع شيئًا ، قال المُخَبَّل :

إذا أَفنَتْ أروى عِيالَك أَفْنُها ... وإن حينتْ أربَى على الوَطْب حِينُها

أقول : وأنت ترى هذا الأدب البدوى القديم قد توسّعت فيه العربيةُ فذهبت من الحلب وما يكون منه فى هذه الخصوصية إلى «قِلّة العقل» .

(١٠) الإلاهة : الشمس .

وقد يكون هذا مشيرًا إلى أن «الشمس» بصفتها وما يكون منها من شرٍّ وخَيْرٍ إلاهَة تُعبَد اتّقاءً لشرها .

وهذا ثابت فى الآداب السامية القديمة ، ولقد كان من أعلامهم «عَبد شَمْس» .

(١١) الإمَّعة : الذى يكون ـ لِضعف رأيه ـ مع كل أحد ؛ قال ابن مسعود : «لا يكونَنَّ أحدكم إمَّعَة» .

أقول : و هذا من كلمة «مَعَ» الظرف ، من غير شك ، وقد توسَّعت العربية فيه فجاء فى قولهم : ذهبوا معًا ، أى متصاحبين .

وقال النحاة : واو «المعية» بمعنى الواو التى تفيد «مع» ولها مواضع .

(١٢) الأُنْس : معروف .

وهو من غير شك من «الإنْس» أى الإنسان ، والألف والنون فى هذه الكلمة الأخيرة زيادة بناء .

ومن «الأنس» ذهبوا إلى ما يؤنَس أى يُؤلَف ، ومنه صير إلى «الأنس» بمعنى الفرح وليس عسيرًا أن يفهم الفعل «آنس» بمعنى أصابَ ووَجَدَ .

و«الإنس» الذى يُؤنَس إليه وبه ويؤلف أتى ليقابل «الجنّ» الذى لا يُؤنَس به ولا يؤلف ولا يوجد ، ومن هنا صحب «الجن» «الإنس» لبيان المقابلة فى الأدب الشريف فى لغة التنزيل .

(١٣) الأنف ، وهو معروف ، واستعير لكل ما هو مرتفع بارز ، فقالوا مثلاً : أنف الجبل .
أقول : وكثير من الكلم المفيد الذى يومئ إلى الرفعة جاء من «الأنف» نحو «الأَنَفَة» و«الآنف» أى المتقدّم .

والأفعال : «أنِفَ» منه ، و«استأنَف» ؛ أى رجع فيه إلى الأصل الآنف المذكور المتقدم .

وقد استشعروا الطيب فى الأنف ؛ فقالوا : امرأة أنوف : أى طيبة ريح الفم .

ونذهب إلى شىء آخر من أن «الأنف» عنوان الإباء والعزّة ؛ فقالوا : رَغَمَ أنفه أى أنهم نالوا من إبائه وعزّته . وسيكون لنا كلام فى «رغم» .

١٤ – الأهل : أهل البيت .

أقول : وهم «الآل» ، وهذا يشير إلى أن الأصل «أل» أداة التعريف فهى تُعرف مدخولها وتنوِّه به ، وقد أفيد منها فكانت «الآل» وآل البيت أهل البيت . وأنت لابد أن تدرك أن السبيلَ ، إلى الوصول إلى هذا كله ابتداءً من أداة التعريف ، طويلٌ .

ولِتحوُّل هذا الأصل إلى الثلاثى «أهل» أفضَى إلى فوائد كثيرة .

١٥ ـ **تأوَّهَ** الرجلُ إذا حَزِنَ .

أقول : هو من «آهْ» وهذا صوت يفصح عن الحزن ، وهو «آ» ثم خُتم بالهاء للإعراب عن تمام صوت الحزن ، وهو كالصوت العامى الدارج«آخْ» .

وأفادت من هذا العربيةُ فكان الثلاثى «آهَة» ، والجمع آهات ، وكان الوصف «الأوّاه» بمعنى «الدّعّاء» ، قال تعالى : ﴿إن إبراهيم لأوّاه حليم﴾ . وجاء الفعل الذى ذكرناه .

أقول : إن الصوت ، والحروف التى تشير إليه ، ولا سيما السين فى «اس» والشين فى «إش» والصاد فى «اص» وغيرها ؛ مما أمدّ العربية بجملة فى الكلم .

وإنى لأذهب إلى أن «إنس» حكاية لصوت هو «إس» ثم فُكَّ الإدغام فظهر النون[1] . ومثل هذا هو الصوت «اش» الذى أعطانا كلمة «شىء» التى لا تعنى مُعيّنًا بل يُترجَم بها كلُّ مُعيَّن . ثم إن الوصول إلى «شىء» كان بالقَلْب فهو «إش» .

وكذلك «اص» الذى يشار به إلى الصمت و «السكوت» فى قولنا : « صَهْ» .

١٦ ـ **الأيْد** : القوّة ، وكل شىءٍ كان واقيًا فهو إياد .

أقول : وهذا من «اليد» ، واليد ، وهى عنصر الإنسان ، قوة ، ومن ذلك استعيرت لكل ما هو يشير إلى القوة من معانى الخير كالمعروف والمساعدة .

وكان الفعل «أيّد» ، وكان الفعل «أدّى» .

١٧ ـ **البَتات** : الزاد . وهو متاع البيت . والبتُّ : الكساء .

وكله جاء من الأصل وهو القطع ، فإذا كان زادًا ، أو متاعًا أو كساء ؛ فلا بد من تصوّر القطع بصورة ما .

ونقول : لا أفعله البتَّةَ ، وهو القطع أيضًا يأتى مناسبًا فى حيِّز النفى .

ومثل «البتّ» البَتْر وهو القطع ، والبَتْل هو القطع .

---

(١) وقد تظهر الياء فنقول : ««آيس» وهو الوجود ، ونفيه «لا آيس»، وكان من هذا الكلمة «ليسَ» . و«الأيْس» بمعنى الوجود هو «أيش» الذى قُلِب فكان «شىء» .

والبتول : العذراء انقطعت عن الرجل ، وهو نَعْتٌ للسيدة مَرْيَمَ .

و « المُبْتِل» للنخلة الصغيرة انفردت عن أمّها نابتةً معها .

١٨ ـ البَثْنة : الأرض السهلة ، وتصغيرها : بُثَيْنة ، وبها سمّوا المرأة .

١٩ ـ والبَرَم : الذى لا يدخل مع القوم فى الميسر ، ولا يتحمّل الغُرْمَ لإصلاح حال ؛ قال مُتَمِّم يَرثى أخاه مالكًا :

ولا بَرَمًا تُهْدى النساءُ لعرسِه إذا القِشْع من بَرْد الشِّتاء تَقَعْقَعا

أقول : وهذا مما يدخل فى سلوكهم وما يمارسونه من عادات .

٢٠ ـ البَرْخ : النماء والزيادة ، ويقال : إنها نبطية .

أقول : نعم هى آرامية ، ويقابلها فى العربية «بَرَكة» ، وهى «برخ» فى العبرانية ، وبه سمَّوا «باروخ» أى مُبارَك .

٢١ ـ البَزْل : التصفية ، ومنه : بَزَلْتُ الشراب .

أقول : وهو كذلك مما بقى فى عامية أهل العراق فى بعض الجهات .

٢٢ ـ بَيَّتَ الشىء : قَدَّرَ ، وبَيَّت الأمر : أخفاه ، ومنه التبييت ، وهو أن تأتى العدوّ ليلاً .

أقول : والأصل : «البيت» ، وكأن هذا هو المخدع الذى يأوى إليه الرجلُ ويبيت فيه ، وهو أخصُّ من «الدار» . وما زال هذا المعنى للبيت فى العربية التونسية ، أى الحُجرة أو الغرفة .

ومنه «البيات» الخاص بالليل ، يقابله «ظلٌّ» الخاص بالنهار ، وكأنه من الظِّلّ .

٢٣ ـ التَّوّة : الساعة من النهار فإذا قلنا : جاء لتَوِّه ؛ أى لساعته .

أقول : من العجيب أن الكلمة قد بقيت فى بعض العاميات هنا وهناك .

٢٤ ـ التُّحَف : جمع تُحفَة ، وهى البِرّ واللطف .

أقول : كان الخليل بن أحمد يقول : هى تاء مبدَلَة من واو ، وهو يريد أنها من الوَحْف

وهو النبات الريّان ، وكأن التحفة ، وهى البرّ واللطف ، كانت مما هو فاكهة وثمر . ثم تحولّت «التحفة» إلى كل نفيس يُهدَى أو لا يُهدَى .

٢٥ ـ تَلَوتُه : تبعته ، وتَلا القرآن تلاوةً : قرأه وتابع آياته وسوره .

أقول : كأن التاء واو فى الأصل ، و«تَلاهُ» مثل «وَلِيَه» .

٢٦ ـ تَلان فى معنى الآن .

أقول : ومثل هذا «تحين» بمعنى «الحين» . وكأنى أرى أن هذا متصل فى قولهم : «لاتحين مَناص» فهو : لاتَ حين مَناص .

٢٧ ـ التِّلام : التلاميذ .

أقول : هو اجتزاء بأقل بناء للكلمة ، والكلمة سامية قديمة ؛ فهى فى العبرانية «التَّلمود» وهو العِلْم والتعلُّم . وإن الفعل «لمَدَ» بمعنى «تَعَلَّم» .

٢٨ ـ الثُّوَل : داء يُصيب الشاة فتَسترخى أعضاؤها ، وتَيْس أَثْوَل .

أقول : وهذا مما بقى فى بعض الألسن الدارجة وتحول من الشاة إلى الإنسان ، والأثوَل : هو الغبى الذى لا يُدرك الأمور ، وقد يتصرَّف فى قوله وحركته على نحو غير معقول .

٢٩ ـ الجَرّ : معروف ، والجريرة : الذنب والجناية ، وهذا المعنى الأخير يشير إلى ما كان للعرب من هذا ، وهو أن الذى يقوم بجُرْم ، يعود على آثاره فيمسحها لئلا يقتفى أثره فيعلم ، وإلى هذا يشير امرؤ القيس فى قوله :

خرجتُ بها أمشى تجرُّ وراءنا على أَثرَيْنا ذَيْلَ مِرْطٍ مُرَحَّلِ

٣٠ ـ الحِقّ : من أولاد الإبل ؛ وهو الذى استحقَّ أن يُحمل عليه ؛ قال الأعشى :

وهُمُ ما هُمُ إذا عزَّتِ الخمـ ـر وقامت زِقاقُهُمْ والحِقاقُ

أقول : والبدوى القديم يفيد من العربية فيكون له ـ من حذقه فى حاجاته فى الاتساع والمجاز وغيرهما ـ مادة لغوية وافية ؛ فقد ولَّد «الحِق» بكسر الحاء من مادة «حقق» ؛ ولذلك ورد الفعل : «استحَقّ» .

٣١ ـ **الحَرَض** : المشرف على الهلاك ؛ قال تعالى : ﴿حتى تكون حَرَضًا﴾ .

أقول : وهذا شيء مفيد ، ولم يفطن له المعربون فى «العربية المعاصرة» ، والحاجة إليه قائمةٌ ، وقد يقتضى ذلك ظرفٌ خاصٌ .

٣٢ ـ **الحضيرة** : الجماعة ليست بالكثيرة .

أقول : وهذه فى عصرنا من مصطلح الجيش العراقى لكل ثمانية من الجند .

٣٣ – **وحَفَلَ القوم واحتَفَلوا** : إذا اجتمعوا فى مُحْتَفَلهم .

أقول : وأصل «الاحتفال» الاجتماع ، ثم انصرف أيضًا إلى ما يكون فى المُحتَفَل أو المحفَل من أمر .

٣٤ ـ و «**الإحلابة**» أن تحلُب لأهلك وأنت فى المَرْعى .

وهذا أيضًا شيء من حاجة البدوى القديم الذى توسَّع بحذق فى عربيّته .

٣٥ ـ **الخَطَل** : المنطق الفاسد ، **والخَطِل** : الأحمق .

والخَطَل : استرخاء الأذن ، والرجل أخطَل .

أقول : **والخَطَل** فى بعض الألسن الدارجة : قلّة الفطنة ، وقد يكون الغباء .

٣٦ ـ **الخَيْل** : معروفة .

أقول : وكل ما جاء من الاختيال والخُيَلاء والمخيلة فأصله «الخَيْل» التى لُمحَ فى خَلْقِها وصفاتها وعاداتها ما يعين على إدارك هذه الموادّ ، وليس العكس كما ذهب اللغويون القدامى فقد قالوا : سُمِّيَت خَيْلاً لاختيالها .

٣٧ ـ **الدَّفْر** : النَّتَن .

أقول : وهذا فى بعض الألسن الدارجة «الزَّفر» وخصّوه بما كان من آثار اللحم والسمن فى الآنية وغيرها .

و«**الدَّفْر**» : الدَّفْع .

أقول : وهذا مما بقى فى بعض الألسن الدارجة ، وليس شيء منه فى العربية المعاصرة .

٣٨ ـ الدَّهْر : الزمان .

أقول : كأنه من الدَّوْر ؛ وذلك لإدارك المعرب القديم أن الزمان يتحرّك ويدور ؛ ولذلك قالوا : الدَّوَّارِىُّ : الدهر ؛ قال العجاج :

* والدَّهْر بالإنسان دَوَّارِىُّ *

أقول : وفى أدب العوامّ فى عصرنا أن «الدَّهْر» فَلَك ، ويريدون «الفُلْك» ، والمعنى أنه دوّار .

٣٩ ـ الدِّيمة : المطر لا يُقلعُ أيامًا .

أقول : والكلمة «فِعْلة» من الدَّوام . ومن العجيب أن «الديمة» فى عرف أهل القُرَى فى العراق سحابة ماطرة تلقى مطرَها وتزول . ثم : إن «الدِّيم» عندهم هو الزرع معتمدًا على المطر .

٤٠ ـ الذامُ : العيب ، وهو الذان ، بالنون ، على البَدَل .

أقول : والأصل المضاعف وهو «الذّمّ» ، وتحوُّل المضاعف إلى الأجوف والناقص يُسْتَقْرَى كثيرًا فى العربية .

٤١ ـ الدُّخْر : معروف ، والمزيد من الفعل على «افتَعَل» «ادَّخرَ» بإبدال الذال دالاً ، وهو أكثر من «اذَّخر» .

أقول : وقد شاع «الادّخار» حتى حسبه المعاصرون أصلاً ، وكأنه من «دخر» ؛ مع العلم أن «دَخَر» مادة أخرى ، ودَخَر الرجل بمعنى ذَلَّ .

٤٢ ـ ورَبَّ فلان ضَيْعتَه إذا قام على إصلاحها ، وكذا الرَّبُّ هو الإصلاح ، وهذا من «الرَّبّ» ، الخالق ـ سبحانه وتعالى ـ

ومنه : رَبَبْتُ الصبىَّ أَرُبُّه بمعنى ربَّيْتُه .

أقول : والفعل الناقص مع الزيادة «ربَّى» من المضاعف «رَبَّ» .

٤٣ ـ الأرعَن : الأهوَج ، وهى رَعْناء .

أقول : هو من «الرَّعْن» وهوالأنْفُ النادُّ فى الجبل ؛ فكأن «الأرعن» الذى يخرج

خروجًا غير معروف فى سلوكه.، والمعنى صاروا إليه عن طريق التشبيه .

٤٤ ـ والرَّعْى : معروف ، وكذلك الرِّعاية أى أن يرعَى الراعى الدوابَّ .

أقول : وهى الأصل الذى تحول ، إلى أن يكون «الراعى» الرئيسَ الذى يرعَى القومَ يرأسهم ويُعنَى بحاجاتهم .

٤٥ ـ ونقول «أرغَمَ» الله أنفَه ؛ بمعنى أخضَعَه وأذلَّه .

أقول : والأصل : أَلْصقَه بـ «الرَّغام» وهو التراب ، وكأن «إلصاق الأنف» بالرَّغام : إشارة إلى أقصى الإذلال والخضوع ، لموضع الأنف من الإنسان ، وأنه عنوان العِزَّة ، ومن أجل ذلك أخذوا «الأنَفَة» .

على أن «الرَّغم» و«الإرغام» اللذينِ جاءا من «الرَّغام» فكانا بمعنى القَسْر والإجبار قد ابتعدا عن «الأنف» فنقول فى عربيّتنا المعاصرة : «على الرغم من المصاعب» مثلاً .

٤٦ ـ و«روّضَ» الدابة بمعنى جعلها أقلّ جموحًا ونفارًا ، وروّضَ الجواد بمعنى جعله يجرى حتى يخف جسمه ويذهب عنه السِّمن .

أقول : ومن هذا كله جاءت «الرياضة» فى المصطلح المعاصر لِضروبٍ مِن اللعب ونحوه . وقديمًا قالوا : «رياضة العقل» بمعنى تربيته وتعويده على حلّ المشكلات .

ومن هنا كانت «الرياضة» للعلوم المعروفة . وقد فطن إليها الأتراك العثمانيون فكان من موادّ الدرسِ «الرياضيات» للحساب والهندسة والجبر .

٤٧ ـ الرَّبْك : إصلاح الثريد وخلطه بغيره .

أقول : وهو «اللَّبْك» على البَدَل . وهو «اللَّبخ» الذى اختص بالعلاجات ، واللَّبخَة ما يُلْبَخ من الدواء على الدُّمَّل ونحوها .

٤٨ ـ الزَّعْم : القول فى غير صحّة ؛ قال تعالى : ﴿زَعَمَ الذين كَفَروا أن لَّن يُبْعَثوا﴾ .

أقول : و«الزعم» فى عصرنا هو القول دون هذه الخصوصية ؛ يقال مثلاً : يزعُمُ أهل الرأى أن الصواب اتباع الحق .

٤٩ ـ الزُّرْقُم : الشديد الزَّرَق ، والميم زائدة .

أقول : هذه كلمة مفيدة وتمّ الوصول إليها بزيادة الميم . وزيادة الميم كزيادة النونِ فى «ضَيْفن» للذى يأتى مع الضيف من غير دعوة ، والنونِ فى «رَعْشَن» للمُرتعش كثيرًا .

٥٠ ـ ورجل سُبَبة : أى يَسُبُّ الناسَ ، وكثير السَّبّ ، و«سُبَّة» يسُبّة الناسُ .

أقول : وهذا مثل «ضُحَكة» و «ضُحْكة» وغير ذلك .

وليس شىء من هذا فى أبنية العربية المعاصرة .

٥١ ـ ويقال : تَسَحَّب فلان على فلان ، إذا اجتَرأ عليه .

أقول : وهذا شىء كان ينبغى أن يفطن له المعربون .

٥٢ ـ السُّخْف : الخفّة فى كل شىء . . . حتى السحاب .

قال الخليل : السّخف فى العقل خاصّة ، والسخافة عامّة فى كل شىء .

أقول : والسُّخْف والسخافة فى عصرنا سواء ، وهما فى العقل . وهذه الدلالة ذات صلة بالخفّة . ونحن نصل إلى هذا المعنى الخاص بالعقل من الأصل ، وهو : نَسيج سخيف أى لم يُحكَم نسجه ، وكذلك العقل السخيف .

أقول : ومثل هذا ثابت فى الألسن الدارجة عَوْدًا إلى الأصل .

٥٣ ـ «السُّفْرة» : الطعام يُتَّخذ للمسافر ، وبه سُمِّيت الجِلْدَة سُفْرة .

أقول : والسُّفْرة فى عصرنا : المنضدة أو غيرها مما يوضع عليه الطعام .

٥٤ ـ السَّلَب : ما يُسْلب .

أقول : وهو «فَعَل» بمعنى مفعول كالحَلَب والنَّفَض ، والخَبَط وغير هذا .

والسَّلَب والسِّلاب : الثياب السود ، يقال : تسلَّبَت المرأة على بَعْلها .

أقول : وهذا ما زال معروفًا فى العامية الدارجة فى العراق .

٥٥ ـ السَّنوط : للخفيف اللحية ، والسِّناط : الذى لا لحية له .

أقول : وهذا من الكلم المفيد الذى بنا حاجة إليه .

٥٦ ـ و«السَّرَب» : ما رُعى من المال .

أقول : و«المال» فى اللغة القديمة ينصرف إلى السوام والماشية .

٥٧ ـ **وساعَت الإبل تسوع** : ذَهبت مهملة ، من غير رعاية .

أقول : ومثل هذا ما زال فى عامية أهل العراق غير مخصوص بالإبل ، يقال : فلان سايع ؛ أى سائر على غير هُدًى .

٥٨ ـ **الشّفّ** : ضَرْب من السنور يُسْتَشَفُّ ما وراءه : أى يُبصَر .

أقول : وهذا منه «الشفّاف» فى صفة السوائل وغيرها ؛ أى ينظر ما وراءها .

و«الاشتفاف» فى الشراب : أن تستقصى ما فى الإناء من الشراب ، لا تُسْئِر فيه سُؤْرًا . وهو فى الأصل : أخْذُ «الشُّفافة» وهى البقية التى تبقى فى الإناء من الشراب .

٥٩ ـ **الشخص** : سواد الإنسان تراه مِن بُعْدٍ .

أقول : وهو أيضًا ما يشخص لك أى يبدو ويرتفع فى الظلام من شجر وبناء وغيره . ودلالته على الفرد خصوصية جديدة لم تعرف إلا فى العربية المعاصرة .

٦٠ ـ **واستشرفتُ الشىء** : إذا رفعت بَصَرَك تنظر إليه .

أقول : واستعمال المعاصرين للفعل «استشرف» بمعنى نظر إلى الشىء من عَلٍ ، وكأن ذلك عكس الأصل ؛ لأن «مشارف» الأرض أعاليها ، و الشَّرَف فى الأصل : العلوّ .

٦١ ـ **الصَّمْد** : المكان الصلب . وصَمَدَه : قَصَدَه ، وبيت مصمود : مقصود . والصَّمَد : السيد ؛ قال تعالى : ﴿اللهُ الصَّمَدُ﴾ .



فى أسلوب القسم وألفاظه



فى أسلوب القَسَم وألفاظه

القَسَم فى اللغة ، بفتحتين ، هو اليمين ، والفعل : أقسَمَ ، وتقاسَمَ القوم : تحالفوا ، وفى التنزيل : ﴿قالوا تقاسَمُوا بالله﴾ ، وأقسَمتُ : حَلَفْتُ .

ومثل هذا : الحِلْف والحَلِف بمعنى القَسَم ، والفعل : حلَفَ . وأصل الحِلْف المعاقدة والمحالفة والمعاهدة .

وفى حديث أنس «أنه - صلوات الله وسلامه عليه - حالَفَ بين المهاجرين والأنصار فى دارة مرَّتين» .

ولا بدَّ أن نتحوَّل إلى «اليمين» الذى هو الحلف والقَسَم .

وفى الحديث : «يمينك على ما يُصدِّقك به صاحبك» ؛ أى يجب عليك أن تحلف له ما على يُصدِّقك به إذا حَلَفْتَ له . والجمع : «أَيمُن» .

وإنى لأشير إلى الجمع لأذهب إلى غير ما ذهب اللغويون والنحويون ؛ فقد ذكر الجوهرى فى «الصحاح» : «وأيمُن اسم وُضع للقَسَم . . . . . ، وقال : وألفه ألف وصل عند أكثر النحويين ، ولم يجئ فى الأسماء ألف وصل مفتوحة غيرها . . . .[1] .

أقول : وقد ذهبوا إلى هذا مستظهرين بما رووا من حديث عروة بن الزبير أنه قال : «لَيْمُنُكَ لئن كنتَ ابتَلَيْتَ لقد عافَيْتَ ، ولئن كنتَ سَلَبْتَ لقد أبقَيْتَ» .

وقالوا ورُبَّما حذفوا منه النون ، قالوا : أَيْم الله وإيمُ الله ، بكسر الهمزة ، وربّما حذفوا منه الياء ، قالوا : أَمُ اللهِ ، وربّما أبقَوا الميم وحدها مضمومة ، قالوا : مُ اللّهِ ، ثم يكسرونها لأنها صارت حرفًا واحدًا فيشبهونها بالباء فيقولون : مِ اللّهِ ، وربّما قالوا : مُنُ اللّه ، بضمّ الميم والنون ، ومَنَ اللّه ، بفتحهما ، ومِنِ اللّهِ ، بكسرهما .

أقول : ومسألة حذف همزة «أَيمُن» ثم حذف الياء ثم حذف النون ، ثم ما كان من تغيير الحركة للميم ؛ كلّ ذلك من صنعة اللغويين والنحويين وحذلقتهم ؛ ذلك أنهم لم

---

(١) وقالوا : وقد تدخل عليه اللام لتأكيد الابتداء ، تقول : لَيْمُن الله ، فتذهب الألف فى الوصل ، قال نُصَيب :

فقال فريق القوم لمّا نَشَدتُهم نَعَم و فريقٌ : لَيمُن اللهِ ما ندرى

أقول ، وقد رأيت قول نُصيب فى بعض الروايات فى كتب الأدب .

. . . . نَعَم ، وفريق : أَيمُن الله ما ندرى

يستظهروا على هذه الأوجه الغريبة بشواهدَ صحيحة فصيحة من كلام العرب ، ولو أن شيئًا من هذا قد كان لَظهر لهم فى تأييد ما ذهبوا إليه .

وقد يكون لى أن أذهب إلى ما ذهبت إليه معتمدًا على الكوفيين الذين قالوا فى «أَيمُن» : إنها جمع يمين القَسَم .

وأما جعل النحويين لألفها ألفًا للوصل مثل : ابن وابنه ، واثنان واثنتان ، واسم وغيرها فلم يكن ذلك إلاّ لِما سُمع من حذف ألف «أيمن» ؛ فقيل فى القسم : وَيْمُ الله ، ونحو هذا .

وعندى أن الألف حذفت تخفيفًا لكثرة ورودها فى القَسَم ، والأصل «أيمُن» ، وهو جمع ، والألف من بناء «أفْعُل» .

وأعود إلى اليمين ثانية فأقول : لقد سمَّوا الحَلِف «يمينًا» لأنه يكون يأخذ اليمين . و«اليمين» اليد اليُمنَى ؛ ولذلك هى مؤنَّث وإن صُغِّرت بلا هاءٍ .

وتفاءلوا باليمين كما تشاءموا بالشمال ، فكان لتفاؤلهم أن ذهبوا إلى «اليُمْن» بمعنى البَرَكة وكان لتشاؤمهم من اليد الشمال أن سمّوا صاحبها الأَعْسَر .

وليس لى أن أذهب كما ذهب الأقدمون إلى أنّ «اليمين» مشتقّ من «اليُمْن» ؛ وذلك لأن ما هو اسم للمعنى يؤخذ من المحسوسات والملموسات .

ومن ألفاظ القَسَم : الأَلْوَة والأُلْوة والإِلْوة والأَليَّة كلّه : اليمين ، والجمع : أَلايا ، قال الشاعر :

قليل الأَلايا حافظٌ ليمينه وإنْ سَبَقَتْ منه الأَليَّةُ بَرَّتِ

والفعل : آلَى يُؤْلى إيلاءً : حَلَف ، وتَألَّى يَتَألَّى وأْتَلَى يَأْتَلى ائتلاءً . وفى التنزيل : ﴿ولا يَأْتَلِ أولو الفضل منكم﴾ (1) .

وقال أبو عبيد : لا يأتَلِ : هو من أَلَوتُ أى قصَّرتُ .

وقال الفراء : الائتلاء : الحَلِفُ . وقرأ بعض أهل المدينة : ولا يَتَأَلَّ ، وهذه مخالفة للكتاب ؛ وذلك أن أبا بكر - رضي الله عنه - حَلَفَ ألاّ يُنفق على مِسْطَح بن أُثاثة وقرابته الذين ذكروا عائشة ، فأنزل الله - عزّ وجلّ - هذه الآية ، وعاد أبو بكر إلى الإنفاق عليهم .

---

(1) ٢٢ سورة النور .

وآليتُ على الشىء وآليتُه على حذف الحرف : أقسمتُ ، وفى الحديث : « من يَتَألَّ على الله يُكذِبه» ؛ أى مَن حَكَم وحَلَف . وقال الأعشَى : *وآلَيْتُ إلاّ أن أزورَ محمّدا* .

وفى الحديث : «ويل للمُتألِّين من أُمَّتى» يعنى الذين يحكمون على الله ويقولون : فُلانٌ فى الجنّة وفُلانٌ فى النار . وفى حديث أنس بن مالك : « أن النبىّ - ﷺ - آلَى من نسائه شهرًا» أى حَلَف لا يدخل عليهنّ [١] . وللإيلاء فى الفقه أحكام تخصّه لا يُسَمَّى إيلاءً بدونها .

وأتحوّل إلى «الإلّ»[٢] الذى هو الحَلِف والعهد ، وبه فسَّر أبو عبيدة قوله ــ تعالى ـ : ﴿لا يَرقُبون فى مؤمن إلاّ ولا ذِمّة﴾[٣] . وقال الفرّاء : الإلّ فى الآية القرابة ، والذمّة العهد ، وإلى مثل هذا ذهب مجاهد والشعبىّ .

وفى حديث علىّ عليه السلام : «يخون العهد ، ويقطع الإلّ» .

والإلّ : الربوبية كما فى حديث أبى بكر - رضي الله عنه - لمّا تُلى عليه سَجْعُ مُسَيْلمة : «إن هذا الشىء ما جاء من إلٍّ ولا بَرٍّ فأين ذُهِبَ بكم» .

ومن ألفاظ القَسَم الفعل «حَلَفَ» ، ومن هذا قول النابغة :

حَلَفْتُ فلم أتركْ لنفسِك ريبةً ... وليس وراء الله للمرء مذهَبُ

وقال امرؤ القيس :

حَلَفْتُ لها باللهِ حَلْفَةَ فاجرٍ ... لناموا فما إنْ من حديثٍ ولا صالى

ثم فِعْل القَسَم وهو أقسَم كقول زهير :

وأقسَمت بالبيت الذى طافَ حولَه ... رجالٌ بَنَوه من قُرَيشٍ وجُرْهُمِ

وقد يُبدأ القَسَم : بالمصدر فيقال كما قال صاحبنا أبو الفرات الجواهرى :

قَسَمًا بيومك والفرات الجارى ... والثورة الحمراء والثُّوّارِ

قَسَمًا بتلك العاطفات ولم يكنْ ... لى من يَمينٍ قبلها بالنارِ

---

(١) وإنما عدّاه بـ «من» حملاً على المعنى ، وهو الامتناع من الدخول ، ويتعدّى بـ «من» .

(٢) وهذا من قبيل التقاء المضاعف بالمعتلّ ، وكأن الأصل هو المضاعف .

(٣) ٨ سورة التوبة .

ومثل هذا قول أحدهم :

يمـــينًا مـــا سَلَوتُكُمْ يمـــينًا وشَلَّتْ إن سلوتُكُمُ يمـــينى

وقد يتقدم مادةَ القسم الواو والباءُ والتاء ؛ كقول عمر بن أبى ربيعة :

فـوالله مـا أدرى وإن كنتُ داريًا بسَبْعٍ رَمَيْنَ الجمـرَ أم بثمـانِ

وفى التنزيلِ العزيزِ الكثيرُ من القَسَم مما بُدئ بواوٍ هى واو القَسَم وسيأتى هذا .

وقد يقسم فيما أُوله الباء كقولك : بالله لأسعَيَنّ إليك سعى ذى حَزمٍ .

وقد تأتى التاء فى أول القسم ؛ كقوله تعالى : ﴿تَاللَّه تفتأُ تذكُرُ يوسف﴾[١] .

وأتحوّل بعد هذه المسيرة إلى«القَسَم» لدى النحويين فأجده فى أحرف القسم التى هى بعض حروف الجرّ . ثم أجد القَسَم فى باب توكيد الفعلين : المضارع والأمر ؛ فأمّا المضارع فتوكيده وجوبًا إن كان جوابًا لقسم مثبتًا مستقبلاً مقترنًا بلام هى لام القسم ؛ نحو قوله تعالى :

﴿وتاللهِ لأكيدَنَّ أصنامكم﴾ [٢] .

وقد يُضمر المُقسَم به ؛ كقوله تعالى : ﴿كلاّ ليُنبَذَنَّ﴾[٣] .

والنون تباشر الفعل فإن لم يكن هذا فلا يبنى الفعل على الفتح ؛ كقوله تعالى :

﴿ولا تَتَّبعانِّ سبيلَ الذين لا يَعلمون﴾[٤] .

﴿لتُبْلَوُنَّ فى أموالكم﴾[٥] .

﴿فإمّا تَرَيِنَّ مِن البشَر أحدًا» [٦] .

والنون فى هذه الآيات لا تباشر آخرَ الأفعال بسبب الفاصل ؛ وهو الألف فى الآية الأولى ، والواو فى الثانية ، والياء فى الثالثة ؛ فحكموا بإعراب هذه الأفعال .

---

(١) ٨٥ سورة يوسف .
(٢) ٥٧ سورة الأنبياء .
(٣) ٤ سورة الهمزة .
(٤) ٨٩ سورة يونس .
(٥) ١٨٦ سورة آل عمران .
(٦) ٢٦ سورة مريم .

وأمّا إعراب فعل الأمر فجائز .

وأجد القَسَم فى حذف المبتدأ الذى عبّروا عنه بقولهم : إذا كان الخبر مُشعِرًا بالقسم [1] كقولهم : فى ذِمّتى لآتينَّك ، والتقدير : فى ذِمّتى يمين .

وفى باب حذف الخَبَر وجوبًا قالوا : إذا كان المبتدأ صريحًا فى القَسَم نحو قول عمر ابن أبى ربيعة :

لَعَمْرُكَ إنّنى لأُحِبُّ دارًا   تحُلُّ به سُكَينَةُ والرَّبابُ

أقول : لم يكن من اهتمام النحويين بالقَسَم غير هذه الأشتات التى عرضتُ لها . وقد يكون لى أن أدرك هذا إذا تبيّنتُ أن «النحو» لدى النحاة هو «الإعراب» ؛ هكذا ذكر الزمخشرى فى أوّل كتاب المفصّل [2] . لقد شغل النحويون بالإعراب والبناء ، ثم وسّعوا الأمر فخيِّل لهم أن للإعراب سببًا فسألوا أنفسهم : لِمَ رفع الفاعل ونُصب المفعول ، وما العامل فى الرفع والنصب؟ وما الجرّ وما سَبَبه ، وما العامل فيه؟ .

لقد كان لهم فى هذا أبوابٌ طويلةٌ أخرجت النحو عن حدوده اللغوية . ولم يكن من اهتمامهم باللغة إلا القدر اليسير فى مسائل «الصرف» . لقد قصروا اللغة على أبنية الأفعال والأسماء وحصروها فيما أسموه : الأبنية القياسية .

لقد ابتعدوا عن معرفة الأصوات وحقيقتها فكانت لديهم فى موادّ الإعلال والإبدال فى حيّز ماهو قياسىّ . وكان فى نظرهم للأصوات ـ ولا سيّما أصواتُ المدّ التى أسموها حروف العلّة ـ بُعْدٌ عن معرفة مادة الصوت وصفته ؛ فذهبوا فى خلطٍ أضاع الحقيقة .

لقد قالوا مثلاً : إن أصل «قالَ» و«باعَ» هو «قَوَلَ وبَيَعَ» ؛ فوضعوا قاعدتهم على أساس فاسدٍ ، وقالوا : تحرّكَت الواو والياء وسبقهما السكون فقلبت الواو والياء ألفًا .

---

(١) قولهم : مُشعِرًا بالقسم ؛ أى أنه أفاد القسم فى بنائه هذا ، وليس فى اللفظ معنى القسم الصريح ؛ فقولهم : «لعمرى ولعمرك» يفيد صراحة القسم ؛ لأن «العمر» مما يُقسَم به ؛ بخلاف قولهم : فى ذمتى وفى عنقى ونحو هذا التى لا تخلص إلى القسم ؛ فقد تأتى فى غير القسم ؛ كأن تقول مثلاً : فى ذمتى أو عنقى دَين .
وهذا الأسلوب كثير فى العربية المعاصرة ؛ فقد تسمع مَن يقول : بشَرفى ، وراسى ، وحياتى ونحو هذا .
ولى أن أقول : إن القَسَم فى العربية المعاصرة هو شكل لا يعبر عن حقيقة . وقد يأتى فى الشعر من باب ما يعترض القول كالدعاء فى «هُديتَ» ونحو هذا .

(٢) انظر : خطبة «المفصّل» .

إن الأساس الفاسد فى تصورهم أن الواو والياء فى «قَولَ وبَيَعَ» ـ وهما كسائر الأصوات الصامتة ـ تحوّلا إلى صوت صائت هو الفتحة الطويلة . وقد ذهبوا فى هذا النظر الخاطئ لأنهم خلطوا فى رسم الواو والياء فساوَوا بينهما من حيث إنهما حرفا مدّ ، وبين كونهما أحرفًا صامتة كالباء والتاء وغيرهما .

ولو جئت إلى تناولهم لاسم المفعول من «باعَ» وهو «مَبِيع» ـ ليصلوا فيه إلى أنه «مفعول» كسائر أسماء المفعول من الفعل الثلاثى ـ لَوقفتَ على اضطرابهم ، وهكذا ابتعدوا عن الصواب بسبب من انحصارهم فى «قياسية» بعيدة عن العلم .

* وأعود بعد هذا فأقول : لم يستَقْروا العربيةَ فيكون لهم نحوٌ فيه قياسٌ وسماعٌ وعِلْمٌ ، ولم يكن من علمهم استقراء لغة التنزيل ليقفوا فى أساليب القرآن على فوائد لم يكن لها مكان فى نحوهم .

ومن أمثلة هذا باب القَسَم فى أساليب القرآن التى وقفنا فيها على القَسَم الذى خَلا مما ورد فى النحو ؛ وذلك فى مطالع سور كثيرة مَكية[1] . وإنى لأَعرض لهذه المطالع بحسب ما وردت فى التنزيل العزيز :

قالى تعالى :

١ - ﴿يس * والقرآن الحكيم ﴾ ١ ، ٢ ، سورة يس .

تعليق :

أقول : فى هذه السورة وفى الآية الأولى التى هى «يس»[2] قَسَمٌ ؛ بدليل الآية الثانية

(١) كأنّ القَسَم فى فواتح السور ـ الذى لم يأت كما نعرفه لدى النحويين غير محتاج إلى جواب ـ وُجد كله فى السور المكيّة . وكأنه شيء من لوازم هذه السور التى اختلفت فى أسلوبها عما هو فى السور المدنية ، ذلك أن كثيرًا من الآيات لا تعدو أن تكون كلمة أضيفت إلى غيرها كما فى قوله ـ تعالى ـ : ﴿يس ، والقرآن الحكيم﴾ ، وقد تكون كلمة مع ما يليها من اسم آخر هو من حيّز المنصوبات كما سَنرَى . وهذا مما لا يعرض فى السور المدنية .

(٢) قال الزمخشرى : قرئ « يس» بالفتح . قال ابن حجر : يفيد أن السكون قراءة الجمهور ، والحركات قراءات لبعضهم ، فالفتح بناء أو نصب ، والكسر بناء فقط .
وأعود إلى قول الزمخشرى : الفتح كأينَ وكيفَ ، أو بالنصب على «اتل يس» ، وبالكسر كجَيْرِ ، وبالرفع على «هذه يس» أو بالضمّ كحيثُ . وعن ابن عباس : معناه يا إنسان فى لغة طيئ ..... . الكشاف ٤ / ٢ .
أقول : وقول ابن عباس غريب ، وهو مثل كثير مما نُسب إليه فى معانى لغة التنزيل . وليس عجيبًا أن يفهم عامّة هذا العصر أن «يسٍ» و«طه» اسمان من أسماء الرسول . ولذلك سمّى بهما الناسُ فى عصرنا وفى العصور المتأخرة وكأنهم جهلوا أن كُلاً من «طه» و«يس» حرفان هما : الطاء والهاء ، والياء والسين . وقد قُصِرا فى الآيتين وحُذفت الهمزة .

التى عُطِفت عليها ؛ فقد جاءت لفظة القرآن مجرورة ، وتعليل الجرّ أن الواو واو القسم . وليس لنا إلاّ أن نقول : إن فى هذا القَسَم بل حقيقته الإخبار بدلالة الآية الثالثة التى جاء فيها خطابُه ـ سُبحانه ـ إلى الرسول الأمين فى قوله : ﴿إنّك لَمِن المرسَلين﴾ . وعلى هذا كان «القَسَم» من لدنه أسلوبًا وشكلاً بعيدًا عما بسطه النحويون من موادّهم التى اشتملت على ألفاظ القسم وجواب القسم وما فيه من موادّ أخرى أسلوبية ؛ كلام القَسَم ، وشرط الجواب فى كونه فعلاً مثبتًا مستقبلاً استوجب أن يكون مؤكَّدًا بالنون .

٢ ـ وقال ـ تعالى ـ : ﴿والصَّافّاتِ صَفّاً﴾ ١ سورة الصافات .

وتلا هذه الآية الأولى قولُه ـ تعالى ـ فى الآيتين الثانية والثالثة وهما : ﴿فالزاجراتِ زَجْرًا* فالتاليات ذِكْرًا﴾ ، ثم جاءت الآية الرابعة ﴿إنّ إلهكم لَواحدٌ﴾ وفى هذه إخبار عنه أنه واحد وهو «ربُّ السمواتِ والأرضِ وما بينهما وربُّ المَشارق» . وهكذا يبقى القَسم غير مُحتاجٍ إلى ما يفتقر إليه . ثم إن القسم منه ـ تعالى ـ بعيدٌ عن غرض القَسَم فى كلام الناس ؛ لأن الله ـ تعالى ـ بقدرته وإيمان الناس به مستغنٍ عن القسم كما يكون فى كلام المخلوقين . إنه أسلوب من لطائف التنزيل العزيز .

لقد أقسَم الله ـ سبحانه ـ بطوائف الملائكة أو بنفوسهم الصافّات أقدامها فى الصلاة كما قال الزمخشرى مفيدًا من قوله تعالى : ﴿وإنّا لَنحنُ الصافّون﴾ أو أجنحتها فى الهواء واقفةً منتظرةً لأمر الله .

ثم قال فى «الزاجرات» : إنها السحاب الذى يُساق سوقًا ، و«التاليات» لكلام الله من الكتب المنزلة وغيرها .

وقال : وقيل «الصافّات» : الطير ؛ من قوله تعالى : ﴿والطير صافات﴾ و«الزاجرات» : كلّ ما زَجَر عن معاصى الله[1] .

وقال ـ تعالى ـ :

٣ ـ «ص والقرآنِ ذى الذِّكْرِ* بل الذين كفروا فى عِزّةٍ وشِقاق﴾ ١ ، ٢ سورة ص .

قال الزمخشرى : «(ص) على الوقف وهى أكثرُ القراءة . وقرئ بالكَسر والفتح

---

(١) الكشاف ٤ / ٢٥ .

لالتقاء الساكنين» .[١] أقول : وقد ذهب المفسرون اللغويون فى حركة «ص» بين النصب والفتح مذاهبَ بعيدةً فى المنصرف والممنوع من الصرف ، وأن مَن صَرَفها قرأها بالجرّ والتنوين .

وقالوا فى «ص» المكسورة : إنها من المصاداة وهى المعارضة والمعادلة[٢] . وهذا كله بعيد عن سماحة هذه اللغة التى أدركت ما لم يُدركه أهلُ التأويل .

أقول : وهذا قَسَم بُدِئت به السورة ، ثم جاءت الآية الثانية مبدوءةً بـ «بَل» للإضراب ، واكتُفى بلفظ القسم الذى بدا لى أنه مما يستَحسَن به استهلالُ السور المكّية التى حفلت بالزجر والتقريع مع عَرْضٍ لقدرة الله الخالق لكل شىء .

وقال ـ تعالى ـ :

٤ - ﴿حم* والكتابِ المُبينِ* إنّا جَعلْناه قرآنًا عربيّاً لعلّكم تعقلون﴾ ، ١ ، ٢ ، ٣ سورة الزخرف .

قال الزمخشرى : أقسَم بالكتاب المبين وهو القرآنُ وجعل قوله «إنا جعلناه قرآنًا عربيّاً» جوابًا للقسم ؛ وهو من الأيمان الحسنة البديعة ؛ لتناسب القسم والمُقسَم عليه[٣] .

أقول : الزمخشرى نحوىّ شهير وليس له إلاّ أن يظلّ مع صنعته ؛ فقد عدّ قوله «إنا جعلناه قرآنًا عربيّاً» جوابًا لقسم . والذى أراه أن «القَسَم» كما أشرت من أحسن ما يُستَفتح به ؛ فليس من حاجةٍ ، والكلام فى هذا ، أن يكون فى الأمر جواب للقسم . إنه إخبار عن قوله : «حم» الحرفَين اللذين أشير بهما وبغيرهما إلى أنها مادة الكتاب المبين ، ثم جاءت الآية الثانية تؤكد هذا .

وقالى ـ تعالى ـ :

٥ - «حم* والكتاب المبين * إنّا أنزلْناه فى ليلة مباركةٍ إنّا كنّا منذِرينَ﴾ ١ ، ٢ ، ٣ ، سورة الدخان .

---

(١) المصدر السابق ٤ / ٥٣ . أقول : ليس فى « صاد» التقاء للساكنين ، وهذا من أوهام النحويين الأقدمين الذين تصوّروا الألف القائمة ساكنة وهى فتحة طويلة ، فأين الساكنان؟!!

(٢) المصدر السابق .

(٣) المصدر السابق ٤ / ١٨٥ .

قال الزمخشرىّ : الواو فى «والكتاب» واو القَسَم ، إن جعلت «حم» تعديدًا للحروف أو اسمًا للسورة مرفوعًا على خبر الابتداء المحذوف ، وواو العطف إن كانت «حم» مُقسَمًا بها ، وقوله : «إنّا أنزلناه» ، جواب القَسَم ، والكتاب المبين القرآن . . . .[١] .

أقول : وهذه صنعة النحويين فى تعسّفهم للوصول إلى القاعدة النحوية ، والأمثلة كثيرة فى موادّ النحو كافّة .

إن «الكتاب المبين» معطوف على قوله ـ تعالى ـ : «حم» ، وهذا يعنى أن «حم» معطوف عليه بدلالة الإعراب ؛ فالقَسَم مما حسن به افتتاحُ السورة ، وليس فى المعنى قَسَم ، وإنه ـ سبحانه ـ غير محتاج كالمخلوقين إلى القسم ؛ فلا يكون لنا عَدّ قوله : «إنّا أنزَلناه» جوابًا للقَسَم .

وقال ـ تعالى ـ :

٦ ـ ﴿ق والقرآنِ المَجيدِ* بل عجبوا ؛ أن جاءهم مُنذِرٌ منهم فقال الكافرون هذا شىء عجيب﴾ ، ١ ، ٢ سورة ق .

قال الزمخشرى : الكلام فى «ق والقرآن المجيد بل عجبوا» . نحوه فى «ص والقرآن ذى الذِّكْرِ بل الذين كفروا» سواء بسواء لالتقائهما فى أسلوب واحد[٢] .

أقول : وهذا الأسلوبُ هو الذى بسطتُه فى السور المتقدّمة التى لم يكن فيها القَسَم على نحو ما قرّره النحويون ، بل كان صفةً حَسُنَ أن تكون فى فواتح السور .

وقال ـ تعالى ـ :

٧ ـ ﴿والذارياتِ ذَرْوًا * فالحاملات وِقْرًا * فالجارياتِ يُسْرًا* فالمُقسِّمات أمرًا* إنما تُوعَدون لَصادِقٌ . . . .﴾ ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ سورة الذرايات .

قال الزمخشرى : «الذاريات» الرياح ؛ لأنها تذرو التراب وغيره . و «الحاملات وِقْرًا» أى السحاب ، لأنها تحمل المطر . و«الجاريات» هى الفُلك . و«المُقَسِّمات» أراد الملائكة لأنها تُقَسِّم الأمور من الأمطار والأرزاق وغيرها . . . . . .

(١) المصدر السابق ٤ / ٢١٢ .
(٢) المصدر السابق ٤ / ٣٠١ .

ثم قال : «إنّ ما توعدون» جواب القَسَم[١] .

أقول : وهكذا سار الزمخشرى فى هذه السور التى بُدئت بالقَسَم وجَرَى فيها جَرْىَ نحوىٍّ أخلص لصنعته ودَرَج عليها .

وقال ـ تعالى ـ :

٨ ـ ﴿والطُّورِ* وكتابٍ مَّسطورٍ* فى رَقٍّ منشورٍ* والبيتِ المعمورِ ، * والسَّقفِ المرفوعِ* والبحرِ المسجورِ* إنّ عذابَ ربّك لَواقعٌ﴾ ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧ ، من سورة الطور .

قال الزمخشرى : الطور الجبل الذى كلّم الله عليه موسى وهو بمَدْين . . . .[٢] .

أقول : بعد قوله ـ تعالى ـ «والطور» قَسَمًا جاءت الآيات الثانية والرابعة والخامسة والسادسة كلها معطوفة على الآية الأولى وهى «والطور» ، ثم جاءت الآية السابعة جملة خبرية ولا يمكن أن تكون جوابًا للقسم ؛ ذلك أنها تشير إلى غير ما هو فى حيّز القسم فى خمس آيات .

وقال ـ تعالى ـ :

٩ - ﴿والنَّجْمِ إذا هَوَى* ما ضَلَّ صاحبُكم وما غَوَى﴾ ١ ، ٢ ، من سورة النجم .

قال الزمخشرى : النجم هو الثريّا ، وهو اسمٌ غالِبٌ لها ، أو جنس النجوم . و«إذا هوى» إذا غَرَبَ أو انتثر يوم القيامة . أو النجم الذى يُرجَم به إذا هَوَى أى انقضَّ . . . .» .

وأما قوله ـ سبحانه ـ : «ما ضلّ صاحبكم» يعنى محمدًا ـ ﷺ ـ والخطاب لقريش ، وهو جواب للقسم . . .[٣] .

أقول : القسم فى هذه السورة أسلوبٌ لا يقتضى جوابًا هو قوله تعالى : «ما ضلّ صاحبكم وما غَوَى» .

وقال ـ تعالى ـ :

١٠ ـ ﴿ن والقَلَمِ وما يَسطُرون * ما أنت بنعمة ربِّك بمجنون * وإن لكَ لأجرًا غير ممنون﴾ ١ ، ٢ ، ٣ ، سورة القلم .

(١) المصدر السابق ٤ / ٣١٣ .
(٢) المصدر السابق ٤ / ٣٢٤ .
(٣) المصدر السابق ٤ / ٣٣٠ - ٣٣٢ .

قال الزمخشريّ : قرئ : «ن والقلم »بالبيان والإدغام . وبسكون النون وفتحها وكسرها كما في «ص» . والمراد هذا الحرف من حروف المعجم . وأمَّا قولهم : هو الدواة ، فما أدرى أهو وضع لغويّ أو شرعيّ؟!

ولا يخلو إذا كان اسمًا للدواة من أن يكون جنسًا أو عَلَمًا ؛ فإن كان جنسًا فأين الإعراب والتنوين ، وإن كان علمًا فأين الإعراب ، وأيّهما كان فلا بد له من موقع فى تأليف الكلام . فإنْ قلتَ هو مُقسَم به وَجَبَ إن كان جنسًا أو تجرّه أو تنوِّنه ، ويكون القسم بدواة منكَّرة مجهولة ؛ كأنه قيل : ودواة والقلم ، وإن كان عَلَمًا أن تصرفه وتجرَّه ، أو لا تصرفه وتفتحه للعلمية والتأنيث ، وكذلك التفسير بالحُوت : إمّا أن يراد نون من النينان ، أو يُجعَل علمًا لليهموت الذى يزعمون .

والتفسير باللوح من نورٍ أو ذهبٍ ، والنهر فى الجنة نحو ذلك . وأقسَم بالقَلَم تعظيمًا له لما فى خَلْقه وتسويته من الدلالة على الحكمة العظيمة ، ولما فيه من المنافع والفوائد التى لا يحيط بها وَصْفٌ . وأما قوله «وما يسطرون» بمعنى ما يكتب من كتب ، وقيل : ما يستره الحَفَظة [1] .

أقول : لقد آثرت أن أثبت من كلام الزمخشرى ما أستظهر به على عدم تثبّت النحويين فى علمهم ؛ فقد أثبت من الأقوال فى «ن» وما تقتضيه من حركة ، ولم يبتعد عن «القَسَم» النحوى . ثم إنى توسَّعتُ فى كلامه فى التفسير لأقول إن أهل التفسير لم ينقلوا عن عِلْمٍ مصدره الرسولُ الكريمُ ؛ ولذلك اختلفوا ووضعوا تأويلات مختلفة .

وأعود إلى الآية الثانية فلا أراها تصلح جوابًا للقسم . ثم إنى أقول : ليس «القَسَم» فى معناه سؤالاً يسأله صاحب القسم فيقتضى أن يكون له جواب . فهذه الآيه الثانية هى الإخبار الذى ذهبت إليه فى السور التى أثبتُّها .

قال ــ تعالى ــ :

١١ ـ ﴿لا أُقسم بيوم القيامة* ولا أقسم بالنفس اللوّامة* أَيَحسَب الإنسان ألَّن نجمعَ عظامه﴾ ١ ، ٢ ، ٣ سورة القيامة .

---

(١) المصدر السابق ٤٦٨ .

قال الزمخشرىّ : إدخالُ «لا» النافيه على فعل القسم مُستفيضٌ فى كلامهم وأشعارهم ؛ قال امرؤ القيس :

لا وأبيك ابنة العامرىِّ لايدَّعى القوم أنّى أفِرّ

وفائدتها توكيد القسم ، وقالوا : إنها صلة ....

وقال : واعترضوا عليه (أى على زيادتها) فقالوا : إنما تزاد فى وسط الكلام لا فى أوّله ، وأجابوا بأن القرآن فى حكم سورة واحدة متّصل بعضه ببعض ، والاعتراض صحيح ؛ لأنّها لم تقع مزيدة إلاّ فى وسط الكلام ، ولكن الجواب غير سديد ؛ ألا ترى إلى امرئ القيس كيف زادها فى مستَهلّ قصيدته .

والوجه أن يقال : هى للنفى ، والمعنى فى ذلك أنه لا يُقسَم بالشىء إلاّ إعظامًا ؛ ويدلّك عليه قوله تعالى : ﴿فلا أقسم بمواقع النجوم* وإنه لقَسَمٌ لو تعلمون عظيمٌ﴾ فكأنه بإدخال حرف النفى يقول : إنّ إعظامى له بإقسامى به كلا إعظام ، يعنى أنه يستأهل فوق ذلك . وقيل : إن «لا» نفى لكلام وَرَدّ له قبل القسم ؛ كأنهم أنكرو البعث فقيل : «لا» أى ليس الأمر على ما ذكرتم ، ثم قيل : أقسم بيوم القيامة . فإن قلت : قوله ـ تعالى ـ : «فلا وربِّك لا يؤمنون» وبيت امرئ القيس وغيره التى أنشدتها : المُقسَم عليه منفىّ ، فهلا زعمتَ أن «لا» التى قبل القَسَم زيدت موطِّئة للنفى بعده ومؤكِّدة له وقدّرتَ المقسَم عليه المحذوف ههنا منفيّاً ؛ كقولك : لا أقسم بيوم القيامة ، لا تتركون سُدًى؟ قلتُ : لو قصر الأمر على النفى دون الإثبات لكان لهذا القول مساغ ، ولكنه لم يقتصر . ألا ترى كيف لقى «لا أُقسم بهذا البلد» بقوله : «لقد خلقنا الإنسان» وكذلك «فلا أقسم بمواقع النجوم» بقوله : «إنه لقرآن كريم» .

وقُرئ : «لأُقْسِمُ» ، على أن اللام للابتداء ....[1] .

أقول : لقد أفضت فى هذا لأن القسم فى ظاهره قد سُبق بالنفى ، وإنى لأذهب إلى أن النفى قائمٌ وأن ما بعد النفى يُطوَى فى الكلام ، ويبقى القسم بعيدًا عن النفى . وقد سار الشعراء ودرجوا على هذا بدءاً بامرئ القيس ، وقد ظهر النفى فى تكملة البيت فى العَجُزِ وهو يشير إلى أن النفى فى أوّله صحيح . ومن هذا قول البحترى :

---

(١) المصدر السابق ٥٢٦/٤ .

فــلا وأبيكِ مــا قــارفتُ ذنبًــا ولا قــارفتُ فى جُـبّـيك ذامــا

وأما ما ذكره الزمخشرى مِن قراءة مَن قرأ : لأقسم ؛ فهى قراءة لا يُعتَدُّ بها أريد بها التخلُّصُ من الإشكال الذى وقع النحويون فيه .

وقال ـ تعالى ـ :

١٢ ـ ﴿والمرسَلاتِ عُرفًا * فالعاصفاتِ عصفًا والناشراتِ نَشْرًا * فالفارقاتِ فرقًا * فالمُلقياتِ ذِكْرًا * عُذْرًا أو نُذْرًا * إنما توعَدون لَواقع ﴾ ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧ سورة المُرسَلات .

قال الزمخشرىّ : أقسم ـ سبحانه ـ بطوائف من الملائكة أرسَلَهنّ بأوامره فعَصَفْنَ . . .[1] .

ثم قال : أو أقسم برياحِ عَذابٍ أرسلَهنّ فعَصَفْنَ ، وبرياح رحمة نَشَرن السحاب فى الجوّ . . . .

أقول :

لا أقف فى قول الزمخشرى وغيره على ما أرادوا من وجوه التأويل ؛ بل أذهب إلى الآية السابعة التى أريد بها الإخبار عما كان من قَسم فى الآيات قبلها فأشير بها إلى أن ما كان من الرياح وغيرها مما قدّره الله فكان .

وقال ـ تعالى ـ :

١٣ ـ ﴿والنازعات غَرْقًا * والناشطاتِ نَشْطاً * والسابحات سَبْحًا * فالسابقات سَبْقًا * فالمدبِّراتِ أمرًا * يوم تَرْجف الراجفةُ * تتبعها الرادفة ﴾ ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧ سورة النازعات .

قال الزمخشرىّ : أقسم ـ سبحانه ـ بطوائف الملائكة التى تنزع الأرواح من الأجساد ، وبالطوائف التى تنشطها أى تخرجها . . . .[2] .

(١) المصدر السابق ٥٤١/٤ .

(٢) المصدر السابق ٥٥٣/٤ – ٥٥٤ .

ثم قال : والمقسَم عليه محذوف ، وهو «لتُبعَثُنّ» ؛ لدلالة ما بعده عليه مِن ذِكْرِ القيامة .

أقول : لقد وجد الزمخشرى أن جواب القسم قد طُوى فتأوّل بقوله - تعالى - «يوم ترجف الراجفة» ، وليس لنا أن نظلّ مع متطلّبات النحو ، والقَسَمُ هنا وفى السور المكية هذه أسلوبٌ لا يقتضى ما قرّره النحويون . إن الآيةَ السابعة وإن أشارت إلى «البعث» بعيدةٌ عن مفهوم جواب القسم النحوى .

وقال - تعالى :

١٤ - : ﴿والسماءِ ذاتِ البروج * واليومِ الموعود * وشاهدٍ ومشهودٍ * قُتِل أصحاب الأُخدود﴾ ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، سورة البروج .

قال الزمخشرىّ : هى البروج الاثنا عشر ، وهى قصور السماء على التشبيه ؛ وقيل : البروج هى النجوم التى هى منازل القمر ، وقيل : عظام الكواكب . سميت بُروجًا لظهورها ، وقيل : أبواب السماء . أقول : زعم الدارسون غير المسلمين أن «البرج» كلمة لاتينية ذات أصل إغريقى ، ولا يهمُّنى هذا الزعم الذى لا أستطيع أن أحقّه بالجدّ والبحث .

وأعود إلى الآية الثالثة التى خاطبت الناسَ بما كان من خبر أصحاب الأخدود الذين كان ذو نواس اليهودى فى نجران قد أحرقهم فى الأخدود ، والخبر مروىّ بتفصيل فى «الكشاف» . وليس لى أن أعدّ هذه الآية جوابًا للقسم المتقدِّم .

وقال - تعالى - :

١٥ - ﴿والسماءِ والطارقِ * وما أدراك ما الطارقُ * النَّجْمُ الثاقِبُ﴾ ١ ، ٢ ، ٣ سورة الطارق .

قال الزمخشرى : النجم الثاقب هو المضىء الذى يثقب الظلام بضوئه فينفُذ فيه[1] .

ثم قال : فإنْ قلتَ : ما يشبه قوله : «وما أدرك ما الطارق : النجم الثاقب» إلاّ ترجمة كلمة بأخرى . . . قلتُ : أراد الله - عَزَّ مِن قائلٍ - : أن يُقسم بالنجم الثاقب تعظيمًا له . . . وأن ينبّه على ذلك فجاء بما هو صفةٌ مشتركةٌ بينه وبين غيره . وهو الطارق ، ثم

(١) المصدر السابق ٥٨٦/٤ .

قال : «وما أدراكَ ما الطارق؟» ، ثم فُسِّر بقوله «النجم الثاقب» كما قال : « فلا أقسم بمواقع النجوم وإنه لَقَسَمٌ لو تعلمون عظيمٌ» . . .

أقول : ليس لى أن أكتفىَ بشرح الزمخشرى الألمعىِّ الذكى ، وأرجعُ إلى أن القَسَمَ فى الآية كغيره فى السور ، كما أشرت ، غيرُ مفتقرٍ إلى جواب ، وأن الجملة الاستفهامية التى خرجت إلى التعجيب لا تغنى فى هذا فتوطِّئ إلى الجواب كما أشار الزمخشرى فى قوله ـ سبحانه ـ «النجم الثاقب» .

وقال ـ تعالى ـ :

١٦ ـ ﴿والفجر* وليالٍ عَشْرٍ * والشَّفْع والوَتْرِ* والليلِ إذا يَسْرِ * هل فى ذلك قَسَمٌ لذى حِجْر ﴾ ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ سورة الفجر .

قال الزمخشرىّ : أقسَم بالفجر . . . . وأراد بالليالى العشر : عَشْرَ ذى الحجّة .

أقول : وقد أجاب الزمخشرى عمَّن اعترض على تنكير «ليال عشر» بقوله : إنها ليالٍ مخصوصة من بين جنس الليالى ، بفضيلة ليست فى غيرها .

ثم أتى إلى الآية الخامسة وكأنه أَحَسَّ أن له إشكالاً فيها فقال فى «هل فى ذلك قَسَم لذى حِجر» : فيما أقسمتُ [والقائل ـ سبحانه ـ جل شأنه] به فى هذه الأشياء [أى ما تقدّم] قَسَم أى مقسم به (لذى حِجر) يريد : هل يحق عنده أن يعظم الإقسام بها . أو : هل فى إقسامى بها لذى حِجْر ، أى هل هو قَسَم عظيم يؤكّد بمثله المُقسَم عليه . والحِجر هو العقل[1] .

أقول : كأنّى أدركت أن الزمخشرى وغيره من المفسرين النحاة قد ابتعدوا وهم يحسُّون الإشكال ، فلم يخرجوا بشىء ؛ ذلك أن الآية الخامسة «هل فى ذلك قَسَم لذى حِجْر» لا تجيب ما سعوا إليه لأن فيها الاستفهام الذى خرج إلى الجحد والإنكار ، فكيف أقول : إنه جواب للقسم !!

وقال ـ تعالى ـ :

١٧ ـ ﴿لا أُقسِم بهذا البَلَد* وأنتَ حِلٌّ بهذا البلد * ووالدٍ وما وَلَد * لقد خلقنا الإنسان فى كَبَدٍ﴾ ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، سورة البلد .

(١) المصدر السابق ٤ / ٥٩٦ وأقول : كان من فوائد هذه السورة احتفالها بالتناسب الذى هو بعض بديع القرآن ؛ كما فى الآية الرابعة «يَسْرِ» ؛ فقد حذفت الياء للتناسب .

قال الزمخشرى : أقسَمَ ـ سبحانه ـ بالبَلَد الحرام ، واعترض بين القَسَم والمُقسَم عليه بقوله : «وأنتَ حِلٌّ بهذا البَلَد» . . .[١] .

أقول : فى هذه الآية الأولى ما قلته فى الآية الأولى من سورة القيامة «لا أُقسم بيوم القيامة» ؛ فلا حاجة إلى العود . غير أنى أنكر أن يكون قوله : « لقد خلقنا الإنسان فى كبد» جوابًا للقسم ؛ فهو إخبار ليس غير .

وقال ـ تعالى ـ :

١٨ ـ ﴿والشمسِ وضُحاها* و القَمَرِ إذا تَلاها* والنهارِ إذا جلاَّها ، والليلِ إذا يَغشاها* والسماءِ وما بَناها* والأرضِ وما طَحاها* ونفسٍ وما سَوَّاها* فألْهَمَها فُجورها وتَقْواها* قد أفْلحَ مَن زكَّاها﴾ ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨ ، ٩ ، سورة الشمس .

قال الزمخشرى ما معناه ، فى هذه الأقسام ما تستحقّه[٢] . ولكنه لم يبتعد عن خُطّته فى إيجاد القَسَم والمُقسَم عليه .

وهذا هو شأنه فى سورة الضحى وسورة التين وكذلك فى سورتَى العاديات والعَصر .

خاتمة :

وأخلص من هذا إلى أن ما حُسِب قَسَمًا فى كلام العرب لم يُرَد به معنى القسم ، فليس لك أن تشعر بالقسم فى قول أحدهم :

لَعمرُك ما يومى بسَعدٍ وإنّما بقيّة أيّامى ستُفضِى إلى خَطْبى

وقد ذهب المتأخرون بعيدًا فأقسموا بقولهم : وحقِّكَ وحياتك ونحو ذلك .

وأعود إلى النحاة فأجدهم وقفوا على مسائل انتهوا إليها فكانت منها أقوالهم ، ومن هذه قولهم فى «لَئنْ» : إن اللام فيها موطِّئة للقَسَم ، ولم يكن هذا إلا لأنهم وجدوا الفعل الثانى بعدها مؤكَّدًا بالنون ؛ كما فى قوله تعالى :

﴿لئن لم تَنتَهوا لنرجُمَنَّكم﴾ [٣] .

(١) المصدر السابق ٤/٦٠١ .
(٢) المصدر السابق ٤/٦٠٥ .
(٣) ١٨ سورة يس .

﴿لئن شَكرتُم لأَزِيدنّكم ولئن كَفرتُم إنّ عذابى لَشديد﴾ [1] .

وجعلوا قوله ـ تعالى ـ «إن عذابى لشديد» توكيدًا كالتوكيد للفعل بالنون فى الآية نفسها : «لأزيدنكم» . وكان هذا التوكيد حجتهم أن «اللام» فى «لئن» موطِّئة للقسم .

وقد استقريت الحديث الشريف وخُطَبَ الراشدين الخلفاء ورجال الصدر الأول من عصر الرسول الكريم فوجدت استعمال «لئن» فيها على ما ورد فى لغة التنزيل . ثم إنى رأيت هذا الاستعمال فى شعر شعراء القرون الثلاثة أيضًا ، غير أنى وجدت «لئن» فى شعر البحترى كأنها «إن» الشرطية ولا عبرة للاّم ، ومثل هذا كان للشعراء فى القرن الرابع الذين جاء جوابُ الشرط لديهم مقترنًا بالفاء ، وليس اللام التى رأوا فيها لام القسم .

وقد وجدت لدى النحاة ألفاظًا وسَمُوها بسِمَةٍ خاصة ، وهى فى سعة العربية لا تملك الخصوصية التى أقَرّوها ؛ ومن ذلك قولهم :

إن قول العرب : «فى ذمّتى» : تركيبٌ مُشعِر بالقسم فكان فى أمثلتهم : «فى ذمّتى لأُساعدنّكَ» وقولهم فى «لعمرك» : صريحٌ فى القسم . لقد كان «فى ذمّتى » فى حذف المبتدأ ، وفى «لعمرك» حذف الخبر فى شاهدهم : «لعمرُك لأفعَلَنّ» ، وقَدّروا المحذوف : «قَسَمى» .

أقول : والعربية توافق استعمالهم وفيها غيره .

وبعد ، فهذه نبذة موجزة فى أسلوب القسم أردت فيها أن يكون لنا نحو جديد يفيد أساليب العربية التى حفظتها لغة التنزيل العزيز .

---

(١) ٧ سورة إبراهيم .





من قراءة فى «سورة الرحمن»



من قراءة فى «سورة الرحمن»

هذه سورة مدنية فى ثمانٍ وسبعين آيةً ، قال أهل العلم بلغة التنزيل العزيز : مدنية نزلت بعد سورة الرعد . ولولا هذا الذى ذكره الثقات فى علوم القرآن لكنت أحسب هذه السورة مكيّة ؛ لوقوفى على نظمها الذى كان فى آيات قُصِد فيها الإيجاز البديع البليغ . إنك فى هذه السورة قد تقفُ على الكلمة الواحدة تؤلّف آية ، لما يكون لها من دفع للتصوّر والذهاب إلى فوائد يُدركها أهل المعرفة .(*)

ثم إن هذه السورة المدنية خَلَتْ مما أدركناه فى غيرها من السُّوَر فى سرد القَصص والأحكام الذى لابدّ فيه من بسط القول . لقد بُدِئَت هذه السورة باسم «الرحمن» تبارك وتعالى ، فكان لفظ الرحمن الآية الأولى . ولى أن أشيرَ إلى أن «الرحمن» ، وهو نعت من نعوته ، كان اسمًا من أسمائه ـ جلّ وعلا ـ ألم نجده فى «البسملة» يتبع «الله» نعتًا خاصاً به . ولعلّ من هنا ذهب نفرٌ من أولى العلم بالتنزيل إلى عدّ «البسملة» الآية الأولى فى كلِّ سُورة من السُّوَر . على أنّ مِن هؤلاء مَن قَصر هذا النظرَ على فاتحة الكتاب .

رُوى عن ابن عبّاس أنه قرأ فاتحة الكتاب ، فقرأ فيها بسم الله الرحمن الرحيم ، وكان يقول : إنّها آية من كتاب الله(١) .

وجاء أيضًا مما نقله صاحب «الزينة» قول أبى عُبَيْد : فاتحةُ الكتاب فى العدد ستُّ آيات . ويقال إن «بسم الله الرحمن الرحيم» هى الآية السابعة ؛ لقول رسول الله ـ ﷺ ـ لما قرأ عليه أُبىّ بن كعب فاتحةَ الكتاب فقال : «فوالذى نفسى بيده ما أنزل اللّهُ فى التوراة ولا فى الإنجيل ولا فى الزَّبُور ولا فى القرآن مثلَها . إنها السبعُ المثانى»(٢) .

---

(١) كتاب «الزينة» لأبى حاتم الرازى ص ١٦٥ . صنعاء ١٩٩٤ .

(٢) أخرجه الإمام مالك فى الموطأ فى كتاب الصلاة ٣٧ ، ونصّه : عن أبى سعيد مولى عامر بن كُرَيْز أن رسول الله ﷺ نادى أُبىّ بن كعب وهو يصلى . فلما فرغ من صلاته لحقه فوضع رسول الله ﷺ يده على يده ، وهو يريد أن يخرج من باب المسجد . فقال : «إنّى لأرجو ألا تخرج من المسجد حتى تعلم سورة ، ما أنزل الله فى التوراة ولا فى الإنجيل ولا فى القرآن مثلها» . قال أُبىّ : فجعلت أبطئ فى المشى رجاء ذلك . ثم قلت : يا رسول الله ، السورة التى وعدتنى . قال : كيف تقرأ إذا افتتحت الصلاة ؟ قال : فقرأت الحمد للّه ربِّ العالمين حتى أتيت على آخرها . فقال رسول الله : هى هذه السورة ، هى السبع المثانى والقرآن العظيم الذى أُعطيتُ .

(*) يحقّ أن أستظهر لنظرى هذا فى جملة من السور القصار فأجد ضالتى فى سورة «الحاقة» : قال تعالى : «الحاقّةُ ، ما الحاقّةُ ، وما أدراك ما الحاقّة» الآيات ١ ، ٢ ، ٣ . وقوله تعالى : «القارعةُ ، ما القارعة ، وما أدراك ما القارعة» الآيات : ١ ، ٢ ، ٣ ، من سورة القارعة .

ورُوى عن علىٍّ فى قول الله عزّ وجلّ : ﴿ولقد آتيناكَ سَبْعًا مِن المَثانِى﴾[١] قال : هى فاتحة الكتاب[٢] .

أقول : و«الرحمن»[٣] لفظ ورد بعد اسم «اللّه» فى البسملة . ونعوته الشريفة لزمته فكانت أسماءً كما فى قوله تعالى : ﴿ولِلّه الأسماء الحُسنَى﴾[٤] .

وقال تعالى : ﴿قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيّاً ما تدعوا فله الأسماء الحُسنى﴾[٥] .

وكأن «الرحمن» شىءٌ من أدب الذِّكر ، وكأن العربَ لم يعرفوا هذا بدليل ما ورد فى القرآن وهو قوله تعالى : ﴿وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن أنسجُد لِما تأمرنا﴾[٦] . وقد يكون لنا هذا أيضًا فى قوله تعالى أيضًا : ﴿قل ادعوا الله أو ادْعوا الرحمن﴾ .

ويبدو هذا لدى علماء العربية الذين بحثوا فى المجاز ، ومنهم أبو عبيدة الذى أورد فى كتابه[٧] : «الرحمن مجازُه : ذو الرحمة ، والرحيم مجازُه : الراحم . قال : ويقدّرون اللفظين من لفظ واحد ، والمعنى واحد ، وذلك لاتِّساع الكلامِ عندَهم ، وقد فعلوا ذلك . قالوا : نَدْمان ونديم ، قال بُرجُ بن مُسْهِر الطّائىُّ :

وَنَدْمانٍ يزيدُ الكأسَ طِيباً ... سُقيتُ وقد تغوَّرتِ النُّجُومُ

وقال بُرَيق الهُذَلىُّ :

رُزينا أبا زيدٍ ولا حىَّ مِثْلَهُ ... وكان أبو زيدٍ أخي ونديمي

وأضاف أبو عبيدة :

وفَعْلان لا يجوزُ أن يقالَ إلاّ للّه عزَّ وجلَّ ؛ يقالُ له : رَحمن ، ولا يقالُ لغيره . ورحيمٌ وسميعٌ وعليمٌ يجوز أن يُنعَت به مخلوقٌ ؛ يقال : مررتُ برجلٍ سامع وسميع وعالم وعليهم ؛ قال عزَّ وجلَّ : ﴿وفَوْقَ كلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ .

(١) ٨٧ سورة الحجر .
(٢) كتاب الزينة ص ١٦٥ .
(٣) على «فَعْلان» نعت ذُهِبَ به إلى أسماء الله الحسنى فلزم الألف واللام .
(٤) ١٨٠ سورة الأعراف .
(٥) ١١٠ سورة الإسراء .
(٦) ٦٠ سورة الفرقان .
(٧) مجاز القرآن لأبى عبيدة ١/ ٢١ ـ ٢٢ .

أقول : وأما قول مَن أنشد :

سَمَوْتَ بالمجد يا بن الأكرمينَ أبًا فأنتَ غيثُ الوَرَى لا ريبَ رحمانُ[١]

فلا بدَّ أن يكون شاعرًا أفاد كلمة «رحمان» من لغة التنزيل بعد أن أدركها العرب وجَرَت فى أدبهم فجرَّدَها من أداة التعريف ليكونَ له أن يُطْلِقَها على ممدوحه .

ولم يكن لدى أهل اللغة ولا المفسّرين عِلْمٌ بوجود «الرحمن» فى أدب العرب قبل الإسلام ، والقرآن يَشهدُ على هذا كما ذكرنا من قوله تعالى .

وإذا كان هذا هو حال هذه الكلمة فليس لنا أن نستغربَ خوضَهم فيها وذَهابَهم إلى ما يكون فى السريانية[٢] مما هو رخمان مستدلين ببيت لجرير فى هجاء الأخطل . لقد أشار إلى هذا أبو حاتم فى كتاب « الزينة»[٣] .

أقول : والذى نعرفُه أن مادَّة «رحم» عُرفت فى العربية كما عُرِفتْ فى العبرانية وفى السريانية רחם وكذلك فى كثير من لغات سامية أخرى .

وليس للدارسين الغربيين من المستشرقين أن ينسبوا الكلمة العربية «رحمن» إلى هذه اللُّغات ويعدّوها دخيلةً فى العربية جاءت فى القرآن .

وكأنى هنا وقد انتهيتُ من كلمة «الرحمن» أجدُ أن حاجتى فى الآية الثانية من سورة الرحمن فى «القرآن» : فى قوله تعالى : ﴿علّم القرآن﴾ فأقول :

«القرآن » هو التنزيلُ العزيزُ ، ولا أذهبُ إلى المصدر فى قول أهل اللغة : قَرَأَهُ يقرؤُه قَرْءًا وقِراءة وقُرْآنًا . ويرى الزَّجَّاجُ أن «القرآن» سُمِّى قرآنًا لأنه يجمع السُّوَرَ مستفيدًا ذلك من قوله تعالى : ﴿إن علينا جمعه وقرآنه﴾[٤] .

---

(١) كتاب الزينة ١/ ١٩١ . ولم ينسب أبو حاتم هذا البيت .

(٢) لقد قالوا : إن «رَخْمان» فى السريانية بالخاء المعجمة كما قال جرير فى هجائه للأخطل :

هل تتركُنَّ إلى القسَّيْنِ هجرتَكم وَمَسْحَكم صُلْبَهم رَخمانُ قُربانا

(٣) كتاب الزينة ص ١٩٣ . أقول : ولا أطمئن أن يكون بيت جرير قد ورد فيه «رخمان » بالخاء ، ذلك أن إعجام الحروف فى تلك الحقبة لم يكن قد استتبّ أمره ، وظل غير معروف طوال قرون ، وخير شاهد على هذا مخطوطاتنا القديمة . وبسبب من هذا كان «المشتبه» و«المؤتلف والمختلف» وكان عامّة ما يُعزى إلى التصحيف ، وربما كانت عربية دخلت المعجم القديم ، وكانت قراءات أدرجت فى «الشواذ» .

(٤) ١٧ سورة القيامة .

وقالوا فيه بتسهيل الهمزة ؛ فقد كان الشافعيُّ يقولُ : القُرانُ اسمٌ وليس بمهموزٍ ولم يؤخَذْ من « قرأتُ» ، ولكنه اسم لكتاب الله مثل التوراة والإنجيل[1] .

أقول : وكأنهم قد تردّدوا بين المهموز والمعتلّ ، ولم يفطنوا إلى أن بناء المهموز وبناء المُعْتَلِّ الآخِرِ وسائر المعتل يلتقيانِ ، ذلك أن كثيرًا من العرب أحسّوا ثِقَل الهمزةِ فهربوا منها إلى أصواتِ المدِّ . وقد قرأنا أن قريشًا لم تنبُر ؛ فقد ورَدَ فى الأثر : أن رجلاً قال للنبىّ ﷺ : يا نبىء الله ، فقال النبى : «لا تَنْبُرْ باسمى» ؛ أى لا تهمز ، وفى رواية : فقال إنا مَعشرَ قريش لا نَنْبُرُ .

ثم آتِى إلى «الإنسان» فى الآية الثانية ﴿خلَق الإنسان﴾ فأقول :

ورد «الإنسان» فى لغة التنزيل فى خمس وستين آية غيرَ مَصحوب بشىء غيره فى حين أننا نرى أصلَ الكلمة «إنس» لم يردْ فى الأغلب إلاَّمصحوبًا بـ «الجنّ» فيكون كلّ منهما على التَّعاقُب كما فى قوله تعالى : ﴿وكذلك جعلنا لكلّ نبىٌّ عدواً شياطين الإنس والجنّ﴾[2] ، وفى قوله تعالى أيضًا : ﴿يا معشرَ الجنّ والإنس ألم يأتكم رسلٌ منكم﴾[3] .

وقد وردت كلمة «أُناس» فى خمس آيات فى حين جاءت كلمة «ناس» فى مائتين وأربعين آية .

أقول : ولابدَّ أن نعودَ فى كلمة «الناس» إلى الأصل«إنس» وأن الكلمة اسْتُحدثَتْ لميل المُعْربين إلى الخِفَّة فشاعت ، ويكاد المعربون أن يكونوا قد هجروا الجمع «أناس» .

وقد تعجبُ أن ترى أصحاب المعجمات قد ذهبوا فى «الناس» إلى أنه فى «نوس» ولا أدرى كيف كان من صنعتهم هذه التى آثرت الشكل فى إدراج الكَلِم وابتعدتْ عن الأصل ، وكان الأمرُ يقضى أن يعملوا كما نعمل فى عصرنا فتثبتُ مثلاً «الناس» فى حرف النون مع الإشارة تنبيهًا للقارئ أن ينظر الكلمة فى «إنس» .

غير أنى لا أُبعد أولئك اللغويين عن إدراك العلم ؛ ذلك أنى أجدُ صاحب «اللسان» قد قال فى «الناس» وهى مدرجة فى ترجمة (نوس) : قد يكون من الإنس ومن الجن ،

---

(١) انظر لسان العرب (قرأ) .
(٢) ١١٢ سورة الأنعام .
(٣) ١٣٠ سورة الأنعام .

وأصلُه أناسٌ فخُفِّف . . . .»(١) .

وأعود إلى «الإنسان» فى لغة التنزيل وغيرها فأقول : إن الألف والنون اللَّتَين خُتمت بهما كلمةُ «إنسان» فهى زيادة حسنة جرَتْ عليها العربية فى إحسان الأبنية فكان لنا منها «حَيَوان» للجنس وبمعنى المصدر بمعنى «الحياة» كما فى قوله تعالى : ﴿وإنَّ الدارَ الآخِرةَ لَهِى الحَيَوان لو كانوا يعلمون﴾(٢) .

وقد زيدت الألفُ والنون فى بناء الصِّفَة ؛ نحو : عطشان وغَضْبان وغيرهما ، وفى الأعلام ؛ نحو : سليمان وحمدان وغيرهما .

وقال أهل اللغة : إن الإنْس هم البشرُ ، والواحدُ إنْسىٌّ .

أقول : ولا يستقيمُ لنا هذا ؛ ذلك أنَّ الواحد وهو إنْسىّ قد استُحدِثَ بعد شُيوع معنى الجمع بطريقة النِّسَب كما استُحدِث لفظ «يَهودىّ» و«مجوسىّ» من«يَهود» و«مَجوس» .

وقد ورد جمع «إنسىٌّ» على « أناسىٌّ» كما فى قوله تعالى : ﴿ونسقيه مما خلقنا أنعاما وأناسى كثيرًا﴾(١) .

أقول : كأن هذا يشيرُ إلى أن كلمة «إنس» لا مفردَ لَها ، وأن «إنسىّ» بالنسب انفردتْ عن الأصل فجمعت على «أنَاسىّ» .

ومن المفيد أن أشيرَ إلى أن هذا المفرد المنسوب وهو «إنْسىّ» قد جاء فى الآية ٢٦ من سورة مريم فى قوله تعالى : ﴿فلن أُكلِّم اليومَ إنسيًا﴾ (٤) . وقد ورد هذا فى سورة مريم مراعاةً للنظم فى فواصل هذه السورة التى اتّضح فيها التزامُ الياء المنصوبة ابتداءً من الآية الثانية : ﴿ذِكْر رحمة رَبِّك عبدَه زكريًا﴾ ثم توالت الياءات الأخرى .

ولى أن أعود إلى قول أصحاب معجمات العربية من أن «الإنس هم البشرُ» قبل أن أخلصَ إلى «الإنسان» فى سورة الرحمن وصلته بـ «إنْس» فأقول :

لم يدركْ أصحابُ المعجمات كيف كانت أصول الألفاظ فى العربية ، وكأنَّ هذا لم

(١) لسان العرب (نوس) .
(٢) ٦٤ سورة العنكبوت .
(٣) ٤٩ سورة الفرقان .
(٤) ٢٦ سورة مريم .

يكنْ مما يصطلعون به فى إدراج الكلم بحسب ترتيب الحروف . إن هذا يضطرُّنى إلى أن أبسط ما لدىّ فأقول :

إن الإنس الذى هو مادّةُ هذا الدرس بَعيدٌ عن «البشر» وإن كان كلٌّ منهما ينتهى إلى أنه الخَلْق الذى خلقه اللهُ .

إن البشر ينصرف إلى الواحد وإلى الجمع ذكرًا أو أنثى ، وفى التنزيل العزيز : ﴿أَنؤمِن لِبَشَرَيْنِ مِثلنا﴾[1] .

وقال أهل العربية : والجمع «أبشار» .

أقول : وهذا مما قاسوه وحملوه على نظائره من أنّ ما كان على «فَعَل» فجمعه «أفعال» نحو «قَلَم وأقلام» . ولنستشهد على «بَشَر» بما ورد فى لغة التنزيل للفائدة :

﴿رَبِّ أنّى يكون لى وَلَدٌ ولم يَمْسسْنى بَشَر﴾[2] .

﴿بل أنتُم بَشَر ممّن خَلَقَ يغفر لمن يشاء ويُعذِّبُ من يشاء﴾[3] .

وأجتزئُ بهذا لأشيرَ إلى دِلالة «بَشَر» على الواحد وعلى الجمع .

وأعود لأتَلَمّس أصلَ هذه الكلمة فأجدها فى «البَشَرة» ؛ وهى أعلى جلدة الرأس والوجه والجَسَد من الإنسان ، وهى التى عليها الشَّعَرُ ، وقيل : هى التى تَلى اللَّحْم .

وفى المَثَل : «إنّما يُعاتَبُ الأديمُ ذُو البَشَرة»[4] .

و«البَشَر» جمع «بَشَرة» وهو ظاهرُ الجلد ، وجُمِعت هذه على «أبشار» ، وفى الحديث : «لم أَبعَث عُمّالى ليضربوا أبشارَكم»[5] ، ومنهم مَن قال : إن «أبشار» جمع الجمع لأنه جمع «بَشَر» الذى هو جمع «بَشَرة»[6] .

وأعود إلى «بَشَر» فى لغة التَّنْزيل فأجد قولَه تعالى :

﴿وقُلْنَ حاشَ للّهِ ما هذا بَشَرًا إن هذا إلاّ مَلَكٌ كريم﴾[7] .

---

(١) ٤٧ سورة « المؤمنون» .
(٢) ٤٧ سورة آل عمران .
(٣) ١٨ سورة المائدة .
(٤) انظر «مجمع الأمثال» للميدانى ، وجاء فى معناه : أن يُعاد الدِّباغ ، والقائل يريد : إنما يُعاتَب مَن يُرجَى ومَن له مُسكة عقل .
(٥) انظر : «النهاية فى غريب الحديث والأثر» (بشر) .
(٦) المصدر السابق .
(٧) ٣١ سورة يوسف .

﴿وإذ قال ربُّك للملائكة إنّى خالقٌ بَشَرًا من صَلصالٍ من حَمإٍ مسنون﴾ [١] .

أقول : وكلمة «بَشَر» فى لغة التنزيل تومئُ إلى ما هو هالكٌ وفانٍ وسبيلُه ونهايته الفناءُ ، وأنت تجدُ هذا وقد أقامَهُ الله ـ سبحانه ـ جَنْبًا إلى جَنْب مع ذاته العُلْوية الأزليّة الخالدة :

﴿قل إنّما أنا بَشَر مثلكم يُوحَى إلىَّ أنما إلهكم إله واحد﴾[٢] .

قلتُ : لقد أدرك هذه الفائدةَ – التى لم يدركْها الإدراكَ الكافِىَ الدارسون العربُ من الأوائل والمعاصرين ـ أحدُ الأعاجم المستشرقين وهو المسيو (ر . بلاشير) فى ترجمته الفرنسية للقرآن ، فى حين خَلَتْ من هذه الفائدة الترجماتُ الأخرى فى الفرنسية وغيرها .

فجعل كلمة «mortel» تعنى كلمة «بَشَر» ، وهذه الكلمةُ الفرنسيةُ تعنى ما هو هالكٌ وفانٍ ، وجعل كلمةَ «immortel» وتعنى ما هو باقٍ خالدٌ صفةً لله تعالى [٣] .

وكأنى أنظر إلى مادة «بَشَر» وما هو قريب منها مثل «بسر» و «بثر» فأجدها متقاربة فى اللغات القديمة التى دُعِيت «اللغات السامية» وفيها العربية والعبرانية والآرامية وغيرهما .

فأنت تجدُ مادة «بشر» فى العربية ، وقد بسطت دلالتها ، وتجد نظيرها فى العبرانية «باسار» בָּשָׂר وتعنى : لحم أو جسم ، أو بَشَرَة ثم كان منها ما هو «بَشَرٌ فان» . وقد كان للعبرانيّين توسُّعٌ فيها فكان لهم البِشارة والبُشرى ، والفعل «بَشَر» . ونجد نظيرَ هذا فى اللغة الآرامية السريانية بالسين أيضًا ، وبين السين والشين قرابةٌ صوتية أدّت إلى تقارب فى الدلالة[٤] .

غير أن العربية أفادت من أصولها وتوسّعت فنشأت فيها دلالات قد تكون لعلاقة فى الأصل قوية أو ضعيفة . ولك أن تتصوّر حِذْقَ المعربين الأوائل وتصرّفهم فى هذه المادّة التى دَخَلت فى أحياز عجيبة . وما زلنا نجدُ مثلاً أن «باشَرَ» وهو فعل قَديمٌ له دلالاتٌ

(١) ٢٨ سورة الحجر . (٢) ١١٠ سورة الكهف .
(٣) R.Blachere, le Coran . Maisonevp, paris 1956.
(٤) لقد لمح الفيروزابادى صاحب القاموس هذه القرابة فجمع الكلم فيما ورد بالسين والشين فى رسالة ما زالت مخطوطة .

بعضُها معروفٌ ؛ كأن نقولَ : باشَرَ الأمرَ أى ولِيَه ، قد ذهبنا فيه إلى أن يكونَ منه «العمل المباشر» و«العمل غير المباشر» لما هو Direct وضده Indirect[١] .

وأعودُ بعد هذه المسيرة إلى مادَّة «الإنس» التى أجدُ الكلامَ فيها يغنى بل يَسُدُّ حاجةَ مَن يَتَصَدَّى إلى «الإنسان» وليس من خصوصيَّةٍ فى «الإنس» غير مصاحبتها لمادة «جنّ» فى لغة التنزيل .

أقول : إن أصالة «إنس» للإعراب عن الصَّوت الذى يشيرُ إلى ما هو كائنٌ موجودٌ . وهذا يقضى أن يكونَ الأصل هو «إسّ» أو «إشّ» وكلاهما فى العربية واللغات السّامية يَدُلّانِ على الشىء الكائن . وهذا يدعونا إلى أن نقررَ أن «النون» بعد الهمزة جاء من فَكِّ إدغام أو تضعيف السين فى «إسّ» . إنّ فكَّ الإدغام فى العربية حمل المعربين الأوائل على إبدال النون من السين فى هذه الكلمة ، ونظيرُ هذا نجدُه فى ـ «قَطَّر» التى جاء منها «قَنْطَر» وبهذا نفهمُ قراءةَ من قرأ «سُبُّلة» فى الشواذِّ من القراءات[٢] والشهير المعروف «سُنبلة» والنون فيها من فكِّ تضعيف الباء فى «سبُّلة» وتعويض النون من الباء[٣] .

وأعود إلى أن «إنس» التى كان أصلها «إسّ» فأجد أنَّ دلالة الصوت كانت فى السين المشدَّدة وحدها ، وقد أُتى بالهمزة الأولى ليستقيمَ بناءُ الكلمة الثلاثية .

وقلت : إن «إسّ» ذو دلالةٍ على الصَّوت الذى ترجم فى الكون والوجود ، وأنا أستظهرُ بما فى العربية من «أَيْس» بمعنى الوجود[٤] ؛ فقد ذكر الخليل بن أحمد فى «كتاب العين» ونقله عنه الليثُ : أَيْس كلمة قد أُميتَت ، ولكن العرب تقول : «جِىء به من حيث أَيْس ولا أَيْس»[٥] .

---

(١) أشرت إلى هذا ونظائره فى كتابى «التطور اللغوى التاريخى» من منشورات معهد البحوث والدراسات العربية فى القاهرة .

(٢) انظر مختصر البديع لابن خالويه فى القراءات الشاذة ، و «المحتسب» لابن جنّى .

(٣) إن فك ما هو مضعف من الحروف وتعويض الأول بالنون كثير فى العربية والألسن الدارجة فيها . ومثل هذا تعويض الأول بالراء كما فى «فقّع» التى جاء منها «فرْقع» و «قفّص» و«قرْفص» . وقد يُعوض بالياء كما فى «فنّان» أى ذو فَنَن الذى تحول إلى «فَيْنان» ، ومثله « غنّاء» من أوصاف الروضة قد تحولت إلى «غَيْناء» ، ولنا فى الشاهد اللغوىّ «أيما إلى جنّة أيما إلى نار» فائدةٌ تاريخيةٌ .

(٤) انظر كتاب العين للخليل (أيس) .

(٥) أقول : جاء من «لا أَيْس» الفعل «لَيْسَ» فى العربية ، وللكندى الفيلسوف «رسالة فى الأَيْسيَّة والليْسيَّة» ذكرها العالم الأمريكى «الأب مكارثى» الذى صنع مجلدًا «فهرسًا» لمصنفات الكندى ، ونشره حين كان مدرسًا فى المدرسة الأمريكية التى أسست ببغداد بُعيد الحرب العالمية الثانية ثم أغلقت .

أقول : ومن هنا كان لنا فى العربية «إِيسان» بمعنى «إنسان» ، وهذا يدعونا إلى النَّظر فى نظائر هذه المادَّة فى العربية وغيرها من اللغات السامية ، وهذا يقتضينا أن نقفَ عند «أيش» فنقول :

أَيش : أصلٌ قديمٌ فى العربية يدلُّ على ما هو كائنٌ موجودٌ ، ولكنه أُميتَ وتحوَّلَ إلى غيره بطريقة «القَلْب» فكان لنا «شَىْء» وكأن «الشين» صوت أحسَّ به المُعربُ القديمُ للوصول إلى هذه الدِّلالة المحسوسة ويحسنُ بنا أن ننظرَ فى«أَيْش» التى قيل فيها كلمة «دخيلة» تعنى قولهم : «أىّ شىء» فى أسلوب الاستفهام . لقد ورد هذا فى كتاب «الاقتضاب» لابن السِّيد البَطَلْيُوسى ، وقال :

وصرَّحوا بأنه سُمع من العرب ، وقال بعضُ الأئمة : جنِّبونا أَيْش فذهب إلى أنها مولَّدةٌ .

وجاء فى «شفاء الغليل» للخَفَاجىّ :

وقول الشريف فى حواشى الرضى : إنها كلمة بمعنى «أى شىء» وليست مخفَّفةً منها ليس بشىء ، ووقع فى شعر قديم أنشدوه فى السِّيَر :

* من آل قحطانٍ وآل أَيْشِ *

قال السُّهَيْلىُّ فى «شرحه» : الأَيْشُ يُحتمل أنه قبيلةٌ من الجن يُنسَبون إلى أَيْش ، ومعناه مدحٌ ، يقولون : فلان أيش وابن أيش ، ومعناه : شىءٌ عظيمٌ . و«أيش» فى معنى : «أىّ شىء» كما يقال : وَيْلُمِّه فى معنى « وَيْلٌ لأُمِّه» على الحذفِ لكثْرة الاستعمال . . . انتهى .

أقول : إنَّ ذَهابَهُم إلى الاستفهام فى «أيش» على النَّحت طلبًا للخفَّة ليس بشىء ، وإن الاستفهام الذى قالوا فى «ايش» وغيرها قد يَعرَى من أداة الاستفهام ، وطريقة الأداء تُشعرُ أن المتكلمَ سَائِلٌ مستفهِمٌ . وعلى هذا تكون «أيش» الأصل الذى أميت وتحوَّلَ بطريقة القلب إلى «شىء» ، وهو يقابِلُ فى العربية «أيس» بمعنى الوجود أو الشىء الموجود .

وإنى لأستدلُّ على ما أذهب إليه من أن «إيش» فى العبرانية אִישׁ تعنى «الرجل أو الإنسان» وإن «المرأة» وهى الأنثى للرجل فى هذه اللغة «إيشا» אִשָּׁה . وهذه الكلمة المؤنثة العبرانية مضعَّفة الشين تشيرُ أو تدلُّ على أن فكَّ التضعيف طريقةٌ فى تعويض

أول الحرف المضعَّف من الياء فى المذكَر ، ومن النون فى الجمع «أناشيم».

وقد يكونُ لى عند هذا الحدِّ أن أنتهىَ من كلمة «إنسان» وما يتَّصِلُ بها فأتحوّل عنها إلى «البيان» فى الآية الرابعة فى قوله تعالى : ﴿عَلَّمه البيان﴾ فأقول :

لابدَّ لى أن أعرضَ هنا لما أثبتَهُ أهلُ اللُّغة ولا سيما أصحابُ المعجمات لدلالة «البيان» ، ولكنى أجدُ هؤلاء وقد بدءوا المسيرة فى الكلام على «البَيْن» وهو البعدُ والفُرْقة ، مشيرين إلى فَذْلكةٍ لهم من الفهم فى هذه المادة .

لقد أشاروا إلى أن «البين» يعنى الوَصْل ، بان يَبين بَيْنًا وبَيْنُونةً ، وهو من «الأضداد» كما فى قول الشاعر :

لقد فرَّقَ الواشونَ بينى وبينُها ... فقرَّت بذاك الوصلِ عينى وعَيْنُها

وقال قيس بن ذَرِيح

لعمرُك لولا البينُ لا يُقْطَعُ الهوى ... ولولا الهَوى ما حَنَّ للبَيْنِ آلِفُ

أقول : ليس لنا أن نرى ما زُعم من الضِّدِّية فى دلالة «البين» فى البيت الأول ، ولكن أهلَ اللغة توسَّعوا فى فهم هذه المسأله ليجعلوا لها مكانًا فى العربية ، وأنك بيُسْر تنفى الضِّدِّيَّة من الدِّلالة فى معظم ما قيل فيها ، فأنت تشعرُ أن «البصير» لا يمكنُ أن يكون «الأعمى» إلا متى أريد أن يُحسَنَ القولُ والخطابُ للأعمى فيكون هذا ما يسرُّه بعيدًا عما قيل من تفاؤلٍ لا يتحقّق فى العصور القديمة . ولك أن تَرُدَّ معظم ما جاء من الأضداد إلى العلم فتبعد العربية عما يسىء إليها من إحكام الدلالة .

ثم عرضوا بعد الإفاضة فيما يتصل بالبُعد والفِراق لمعنى آخر فى «البيان» وهو اللَّسَن والفَصَاحة .

أقول : والأصل فى هذه الدلالة التَّوسُّعية هو «الوضوح» ، والفعل بان يَبين بمعنى اتَّضَح ؛ فكأن المعربين فرّقوا للذّهاب إلى معنًى آخرَ فى بناء المصدر فكان «البَيْن» للبُعد والفِراق ، وهو «فَعْل» ، و«البَيان» وهو «فَعال» لهذه الدلالة الأخرى ، والفعل فى الحالَيْن هو هو .

إن قولَ صاحب المعجم القديم فى معنى «البيان» إنه اللَّسَنُ والفصاحةُ هو غيرُ ما نجدُه لدى أهل البلاغة ولا سيما المتأخرين منهم من دِلالة البيان على بعضِ علوم

البلاغة وهى : البيانُ والمعانى والبديعُ . والبيان عند هؤلاء جملة مباحث هى : المجازُ بأنواعه ، والتشبيهُ بأنواعه ، والاستعارةُ بأنواعها والكنايةُ وغيرُ هذا مما يَتّصِل ببعض هذه كلها من قريبٍ أو بعيدٍ .

أقول : وقد فات أصحابَ الدَّرْسِ المعجميِّ أن البدء هنا كان ينبغى أن يَكونَ فى الظَّرْف «بَيْن» الذى يفيد المسافة بين شيئين مكانًا وزمانًا فتكون «بَيْنَ» ظرفًا للزمان كما هى ظرف المكان .

ودلالة الظرف هنا هى التى هَدَت المعربين بل نقلتهم إلى معنى البعد ؛ لأن فيها معنى ما هو فاصل وهو حدٌّ ، وهذا جعلهم يلمحونَ معنى الظهور والوضوح الذى توسّعوا فيه فكان من موادّ الأداء الحسن فى اللَّسَن والفَصَاحة الذى قُيِّد بعد ذلك بخصوصية «علم البيان»[1] .

أقول : لم يفطن أصحابُ المعجمات لمكان «بينَ» الظَّرف الذى هو الأصلُ الذى انتهينا فيه إلى الدلالات الأخرى . وهم فى هذا غيرُ مخالفين لطريقتهم فى عامّةِ الألفاظ التى اشتملَ عليها المعجمُ القديمُ ، فلم يهتدوا إلى ما ندعوه «المسيرة التاريخية» للكلمة[2] .

وأعودُ إلى «البيان» فى قوله تعالى ﴿علّمه البيان﴾ فأجدها قد امتلأت بمعانٍ يدركُها أولو الفهم للكمة القرآنية ، أى : علّمه ما تشيرُ أو تومئ إليه أسرار لغة التنزيل العزيز بعيدًا عن الحدود الضيقة البلاغية إن «البيان» فى هذه الآية يرمى إلى الفهم الصحيح للعربية التى اكتسبت فى لغة التنزيل المرحلةَ الحضاريةَ التى حملت التوجّه المعرفى العالى مما سُمّىَ «فلسفة» لدى المسلمين الذين استعاروا هذا المصطلح من اللغة الإغريقية .

فأنت ترى سَعَةَ هذه اللُّغة العالمية التى أفادت مكانتها السّامِيَةَ من الألفاظ الأولى التى جاءت لأداء غَرَضٍ يسيرٍ ، فأين الظرفُ «بَيْنَ» من كمال الأداء فى «بيان»؟ .

وأتحوّل إلى الآية الخامسة : ﴿الشمس والقمر بحُسْبان﴾ فأقول :

جاءت هذه بذِكْرِ شيئين صحب أولُهما الآخَرَ فى لغة التنزيل ، كأنها هى والآية التى بعدها عَرْضٌ لخَلْق الله ومخلوقاته التى تندرجُ فيما اندرج فيه «بيانه» الذى علّمه

(١ ، ٢) انظر : لسان العرب (بين) .

«للإنسان» . لقد أشارت الآيةُ إلى أن كُلاً من «الشمس» و«القمر» خُلِقا «بحساب» أحكمته قدرة الخالق فكان لكليهما فَلَكٌ فيه يدوران .

ولى أن أتوقّفَ عند «الحُسبان» الذى أريد به «الحسابُ» فأقول : إنّ «الحُسبان» مصدرًا ممّا قضى به النظم [١] الذى جاء به بديع التنزيل فى هذه السورة .

ثم كان من هذا «البيان» الذى تعلّمه «الإنسان» ما جاء من مُزدوج آخر فى الآية السادسة فى قوله ـ عزّ من قائل ـ : ﴿والنجمُ والشجرُ يَسجدانِ﴾ فأقول :

وكما ورد فى الآية اجتماعُ الشمس والقمر من عالم السماء فى قصدٍ للتقابل والتجانس كان مثله فى هذه الآية ضربٌ من تجانس ما فى الأرض ؛ فالنجم ما استلقى على الأرض مما لا ساقَ له من النَّبْتِ مثل الثُّيَّل والعِكْرِش ، وقد تصرَّف فيه المعربون فولّدوا منه الواحد فقالوا «نَجْمة» و«الشجَر» معروف ، واحده الشَجَرة كالثَّمَر والثَّمَرة .

وما ورد فى الآيتَيْن الخامسة والسادسة بعض ما اشتمل عليه «البيان» الذى علّمه ـ سبحانه ـ للإنسان .

وقد بدا من إحكام النظم فى هذه السورة أن قُصد هذا البناء الذى حفل بما هو ثنائى مفيدًا من دلالة التثنية فى العربية التى ذهب فيها معنى الجمع فى ضرب من إيثار المعربين فى عدّ ظاهر اللفظ فى أبنيته بعيدًا عن دلالاته على الجمع .

ثم إن البناء الذى اقتضاه نَظْمُ لغة التنزيل ذهب إلى هذا الذى ألمعت إليه فى الإخبار عن «النجم والشجر» بقوله ـ سبحانه ـ : «يسجُدان» فى إثبات التثنية . وقد أريد بفعل السجود هنا «الخضوع» للّه ، وهو من بعض من هذا المعنى الذى أريد بـ «الإسلام» [٢] ، فعامةُ مخلوقاته ـ سبحانه ـ قاصرةٌ خاضعةٌ لقوّته وحكمته وإرادته .

---

(١) انظر ما أورده الإمام الجرجانى فى دلائل الإعجاز (نشر الخانجى وتحقيق محمود محمد شاكر) فى الصفحات : ٥٥ ، ٨٠ ، ٨٧ ، ٩٣ ، ٢٤٩ ، ٣٥٩ .

أقول : وقد أدرك الجرجانى هذا المصطلح فقصره على سر إعجاز لغة التنزيل فى إحكام بنائها بعيدًا عن معنى النظم فى صنعة الشعر . وكأن الجرجانى أفاد هذا المصطلح من الجاحظ الذى كان من مصنفاته «نظم القرآن» ولكن هذا الكتاب مما لم يصل إلينا من مصنفات أبى عمرو الجاحظ .

وقد وجدت فى «دلائل الإعجاز» كلام الجاحظ فى إعجاز القرآن فى ص ٢٥١ «وما غلط فيه مَن قدّم الشعر بالمعنى ، وأقلّ الاحتفال باللفظ» . ولعل هذا مما اقتبسه الجرجانى من كتاب الجاحظ .

(٢) لقد أفاد الفعل «أسلم » معنى الخضوع لله تعالى فى جملة من الآيات منها : «إذ قال له ربه أَسْلِمْ قال أسلمتُ لربِّ العالمين» ١٣١ سورة البقرة ، وقال تعالى : «وأسلمتُ مع سليمان للّه رب العالمين» ٤٤ سورة النمل ، وقال تعالى : «وأمِرْتُ أن أُسْلِمَ لربِّ العالمين» ٦٦ سورة غافر . وأجتزئ بهذا القدر وفيه كفاية .

وأتحوّل إلى الآية السابعة فى قوله تعالى : ﴿والسَّماءَ رَفَعها وَوَضَعَ المِيزانَ﴾ فأقول : كأن «السماء» عالَمُ الخالق الذى أشار إلى هذا فى قوله : ﴿بديع السموات والأرض﴾ فهى سماوات عدّة أبدعَها فهُو المبدعُ البادئُ لها وللأرض فى جِرْمها القمىء الذى علا فيه «الإنسان» وطَغَى وتجبَّر .

قلت : إن للخالق جِماعَ هذه «السماوات» ومنها «السماءُ المرفوعةُ» المشارُ إليها فى هذه الآية التى استوحى منها المعربون «السُّمُوّ»[1] . وليس «السُّمُوُّ» هو «العُلُوّ» بل هو أجلُّ من هذا ؛ ذلك أن «العلو» يُقاسُ بالمكان والزمان ، ولا يمكنُ لهذا القياس أن يكونَ فى «السُّمُوّ» .

وقد «وَضَع الميزانَ » وأراد بالوضع هو النزول والانحاط إلى هذه الأرض التى أرادت حكمته ـ جلَّ وعلا ـ أن تكون دارَ عدل ومعاش للناس ترتضيها إنسانيةٌ طاهرةٌ ، فهل أفلح الإنسانُ فى تحقيق هذه «الإنسانية»؟ لقد أومأ فى هذه الآية فأثبتَ كلمةَ «الميزان» .

وأعود إلى عنصر النَّظْم فأجدُ الثنائى الذى عَمَرت به هذه السُّورة فى جملة من آياتها ، هذا النظم الذى أُحسِن فيه الأداء فحسن الوصول به إلى المعنى .

وإذا كان فى هذه السورة عَرْضٌ لآلاء الرحمن ونِعَمِه فلا بدَّ من البناء فى «الميزان» الذى أريد به العدل فكان لنا من ذلك ما نتلوه فى الآيتين الثامنة والتاسعة ، وهما :

﴿ألاّ تطغَوا فى الميزان* وأقيموا الوزنَ بالقسط ولا تُخسِروا الميزان﴾ و«ألا» فى هذه الآية يُذهَب بها إلى النَّهيِ ، وهى أداةٌ مركبةٌ من «أن» و«لا» [2] ويدلّنا على إرادة النهى ، الآية التاسعة : ﴿وأقيموا الوزنَ بالقسْط ولا تُخسروا الميزان﴾ .

أقول : فى هاتين الآيتين عادت بنا السورة لتبسط ما أَمَرَ به اللّه وما نهى عنه ليستقيم لبنى الإنسان ما كتب لهم من حياة . لقد نهى عن «الطغيان» فى «الوزن» والوزنُ هنا هو المقصودُ وإن اقتضى حسن الأداء إثبات «الميزان» من أبنية الآلة .

---

(١) إن معنى «السموّ» مستفاد من الاسم «سَماء» ، وهذا يعنى أن ما دعاه أهل النحو «مصدرًا» ليس أصلاً ، فالأصل هو الاسم ، وهذا يتحقق فى أسماء المعني كافة التى أخذت من الاسم ، فقد لُمح «العلوّ والعلاء» من حرف الجر «على» . وأستطيع أن أذهب إلى أن «العَقْل» استفيد من «عقال» الجمل وهو حبل .
وأعود إلى «السموّ» الذى أحسن المعاصرون فى إدراكه إدراكًا ابتعدوا فيه عن العلوّ فقالوا مثلاً : سموّ الأمير ولم يقولوا علوّ الأمير . وربما تجاوز المعاصرون حقيقة «الجلالة» فى إطلاقها دعاء للملوك ، وأصل الجلالة والجلال للملك الخالق الرحمن فى قوله تعالى : «ويبقى وجه ربّك ذو الجلال والإكرام» ٢٧ سورة الرحمن

(٢) أقول : إن الأداة المركبة أفادت النهى ، وليس فيها معنى العرض والتحضيض الذى عُرف فيها لما عُرف فى «هلاّ» .

إن نسبة «الطغيان» بل إضافته إلى «الميزان» أريدَ بها تصوير الإساءة فى الوزن التى عُدّت تجاوزًا جاوز القَدْر كالكُفْر . ومثل هذا ما ورد فى الحديث الشريف : «إن للعلْم طُغْيانًا كطغيان المال»[١] ، أى يحمل صاحبه على الترخُّص بما اشتبه منه إلى ما لا يحلّ له ، ويترفَّعُ به على مَن دُونَه ، لا يعُطى حقَّه بالعمل به كما يفعل ربُّ المال . وكلُّ مجاوزٍ حدَّه فى العصيان طاغٍ .

ثم ضُبط هذا فى الآية التاسعة بأمره تعالى : ﴿وأقيموا الوزنَ بالقسط ولا تخسروا الميزان﴾ .

قال : ينبغى إقامةُ الوزن بالقِسْط أى : العَدْل ، والفعل «أقسَطَ»[٢] أى عدل . وجاء من هذا أيضًا قوله تعالى : ﴿وزِنوا بالقِسْطاس المستقيم﴾[٣] .

ثم أكّدت الآية إرادة العدل فقال ـ سبحانه ـ : ﴿ولا تُخسِروا الميزانَ﴾ أى لا تجعلوا الوزن يخسر فيه طالبه ، وبُنى الفعل على «أفعَلَ» لزيادة التعدية ؛ كأن المراد : لا تُخسروا طالبَ الوزنِ ، الوَزنَ .

ونعود إلى الأرض فى الآية العاشرة ﴿والأرضَ وَضَعَها للأنام﴾ فأقول :

أريدُ أن أقفَ وقفةً خاصّةً على «الأنام»[٤] الذين وَضَع لهم الحقُّ ـ سبحانه ـ الأرضَ ، فأثبتَ شيئًا لم يكنْ للمجتهدين من اللُّغويين والمفسرين فأقول :

إن «الأنام» كما ذكر أهلُ العربية ما ظهر على الأرضِ من جميع الخَلْقِ .

قال المفسّرون فى قوله عز وجلّ : «والأرضَ وضعها للأنام» : هم الجنُّ والإنسُ . والدليلُ على ما قالوا أن الله تعالى قال بعَقِب ذكره «الأنام» إلى قوله «والرَّيْحان ، فبأىِّ آلاء ربِّكما تُكذِّبان» ولم يَجْرِ للجنّ ذِكْرٌ قبل ذلك ، إنما ذكر «الجانَّ» بعدَه فقال ﴿خَلَقَ الإنسان من صَلْصال كالفَخّار* وخلَقَ الجانَّ من مارج من نار﴾ والجنّ والإنس هما الثَّقَلان ، وقيل : جازَ مخاطبةُ الثقَلَين قبل ذكرهما معًا لأنهما ذُكِرا بعَقِب الخطاب ؛ قال المُثَقِّب العبدىّ :

(١) انظر : «النهاية فى غريب الحديث والأثر» لابن الأثير (طغى) .

(٢) أقسَطَ بمعنى «عَدَل» ، ويقابلها «قَسَطَ» بمعنى جارَ وظلم . وقال أهل العربية إن الهمزة فى «أقسَطَ» للسلب مثل وَعَد وأوعَدَ ومثل هذا جملة من الأفعال . ولنا أن نجد فى «أعرَب» ما يومئ إلى همزة السلب ، وكأن « الإعراب» فى النحو وتعلّمه يشير إلى «العجمة» .

(٣) ٣٥ سورة الإسراء .

(٤) هل لنا أن نكتفى بما أُدرج فى معجمات العربية فنجد الأنام فيما أوّله همزة فيضيع بذلك علم كثير ؟ !

فـمـا أَدْرى إذا يَمَّـمْتُ أَرْضًـا أُرِيدُ الخـيـرَ ، أيُّهـمـا يَلِينى
أألخَـيْـرُ الذى أنا أَبْتَـغـيـهِ أَم الشَّـرُّ الذى هو يَبْتـغـينى (١)

فقال : «أيُّهما» ولم يَجْرِ للشرِّ ذِكرٌ إلا بعد تمام البيت .

أقول بعد أن بَسَطتُ ما قيل فى «الأنام» فيما ورد فى الآية ، وما أضيفَ إليه من علم قديم : لم يصل اللغويون على جهدهم المفيد إلى أصول هذه الكلمة ؛ ذلك أنى لم أقفْ على «الأنام» إلاّ فى هذه الآية ، ولو كانت فى شىءٍ من أدبٍ قديم لجاء إلينا بها أهلُ العربية وأهلُ التفسير الذين استدلُّوا على الكلمات الإسلامية بما وردَ فى أدب العرب .

وكأنى أنظر إلى هذه الكلمة فأجدُ أصلَها فيما دلَّ على صوت وهو «النَّأْمة» ، قالوا : النَّأْمَة : الصَّوْتُ ، والنَّئِيمُ : صوتٌ ضعيفٌ كما ورد فى باب «فعيل» للدّلالة على الأصوات كالزَّحير وغيره .

وقد يكون لى أن أشقَى بما شقى به الأقدمون فى بسط الألفاظ القديمة ومعانيها :

قالوا : النَّئيم هو الصَّوْتُ الضعيفُ الخَفىُّ أيّاً كانَ ، وقالوا : نَأَمَ الأسدُ يَنْئِمُ نَئِيمًا : وهو دون الزئير . وقال ابنُ الأعرابىّ : نَأَمَ الظبىُ يَنْئِمُ ، وأصله فى الأسد ، وأنشد :

ألا إنّ سَلْمَى مُـغْـزِلٌ بِتَـبـالَةٍ تُراعى غَزَالاً بالضُّحَى غيـر تَوْأَمِ
مَـتَى تَستَـثِـرْهُ من مَنامٍ ينامُـهُ لتُرضِعَـه ، يَنْئِمْ إليـهـا ويَبْـغَمِ(٢)

أقول : وقد تصرَّفوا فى «النَّئيم» فصرفوه إلى صوت البُوم وصوت القوس ، وكان فى كل ذلك أدبٌ قديمٌ .

وأعود إلى دلالة الصوت فى «النَّأْمة» التى وصلتْ بها لغةُ التنزيل العزيز إلى معنى الخَلْق فأقول : لقد وجدنا نظير هذا فيما بسطناه فى كلمة «الإنس» فى درسنا هذا .

فالأنامُ : أهل الأرض الأوّلون فى قوله عزّ مِن قائلٍ ، ثم كان لهم ما كانَ من نِعَم اللَّه فى تلك الأرض فكانت فاكهةٌ وكان نخلٌ ، وقوله : ﴿ذاتُ الأكمام﴾ من لوازم النَّخْل عدا عن كونه تتمةً واجبةً لإحسان «النظم» .

---

(١) ديوان المثقب العبدى ، تحقيق خليل العطية ، بغداد .
(٢) لسان العرب (نأم) .

فما «الفاكهة» وما «النخل» فى قوله تعالى : ﴿فيها فاكهةٌ والنخلُ ذاتُ الأكمام﴾ فى الآية الحادية عشرة ؟ ما زالت الآية فى بسط الثنائى المتجانس ، فالفاكهةُ جملةُ الثمار ، وعلى هذا فثمار النخيل والكروم من الفاكهة . وليس لنا أن نقول فى قوله تعالى : ﴿فيهما فاكهةٌ ونَخلٌ ورُمّان﴾[1] ، فيه تفضيل للنخل والرمّان على سائر الفواكه . إنه من باب ذِكْر العامّ جملةً يعقُبُه تخصيصٌ ، وهو كقوله تعالى : ﴿مَن كان عدوّاً للّهِ وملائِكتهِ ورُسُله وجِبريلَ وميكالَ﴾[2] من قِبلَ أن جبريل وميكال من الملائكة .

وقوله : «ذات الأكمام» صفة للنخل خاصة ؛ فالأكمام كما أفاد الزَّجّاج فى «معانى القرآن» : ما غطّى من النخلة جُمّارَها من السَّعَف واللِّيف .

وليس لى ، وأنا فى هذه الآية الكريمة ، إلا الإشارةُ عن فضيلة «النظم» الذى ذُهب به إلى مشاكلة الأبنية ، فأنت مع «الأكمام» غيرُ بعيد عن «الرحمن» و«الإنسان» و«القرآن» و«البيان» و«الميزان» ، وهكذا تندرج «الأكمام» و«الأنام» بعيدًا عن خصوصيّة السجع .

ثم آتِى إلى بعض آلاء الرحمن ونِعَمه فى الأرض فأجدُ «العَصْف» فى الآية الثانية عشرة وهى قوله تعالى : ﴿والحَبُّ ذو العَصْف والريحان﴾ .

ولا بد أن أفزعَ إلى أهل العربية الذين انصرَفوا لتأويل كلماته ـ سبحانه ـ فى هذه الآية وغيرها فأجدهم قالوا : إن «العَصْف» ما كان على ساقِ الزرع من الوَرَق الذى ييبسُ فيتفتَّتُ . وقيل : هو ورقه من غير أن ييبسَ ، وقيل : وَرَقه وما لا يُؤكَل . . . . وقيل : هو ما على حَبّ الحنطة وغيرها من قشور التبن ، وتوسَّعوا فى هذا ولم يتجاوزوا كونَه الورقَ . غير أنهم وقفوا عند «الرَّيحان» ؛ فقد ذهبوا إلى أنه الرزقُ الذى يُؤكَل .

ودفعهم العصف إلى التماسه فى قوله تعالى : ﴿كعَصْفٍ مأكول﴾[3] .

وإذا كان لى أن أفيدَ معنى العَصْف مع اختلاف أقوالِ الأقدمينَ ، فليس لى أن أقبلَ دلالةَ «الريحان» .

---

(١) ٦٨ سورة الرحمن .

(٢) ٩٨ سورة البقرة ، وانظر لسان العرب (فكه) .

(٣) ٥ سورة الفيل .

وقد عرض الفرّاء لقوله تعالى : ﴿والحبُّ ذو العصف والريحان﴾ [١] فقال : العَصْفُ : ساقُ الزرع ، والرّيحان : وَرَقُهُ .

أقول : كأنّ الفرّاء ، وغيره من أهل العلم بالتنزيل أفادوا هذا من قول الرسول الكريم لعليٍّ - ﷺ - : «أُوصِيكَ برَيْحانَتَيَّ خَيْرًا قبل أن يَنْهَدَّ ركناك»[٢] . وأراد برَيحانَتَيْه «الحسن والحسين» - رضى الله عنهما - .

غير أنى لا أقبل قَولَ الفرّاء وغيره بل أرى «الرَّيحان» هنا غير بعيدةٍ عن الأصل «رَوْح» فى قوله تعالى : ﴿ فرَوْح وريحان ﴾[٣] وقد أريد بهما : الرحمة والرزق ، ولا أبعدُ عن «الريحان» الطِّيب الذى تعصِفُ رِيحُه .

وأعود إلى «النظم» الذى غَلَبَ على هذه السُّورة فأخصُّه بقيمة ما كان بسببه قد أُتِى بهذه الأفانين الطَّيِّبة .

ثم أخلص إلى الآية الثالثة عشرة وهى قوله تعالى : ﴿فبأيِّ آلاء ربِّكما تُكذِّبان﴾ فأقول : جاءت هذه الآية بعد أن بسط الحقُّ - سبحانه - قُدْرَتَه وبيانه فى القرآن العظيم الذى علَّمه للإنسان فأتى على ما كان فى عالم السماء ، وهو حوزته وملكوته من مخلوقاتٍ منها الشمسُ والقمرُ اللذان أحكمهما بحسابٍ ، ثم تحوّلَ إلى عالم الإنسان وما زُوِّد به من منافعَ ونِعَمٍ وآلاء فكان على الإنسان أن يكون كما أراد ربُّه فى سلوكه وسيرته .

أقول : كأن الحقَّ - سبحانه - أراد أن يخاطبَ الإنسانَ بعد ما كان مما بسطه قائلاً :

أنَّى لك أن تجحد آلاءَ رَبِّكَ الخالق العظيم؟!!

أقول : لم يكنِ الخطابُ للواحد الذى يُرادُ به الجمعُ وهو للإنسان فى مفهومه الواسع ، بل ذهب الخطاب إلى التثنية وفى هذا قَدْرٌ من التأويل لا بدَّ أن ننتهىَ إليه فنقول :

---

(١) انظر : معانى القرآن للفراء فى شرح هذه الآية .

(٢) انظر : النهاية فى غريب الحديث والأثر (ريحان) .

(٣) ٨٩ سورة الواقعة .

أقول : إن مادة «روح» ومعها «ريح» مادة واحدة ، وكأن الأصل فيهما هو ما يَصدُر من «النَّفَس» ومن هنا نستطيع أن ندرك قوله تعالى «ونفخنا فيها من رُوحنا» . ولك أن تفهم من هنا صلة «النَّفَس» الإنسانية الأولى بـ «النَّفَس» بفتحتين . وليس لنا أن نبعد عن هذا صلة «النَّسْمة» بمعنى «النَّفَس» الواحدة بـ «النَّسْمة» واحدة « النَّسَم» ، ومن ذلك القول : بارئ النَّسَم .

قلتُ : إن «النظم» الذى سِيقت فيه الآياتُ فى فواصلها ربما هَدَى إلى أن تكون التثنيةُ مما يدخل فى هذا البناء . لقد عرفنا جملةً من المزدوجات الثنائية فكان لها أن تنتهىَ فى هذه الآية التى أريد بها أن تكونَ حُجَّةً على مَن سعى إلى الجَحْد والتكذيبِ . كأن ما كان من ظلم الإنسان لنفسه وابتعاده عن الحق هو سبب تكرار هذه الآية اثنتين وثلاثين مرّةً لتقريعه وتبكيته . وهى فى كلِّ مَرَّة تعرضُ بعد مضىّ من الله ـ سبحانه ـ فى بسط آلائه ونِعمَه وتذكير بسلطانه وقدرته ، وفى ذلك إشارةٌ إلى ضَعف هذا الإنسان الذى طَغَى فى جنب الله وكذَّب آياته .

ثم أعود إلى التثنية فى خطاب هذه الآية بعد ذكر الثنائيات فأقولُ : إن التزام التثنية كان من مذهب العرب فى ترسُّلهم ، ألم نعرفْ كم توجَّه الشعراءُ بالتثنية وقد أرادوا الواحد . ولعلّهم ولّدوا هذا المخاطب مستحسنين الخطاب حتى إن عدموا هذا الواحد فقالوا : «خَليلىّ» و«صاحبىّ» و«ساقيىّ» ونحو هذا .

قد يقال : إن العربىّ القديم فى حلِّه وتَرْحاله قد عانَى الَوحْدَةَ فهو يُبْغضُها فاستعان بمخاطب له ، وذهب فى هذا إلى الاثنين ليكونَ من حضورهما معه جَمْعٌ ، والجمعُ قوّةٌ . وهل لنا أن نقولَ : إن «صاحبَى السجن» فى قوله ـ سبحانه ـ : ﴿يا صاحبَى السجن أَ أَرْبابٌ متفرّقون خَيْرٌ أم اللهُ الواحد القَهّار﴾ مِن هذا؟ .

ليس لنا أن نقطعَ بشىء من هذا ، ولكننا قد نقطع أن الشاعر القديم قد سعى إلى «خليليه» ليشعر بقُوَّتِه فى هذا الخطاب البديع ؛ فقال :

خَلِيلَىَّ فيما عِشْتُما هل رأيتُما قتيلاً بكى من حُبِّ قاتِلِه قَبْلِى؟

وأنت تقرأ قول أبى تمام :

يا صاحبىَّ تقصَّيا نَظَرَيْكُما تَرَيَا وُجوهَ الأَرضِ كيف تَصَوَّرُ

فقد زاد فى الاحتفال بالتثنية فثنّى «النظر» .

وقد رأينا من قبل أبا نواس فى قوله :

أجارة «بَيْتَيْنا» أبوكِ غيورُ ....

وهذا هو المتنبى الذى قال :

يا ساقِييَّ أَخَمْرٌ فى كُئوسِكُما أم فى كُئوسِكما هَمٌّ وتَسْهِيدُ؟

ثم ما «الآلاء» التى أشاع استعمالها فى هذه الآية وتكرارها على نحو ما رأينا فى عامّة هذه السورة استعمالاً جعلها حيّة معروفة فى هذه اللغة السمحة؟ .

الجواب : قال أهلُ العرب : إنها بمعنى «النِّعَم» واحدها «أَلَى» و«إِلْيٌ» و«إِلَى» .

أقول : واشتهر «الجمع» فى هذه ولم يُعرف المفرد ، ولم يَرد من استعمال المفرد إلا بيتُ الأعشى :

أبيضُ لا يَرهَب الهُزالَ ، ولا يَقْطعُ رَحْمًا ولا يخونُ إلا

قال ابن سِيده : يجوزُ أن يكونَ «إلا» هنا واحد «آلاء» الله ، و«يخونُ» يكفُرُ .

أقول : ليس لنا إلا هذا البيتُ ، والشاعرُ كثيرًا ما يسعى إلى توليد ما لم يكنْ من كلام العرب لحاجة لغة الشعر . إن الجمع هو المعروف الكثير ؛ ففى الحديث «تفكَّروا فى آلاءِ الرحمن ولا تفكَّروا فى الله» . وفى حديث عليٌّ - ﷺ - : «حتى أورَى قَبَسًا لقابسٍ آلاء الله» [١] .

وقال النابغةُ :

همُ المُلوكُ وأبناءُ الملوكِ ، لَهُمْ فَضْلٌ على النّاس فى الآلاءِ والنِّعَمِ

أقول : وقد يشتهرُ استعمال الجمع ويقلّ استعمال المفرد كأنه قد أُلغيَ ومن هذا : الأوشاب ، ومقلوبه الأوْباش ، والإنحاء ، والأنحاء ، والأرجاء وغيرها .

ثم آتِى إلى الآية الرابعة عشرة فى قوله تعالى : ﴿خَلَقَ الإنسان من صَلصال كالفخّار﴾ فيكونُ لزامًا بعدها أن يأتى قوله فى الآية الخامسة عشرة : ﴿وخَلَقَ الجانَّ من مارجٍ نار﴾ فأقول :

عادَ سبحانه فبسط من سلطانه وقدرته فأشار إلى خَلْقه الإنسان ، فكان من «صَلْصال كالفخّار» . قال أبو إسحاق : الصلصالُ : الطينُ اليابسُ الذى يَصِلُّ من يُبْسه ؛ أى : يُصَوِّتُ ؛ وهو ما لم تُصِبْه النّارُ ، فإذا مَسَّتْهُ النارُ فهو حينئذٍ «فخّار» وهو ضرب من خَزَف [٢] .

(١) انظر النهاية فى غريب الحديث والأثر (آلاء) .
(٢) معانى القرآن للزجاج (صلصال) .

و«الجانّ» هو : أبو الجِنّ ، وخلق من نار كما قالوا . وهو «الجنّ» أيضًا ، وهو اسم جمع كالجامل والباقر . وفى التنزيل العزيز : ﴿لم يَطْمثهُنّ إنسٌ قبلهم ولا جانّ﴾ [١] .

ولى وقفة فى «الجانّ» بالألف وتشديد النون فأقول : لقد أحسّ المعربون بثقلها ، وهذا الثقل مُتَأَتٍّ من طول المقطع الذى يُحْدِثُهُ طولُ الفتح فيما دُعِى ألفًا ثم النون المشدّدة بعدَه ؛ ولذلك هُمِز فى قراءة عمرو بن عُبَيْد وقرأ : «فيَومئذ لا يُسأل عن ذنبه إنسٌ ولا جَأَنٌّ» وهذا من قراءة أيّوب السّخْتيانى فى الفاتحة «ولا الضَّأْلِّين»[٢] .

و«المارجُ» كما قالوا : اللَّهَب المختلط بسواد النار .

أقول : والأصلُ فى «المَرْج» الخَلْط . وفى حديث عائشة : «خُلقَت الملائكة من نور ، وخُلق الجانّ من مارجٍ من نار» .

ولابدَّ أن تأتىَ بعد هذا الآيةُ التى حفلت بتكرارها السُّورةُ وهى ﴿فبأىّ آلاء ربّكما تُكذِّبان﴾ .

ولى أن أعودَ إلى ما قلته فى أول هذا الدرس من ذهاب نظرى إلى أن «الرحمن» كالسور المكيّة ، التى حفلت بتبكيت الكفّار والمشركين وتذكيرهم بعذاب الله .

وقد نعت الخالقُ ذاتَه فقال : ﴿ربُّ المشرقَيْنِ وربُّ المغربَيْنِ﴾ . هذا النعتُ لدى أهل التأويل ينصرفُ إلى مَشْرِقَيْن ومغربَيْن اثنين ، فكأن المشرقَ والمغربَ فى الشتاء غيرُهما فى الصيف . وقد يكون المشرق فى صُقْع من الأرض غيره فى إقليم آخر ؛ ولهذا جاء قوله تعالى :

﴿وأورثْنا القومَ الذين كانوا يُستَضعَفون مشارقَ الأرض ومغارِبَها التى باركنا فيها﴾[٣] .

﴿فلا أُقْسِمُ برَبِّ المشارق والمغارب إنا لقادرون﴾[٤] .

---

(١) ٥٦ سورة الرحمن .

(٢) وقد كان مثل هذا الهمز فى كل كلمة فيها مقطع طويل لا يدخل فى لغة الشعر ، ومن هذا قول كثيرّ :

وأنت ، ابنَ ليلى ، خير قومك مشهَدًا إذا ما احمأَرّت بالعَبيط العوامِلُ

قال : احمأَرّت ، والأصل « احمارّت» .

(٣) ١٣٧ سورة الأعراف .

(٤) ٤٠ سورة المعارج .

وأَعـقبَ هذه الآيةَ التى أشـارت إلى سَعَـة وجوده فى كلِّ مكان بالآية التى لزمت السورة ، وفيـها تقريرٌ لعظمته وسَعَة وجوده وإيماءٌ لهذا التقرير بأسلوبِ الاستفهام فى قوله : ﴿فبأىّ آلاء ربكما تكذِّبان﴾ .

ثم كان من هذه السَّعَة فى المشارق والمغارب إشارةٌ إلى البحرين يلتقيان فى قوله : ﴿مَرَجَ البحرَيْنِ يلتقيان﴾ . قال أهل التأويل من علماء العربية : إن الله مَرَج البحرَيْن العذبَ والمِلْحَ بمعنى خَلَطهما حتى التقيا[١] ، إفادةً من دلالة «المَرْج» ؛ وهى الخلط .

وقال الفرّاء : أرسلهما ثم يلتقيان بَعْدُ ، وقيل : خلاَّهما ثمّ جعلهما لا يلتبس ذا بذا[٢] .

وقال الزجاج «مَرَجَ» بمعنى خَلَط ، يعنى : البَحْرَ المِلْحَ والبَحْرَ العَذْبَ . ومعنى قوله : «لا يبغيانِ» أى لا يبغى المِلْحُ على العذب فيختلط .[٣] .

أقول : كأنى لا أرى أن «مَرَجَ» هو الفعل بمعنى «خَلَط» ، وقد يكون لى أن أرى أنها الكلمةُ نُصبت كسائر الظروف المكانية[٤] . و﴿مَرَجَ البحرين﴾ قد أراه الموضع الذى يلتقى فيه البحرانِ الشرقىُّ والغربىُّ ، فيتمُّ اللّقاءُ ، وعُبِّر عنه بالفعل «يلتقيان» .

كأن هذا الموضع هو «البَرْزَخُ» الذى أشار إليه قوله : ﴿بينهما بَرْزَخٌ لا يبغيانِ﴾ .

أقول : والبَرْزخ هو الحاجزُ بين الشيئَيْنِ فى العربية ، غير أن أهل التأويل قد وقفوا عليه فى لغة التنزيل فأَتَوْا بفوائد فقالوا :

البَرْزَخُ : ما بين الدنيا والآخرة قبل الحشر من وقت الموت إلى البعث ؛ فمَن مات فقد دخل البرزَخ[٥] . وقال الفرّاء فى قوله تعالى : ﴿ومن ورائهم برزخ إلى يوم يُبعثون﴾[٦] ، قال : البرزخُ مِن يومِ يموت إلى يوم يُبعَث[٧] .

---

(١) لسان العرب (مرج) .
(٢) معانى القرآن للفراء (سورة الرحمن) .
(٣) معانى القرآن للزجاج (سورة الرحمن) .
(٤) يتوسّع المعربون كثيراً فى الكلم فيلمحون فيها ما يفيد الظرف فينصبونها فى كلامهم ؛ ألا ترى أنك تقول : لبثتُ بعضَ يوم ، والظرف هنا هو « بعض»؟؟ .
(٥) انظر «البرزخ» فى «النهاية فى غريب الحديث والأثر» .
(٦) ١٠٠ سورة المؤمنون .
(٧) معانى القرآن ، سورة الرحمن .

أقول : كأن فى قول الفرّاء هذا أن «البرزخ» يحتملُ الزمان أيضًا مع خلوصه إلى المكان .

ثم بعد هذا يأتى استفهامه ـ سبحانه ـ فى تبكيت المُكذِّبينَ فى الآية التى لزمت عامّة السورة .

وإذا كان الكلامُ على «البحرَين» فلا بدَّ من إشارة إلى ما يَخرجُ منهما من «اللؤلؤ والمَرجان» ، وأن فيهما مما له ـ سبحانه ـ الجوارى التى تشخصُ فى البحر كالأعلام ـ أى الجبال ـ وهى التى تجرى فى بحاره ويفيدُ أهلُها من آلائه .

فكيف يكون منكم يا بنى الإنسان حجودٌ وإنكارٌ؟!!

ثم كانت الآية التى أفادت أن كل مخلوقات الله لابدّ أن تغنى ، ويبقى الله ذو الجلال والإكرام ؛ فكيف يَحصُل أن يُكذَّبَ على رحمته وقدرته وما كان من «آلائه» .

ثم لابدَّ أن نعرف ما «الثَّقَلانِ» فى قوله تعالى : ﴿سَنَفْرُغُ لكم أيها الثقلان﴾

قالوا : هما «الجنّ والإنس» .

أقول : وهذا التأويلُ مستفادٌ مما ورد فى هذه السُّورة غير مرة .

قلت : إن هذه السورة اقتضى النظمُ فيها أن تحملَ معنى الاثنين الذى ظهر فى الثنائيات المزدوجة التى اجتمع فيها الشىءُ ونظيرُه ، فكان من ذلك سياقٌ حسن فيه التناسُبُ والتلاقى . وكان من هذا ظهور التثنية فى «البحرين» و«المشرقين» و«المغربين» وفى بناء الأفعال التى عادت إلى المثنى كما فى «يلتقيانِ» و «يبغيان» و«تكذِّبان» وغيرها . وسنرى أن لهذا النظم أثرًا فيما ينبغى أن يكون التأويل .

وأعود إلى «الثَّقلين» اللذينِ خُوطِبا فى الآية التى أُريدَ بها بيانُ قُدْرَة كلٍّ منهما ؛ وهى قولُه تعالى فى الآية الثانية والعشرين :

﴿يا مَعْشَرَ الجنِّ والإنس إنِ استَطَعْتُم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان﴾ . وكأنّ فى قوله تعالى هذا إشعارًا لهم أنهم لا يقدرون على هذا ، ولا يتأتّى لهم ذلك إلا بسلطان . والله ـ سبحانه ـ لهذا ذكّرهم بما يكون من سَطْوَتِهِ فى تعذيبهم لأنهم جحدوا وأنكروا ؛ فقال :

﴿يُرْسَلُ عليكما شُواظٌ مِن نارٍ ونُحاسٌ فلا تنتصران﴾ .

«الشُّواظُ» كما قال أهل اللغة : هو اللَّهَبُ الذى لا دُخَانَ فيه ، وفى هذا استشهدوا بقول أميّة بن خلف يهجو حسّان بن ثابت :

أَلَيْسَ أبوكَ فينا كان قَيْنًا	لدى القَيْنات فَسْلاً فى الحِفاظِ
يمانيًا يَظَلُّ يَشُدُّ كِيرًا	ويَنْفُخُ دائِبًا لَهَبَ الشُّواظِ[1]

وهذا يقتضى أن يُبْسَطَ القولُ فيما يكون من صنع الله كما أشارت الآية :

﴿فإذا انشقّت السماءُ فكانت وَرْدَةً كالدِّهان﴾ .

قال الفَرّاءُ : يشبِّه السماء فى اختلاف ألوانِها بالدُّهْنِ واختلافِ ألوانه ، وقال أيضًا : ويقال : الدِّهانُ : الأديمُ الأحمرُ ؛ أي صارت حمراءَ كالأَديم[2] .

وتمضى الآيات فى هذا السياق مع إرادته ـ سبحانه ـ أن يشير إلى ما ينتظر المكذِّبين من حساب فيقول : ﴿فيومئذٍ لا يُسْأَل عن ذنبه إنسٌ ولا جانٌّ﴾ .

وفى عدم السؤال إقرار أنه مكتوبٌ فى صحيفةِ كلِّ مَن يُحشَر ، وقد عُدِل عن الجنّ فكانت كلمة «الجان» لموضع النظم ، والمعنى واحد . وصاحب التلاوة يُشعر بل يومئ إلى تخفيف قليل للنون لحسن الأداء .

وهنا تردُ جهنمُ للمجرمين كما ترد الجَنَّةُ للمتَّقين ؛ فقال ـ سبحانه ـ :

﴿هذه جهنَّم التى يكذِّب بها المجرمون* يطوفون بينها وبين حميمٍ آنٍ﴾ .

و«الحميم الآن» : الماءُ الذى انتهى إلى آخر ما يكونُ من حرارةٍ ، فكيف كان منهم جَحْدُهم وتكذيبُهم؟ .

وأما الذين اتّقوا فلهم الجَنَّةُ التى قال فيها : ﴿ولِمَن خافَ مَقامَ ربّه جنّتان﴾ .

وليس لى أن أذهبَ إلى ما ذهب إليه المفسرون فقالوا : جنّة للإنس وأخرى للجنّ ، وقيل : جنّة لمن اتّقى وقدّم الطاعاتِ ، وأخرى لمن تَرَكَ المعاصىَ فاتّقى ، ولكنى أقولُ : إن التزام التثنية شىءٌ من حسن الأداء الذي اقتضاه «النظم» .

(١) لسان العرب (شوظ) .
(٢) معانى القرآن (دهن) فى سورة الرحمن .

ثم بسط ما يكون فى الجنة معتبرًا التثنية فقال : ﴿ذواتا أفْنان﴾ ثم قال : ﴿فيهما عَيْنانِ تَجْرِيانِ﴾ . وسبيل «العينين» ما كنتُ ذهبتُ إليه من إرادة التثنية لصنعة النظم . وليس لنا أن نتأوّلَ فنقول : إنهما «عينان» : «تَسْنِيمٌ وسَلْسَبيلٌ» كما قالوا .

فكيف يكونُ من عامّة الإنس والجنّ تكذيبٌ؟!

هذه الجنة التى ينعمُ بها المتّقون ﴿متّكئينَ على فُرُشٍ بَطائنُها من إستَبْرقٍ وجنى الجنتينِ دَانٍ﴾ . . .

وفيها بل فيهما وكما أريد فى الآية «فيهنّ» فى قوله ـ سبحانه ـ :

﴿فيهنّ قاصراتُ الطَّرْفِ لم يَطْمِثهُن إنسٌ قبلهم ولا جانّ﴾ .

قلتُ : كانت الإشارةُ فى هذه الآية إلى الجمع بدلالة قوله ـ سبحانه ـ : «فيهنّ» وهذه الإشارة قد هَدَتْنا إلى الحقيقة التى أريدت فى عامة سورة الرحمة التى برزت فيها التثنية ؛ فالمراد فى قوله : «جنّتان» و«عينان» و«زوجان» ، والخطاب الذى تكرّر فى قوله : «فبأى آلاء ربكما تكذّبان» وغير هذا كل أريد به الجمعُ ، ولم تكن التثنية إلا شيئًا جِيءَ به لإحسان النَّظم فى بديع القرآن .

وأقول : وردت «قاصرات الطرف» فى هذه الآية فى سورة الرحمن ، وفى غيرها ؛ قال تعالى :

﴿وعندهم قاصرات الطرف أتراب﴾ [(١)] .

قال الفرّاء : قاصراتُ الطَّرْف حُور قد قَصَرْنَ أنفسَهنّ على أزواجهنّ فلا يَطْمَحْنَ إلى غيرهم ، ومنه قول امرئ القيس :

مِن القاصراتِ الطَّرْف لو دَبَّ مُحْوِلٌ   من الذَّرِّ فَوْقَ الإتْبِ منها لأثَّرا

فالقاصراتُ للطَّرْف فى سورة الرحمن : هُنَّ العذارى الأبكارُ اللّواتى لم يَمسَسْهُنّ إنسٌ أو جِنٌّ قبل المُتَّقين الذين رُزقوا بالجنّة التى وُعِدوا بها ، والفعل «يطمث» معروفٌ لأنه من «الطَّمْث» أى : الحيض ، وأريد به كما قال الجاحظ : الافتضاض[(٢)] .

(١) ٥٢ سورة ص .
(١) معانى القرآن (قصر ، طمث . . .) .

وقد أشير إلى حسن أولئك العذارى فى قوله ـ سبحانه ـ : ﴿كأنّهنَّ الياقوتُ والمَرجانُ﴾ . وقد كان هذا مما أحسَن فيه ـ سبحانه ـ إلى الذين أحسنوا فلهم الحسنى ، و«هل جزاء الإحسان إلا الإحسان» .

ثم عادت الإشارةُ إلى التثنية فى قوله : ﴿ومن دونهما جنّتان﴾ وقد عرضنا «للجنتين» ، والضمير هنا فى «دونهما» يشير إليهما وقد سبقت ، فكيف كان جَحْدٌ وإنكارٌ وتكذيبٌ؟!

ونعود إلى الجنّات التى أشيرَ فيها إلى المثنى فنجد الوصف ﴿ مُدْهامَّتانِ﴾ ، وأُريد بهما كونُ الجنّتين سَوداوَيْن من شدّة الخُضْرة ، فهما خَضْراوان من الرِّيِّ تضرب خُضْرَتُهما إلى السواد كما أفاد الزجاج[1] .

وقد بُسط فى وصفهما الجديد فى قوله ـ سبحانه ـ : ﴿فيهما عينان نَضّاختان﴾ و﴿فيهما فاكهة ونخل ورُمّان﴾ و﴿فيهنّ خيراتٌ حِسان﴾ و﴿حور مقصورات فى الخيام﴾ ، ﴿متّكئين على رَفرَف خُضرٍ وعبقريّ حسان﴾ ، فكيف يكون من معشَر الإنس والجن ما كان منهم من جَحْد وتكذيبٍ لله تَبارَك اسمه ذو الجلال والإكرام ؟ !

أقول : قد أريد بقوله «عينان» : العيون بالجمع ، ولفظ «العيون» أطلق فى هذا الجمع مصاحبًا للجنّات فى عامة لغة التنزيل ولم تَرد «أعيُن» إلا لما هو حاسّةُ البصر . وقوله : ﴿نضّاختان﴾ أى فوّارتان . وجملة هذا يندرج فيما أحسن من خيرات جاد بها «ذو الجلالِ والإكرام» مع «الحور المقصورات» اللواتى تقاصر خطوهُنَّ فى الخيام ، وهم متّكئون على «الرَّفْرَف الخضر» ؛ أى : البُسُط من الدِّيباج ونحوه الذى قيل فيه «العبقريّ» ، ووصف بـ«الحسان» لفضيلة النظم .

وهأنذا آتى على نهاية ما كان من فضائل هذه السورة آمِلاً أن أسعدَ بلقاء الدارسين فى سُوَرٍ أخرى .

---

(١) معانى القرآن للزجاج (دهم) .




مع النحـــاة



مع النحاة[١]

لقد كثر الكلامُ فى النحو والنحاة ؛ فقد كان فريق يظهر الغَيْرَةَ على الدارسين فيتصدّى ناقدًا للنحاة الأقدمين فكان مِن ذلك ما عرفناه من «تيسير النحو» أو إصلاحه .
وقد كان مِن هؤلاء مَن زعم أن النحو عَسيرٌ لابد فيه من الاقتصار على القليل اليسير مما هو ضرورى للدارسين في المراحل الأولى التعليمية .

أقول : وليس لهؤلاء ، كيفما كان محصولهم من النحو ، أن يذهبوا فيما ذهبوا إليه وهم غير واقفين على النحو القديم فى مصادر ه الأولى[٢] .

ثم أعرض لفريق آخر أُخذ بحماسة عارمة للنحو ؛ يقبله كأنه ذِكْر مِن الذِّكْر لا يأتيه الباطلُ مِن بين يديه ولا مِن خَلْفِه ؛ وهم مدرسو النحو فى معاهد اللغة العربية وكلّيات الآداب . لقد فات هؤلاء أن الأقدمين وعلومهم وما كان منهم مما ندعوه فى عصرنا تراثًا لا يمكن أن يكون كاملاً ؛ فهو صنع بشر يُصيب ويُخطئ ، وهذا معروف متّفق عليه .

ولى أن أقرّر أن يكون منّا فريقٌ ثالث ينهض بالأمر فينظر إلى النحو نظرًا خاصًا ؛ مفيدًا من علم الأقدمين ، وما كان من بعضهم من نظرات صائبة ، ومما أتى به عصرنا فى العلوم الإنسانية الجديدة .

وإنى لأقف على شىء مِن مسائل النحاة الأقدمين لأعرض أن البناء القديم الذى أحسنوا فى اختيار حجارته لم يسلم مِن فجوات هى خلل لا يمكن معه أن يستقيم فيظلّ شامخًا طوال العصور .

ومن هذا ما زعم النحويون فيما أرسلوا من مسائلهم وهو باب «الجرّ على الجوار» ؛ فقد قالوا فيما ادّعوا أنه من قول العرب : «هذا جُحْرُ ضبٌ خَرِبٍ» . و«خَربٍ» فى قول

---

(١) كنت أريد أن أقول «تهافت النحاة» ، ولكنى عدلت عن هذا مخافة أن أُدرَج مع النفر الذى يقول فى النحاة فيسىء إليهم . وهذا النفر بعيد عن الحق لأنه لا يعرف النحو فينكر أن يكون فى النحاة المبرِّزون من المجتهدين . وهؤلاء ممن قيل فيهم فى الأثر «المتشبّع بما ليس فيه كلابس ثوبَى زور» . وكنت قد قرأت فيما قرأت أيام الطلب «تهافت الفلاسفة» لأبى حامد الغزالى فأعجبت به ، وبقى له منه استعماله «التهافت» .

(٢) أقول : لقد نشط فى هذا الدأب فى التهجم على النحاة نفر ليسوا من أهل الجد ، لم يدركوا ما قاله النحاة الأوائل من مدرسى اللغة العربية ولا أستثنى منهم بعض أساتذة هذا الدرس فى الكليات . وأنا واثق أن إبراهيم مصطفى والأزهريين كافة ، وأصحاب النحو هنا وهناك لم يعرفوا كتاب سيبويه معرفة درس واستيفاء وإذا كان لهم معرفة ببعض أقواله فذاك مما أفادوه من كتب النحاة المتاخرين فى شرح ألفية ابن مالك ونحوها

القائل القديم مجرورة وكان ينبغى أن تكون مرفوعة[١] .

وقال ابن هشام : وأكثر العرب ترفع « خَربًا» ولا إشكال فيه [٢] . ثم قال : ومنهم مَن يخفضه لمجاورته للمخفوض ؛ كما قال الشاعر :

* قد يؤخَذ الجار بظلم الجار *

...... وعلى هذا الوجه ففى «خرب» ضَمَّةٌ مُقدَّرة منع من ظهورها اشتغالُ الآخِرِ بحركة المجاورة .

أقول : ولم يتوقف النحوىّ القديم فى هذا القول ، الذى لم يَرِد ما يشبهه فى كلام العرب ، للوصول إلى توجيه هذا الوجه الغريب . وإنى لأذهب إلى وصف هذا الوجه بالغرابة لأ نى أجد أن يكون القائل الأوّل لهذا قد أجرى عليه سنن العربية ؛ فوقف على الساكن ؛ فتكون «خرب» ساكنة ، والقارئ يدرك أن موضعها الرفع ولا يمكن أن يكون خفضًا .

ولى أن أذهب إلى ما دعاه النحويون المتأخرون النعتَ السَّببىّ فأجد مثلاً قولهم : «مررت برجُلٍ قائمة أمُّه» فقالوا إنه نعت سببىٌّ للرجل . وهذا نظير قوله تعالى : ﴿ربَّنا أَخرِجْنا من هذه القريةِ الظالِمِ أهلُها﴾[٣] .

وليس لى أن أذهب إلى أن «الظالم أهلها» نعت للقرية ، وردُّ هذا ليس صعبًا .

ثم أقول : لو أنى قلت : رأيت رجلاً قائمةً أمُّه ، أَيكون لى أن أذهب إلى أن هذا من «باب النصب على الجوار» على ما ذهبوا إليه فى باب «الجرّ على الجوار»؟ .

قلتُ : إن النحوىَّ القديم وأولّهم سيبويه لم يروا وجهًا لجرّ «خرب» لأنه مرفوع وأنه وصف لـ «جحر» . غير أنهم لم يتركوا هذه الرواية الخاطئة فى هذا الذى زُعم أنه من قول أحدهم ، بل راحوا يتتبعون نظائره فى لغة التنزيل بحسب ما ورد من ذلك من قراءات خاصّة فكان لهم من ذلك «نَحْوٌ» سوّدوا به صفحاتٍ كثيرةً . ولو أنهم قطعوا القول بحمل ما زعم أنه من قول العرب على الخطأ لانتهى هذا اللغط ، ولَكان من هذا أننا لم نَشْقَ بما

(١) انظر : الكتاب ١/ ٦٧ ، والمقتضب ٤/ ٧٣ ، والخصائص ١/ ١٩١ ، وأسرار العربية ص ٣٣٨ .
(٢) قطر الندى ص ٢٢٣ .
(٣) ٧٥ سورة النساء .

حُمل إلينا من صنعة لم تُبْنَ على عِلْمٍ حسن [١] .

ولكن النحاة أعجبهم السَّيْرُ في غير الصراط المستقيم ؛ فذهبوا فى سعيهم ووقفوا على مسائل صرفوا النظر فيها إلى ما يوهم أن للخطأ وجهًا من الصواب ؛ فكان مما حملوه على هذه «المسالة» مواضعُ كثيرةٌ من لغة التنزيل أَجْرَوْا فيها صنعتهم ؛ ومن هذه :

قال تعالى : ﴿مثلُ الذين كفروا بربِّهم أعمالُهم كرمادٍ اشتدّت به الريحُ فى يومٍ عاصفٍ﴾ ١٨ سورة إبراهيم .

لقد قال نفر من النحاة : إن كلمة «عاصف» قد تُجَرّ لمجاورتها لـ «يوم» ، مستظهرين أن «العصف» لا بد أن يكون من لوازم الريح .

أقول : أما كان لهذا النفر من النحاة أن يرى أن «العاصف» يكون وصفًا «لليوم»؟ وبهذا يفسد قولهم بالجرّ على الجوار . ولكنهم آثروا أن يكون منهم تشبث بأضعف الأقوال لإثبات ما يدخل فى صنعة مفتعلة لا يقبلها العلم .

ومن الغريب أن يسعى إلى مثل هذه الصنعة المفتعلة الفرّاءُ فى «معانى القرآن» ؛ إذ جاء فيه : «وإن نويتَ أن تجعل «عاصف» من نعت الريح خاصة فلما جاء بعد اليوم أتبعته إعراب اليوم ، وذلك من كلام العرب : أن يُتبعوا الخَفْضَ الخَفْضَ إذا أشبهه»[٢] .

وكأنّ الفرّاء لم يشأ أن يأتى بمصطلح «الجر على الجوار» ولكنه أراده [٣] .

وكأن الفرّاء رضى هذه الصنعةَ ؛ فذهب يتحرّاها فى أبيات من الشعر ، فوجدها فى بيت لم ينسب إلى قائل ؛ وهو :

كأنّما ضَرَبَت قُدّام أعيُنها ... قُطنًا بمُستحصِدِ الأوتار محلوجِ

فقال فى هذا البيت ما قاله فى الآية ؛ أى ما ذهب فيه النحاة من الجرّ بالجوار [٤] .

---

(١) أقول : لو أن النحاة فى خفض «خرب» قد ذهبوا إلى «التناسب» وهو صنعة أسلوبية لَكان ذلك وجهًا كما فى قراءة بعضهم «سلاسلاً وأغلالاً وسعيرًا» ٤ سورة الإنسان . والآية فى بعض القراءات غير العالية «سلاسلَ» ، والكلمة لا تنوّن والعلّة معروفة ، ولكن صاحب القراءة قد ذهب إلى التنوين للتناسب .

(٢) معانى القرآن ٢ / ٧٤ .

(٣) أقول : هذا شىء يسير من المسائل النحوية الفرعية فى كتاب الفراء ، وأنا أذهب بهذا إلى أنه لم يكن صاحب «نحو» واسع بحيث يجعله الدارسون فى عصرنا من رءوس ما أسموه «المدرسة الكوفية» .

(٤) المصدر السابق .

ثم أَتَى ببيت ذى الرمة :

تُريكَ سُنَّةَ وجهٍ غيرِ مقرفةٍ ملساءَ ليس بها خال ولا نَدَب

أقول : وكيف ذهب الفرّاء وغيره من النحويين إلى مسألة الجوار فى خفض «غير» ، وهلاّ كان لهم أن يجعلوا «غير» هذه منصوبة وهى الصواب فى الأصل ، وناشر ديوان ذى الرمة وهو المستشرق مكارتنى أثبت الصواب ! ! [١] .

ثم وقف على بيت للحطيئة :

وإيّاكم وحـيَّـةَ بَطنِ وادٍ هَمُوزِ الناب ليس لكمْ بسِيٍّ

أقول : وليس للفراء ولا لسائر النحويين أن يفيدوا كثيراً من الشواهد الشعرية ؛ ذلك أن الشاعر منذ عصر الجاهلية القديمة وفي سائر العصور ممتحن بقيد الوزن وقيد القافية ، وهو فى محنته مُضطرٌّ إلى أن يكون منه ما يكون مما يختلف عن طريقة ما هو فيه من النظم وما درج عليه من اتّباع ما ألفه مما سُمِّى ضوابط نحوية وصرفية وغيرها . ألا ترى أن الشاعر القديم الأسود بن يعفر قد فرضت عليه القافيةُ أن يقول :

ودَعا بمحكمةٍ أمين سكّها من نَسج داوود ابن سلاّم

وقد أراد بـ «سلاّم» النبى سليمان ؛ فتصرّف على هذا النحو وحوّل العَلَم إلى غيره ، ومثل هذا جرى للحطيئة فى قوله :

فيه الرماح وفيهِ كلّ سابغةٍ جدلاء منبهمة من نسج سلاّم[٢]

ومثل هذا قول النابغة فى داليّته

زعم العواذل أن رحلتنا غدًا وبذاك خبَّرَنا الغرابُ الأسودِ[٣]

وقد أذعن لقافيته على الدال المخفوضة فأثبت «الأسودِ» بخفض الدال ، وحقُّها الضمّ .

---

(١) أقول : والفرّاء يعرف الصواب ، ولكنه يذهب ليشارك فى هذه الصنعة النحوية التى لا ترضى أهل العلم ، وهو يقول فى «كتابه» فى هذا الموضع بعد إيراده البيتين :

«وممّا يرويه نحويّونا الأوّلون أنّ العرب تقول : هذا جحر ضبٍّ خَرِب . والوجه أن يقول : سُنّة وجهٍ غير مقرفة ، وحية بطنِ وادٍ هموز الناب ، وهذا جحر ضبٍّ خَرِبٌ» .

(٢) انظر ديوان الأسود بن يعفر ص ٧١ ، وديوان الحطيئة ص ٧٥ .

(٣) ديوان النابغة من قصيدته فى وصف المتجردة .

وأعود إلى الفرّاء الذى أراد قاصدًا الابتعاد عن كلام النحويين فى «الجرّ بالجوار» فذهب إلى أن هذا من باب «إتباع الخفض بالخفض» . وكأنّ توجيه الفراء أرضَى غيره فكان منه قول النحاس فى الآية التى تقدّم ذِكْرُها[١] .

وأضيف هنا إلى أن الشعراء ممتحنون فى كل عصر ؛ ومن هذا ما كان للفرزدق ، مع عبد الله بن أبى إسحق الحضرمى ، فى قوله من قصيدة معروفة :

وعضّ زمان يا بن مروان لم يَدَعْ ... من الناس إلا مُسحَتًا أو مُجلَّفُ[٢]

فقال له ابن أبى إسحق : على أى شىء ترفع «أو مجلّف»؟ فقال : على ما يسوءك وينوءُك . وكان أن هجا الفرزدق ابن أبي إسحاق ؛ فقال :

فلو كان عبد الله مولًى هجوتُه ... ولكنّ عبد الله مولى مواليا

وكان أبو عمرو بن العلاء مؤيدًا للفرزدق ؛ فقد صوّبه وأجاز قوله على المعنى [٣] .

وقد يذهب الشاعر إلى لغة نادرة ليفيد منها فى قافيته ؛ كما فعل جرير فى قوله :

عرفنا جعفرًا وبنى أبيه ... وأنكَرْنا زعانفَ آخرينِ

وماذا يبتغى الشعراء منّى ... وقد جاوزتُ حدَّ الأربعينِ [٤]

فأتى بنون الجمع السالم مكسورة على لغة نادرة ؛ فتمّ له ما أراد ؛ وخرج من «المحنة» .

وأقول : ومن هذا قول الأخطل :

أبنى كُلَيبٍ إن عمَّىَّ اللذا ... قَتَلا المُلوكَ وفكّكا الأغلالا[٥]

وليس لنا أن نقول كما قال أهلُ العربية : إن حذف النون من «اللذان» لغة تغلبية .

---

(١) إعراب القرآن ١٨١/٢ .

(٢) ديوان الفرزدق .

(٣) انظر نزهة الألباء ص ٢٧ ـ ٢٨ .

(٤) ديوان جرير ، والبيتان من الشواهد فى كسر نون الجمع السالم .

وأقول : إن الشاعر على مقدرته العالية فى سائر العصور ممتحَن فى شعره فهو مضطر أن يجعل ، وهو الشاعر الجاهلى ، «أحمر عاد» وهو فى الحقيقة «أحمر ثمود» ؛ وهو قُدار بن سالف عاقر ناقة نبىّ الله صالح كما ورد فى الأثر .

(٥) ديوان الأخطل ، والبيت من شواهد النحو فى مجىء «اللذان» بحذف النون . وانظر لسان العرب (الذى) .

ولكننا نقول : إنه حاجة الشاعر الذى يرى نفسه مالكًا للعربية ، وله أن يتّسع ويتصرّف كما تقتضيه حاجتُه .

ومن هذا قول حميد بن ثور الهلالى :

* على أحوذيّينَ استقلّت عشيَّةً(١) *

وقد فُتحت نون «أحوذيّين» وحقها الكسر ، و قد كان هذا شاهدًا للنحويين فى فتح نون المثنّى . ولو أنهم كسروا النون ، وهو الأصل ، لم ينخرم وزن ، ولكنهم يميلون إلى ذِكْرِ الغرائب والشواذّ .

إنهم يَسعَوْن إلى هذا الذى درجوا فيه مع علمهم أن بعضَ شواهدهم التى أثبتوها ، فكان منها بعض ما وصلوا إليه فى نحوهم ، مصنوعٌ ولم يُعرَف قائلُه .

لقد جاء من شواهدهم الرجز :

أعرف منها الجيدَ والعينانا ومنخرَيْنِ أشبَهها ظبيانا(٢)

وهو شاهد فى فتح نون المثنى ولزوم المثنى للألف والنون رفعًا ونصبًا وجراً ، ولم ينسبوا هذا لقائلٍ معروفٍ ، بل قالوا : لرجلٍ من ضبّة . وزعم العينى أن القائل لا يعرف . وهم فى دأبهم هذا قد يرمون الرجز الذى أفادوا منه على رؤبة أو على أبيه العجّاج أو على أبى النجم العجلى أو على بعض أهل اليمن . . . . .

وقال السيوطى فى هذا الشاهد : وقيل : إنه مصنوع .

وقد يكون مثل هذا ما ذهبوا إليه من لزوم «أبا» و «أخا» للألف ، واستشهدوا على ذلك بالرجز :

واهًا لسلمى ثم واهًا واها هى المنى لو أننا نلناها

إنّ أباها وأبا أباها قد بَلَغا فى المجد غايتاها(٣)

---

(١) الشطر من شواهد سيبويه ، وفى سائر الكتب النحوية ، وموطن الشاهد فتح نون المثنى .

(٢) من شواهد النحو فى فتح نون المثنى .

(٣) وقال فى نسبة هذا الرجز إنه لرؤبة ، ونسبه آخرون إلى أبى النجم العجلى . وجاء فى «النوادر» لأبى زيد أن البيتين ومعهما شىء آخر لأبى الغول الطهوى من اليمن .

وقد عوّل النحويون على الأراجيز ؛ فكان لنا طرائفُ ما زلنا نستظهرها ؛ كشاهدهم فى لام الابتداء المؤكّدة التى دعوها اللام المزحلقة أو المزحلفة وهو :

أمّ الحُلَيس لَعجوز شَهْرَبهْ ترضى من اللحم بعظم الرقَبَهْ[1]

وهذا الرجز نسبه الصاغانى إلى عنترة بن عروس من موالى ثقيف ، ونُسب إلى رؤبة ، أيضًا[2] .

وأنت تجد فى الشواهد النحوية ولا سيما فى الرجز شيئًا من الغريب الذى يندر فى كلامهم ، ولولا هذا ما كان للنحاة هذا التوسع فى التأويل ، ومن هذا قولهم فى مجىء الجملة الاستفهامية صفةً وهى مما لا يعرف فى الترسُّل :

حتى إذا جاء الظلام واخْتَلطْ جاءوا بمذقٍ هل رأيت الذئب قطْ

فنسب هذا إلى العجاج وقيل لغيره من الرجاز .

وقالوا فى «نعمَ وبئسَ» : «نعمَ السَّيْرُ على بئس العير» وزعموا أن حرف الجر دخل على أسم محذوف : وهو «نعم السير على عَيْرٍ مقول فيه : بئس العير» .

وهذا القول لا نجده ولا نقف على نظائره فى كلام العرب ، فأما ما استشهدوا به من قول الآخر :

والله ما لَيْلِى بنامَ صاحبُهْ ولا مخالط اللَّيان جانبُهْ

أى : بليلٍ مقولٍ فيه : «نام صاحبه» .

أقول : ذكر النحويون البيت ولم ينسبوه إلى قائل .

والذى حفظته فى باب الوقف الرجز :

واللهُ أنجاكَ بكفَّىْ مَسْلَمَتْ من بعدِ ما وبعدما وبعدمَتْ

كانت نفوس القوم عند الغلصَمَتْ وكادَتِ الحرّة أن تدعى أمَتْ

والوقف هنا مخالف لما هو معروف ؛ فقد كان على التاء المعجمة الساكنة ؛ وحقّها الوقف على الهاء . والرجز منسوب إلى أبى النجم .

---

(١) من شواهد النحاة ، وهو غير منسوب فى «الصحاح» و«اللسان» .

(٢) كنت قد جمعت طائفة من هذه «الغرائب» وقد نظرت فيما دعوه «ضرائر الشعر» فوجدتها واسعة وفيها الكثير من خروج على نحو العربية . ثم رأيت لأحد طلابى هو الدكتور خليل بنيان رسالةً مفيدة فى هذا .

أقول : وقد عُرف الرجّاز الأوائلُ بالغريب الذى لا نعرفه فى الشعر القديم ولا فى كلام العرب . وقد يكون لى أن أذهب إلى أن هذا الذى بسطته من الأبيات والأرجاز هى لغة خاصة فيها الكثير من التوسّع والترخّص ؛ فلا يمكن لنا أن نجعلها شواهد ذات أصالة فى تحرير نحو للعربية .

وكنتُ أردت أن أبسط شيئًا هُرع إليه النحويون وتمسكوا بشىء أنكره الكثيرُ ؛ وهو مسألة الجر بالجوار فى قول القائل القديم : «هذا جحرُ ضبٍّ خَربٍ» . وكأنهم بعد ما بدا لهم القولُ الصحيحُ أرادوا أن يشاركو النفرَ الآخَرَ الذى سعى ما هو معدول عن جهته ؛ فراحوا يتشبثون فى السعى إلى ما يكون من هذا فى لغة التنزيل وفى الشعر القديم . وليس مِن ضَيْرٍ أن أجىء من هذا بقدر لأقول : كأن النحاة قد أدركوا أنهم وجدوا بضاعتهم يسيرةً ولا أقول «مزجاة» فسعوا إلى الإكثار والتزيّد فكان لهم أقوالٌ بل أقاويلُ طويلةٌ .

وأعود إلى الآية السابقة فأجد النحاة والمعنيين بتفسير لغة الذكر الحكيم قد بسطوا فيها علمهم فقالوا : إن «العصوف» وإن كان للريح فإن اليوم يوصف به ؛ لأن الريح فيه تكون ، فجاز أن تقول : يوم عاصف ، كما تقول : يوم بارد ويوم حارّ . قال الفراء : وقد أنشدنى بعضهم :

* يومَيْن غيمَين ويومًا شمسا *

فوصف اليومَين بالغَيمَين ، وإنما يكون الغيم فيهما[١] .

وهذا مما ورد لدى الزمخشرىّ وأبى حيان[٢] .

وقالوا أيضًا فى هذه الآية : إنه على معنى «يوم عاصف الريح» ؛ فحذفت الريح ؛ لأنها قد ذكرت . واستشهدوا بقول القائل :

فيضحك عرفانَ الدروع جلودُنا ... إذا جاء يوم مظلم الشمس كاسفُ

أراد : كاسف الشمس[٣] .

---

(١) معانى القرآن ٢/٧٣ - ٧٤ .
(٢) الكشاف ٢/٣٧٢ ، البحر المحيط ٥/٤١٥ .
(٣) معانى القرآن ٢/٧٤ .

وقالوا : إنه من باب النعت السببى على تقدير «فى يوم عاصفٍ ريحُه» كما يقال : «مررت برجلٍ قائمٍ أبوه» ثم حذف «ريحه» لوضوح المعنى . وقد جاء هذا فى قول مكّىّ ابن أبى طالب[1] .

وقالوا أيضًا : على تقدير «فى يوم ذى عصوف» ؛ كقولهم : رجل نابل ورامح ، أى ذى نَبْل ورمح ؛ كما ورد لدى النحاس ومكى وأبى البركات الأنبارى[2] .

وقرأ ابن أبى إسحاق وغيره على الشذوذ : «فى يومٍ عاصف»[2] على حذف الموصوف وإقامة الصفة مقامه أى فى يوم ريحٍ عاصف .

وقد استحسن ابن جنّى حذف الموصوف وتوسع فى القول فى هذا [3] .

وقد يكون من المناسب أن أتعقب القائلين بالجرّ على الجوار ، وما كان من تأويلهم للوصول إلى هذا فى الشواهد الشعرية . لقد ذهبوا إلى هذا فى قول امرئ القيس :

كأن ثبيرًا فى عرانين وَبْله كبير أناسٍ فى بجادٍ مُزمّلِ[4]

و«مُزمّل» على رأى هذا النفر مخفوضٌ على الجوار . وكان ينبغى لهؤلاء أن يذهبوا مذهب الآخرين وهو أن «مزمّل» صفة لـ «بجاد» وينتهى بذلك الإشكال الذى سعى إليه هذا النفر [5] غير أن النفر الذى ذهب إلى هذه الفذلكة أراد أن يتزيد من «بضاعته» ليكون له من ذلك مشاركة نحوية . لقد ذهبوا فى سعيهم وتشبثوا كثيرًا بما ورد من الشعر مما كان حقاً ومما لم يكن مما صنعوه فى تأييد هذه المسألة أو غيرها . وكثير منهم ما أوقعوا أنفسهم فيه فكان من مسائل النحو ، وهى شىء مما اقتضته صنعة الشاعر أو الناظم .

ومن هذا ما كان من قول الشاعر بحسب ما ورد فى المصادر النحوية :

أطوف بها لا أرى غيرها كما طاف بالبِيعةِ الراهبُ[6]

---

(١) مشكل إعراب القرآن ٤٠٢/١ .
(٢) المحتسب ٣٦٠/١ .
(٣) المصدر السابق .
(٤) المغنى ص ٨٩٥ .
(٥) خزانة الأدب ٩٥/٥ .
(٦) كتاب الجمل (المنسوب إلى الخليل) ص ١٧٥ .

كان هذا البيت شاهدًا فى كتاب زعموا أنه للخليل، وهو بعيد عن الخليل[١]، وقد جاء فيه أن «الراهب» مخفوض بالجوار، والصواب هو الرفع [٢].

وأثبت ابن الأنبارى فى «الأضداد» [٣] البيت :

تطوف العفاة بأبوابه كما طاف بالبيعة الراهبُ[٣]

وقال : أراد : كالراهب الذى طاف بالبيعة .

والشاهد مما ورد فى «البحر المحيط»[٤]، وخرَّجه أبو حيان بتقديره «كطواف الراهب بالبيعة» .

أقول بعد إيراد هذه الشواهد : إذا كانت رواية الشواهد مؤيِّدة لما ذهب إليه هؤلاء من «الجرّ بالجوار»، فهل لنا أن نجعل منها بابًا فى النحو يخالف الصواب؟ ثم ألم يكن لنا أن نذهب إلى أن عامة الشعر لا يمكن أن يكون منها مادة لمسائل نحوية تختلف عما هى فى النثر المرسل فى لغة التنزيل وفى الحديث الشريف وغيرهما؟ .

قلتُ : لم أرد أن أجعل هذا الموجز «تهافت النحاة» لأنى أرى فى صنعتهم فى مسائل جمّة الخير كل الخيرَ، ولكن ذلك لا يمنعنى عما كان مما أُثر عنهم من خطأ، وكلٌّ ابن آدم خطّاء كما فى الأثر الشريف .

ولن أنتهى من هذه الصنعة غير الموفّقة لطائفة من النحويين ؛ فقد التمسوا شيئًا منها فى القراءات، واعتمدوا على القراءات الشواذ أو على قراءات كانت من نحويين عرفوا بهذه الصنعة ؛ ومنها قراءة يحيى بن وثاب وقراءة الأعمش : «إن الله هو الرزّاق ذو القوّة المتين»[٤] بخفض «المتين» .

وخفض «المتين» على الجوار[٥] .

أقول : ولم يَسَع النحويين قبول هذه الصنعة العابثة ؛ فقد قال النحاس :

---

(١) أقول : دفع نسبة الكتاب عن الخليل أمر يسير، وذلك لأن فى الكتاب شواهد عرفت بعد الخليل، وقد ذكر هذا من وقف على الكتاب ناقداً .

(٢) وفى «معانى القرآن» للأخفش ٢/ ٤١٢ أن «الراهب» بدل من «ما» .

(٣) الأضداد ص ٨٨ . وقال محقق الكتاب : جاء «الراهب» بالرفع، وأشار فى الحاشية إلى أنها فى الأصل بالكسر، وهو سهو .

(٤) ٥٨ سورة الذاريات .

(٥) المحتسب ٢/٢٨٩، والبحر المحيط ٨/١٤٣، وفى مصادر أخرى للقراءات .

وزعم أبو حاتم أن الخفض على قرب الجوار ؛ قال أبو جعفر (النحاس) : والجوار لا يقع فى القرآن ولا فى كلام فصيح وهو عند رؤساء النحويين غلطٌ ممن قاله من العرب[١] .

إن عقلاء النحويين قد أشاروا إلى ضعف القول بالجوار فى هذه الآية لعدم التطابق بين «القوة» و«المتين» ؛ لمكان التذكير والتأنيث ، ولكن أصحاب التأويل ذهبوا إلى أن المراد بـ«القوة» «الحبل» فكأنه وصف للحبل [٢] .

قال ابن جنّى : فكأنه قال : إن الله هو الرزّاق ذو الحبل المتين ، وهذا واضح[٣] .

أقول : وقد يكون لنا أن نفيد من هذا لنشير إلى ضعف الصنعة الذى وصلوا إليه بالعبث فى لغة التنزيل العزيز قياسًا على عبارةٍ لا ندرى كيف رويت ، وهى «هذا جحر ضبٍّ خرِبٍ» أبخفض «خرب» أم بإسكان الباء الذى يوجبه الوقف؟ .

ومن هذه القراءات الخاصة قراءة حمزة والكسائى فى قوله تعالى :

﴿يطوف عليهم ولدان مخلَّدون * بأكوابٍ وأباريقَ وكأس من معين* لا يصدَّعون عنها ولا يُنزِفون * وفاكهة ممّا يتخيّرون * ولحم طير مّما يشتهون * وحورٌ عِينٌ﴾ [٤] قال ابن هشام فى« المغنى»[٥] :

«إن الشىء يُعطَى حكم الشىء إذا جاوره ؛ كقول بعضهم : «هذا جُحر ضبٍّ خَرِبٍ» بالجرِّ ، والأكثر الرفع ، وقال :

.... كبير أناسٍ فى بجادٍ مُزَمَّلِ

وقيل به في «وحورٍ عينٍ» فيمن جرّها ؛ فإنّ العطف على «ولدانٌ مخلّدون» لا على «أكواب وأباريق» ؛ وكأنه قيل : المقرّبون فى جناتٍ وفاكهة ولحم طير وحورٍ ....[٥] .

أقول : كأن ابن هشام فى «المغنى» مال ميلاً قليلاً إلى أصحاب الصنعة العابثة بالقول بالجوار ، وهو غير كلامه في «قطر الندى» .

---

(١) إعراب القرآن ٢٤٦/٣ .
(٢) المحتسب ٢٨٦/٢ .
(٣) المصدر السابق .
(٤) ١٧ - ٢٢ سورة الواقعة .
(٥) المغنى ص ٨٩٥ .

ومن المفيد أن أمضى فى دأبى هذا لأبسط القول فى هذه التجارة البائرة البعيدة عن العلم .

لقد قالوا فى قوله تعالى : ﴿وحور عين﴾ :

إن العطف على اللفظ دون المعنى ؛ قال الفراء : هو من «تتبّع آخر الكلام بأوله» مشبهًا هذا بقول الشاعر :

إذا ما الغانياتُ برزْنَ يومًا وزجَّجْنَ الحواجبَ والعيونا

فالعَيْنُ لا تزجَّج إنما تكحل ؛ فردّها على الحواجب لوضوح المعنى . ومثله قول الآخر :

ولقيتُ زوجك فى الوغى متقلّدًا سيفًا ورمحا

والرمح لا يتقلّد ؛ فردّه على السيف[1] .

ومنهم من ذهب إلى أن العطف على المجرور بالباء ، قاله قطرب حيث نقل عنه مكىّ بن أبى طالب جواز كونه معطوفًا على «الأكواب والأباريق» ، فجعل «الحور» يطاف بهنّ عليهم ، قال : «ولا ينكر أن يكون لأهل الجنة فى التطواف بالحور» [2] .

ومن هذه القراءات ما قرأ حمزة والكسائى فى قوله تعالى :

﴿وهو الغفور الودود * ذو العرش المجيدُ﴾[3] ، و«المجيد» فى قراءتهما «المجيدِ» بالخفض [4] . وهذه القراءة كانت بحجة ما قيل «الجرّ بالجوار» [5] .

وقال أهلُ العلم فى توجيه هذه القراءة الخاصة : إن «المجيد» بالخفض صفة للعرش[6] .

وذهب أهل اللغة فى تأييد هذا القول ؛ فذكر الفارسى قول أبى زيد : إذا رعيت الإبل فى أرض مكلئة فرعت وشبعت قيل : مَجَدت الإبل تمجد مجودًا ، ولا فعل لك فى هذا ، قال : وأمجدْتُ الإبل إمجادًا إذا أشبعتها من العلف وملأت بطونها . وروى عن أبى عثمان (المازنى) عن أبى عبيدة : أمجدتها ، أشبعتها ، وفى المَثَل : «فى كل شجر نارٌ واستمجد المَرْخُ والعَفار»[7] أى أنهما أخذا ما هو حسبهما .

(١) معانى القرآن ٣ / ١٢٣ .
(٢) الكشف ٢/ ٣٠٤ .
(٣) ١٤ – ١٥ سورة البروج .
(٤) انظر : إعراب النحاس ٣ / ٦٧٠ ، والبحر المحيط ٨ / ٤٥٢ .
(٥) معانى القرآن للفراء ٣/ ٢٥٤ ، والكشف ٢/ ٢٦٩ ، والبحر المحيط ٢/ ٤٥٢ .
(٦) المصادر السابقة .
(٧) لسان العرب (مجد) ، وكُتبِ الأمثال ، ومنها «مجمع الأمثال» ٢/٧٤ .

وانتهى الفارسى إلى قوله : وإذا جاز وصف العرش المجيد فى قول مَن جَرّ ، وجاز وصف القرآن فى قوله : ﴿بل هو قرآنٌ مجيدٌ﴾ لم يمتنع القياس من أن يوصف به الأناسي[١] .

وذهب النحاة والمفسرون لتصحيح قراءة «المجيد» بالخفض مذاهب مآلها أن «المجيد» يكون صفة للعرش كما يكون صفة لله تعالى ، وإلى هذا ذهب الراغب الأصفهانى فى «المفردات» [٢] .

ومن هذه القراءات الخاصة ما أفاد منها النحويون من القائلين بالجر بالجوار وغيرهم كما فى قراءة ابن كثير وحمزة وأبى عمرو فى قوله تعالى :

﴿يأيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وأمسحوا برءوسكم وأرجلكم إلى الكعبين ......﴾[٣] .

قرأ أولئك القرّاء الثلاثة بخفض «أرجلِكم» وهى رواية أبى بكر عن عاصم . وقرأ نافع وابن عامر والكسائى وحفص عن عاصم «وأرجلَكُم» بالنصب [٤] .

قال الأخفش : ويجوز الجرّ على الإتباع وهو فى المعنى الغسل ؛ نحو : «هذا جحر ضبٍّ خربٍ» ، والنصب أسلم وأجود من هذا الاضطرار[٥] .

وقال أبو عبيدة : « ..... مجرورة بالمجرورة التى قبلها وهى مشتركة بالكلام الأول مع المغسول ، والعرب قد تفعل هذا بالجوار . والمعنى على الأول ... [٦] .

وقد أنكر الزجاجُ القولَ بالجوار بقراءة من خفض «وأرجلكم» وقال : «فأما الخفض على الجوار فلا يكون فى كلمات الله»[٧] .

---

(١) الحجة فى القراءات ٣٩٣/٦ - ٣٩٤ .

(٢) مفردات غريب القرآن ص ٤٦٣ - ٤٦٤ ، وانظر : النهاية ٢٩٨/٤ ، وإعراب القرآن للنحاس ٦٧٠/٣ .

(٣) ٦ سورة المائدة .

(٤) والقراءة فى غاية النهاية ١٣٨ ، والتيسير للدانى ص ٩٨ ، والحجة للفارسى . وانظر : معانى الأخفش ١/ ٢٥٤ ، ومجاز القرآن ١/ ٢٥٥ .

(٥) معانى القرآن وهو المذكور .

(٦) مجاز القرآن ١/ ١٥٥ .

(٧) معانى القرآن ٢ / ١٥٣ .

وقد أكثر النحويون والمفسرون القولَ فى هذه المسألة للخلاف فى المعنى بين المسح والغسل ؛ فقد قال الطبرى فى تفسيره : «والصواب من القول عندنا فى ذلك أن الله أمر بعموم مسح الرجلَين بالماء فى الوضوء ، كما أمر بعموم مسح الوجه بالتراب فى التيمّم ، وإذا فعل ذلك المتوضّئ كان مستحقاً اسم ماسح غاسل . . . »(١) .

أقول : ليس من جدوى أن يُشغَل أهلُ الدرس النحوى فى عصرنا(٢) بمسألة افتُعلت واصطنعت وكثر فيها القول مع أن القائلِينَ يشعرون بضعف صنعتهم وأن الصوابَ فى القول معروفٌ .

ثم لِمَ كان هذا العناء الذى وجد فيه النحويون الأقدمون ضالّتهم للتزيّد فى مادتهم النحوية معتمدين على جملة سُمِعت ولا يُعرف لها قائلٌ ولم يعرف لها نظائرُ ؟ .

وإنى لأنهى هذا الموجز وأعود إلى النحاة وتشبثهم بالشواهد التى خالف أصحابها أو قل الذين نُسبت إليهم صدقًا أم كذبًا المشهور من أساليب العرب والمعروفة فى لغة التنزيل .

وقد رأيت أن أستأنف ما كنت قد ذكرته لحاجتى إليه فى الصفحات المتقدمة فأقول :

لقد جاء فى شواهد سيبويه قولُ الشاعر :

فلسْتُ بآتيهِ ولا أستطيعه ولاكِ اسقنى إن كان ماؤك ذا فَضلِ(٣)

وقوله : «ولاكِ» أراد به «لكن» .

والنحاة منذ سيبويه يستقبلون هذه الغرائبَ الشعرية بقَبُولٍ حَسَنٍ بقطع النظر عن أن يكون الشاهد لقائل معروف أو غير هذا من المَناكير .

وقد حُذفت النون من «ليتنى» كما حذفت من «لكنْ» فى الشاهد :

كمُنية جابرٍ إذ قال ليتى أُصادفه وأتلف كلَّ مالى(٤) .

(١) تفسير الطبرى ٤ / ١٣٠ .

(٢) لقد أفرد الدكتور عبد الفتاح الحموز كتابًا فى هذه المسألة ، وهى الجرّ بالجوار .

(٣) الكتاب ١/ ٢٧ .

(٤) الكتاب ٧/ ١٧٠ .

ومن هذا الحذف ما جاء فى «كلْت» بمعنى «كلتا» فى شاهدٍ لهم ؛ وهو :

فى كلْتِ رِجْلَيها سُلامَى واحده   كلتاهما مقرونة بزائدهْ[١]

ومن هذا الحذف قول لبيد :

* دَرَسَ المَنا بمَتالعٍ فأبانِ *[٢]

ومن غرائب هذا الحذف قولُ العجاج :

* أوالفًا مكّةَ من وُرْقِ الحَمى * [٣]

وقد أراد بـ «الحمى» الحمام .

وقد جاء فى «الكامل» للمبرد[٤] :

بالخير خيرات وإن شرّاً فا   ولا أريد إلا أن تا

وقد أراد القائل : وإنْ شراً فشرٌّ ، و إلا أن تريد .

أقول : حفل الأدبُ القديمُ بهذه الغرائب التى عُدّت «ضرورات» وإن صنَّف النقاد شيئًا منها بالضرورات القبيحة المستهجنة[٥] . ولعل الكثير من هذه الغرائب التى أدّى إليها الاضطرار قد قلّت فى الشعر العربى فى العصور التى خلفت العصور المتقدّمة .

إننا مثلاً لم نَرَ بين الشعراء العباسيين مَن استعمل شيئًا نسى فى العربية التى عرفها المعربون فى العصور المختلفة ؛ فليس لنا أن نرى الفعل الماضى «وَدَع» بمعنى «ترك» ؛ ولكننا نرى هذا الفعل فى قول أبى الأسود الدؤلى :

ليت شعرى عن خليلى ما الذى   غاله فى الحبّ حتى وَدَعَهْ[٦]

ولم نجد غير الأعشى مَن استعمل «سواء» وقد أراد «سوى» فى قوله :

---

(١) معانى القرآن للفراء ٢ / ١٤٢ .
(٢) الخصائص ١/ ٣٠ .
(٣) ديوان العجاج ص ٢٩٥ .
(٤) الكامل ٢ / ٣٠ .
(٥) الاقتراح ص ١١ .
(٦) الخصائص ١/ ٣٩٦ .

* وما قصدت من أهلها لسوائكما * [١]

وقالوا : خَرجتْ «سوى» فى قول الأعشى عن الظرفية كما قال سيبويه : فعلوا ذلك لأن معنى «سواء» معنى «غير» [٢] . وكأن سيبويه لم يشأ أن يفصح عما هو ضرورة لدى أهل الشعر ؛ فقال :

«اعلم أنه يجوز فى الشعر ما لايجوز فى الكلام مِن صرف ما لا ينصرف ؛ يشبّهونه بما ينصرف من الأسماء ، لأنها أسماء كما أنها أسماء ، وحذف ما لا يحذف يشبهونه بما قد حذف واستعمل محذوفًا»[٣] .

غير أننا نجد أهل الشعر قد وقفوا على ما هو ضرورة ؛ فقال ابن رشيق :

« . . . . وأذكر هنا ما يجوز للشاعر استعمالُه إذا اضطُرّ إليه ، على أنه لا خير فى الضرورة ، على أن بعضها أسهلُ مِن بعض ، ومنها ما يُسمع عن العرب ، ولا يُعمل به لأنهم أتوا به على جِبِلّتهم ، والمولّد المحدَث قد عَرَفَ أنه عَيْبٌ ، ودخوله فى العيب يلزمه إيّاه»[٤] .

وقد يضطر الشاعر فيحذف الهمزة من «الفضاء» فيقول قيس بن الخطيم :

فلولا ذرى الآطام قـد تَعْلمـونه وتَرْكُ الفضا شوركتُمُ فى الكواعب[٥]

وحذفُ الهمزة كثيرٌ فى الشعر لدى المتقدّمين وسواهم . وقد يحوّلون همزة القطع إلى همزة وصل أو العكس ، وقد تحذَف همزة الاستفهام ، وهمزة «مرأى» كما فى قول ابن مقبل :

منها بنعف جرادٍ فالقبائص من ضاحى جَفاف مَرى دنيا ومستمع[٦]

---

(١) الكتاب ١/ ٣٢ .
(٢) الكتاب ٣٢/١ .
(٣) المصدر نفسه ١/ ٢٦ .
(٤) العمدة ص ٢٦٩ .
(٥) ديوان قيس بن الخطيم ص ٩٣ .
(٦) ديوان ابن مقبل ص ١٦٧ .

وقد تحذف «من» الجارّة كقول عبيد بن الأبرص :

فـأقـبلْ على أقـواق مـالك إنمـا تكلَّفتَ ملأشـيـاء مـا هو ذاهبُ[(١)]

أراد «من الأشياء» . وحذفُ «من» هذه فاشٍ في شعر الجاهليين والإسلاميين .

ومن اضطرار الشاعر أن نجد أنه حذف الياء من «النائي» فقال أوس بن حجر :

ولكن أخـوك النـاءِ مـا كنتَ آمنًا وصاحبك الأدنى إذا الأمر أعضلا [(٢)]

ونظير هذا قول الأعشى :

فكيف أنا وانتـحـالي القَـوا فِ بعد المشيب كفَى ذاك عارا[(٣)]

أقول : والحذف في شعر المتقدمين كثير ، ومنه حذف «أن» الناصبة ، وحذف لام الأمر ، وحذف أنْ من خبر عسى وأوشك ، وحذف لا .

وكـأن الشـاعـر القـديم الجـاهليّ أو الإسـلاميّ يشـعـر أنه صـاحب سطوة[(٤)] ، وليس الحذف أو غيره عيبًا أو ما يقرب مِن هذا ، وكان المتلقّي للشعر القديم يألف ما يكون من الشاعر الذي هو غير سائر المعربين . ألم يكن له عندهم «شيطان» يوحِي إليه؟ ألم يقل الراجز :

إنّي وكلُّ شـاعـرٍ من البَـشَـرْ شـيطانه أنثى وشـيطاني ذَكَـرْ[(٥)]

غير أني أتوقّف في اعتماد النحويين في شَواهدهم على الشعر فكان لنا منه نَحْوٌ فيه صنعة وافتعال لا نتحقّقه في كلام العرب ولا نتحقّقه في التنزيل العزيز ولا في الحديث الشريف . ومن هذا قولُ الشاعر على ما زعم النحويون في حذف اسم إن وأخواتها :

---

(١) ديوان عبيد ص ٤٠ .

(٢) ديوان أوس ص ٩٢ .

(٣) لسان العرب (نحل) وأضاف : أراد : انتحالي القوافي ، فدلّت كسرة الفاء من القوافي على سقوط الياء فحذفها .

(٤) أقول لنا أن نفيد مما كان للفرزدق مع عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي النحوي ، وقد تقدم هذا في هذا الفصل الموجز . انظر : «نزهة الألباء» .

(٥) انظر : شياطين الشعراء في «حديث الغفران» للمعرّي .

إنِ مَن يدخل الكنيسة يومًا يلقَ فيها جآذرًا وظباءا[١]

أقول : ذكر النحاة هذا البيت وهو غير منسوب ، وعدم النسبة ليس بشىء لديهم ؛ ألم يكن من هذا خمسون شاهدًا فى كتاب سيبويه لايعرف قائلها؟!

ولو أن النحويين أطالوا استقراءهم لكان لهم أن يجدوا نَظيرَ ما أثبتوه فى قول عدى ابن زيد :

فليتَ دفَعتَ الهمَّ عنّى ساعةً فبتنا على ما حمَّلت ناعمى بالِ[٢]

أراد : فليتكَ .

ومثله قول الأحوص الأنصارى :

ألا ليت أنّا لم نكن قبلُ جيرةً جميعًا ألا يا ليتَ دامَ التجاورُ [٣]

ومثل هذا حذف اسم ليس فى قول الأخطل :

نصَبتَ إلىّ نيلَكَ من بعيدٍ فليس أوان تدّخر النصالا[٤]

أراد : ليس هذا أوان .

ولو أردتُ بَسْطَ القول فى الحذف لَكان لى أن أثبت حذف خبر ليس ، وحذف المضاف وإبقاء المضاف إليه ، وحذف الموصول وإبقاء الصلة ، وحذف الصلة وإبقاء الموصول .

أقول : وفى كل هذا كان للنحاة مجال أن يبسطو القولَ ويتوسّعوا فى النحو الذى كان ينبغى أن يظلّ يسيرًا ، ولكنهم آثروا التزيّد ؛ ليكون نحو واسع ؛ ليقابلوا به سائر علوم العربية[٥] .

---

(١) المقرّب ١٠٩/١ . (٢) العمدة ص ٢٧١ .

(٣) ديوان الأحوص ص ١١٧ .

(٤) شعر الأخطل ١٣٣/١ .

(٥) لقد جاء من الحذف اضطرار الشاعر أن يحذف الجملة إن دلّ عليها دليل . وهذا مما حمله أهل الأساليب من علماء البيان على فضيلة للشاعر كقول ابن هرمة :

وعليك عهد الله إنّ ببابه أهل السيالة إن فعلتَ وإنْ لمِ

أراد : وإن لم تفعل . ومثل هذا قول النابغة :

أفد الترحّل غيرَ أنّ ركابنا لمّا تزَل برحالنا وكأنْ قدِ

أى وكأن قد زالت .....

وكما حذف الشاعر ما حذف اضطرارًا ؛ كان له أن يزيد .

وقد يكون لنا أن نضع نحوًا خاصًا بالشعر فيما وصل إلينا من شعر الجاهليين والإسلاميين مما خرّج عن «نحو الكلام المنثور» .

قلت : إن الشاعر ، على قدرته وسطوته ، ممتحَنٌ حتى فى عصور الجاهلية بصنعته ؛ فهو يأتى بما لا يجوز ؛ اعتقادًا منه أنه يحقّ له ؛ فقد قال الحطيئة فى رثاء عمر بن الخطاب :

تأمَّلْ فإنْ كان البكا ردّ هالكًا ... على أهله فاجهدْ بكاءً على عَمْرو[1]

فجعل عمر بن الخطاب عمرًا ! !

وإنى لأختم هذا الموجز لأتحوّل إلى شىء يدعونى أن أجعل عنوان بحثى هذا : «تهافت النحاة» .

وهو « باب النداء»

لقد أدرجه النحويون فى المنصوبات ولمحوا فيه المفعول به ، وكأنهم رأوا فى قولهم : يا زيد قولهم : أدعو زيدًا ، ولم يتوقفوا فى مجىء «زيد» بعد «يا» مبنيًا على الضمّ ، ولم يفطنوا إلى أن النداء من الأساليب وأن المنادى بعده قد تأمرُه وقد تنهاه بـ «لا» وقد تحضّه وقد توبّخه . وهو من هنا يندرج فى حيّز المعانى الأسلوبية . وليس هذا كله منسجمًا فى تفسيرهم : «أدعو زيدًا» ؛ لأن هذا جملة خبرية ، وليس الخبر كالإنشاء .

وأتحوّل فى باب النداء إلى ما هو «ترخيم» ، وكأنهم حصروا المرخَّم فى المنادَى ، ولكننا نجد فى الشعر القديم أعلامًا رُخِّمت فى غير النداء ، والشاعر مضطرّ فى كل زمان .

أقول : ولم أجد الترخيم فى الترسل ولكننى أجده لدى الشاعر مضطرًا ، ولو استطاع الفرزدق أن يأتى له القول فيثبت «مروان» لَفَعَل ، ولكنه مضطر أن يقول :

يا مَرْوُ إنّ مطيّتى مَحْبوسةٌ ... ترجو الحباء وربُّها لم ييأس[2]

وكقول عمر بن أبى ربيعة :

قفي فانظري يا أَسمُ هل تعرفينه ... أَهذا المغيريُّ الذي كان يُذكَر[3]

---

(١) ديوان الحطيئة ص ١٦٣ .

(٢) من شواهد سيبويه فى الترخيم فى باب النداء ٣٢٧/١ .

(٣) من رائيته المشهورة ومطلعها : * أمن آل نُعْمٍ أنت غادٍ فمُبكرُ *

وكقول أوس بن حجر :

تنكّرتِ منا بعد معرفة لَمي   وبعد التصافي والشباب المكرَّم[١]

وأراد : «لميس» .

وأنت تعرف قول امرئ القيس : *أفاطمَ مهلاً بعض هذا التدلّل* [٢] .

وقول حاتم : * أماويّ إنّ المال غادٍ ورائحُ * [٣] .

وقالوا فى ترخيم حارث وصاحب : حارِ ، وصاحِ .

وقال النحويون فى إعراب هذه الأعلام المرخّمة :

يجوز فى الاسم المرخّم قطعُ النظر عن المحذوف فتجعل الباقِيَ اسمًا برأسه فتضمّه ، ويسمى لُغَة مَن لا يَنتظر ، ويجوز أن لا تقطع النظر عنه ، بل تجعله مقدّرًا فيبقى ما كان على ما كان عليه ، ويُسمى لغة مَن يَنتظر .

أقول : وهذه فذلكة نحوية ، وفى العربية سعة ؛ فقد رخّموا «ميّة» فكانت «مَيّ» فى النداء وغيره[٤] .

خاتمة :

هذا بعض شىء مما لى فى نقد النحو القديم آمل أن أعود إليه فأكمل هذه المسيرة التاريخية .

---

(١) الكتاب ٣٣٦/١

(٢) ديوان امرئ القيس .

(٣) ديوان حاتم .

(٤) أقول : وفى عصرنا لا نعرف إلا العلم «ميّ» ونسينا الأصل «مية» .

تصحيح «التصحيح»

تصحيح «التصحيح»

أقول : عرض الخطأ أو التجاوز اللغوى بكل فروعه للُغات عامّة ، وما زلنا نرى المعنيين بالمسائل اللغوية يبسطون القول فى هذا . لقد بدأ اللغويون هذا الدرس فى منتصف القرن الثانى للهجرة ، وكانت لهم فيه وقفات وأقوال . ثم بدا لهم فى القرن الثالث أن يتوسعوا وزاد هذا فى القرون التى تعاقبت ، فكان لنا مصنفات حبسها أصحابها على الخطأ وإصلاحه أو تصحيحه .

لقد فات أولئك المتقدمين ما أثر عن أبى عمرو بن العلاء فيما حكاه يونس بن حبيب ؛ قال : «ما انتهى إليكم مما قالته العرب إلا أقلُّه ، ولو جاءكم وافرًا لَجاءكم عِلْمٌ وشِعْرٌ كثير» [١] .

وجاء أيضًا من كلامه فيما رواه الأصمعى :

«سمعت أعرابيًا يقول : فلان لَغوب[٢] جاءته كتابى فاحتقرها ، فقلت له : أتقول : جاءته كتابى؟ فقال : أليس بصحيفة؟» .

قال أبو عمرو : فحمله على المعنى ، وقد جاء ذلك كثيرًا فى كلامهم[٣] .

قلت : لقد هُرِع اللغويون فى دأبهم فى التصحيح ، وتوهّموا أنهم يملكون العربية ، وفاتهم أنهم لم يدركوا ذلك وقليلٌ ما هم . لقد فاتهم أن يدركوا ما بين أيديهم من شعر ونثر وجهلوا الكثير من القرآن ومن الألفاظ الإسلامية . وكان فى اختلافهم فى هذا دليلٌ على أنهم لم يطمئنوا إلى الصواب ، غير أنهم توهّموا غير هذا فذهبوا فى تصحيحهم وإصلاحهم [٤] .

وقد اهتم اللغويون بالتصحيح متعقبين أقوال النحاة ، ومن هذا قول ابن قتيبة[٥] .

«وإذ نَسَبتَ إلى اسم مصغَّر كانت فيه الياء أو لم تكن ، وكان مشهورًا أَلقَيتَ الياء منه ؛ تقول فى جُهَينة ومُزَينة : جُهَنىّ ومُزَنىّ ، وفى قريش : قرشىّ ، وفى هُذَيل : هُذَلىّ ،

(١) الأنبارى ، نزهة الألباء (ط . مدينة الزرقاء فى الأردن) ص ٣٣ .
(٢) المصدر السابق ص ٣٥ و«لغوب» بمعنى أحمق .
(٣) المصدر السابق .
(٤) من هذا «تصحيح الفصيح» لابن درستويه (طبع بغداد) ، و«إصلاح المنطق» لابن السكّيت .
(٥) أدب الكاتب (ط . السلفية) ص ٢٠٩ .

وفى سُلَيم : سُلَمىّ ، إلاّ ما أشذّوا ، وكذلك إذا نَسَبتَ إلى فَعيل أو فعيلة من أسماء القبائل والبلدان وكان مشهورًا ، اكتفيت منه الياء مثل : ربيعة وبجيلة وحنيفة ، تقول : رَبَعىّ وبَجَلىّ وحَنَفىّ ، وفى ثقيف : ثَقَفىّ ، وفى عتيك : عَتَكىّ ، وإن لم يكن مشهورًا لم نحذف الياء فى الأوّل ولا الثانى» .

أقول : ذكر قول ابن دريد هذا مصطفى جواد ـ رحمه الله ـ فى كتابه «المباحث اللغوية فى العراق» فقال : «ولذلك يجب أن نقول : بديهىّ وغريزىّ وقبيلىّ وطبيعىّ» [١] وأيّد قوله هذا بما أثبته من أقوال أهل الأدب واللغة فقال :

قال أبو حيان التوحيدى فى بعض أخبار مقاريوس :

«ثم أقبل على زيموس وقال له : ما أَبْعَدَ شَبَه معدتك من المعادن الطبيعية» [٢] .

وقال الجاحظ : «الكرم الغريزىّ» [٣] .

أقول : إن هذا درج عليه جمهرة المعربين فى النسب إلى ما فيه الياء مما ورد على فعيل وفعلية وحذفهم للياء دون أن يدركوا ما قيل فى ذلك من أقوال أهل العلم ، كان بسبب ما أثبته النحاة فى إطلاق القاعدة . وهذا يدلّ على أنهم لم يستوفوا الاستقراء .

ومن هذا ذَهابُ المعاصرين إلى تخطئة النسب إلى الجمع ، والصواب لديهم أن النسب إلى المفرد ، وهذا مأخوذ من قول النحاة الذى أثبتوه فاعتمده مصنِّفو الكتب التعليمية فى عصرنا .

لقد نبّه على هذا مصطفى جواد وأشار إلى كلام الفصحاء فقال :

قال الجاحظ : «لو شئنا أن نقول إن سهر الكلب بالليل ونومه بالنهار خصلة ملوكية لقلنا ، ولو كان خلاف ذلك لكانت الملوك بذلك ، أولى» [٤] .

أقول : وجاء فى «فقه اللغة» للثعالبىّ فى تفصيل حركات اليد :

« . . . فإنْ مدّ يدَه نحو الشىء كما يمدّ الصبيان أيديهم إذا لعبوا بالجوز فرمَوا بها

---

(١) المباحث اللغوية فى العراق (طـ . بغداد ١٩٦٥) .

(٢) الإمتاع والمؤانسة ٢/ ٣٨ .

(٣) رسائل الجاحظ ص ٦ .

(٤) الحيوان ١/ ٢٨٣ .

فى الحفرة ؛ فهو السَّدْو ، والزَّوْد لغة صيانية فى السدو»[١] .

أقول : وقد درج أهلُ التصحيح فى عصرنا على هذه القاعدة التى ثقفوها فى الكتب التعليمية فقالوا : القانون الدَّولى ، والبنك الدَّولى ، والعلاقات الدَّولية ، وكان ينبغى أن يقال فى كل ذلك الدُّوَلى والدُّوَلية ، والنسب إلى الجمع هو المراد .

وقد سمعنا قديمًا : الأنصاريّ والشُّعوبيّ والمُلوكيّ .

وفيما نُسب إلى ما يتصل بالحِرَف والصناعات ، وبيع الموادّ عَرَفنا : القُدورى والأمشاطى والمغازلى والمحاملى والجلودى وغيرها .

وكأن أهل التصحيح سمعوا مصطلح «الأصولى» و«الأصولية» فى الصِّحافة المعاصرة فسكتوا .

أقول : و«الأصوليّ» و«الأصوليّة» فى صحف عصرنا غير «الأصولى» القديم . لقد أراد المعاصرون بـ «الأصوليّ» الملتزم بالإسلام التزامًا شديدًا ، وكأنهم أرادوا به المتعصِّب للإسلام ، ولكنهم هربوا مِن ذِكْرِ الحقيقة كما يريدون وذهبوا إلى ضربٍ من التعمية [٢] .

أقول : إن «الأصولى» فى كتب الرجال وَصْفٌ أو نَعْتٌ للرجل العالم بـ «أصول الفقه» ؛ فأين هذا مما نحن فيه؟!

ولا بد أن نعود إلى القاعدة النحوية التى تقيّد النسب إلى المفرد وليس للجمع ، وفى هذا غلَّط الحريريُّ فى كتابه «درّة الغوّاص ....» خواصَّ عصره لاستعمالهم «الصُّحُفى» نسبة إلى جمع «الصحيفة» لِمَن يقتبس من الصحف ؛ فقال :

«ويقولون لمن يقتبس من الصحف : «صُحُفيّ» ؛ فينسبون إلى الجمع قياسًا على قولهم : «أنصاريّ وأعرابيّ» ، والصواب عند البصريين «صَحَفيّ» نسبة إلى المفرد «صحيفة» كحَنَفيّ إلى «حنيفة» ؛ فإنهم لا يرون النسب إلى واحدِ الجمع إلاّ أن يجعل الجمع عَلَمًا للمنسوب إليه ؛ كمدائن وكلاب ؛ فيقال : مدائنيّ وكلابيّ ، أو كان فى

---

(١) فقه اللغة «ط . اليسوعية» ص ١٨٢ .

(٢) أقول : ومن هذا الذى يراد به التعمية ما نجده فى صحف عصرنا من قولهم : «تحريك الأسعار» والمراد به «رفع الأسعار» . وقولهم «التحفّظ على فلان» والمراد حبسه وسجنه وغير هذا .

النسب إلى الواحد القياس كأعرابى ؛ فإنه لو قيل عربىّ لالتبس بالمنسوب إلى العرب وبينهما فَرْقٌ مذكور فى محلّه ، ومِن هنا يُعلَم أن قياسهم عليه غيرُ صحيح ، وأما أنصارىّ فشاذٌ لا يقاس عليه أيضًا .

أقول : إن هذا الذى تشبَّث به البصريون لا يمكن أن يكون لهم حجة فى إثبات الجواز إلى المفرد ، والصواب أن المعرب يذهب إلى حاجته التى يتبين فيها الإفهام . وقد يكون لى أن أستشهد بما هو «دُوَلىّ» فى لغتنا المعاصرة ؛ فإنه يشير إلى ما يكون بين الدول وليس فيما يخصّ دولةً واحدة .

وقال الشهاب الآلوَسى فى «شرح الطرّة» :

« . . . . ثم إن المانعين استثنَوْا صورًا : منها أن يكون الاسم المنسوب إليه عَلَمًا «كأبناء» للبلدة المشهورة وهى اليوم بلاقع ، و«فرائض» عَلَم للعِلْم المشهور ، ومنها أن يغلب على شىء حتى يلحق بالعلم «كأنصار» لغلبته على أنصار النبى ﷺ فى الأوس والخزرج ، وهى إما جمع «نصير أو ناصر »[1] .

وجاء فى «معجم الأدباء» (ط. دار المأمون) :

«وينسب إلى الجمع إذا كان حِرْفةً كالأمشاطى والمحاملى والجواليقىّ ، ومثله الحصرى والخرائطىّ والأنماطى والأكفانى وغير ذلك » [2] .

أقول : وذهب مصطفى جواد فى تصحيحاته إلى أن النسب إلى الجمع صحيح لِما فيه من فائدة الإفهام ، واستظهر بما وجده لدى أهل العلم ؛ فقال :

«التذاكرىّ» هو بائع التذاكر وكذلك الآثار ، وقال :

وقد قالوا : «الرسائلىّ» للذى يحمل الرسائل .

قال ابن الفوطى ج٤ ورقة ١٠ فى «مجمع الآداب» فى النسخة الظاهرية فى ترجمة المملوك سعادة : وهو عز الدين أبو الحسن سعادة بن عبد الله الرومى المستظهرى الخادم الرسائلى .

---

(١) شرح الطرة (ط . دمشق ١٣٠١) ص ٣٠٣ .
(٢) معجم الأدباء ٣١/١ - ٣٢ .

وكذلك الساعاتى وهو على بن رستم بن الساعاتى الشاعر المعروف .

أقول : إن أهل التصحيح لم يأخذوا بما هو معروفٌ فى استعمال الكتّاب ، بل تبعوا أقوالَ النحاة واللغويين الأوائل بصريين وكوفيين . وهذا ما فعله الحريرى فى «درة الغواص» الذى أثار رد اللغويين الذين لم يتقيدوا بما فرضه أوائلُ اللغويين والنحويين .

وكان ينبغى لأهل التصحيح أن يفيدوا مما استعمله الجاحظ وأبو حيان التوحيدى وغيرهما .

إننا نجد مثلاً القفطى فى «إخبار الحكماء» يقول :

«روفس حكيم طبائعيّ خبير بصناعة الطب فى وقته . . .» .

ومن هذا ما قالوا لآسى الجراحات «الجرائحيّ والجراحيّ» ، والأول أَشْهَرُ .

مما ينبغى لأهل التصحيح

أقول : كان ينبغى لأهل التصحيح أن يُبعِدوا عنهم ما سُطر فى كتب النحو ، وينظروا إلى استعمال النحاة فى كتبهم الأخرى غير النحوية . لم ينظروا مثلاً فى لغة المبرّد فى «الكامل» و«الفاضل» ، ولم ينظروا فى «الفائق» للزمخشرى ، ولم ينظروا فى كتب القرآن الأخرى .

أقول : كأن أولئك قد وجدوا أن العربية واسِعةً ، وكأن الإمام الشافعى قد أدرك ضيقَ اللغويين والنحويين فى باب التوكيد ؛ فقد ورد من كلامه فى «المواهب الفتحية» :

جاء عامّة القوم ، وأخذ عامّة المال ، وبقى عامة النهار[1] .

وقد تجد فى «الكشاف» للزمخشرى قوله : «كافة الأحوال» أو نحو هذا .

وقالوا مثلاً : لا تدخل «قد» على فعل مضارع منفى ؛ فلا يقال : قد لا يكون هذا ، ولكنى وجدت هذا لدى أصحاب المعجمات . وكأنى وجدت النحاةَ واللغويين الذين سطروا فى كتبهم ما عرفناه من قواعد النحو والصرف غَيْرَ مزوّدين فيما ذهبوا فيه بكثيرٍ مما ورد فى كلام أهل اللسن والفصاحة .

---

(١) المواهب الفتحية ١٧/١ .

وإذا كان هذا قد حصل فكيف يتصدّى مصحّح قديم فيصحّح معتمدًا على ما قرّره النحويون ؟ .

لقد قال النحاة مثلاً بعدم جواز وصف ما يُكسَّر من الجمع بـ «فعلاء» فلا يقال مثلاً : «صحائف بيضاء» لأن الصواب «صحائف بيض» ، وكأنهم تبعوا فى استقرائهم الناقص ما ورد من قوله تعالى : ﴿ومِن الجبال جُدَدٌ بيض وحُمْرٌ مُّختلِفٌ ألوانُها وغرابيبُ سُود﴾[1] .

وفاتهم أن طرفة بن العبد من شعراء الجاهلية قال :

وفيهم رأينا الغيم فيه كأنّه سماحيق تُربٍ وهْى حمراء حَرْجَفُ

والمسألة بالخيار ، وفى العربية سعة ، وهذا جائز مثل أن يأتى الوصف لما هو مجموع جمعًا كقول الأعشى :

الواهب المئة الهجان وعيدها عُوذًا تُزَجّى خلفها أطفالها

وقد جاءت «المئة الهجان» موصوفة بـ «فعلاء» فى قول الحطيئة :

الواهب المئة الهجا ن معًا لها وَبَرٌ مظاهِرْ

دهماءَ مدفأة الشتا ء كأنّ بركتها حظائِرْ

ومن هذا الذى ذهبوا فيه إلى التخطئة وهو صحيح بدلالة وروده فى قول امرئ القيس :

تَبيت لَبونى بالقُريَة أُمَّنا وأسرحُها غبّاً بأكناف حائل

تلاعِبُ أولادُ الوعول رباعُها دُوَيْنَ السماء فى رءوس المجادل

مكلّلة حمراء ذات أسرّةٍ لها حُبُكٌ كأنّها من وصائل

وإذا قال باعث بن صريم وهو ممن أثبتهم أبو تمام فى «حماسته» :

وكتيبةٍ سُفْع الوجوه بواسل كالأُسْدِ حين تذبّ عن أشبالها

قد قُدتُ أوّل عنفوان رعيلها فلفقتُها بكتيبةٍ أمثالِها

ووصف «الكتيبة» بـ «سُفْع» ؛ فقد وصفها حسان بن ثابت بـ «خضراء» فى قوله :

لمّا رأى بَدْرًا تسيل تلاعه بكتيبةٍ خَضْراءَ مِن بَلخَزْرجِ

---

(١) ٢٧ سورة فاطر .

وليس لى إلا أن أجعل قوله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ مفيدًا لى فى الإشارة إلى سعة العربية وهو : «إيّاكم وخضراءَ الدمَن» .

ما ورد مما حمل على اللحن لدى الأوائل

وما أدى فى عصرنا إلى ضربٍ من «السرقات العلمية»

أقول : لا أريد باللحن هنا التجاوز على العربية نحوًا وصرفًا ؛ وذلك لأن الكثير من هذا قد عرض للغات عامّة ونبّهوا عليه . ولكنى أريد به البعد فى استعمال الكلمة عن دلالتها والذهاب بها إلى طرائقَ لا نعرفها فى طرائق المعربين فى القرنين الأول والثانى . وقد تكون مبتعدة عن عربيةِ التنزيل والمشهورِ فى الحديث الشريف .

ومن الطبيعى أن تكون عربية الذين أسلَموا فى القرون الأُولَى من غير العرب غير ما نعرف من عربية إخوانهم من المسلمين العرب ، وأن تكون الأصوات العربية فيها معدولة عن حقائقها اللغوية .

ولا أَعرض هنا لما أثبته الجاحظ من قول أحد تجار الدوابّ الذى باعَ المسلمين دوابَّ رديئة فاستنطقه الحَجّاجُ عن ذلك فأجابه : «شريكاتنا فى هوازها وشريكاتنا فى مداينها وكما تجىء تكون» ؛ أى أن هذه الدوابَّ قد وصلت على ما هى عليه مِن رداءة مِن شركائه فى بلادهم الأهواز والمدائن [١] .

ومن الطبيعى أن يحمل المسلمون الجدد شيئًا حَمل الضَّيْمَ على عربيتهم . وقد يكون من هؤلاء مَن كانت أمهاتُهم غير عربيات وآباؤهم عرب . وينبغى ألا نغفل أن يكون شىء مما عرض للعربية من ابتعاد عن الصواب بسبب ما عرفه المجتمع الإسلامى فى القرنين الأول والثانى من العبيد الرقيق والجوارى غير العربيات .

لقد عرفنا من هذا من الصحابة الأولين بلال بن رباح أوّل مَن رفَع الأذان فى عهد رسول الله وهو عبد حبشى لا بد أن يكون ذا لكنه حبشية . وإلى هذا يومىء قوله تعالى : ﴿لِسانُ الذى يُلحِدون إليه أعجمىٌّ﴾ [٢] . وذكر الجاحظ أن سحيم عبد بنى الحَسحاس كان يرتطن لكنة أجنبية وكان يقول : «سعَرَت» بدلاً من «شعرت» [٣] . وفى الأغانى أنه

(١) الجاحظ : البيان والتبيين ٦٨/١ ، ابن قتيبة : عيون الأخبار ١٦٠/٢ .
(٢) ١٠٣ سورة النحل .
(٣) البيان والتبيين ٣٢/١ .

روى عنه قوله : «أهسنت» بدلاً من «أحسنت» [١] .

وقال ابن قتيبة فى «الشعر والشعراء»[٢] ، وابن جنى فى «سر الصناعة» كما أفدت مما فى خزانة الأدب[٣] : أنه كان يقول : أحسنكُ بدلاً من أحسنت . والكاف ضمير للمفرد المتكلم فى الحبشية .

أقول : قد يحمل هذا الاختلاف فيما روى فى جملة هذه المصادر إلى بعض النقص فى الاستقراء والبحث .

ولعلنا ندرك ما عرض لعربية أهل البصرة من فساد إذا وقفنا على تأثير الفارسية وظهورها فى أسماء البلدان والمواضع والأنهار[٤] ومجيئها مختومةً بالألف والنون للنسب كما فى مهلّبان وأميّتان وعبادان وغيرها [٥] .

على أن هذا لم يمنع أن يكون أولئك الداخلون أصحاب فصاحة ، والجاحظ يشير مثلاً إلى موسى الأسوارى ويصفه ؛ فيقول : إنه كان من أعاجيب الدنيا ، وكانت فصاحته بالفارسية فى وزن فصاحته بالعربية ، وكان يجلس فى مجلسِه المشهورِ به ، فيجلس العَرَبُ عن يمينه ، والفُرْسُ عن يساره ، فيقرأ الآية من كتاب الله ويفسِّرها للعرب بالعربية ، ثم يحوِّل وجهه إلى الفرس فيفسرها لهم بالفارسية فلا يُدرى بأى لسان هو أَبْيَنُ[٦] .

ولم تسلم عربيةُ أهل الكوفة مما عرض لها مِن ضَيْم ؛ فقد عرفت هذه المدينةُ أفواجًا من غير العرب اتخذوها موطنًا لهم بعد عصر الفتوحاتِ الأولى . إنهم بقية الجيش الفارسى بقيادة رستم فى حرب القادسية .

لقد أشار الجاحظ فى هذه العربية الجديدة إلى جملة ألفاظ فارسية استعملها الكوفيون وشاعت بينهم ؛ فقد قال : يقولون : خيار بدلاً من قثّاء ، وباذروج من الحوك (وهى البقلة الحمقاء أو الرجلة) . . . [٧] .

---

(١) الأغانى (ط بولاق . ٢/ ٢) .
(٢) الشعر والشعراء ص ٢٤١ .
(٣) خزانة الأدب ٢/ ٢٥٧ عن كتاب «العربية» ليوهان فك (ترجمة النجار) ص ١٣ .
(٤) ياقوت ، معجم البلدان ١/ ٦٤٥ .
(٥) أقول : ما زال فى البصرة شىء من هذا فى «مهيجران» وهى مهاجران ، ويوسفان وغيرهما .
(٦) البيان والتبيين ١/ ١٣٩ .
(٧) المصدر السابق ١/ ١٠ .

لقد عرفت عربية المِصْرَيْنِ هذا الدخيل الفارسى وعَمّ فى سائر ما حواليهما من الحواضر والمواضع .

وإذا عرفنا أن العرب الأوائل قد عرفوا الدخيل أدركنا أن الفرزدق الشاعر قد عرف لعبة الشطرنج فاستعمل «البيذق» فى إحدى نقائضه لجرير فقال :

ونحن إذا عَدَّتِ تميم قديمها مكان النواصى من وجوه السوابق

منعتك ميراث الملوك وتاجهم وأنتَ لدرعى بيذَق فى البياذق[1]

وقوله هذا يشير إلى إتقانه هذه اللعبةَ التى مِن رسومها تقدُّم البيذق إلى الرقعة الأخيرة فيتحول إلى وزير . إن هذا «البيذق» لم تسلم منه لغةُ جرير التى ورد فيها بمعنى ما هو ساقط مرذول فقال :

سبعون والوصفاء مهر بناتنا إذ مَهر جِعْثَنَ مثل حُرّ البيذق[2]

إنه أشار إلى أن مهر جعثن أخت الفرزدق هو «مهر المثل» وليس مَهْرًا يشار إليه فى عقد النكاح .

ولم تَنْجُ عربيةُ بلاد الشام من الدخيل الرومى ، ولا عربيةُ مصر مما هو قبطى .

وقد كان التجاوز على المشهور السائد من العربية يعرض لأهل العلم ؛ فقد عاب الجاحظ قراءة الحسن «وما تَنَزّلت به الشياطون»[3] وعَدَّها خطأً .

ثم انصرف اللغويون إلى الإشارة إلى أى تجاوز على العربية كما ورد هذا فى «درة الغواص» للحريرى . غير أن آخرين من أهل العربية قد اختلفوا فذهبوا إلى أن الحريري قد ضيق الأمر وحجّر واسعًا ، ووجدوا أن كثيرًا من تخطيئه غَيْرُ صحيحٍ . ومن هؤلاء ابن الخشاب .

ثم مضى أهل اللغة فى تصحيحاتهم حتى جاء المعاصرون فأكثروا فى هذا ، وكان منهم من تصدّى لتصحيحات أصحابه فأشار إلى ما زعموه خطأً وهو صحيح . وكان هذا المصحِّح هو مصطفى جواد الذى رَدَّ أقوالَ أسعد خليل داغر وأقوال الكرملى فى كتابه «المباحث اللغوية فى العراق» .

---

(١) ديوان الفرزدق . (٢) ديوان جرير .

(٣) ٢١٠ سورة الشعراء

ثم كان لمصطفى جواد جهد كبير آخر فى التصحيح لما يعرض لأقوال المعربين فى الصحف وغيرها . وقد جمعها فى كتاب له فى جزأين وسَمَه بـ «قُلْ ولا تَقُلْ» .

لقد وقف المعنيون باللغة وقفةً خاصةً من أقوال مصطفى جواد ، وكأنه جنح على رأيهم إلى المبالغة فى التخطئة فكان آخر مَن ردّ عليه الأستاذ صبحى البصام فى كتاب له وسمه بـ«الاستدراك على كتاب قل ولا تقل»[١] .

أقول : وإذا كان الأستاذ مصطفى جواد ، وهو مَن هو فى سعة ما له من أخبار يحفظها ويستظهر بها ، قد عرض له شىء ذهب فيه إلى الصواب مشيرًا إلى وجه الخطأ فى استعمال المعربين ، فكيف نقول فى الآخرين الذين مضوا عيالاً عليه وعلى مَن سبقه إلى أيام الحريرى ومَن تقدّمه؟ .

هذا هو الأستاذ البصام يعرض لتصحيحات أستاذه مصطفى جواد ويبين أن ليس فيها ، مما ظنٌ ، خطأً .

إن هذا يعنى أن أصحاب التصحيح قد تعجّلوا المسيرةَ وفاتهم على سعة معارف بعضهم كمصطفى جواد الذى ينفرد من بين هذه الطائفة ، ومع هذا فقد عرض له ما يعرض للمتعجلين ، فكيف بنا مع الذين يقمّشون فيسطون على ما كتَبه غيرهم .

أقول : ولم يدرك أهلُ التصحيح أن الدلالة فى الكلمة قد تتغير فيبدأ فيها بالعدول عن أصلها فيكون هذا المعدول استعمالاً جديدًا لشيوعه . ولا أرانى أحمله على الغلط لورود الكثير منه فى لغة الصفوة وليس فى لغة العامة .

ولنضرب مثلاً على هذا بالفعل «استُهتِر» الذى كان يدل على الوَلوع بالشىء ، وهذا الولوع قد ذُهب به شيئًا فشيئًا إلى ما هو غير مقبول . لقد قالوا مثلاً : هو مُسْتَهتَر بالشراب أى مولع به لا يُبالِى ما قيل فيه . وفى حديث ابن عمر : «اللهمّ إنّى أعوذ بك أن أكون من المستَهتَرين» ، لقد قيل فى تأويله : إنه كثير الأباطيل .

وجاء فى «شرح نهج البلاغة» فى صفة الملائكة : «ولا يرجع بهم الاستهتار بلزوم طاعته»[٢] . وجاء فى شعر ابن الدمينة :

أُحب هبوطَ الواديين وإننى ... لمُسْتَهتَر بالواديَين غريبُ[٣]

(١) كتاب «الاستدراك» من المنشورات العراقية فى (مطبعة الإرشاد) .
(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ١٤٩/٢ - ١٥٠ .
(٣) ديوان ابن الدمينة شرح محمد الهاشمى البغدادى . وقد صُحّف «لمشتهر» .

غير أننا نجد هذه الكلمة قد جُنح بها إلى ضدّها ولا يمكن حملُها على ألفاظ الأضداد ؛ لأن ما عُدَّ من الأضداد قد قُيِّد بهذا فى كتب الأضداد ، وهو قديم فى العربية . إننا نجد فيما يرويه ابن تغرى بردى فى حوادث سنة ٦٤٢ هـ قوله :

وفيها قتل القاضى الرفيع عبد العزيز بن عبد الواحد . . . . . قال أبو المظفر فى «تاريخه» (أقول : هو مرآة الزمان) : قيل إنه فاسد العقيدة دهريًّا مستهترًا بأمور الشريعة يخرج سكران . . .»[١] .

قال مصطفى جواد : فإن كان هذا كلام أبى المظفّر يوسف بن قزاغلى المعروف بسبط ابن الجوزى المتوفى سنة ٦٥٤ هـ ؛ فهو غلط محض منذ أواسط القرن السابع الهجرى[٢] .

أقول : وليس لنا أن نعزو هذا إلى الغلط ؛ لأننا نجده فاشيًا فى نعت الرجال لدى أهل العلم من الخاصة وليس فى لغة عوامّ الناس .

لقد ذكر مصطفى جواد ما ورد فى معنى «الاستهتار» الذى جدّ فى العربية منذ قرون ومنها :

«جاء فى أخبار شهاب الدين يحيى السهروردى الفيلسوف قتيل حلب : كان الشيخ فخر الدين المارديني يقول : ما أذكى هذا الشاب وأفصحه!! لم أجد أحدًا مثله فى زمانى ، إلاّ أنى أخشى عليه لكثرة تهوّره واستهتاره وقلة تحفظه»[٣] .

وجاء أيضًا :

وقال كمال الدين محمد بن طلحة الوزير المتوفى سنة ٦٥٢ هـ فى الحِسْبة والواجب على المحتسب : «فإنْ رأى أو علم إنسانًا يعتمد الخلل فى حقوق الله . . أو يتجاهر بمنع الزكاة الواجبة عليه استهتارًا . . . . . إلى غير ذلك مما يُطرّق إلى الدين خللاً . . . .»[٤] .

وجاء فى سيرة السلطان خليل بن قلاوون المماليكى سلطان مصر والشام : «أن

---

(١) مرآة الزمان لسبط ابن الجوزى (ط . حيدر آباد) ٨ / ٧٥١ .

(٢) المباحث اللغوية فى العراق (ط بغداد ١٩٦١) .

(٣) عيون الأنباء لابن أبى أصيبعة ٢/ ١٦٧ .

(٤) العقد الفريد للملك السعيد لكمال الدين محمد بن طلحة الوزير ص ١٨٠ .

الأمير بيدرًا الواثب على السلطنة شرع يعدّد ذنوب السلطان خليل وإهماله أمور المسلمين واستهتاره بالأمراء» [1] .

وجاء فى أخبار أبى إسحاق إبراهيم بن هلال الصابى ، قال حفيده هلال بن المحسّن ابن الصابى : «وعاد أبو إسحاق إلى خدمة عز الدولة بختيار بن معز الدولة ، وكتب عنه فى أيام المباينة وبين عضد الدولة الكتب التى تضمنت الوقيعة والاستهتار عليه» [2] .

وهذا يشير إلى أن «الاستهتار» قد انحرفت دلالته فى أواسط القرن الخامس وفيه توفى هلال بن المحسّن ابن الصابى [3] .

أقول : وجاء كثير من أبناء عصرنا هذا ممن ليسوا من أهل العلم فراحوا ينقلون ما عدّه الأوائل غلطًا دون أن يعرفوا الاستدراكات الكثيرة فتجدّد القول بالغلط وحدث معه غلط هؤلاء الذين تصدَّوْا لهذه الصنعة وهم ليسوا من أهلها .

وهكذا يظهر شىء من «السرقات العلمية» .

(١) فوات الوفيات لابن شاكر الكتبى (ط . السعادة بمصر) ١/ ٣٠٢ .

(٢) معجم الأدباء لياقوت (ط دار المأمون) ١/ ٢٣٠ - ٢٣١ .

(٣) أقول : وكأن الذهاب إلى هذا المعنى الجديد فى الفعل «استهتر» إلى ما يشبه الضدّ هو استحداث جديد ؛ ذلك أن الفعل فى استعماله القديم كان مما بنى إلى ما ندعوه فى عصرنا المجهول فكانوا يقولون : استهتر بالشىء نظير قولهم : سُقط فى يده ، وحُمّ وغُمّ وغيرها ، وأما الآخر الذى استحدثوه فهو فعل مبنى لمعلوم نظير استَسْلَمَ .



اليمن فى الحديث الشريف



اليمن فى الحديث الشريف

رأيت أن لليمن حضورًا فى الحديث الشريف فوجدت أن من المفيد أن ألمّ شتات هذه الفوائد الحسان . واعتمدت فى هذا معجمًا من معجمات غريب الحديث وهو «النهاية فى غريب الحديث والأثر »(١) للإمام مجد الدين أبى السعادات المبارك بن محمد الجزرى المعروف بـ «ابن الأثير» (٢) .

ما ورد من المواد اللغوية اليمنية

١ ـ الأبناء :

وفى الحديث : «وكان من الأبناء» . والأبناء جمع ابن ، ويقال لأولاد فارسَ «الأبناء» الذين أرسلهم كسرى مع سيف بن ذى يزن لمّا جاء يستنجده على الحبشة فنصروه وملكوا اليمنَ وتَدَيَّروها ، وتزوّجوا فى العرب ، فقيل لأولادهم : الأبناء ، وغلب عليهم هذا الاسم ؛ لأنّ أمّهاتهم من غير جنس آبائهم (٣) .

٢ ـ البِتْع :

وفى حديث على ـ ﷺ ـ «أنه سئل عن «البِتعْ» فقال كلُّ منكَر حرام أو مسكر» . البتع بسكون التاء وهو خمر أهل اليمن ، وقد تحرَّك التاء كقِمْع وقِمَع ، وقد تكرّر فى الحديث(٤) .

---

(١) النهاية فى غريب الحديث والأثر بتحقيق طاهر أحمد الزاوى ومحمود محمد الطناحى (والناشر : المكتبة الإسلامية) .

(٢) مصادر الترجمة (منقولة من مقدمة المحققين) :
معجم الأدباء لياقوت ١٧ / ٧١ ـ ٧٧ ط . دار المأمون .
إنباه الرواة للقفطى ٣/ ٢٥٧ ـ ٢٦٠ .
وفيات الأعيان ، لابن خلكان ٣/ ٢٨٩ ـ ٢٩١ ط . النهضة المصرية .
طبقات الشافعية الكبرى لابن السبكى ٥ / ١٥٣ ـ ١٥٤ .
النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ٦/ ١٩٨ - ١٩٩ .
بغية الوعاة للسيوطى ٣٨٥ ـ ٣٨٦ .
شذرات الذهب لابن العماد الحنبلى ٥ / ٢٢ ـ ٢٣ .

(٣) النهاية ١/ ١٧ .

(٤) المصدر نفسه ١/ ٩٤ أقول : والبِتَع بكسر الباء وفتح التاء : اسم قبيلة من همدان .

٣ ـ باقورة :

وفى كتاب الصدقة لأهل اليمن : «فى ثلاثين باقورة بقرة» . الباقورة بلغة اليمن : البقر ، هكذا قال الجوهرى ـ رحمه الله ـ فيكون قد جعل المميِّز جمعًا [(١)] .

٤ ـ البَلَس :

وفى الحديث : «مَن أحبَّ أن يرقَّ قلبُه فليُدمِ أكل البَلَس» ؛ هو بفتح الباء واللام : التين ، وقيل : هو شىء باليمن يشبه التين . وقيل : هو العَدَس ، وهو عن ابن الأعرابىّ مضموم الباء واللام[(٢)] .

٥ ـ تقد :

فى حديث عطاء ، وذكر الحبوب التى تجب فيها الصدقة ، وعدّ فيها «التِّقْدة» ، هى بكسر التاء : الكُزْبُرة . وقيل الكَرويا . وقد تُفتح التاء وتكسر القاف . وقال ابن دريد : هى التِّقْرِدة ، وأهل اليمن يسمُّون الأبزار : التِّقْردة [(٣)] .

٦ ـ الجدف :

وفى حديث عمر ـ رضي الله عنه ـ «أنه سأل رجلاً استهوته الجنّ ، فقال : ما كان طعامهم؟ قال : الفول وما لم يذكر اسم الله عليه . قال فما كان شرابهم ؟ قال : الجَدَف» . الجَدَف بالتحريك : نبات يكون باليمن لا يحتاج آكِلُه إلى شرب ماء . وقيل : هو كل ما لا يُغطَّى من الشراب وغيره . وقال القُتَيبى : أصله من «الجَدْف» أى القطع ، أراد : أراد ما يُرمَى به عن الشراب من زَبَد أو رَغوة أو قَذًى ، كأنه قُطع من الشراب فرُمى به . هكذا حكاه الهروى عنه . والذى جاء فى «صحاح» الجوهرى : أن القَطع الجَذف بالذال المعجمة . ولم يذكره فى الدال المهملة ، وأثْبته الأزهرى فيهما[(٤)] .

٧ ـ استخمر :

وفى حديث مُعاذ : «مَن استخمر قومًا أولّهم أحرار وجيران مستضعَفون فإنّ له ما

(١) المصدر نفسه ١/ ١٤٥ . أقول : وجاء فى النقوش اليمنية : بقرم وثورم وبعيرم . والميم تقابل التنوين فى العربية .
(٢) المصدر السابق ١/ ١٥٢ .
(٣) المصدر السابق ١/ ١٩٢ . وقال بعض أهل الدرس : فى الكلمة تصحيف والصواب «التفرار» وهى الأحجار الصغيرة التى تقع من مجارى السيول .
(٤) المصدر السابق ١/ ٢٤٦ .

قَصَر فى بيته» ، استَخْمَر قومًا ، أى استعبَدَهم ، بلغة اليمن . يقول الرجل للرجل أخمِرنى كذا : أى أعطنيه وملِّكنى إيّاه . المعنى : مَن أخذ قومًا قَهْرًا وتملُّكًا ؛ فإن مَن قصَره : أى احتَبَسَه واحتازَه فى بيته واستجراه فى خدمته إلى أن جاء الإسلام ؛ فهو عبد له .

قال الأزهرى : المخامرة أن يبيع الرجل غلامًا حُرّاً على أنه عبد ، وقول معاذ مِن هذا ، أراد مَن استعبد قومًا فى الجاهلية ، ثم جاء الإسلام فله ما حازه فى بيته لا يخرج من يده . وقوله : «وجيران مستضعَفون» أراد ربّما استجار به قوم أو جاوَروه فاستضعَفَهم واستعبَدَهم ، فكذلك لا يُخرَجون من يده ، وهذا مبنىّ على إقرار الناس على ما فى أيديهم [١] .

٨ ـ دفأ :

وفى الحديث : «أنه أُتى بأسير يُرعَد ، فقال لقوم : اذهبوا به فأدْفوه فذهبوا به فقتلوه . فوَداه ﷺ » .

أراد ـ ﷺ ـ الإدفاء من الدفء ، فحسبوه الإدفاء بمعنى القتل فى لغة أهل اليمن . وأراد النبى ـ ﷺ ـ أدفئوه بالهمز فخفّفه بحذف الهمزة ، وهو تخفيف شاذ كقولهم : لا هَناكَ المرتَع وتخفيفه القياسىّ أن تجعل الهمزة بَيْنَ بَيْنَ لا أن تُحذَف ، فارتكَبَ الشذوذ لأنّ الهمز ليس من لغة قريش . فأما القتل فيقال فيه : أدْفَأتُ الجريح ، ودافأتُه ، ودفَوته ودافَفْتُه إذا أجهَزْت عليه [٢] .

٩ ـ ذهب :

وفى حديث عكرمة «سُئِل عن «أذاهِبَ» من بُرٍّ و«أذاهِبَ» من شعير ، فقال : يُضمّ بعضها إلى بعض ثم تُزَكّى» . الذهَب بفتح الهاء : مكيال معروف باليمن ، وجمعه أذهابٌ ، وجمع الجمع : أذاهب [٣] .

١٠ ـ سلب :

وفى حديث ابن عمر : «دخل عليه ابن جبير ، وهو متوسد مِرفقةً حشوها ليف أو

---

(١) المصدر السابق ٢/ ٧٨ وقيل أيضًا : المراد الولاء .
(٢) المصدر السابق ٢/ ١٢٣ ـ ١٢٤ . وقال بعض أهل الدرس : لعل الصواب : فادفنوه .
(٣) المصدر السابق ٢/ ١٧٤ .

سَلَب» ، والسَّلَب بالتحريك : قشر شجر معروف باليمن يُعمل منه الحبال ، وهو ليف المقْل . وقيل : خوص الثُّمام .

وقد جاء حديث : «أن النبى - ﷺ - كان له وسادة حشوها سَلَب»[١] .

١١ - صفق :

وفى كتاب معاوية إلى ملك الروم : «لأنزعنّك الملك نَزْعَ الاصفقانيّة» و«الاصفقانية» هم الخَوَل بلغة اليمن . يقال : صفقهم من بلد إلى بلد : أخرجهم منه قَهْرًا وذلاً ، وصفقهم عن كذا : أى صرفهم [٢] .

١٢ - عجز :

وفى الحديث : «أنه قدم على النبىّ - ﷺ - صاحِبُ كسرى فوهب له مِعجَزَة ، فسُمِّى : ذا المِعجزة» ، وهى بكسر الميم : المِنْطقة بلغة اليمن ، سُمِّيت بذلك لأنها تلى عَجُز المنتطق[٣] .

١٣ - عرض :

ومنه حديث عاشوراء : «فأمر أن يؤذنوا أهل العَروض» ، أراد مَن بأكناف مكة والمدينة . يقال لمكة والمدينة واليمن : العَروض ، ويقال للرساتيق بأرض الحجاز : الأعراض ، واحدها عِرْض ، بالكسر [٤] .

١٤ - عصب :

وفى الحديث : «المُعتَدَّة لا تلبس المصبَّغة إلاّ ثوبَ عَصْب» . العصب : برود يمنية يُعصَب غزلها : أى يُجمَع ويُشَدّ ثم يُصبغ وينسج فيأتى مَوشيّاً ، لبقاء ما عُصِبَ منه ، أبيضَ لم يأخذه صِبْغ . يقال : بُرْدُ عَصْبٍ وبرودٌ عَصْب بالتنوين والإضافة . وقيل هى برود مخططة والعصب : الفتل : والعَصّاب : الغَزّال ؛ فيكون النهىُ للمعتَدَّة عمّا صُبِغَ بعد النسج[٥] .

---

(١) المصدر السابق ٢ / ٣٨٧ .
(٢) المصدر السابق ٣ / ٣٩ .
(٣) المصدر السابق ٣ / ١٨٦ .
(٤) المصدر السابق ٢١٤/٣ .
(٥) المصدر السابق ٢٤٥/٣ .

١٥ ـ كاف الخطاب :

وفى حديث عائشة «استأذَنَت النبىّ - ﷺ - فى دخول أبى القُمَيس عليها فقال : ائذنى له فإنه عَمُّج» ، يريد «عمُّكِ» من الرضاعة ، فأبدَل كافَ الخطاب جيمًا [1] ، وهى لغة قوم من اليمن [2] .

١٦ - قيل :

وفى الحديث : «أنه كَتَبَ إلى الأقيال العباهلة» ؛ جمع قَيْل ؛ وهو أحد ملوك حمير ، دون الملك الأعظم . ويُروَى بالواو [3] وقد تقدم .

ومنه الحديث :«إلى قَيل ذى رُعَيْن» ؛ أى ملكها ، وهى قبيلة من اليمن تنسب إلى ذى رُعَين ، وهو من أذواء اليمن وملوكها [4] .

١٧ ـ عرم :

ومنه حديث أبى ميسرة فى قوله تعالى : ﴿فأرسَلْنا عليهم سَيْلَ العَرِم﴾ قال : العَرِم : المُسَنّاة ، بلحن اليمن ؛ أى بلغتهم [5] .

أسماء الحواضر والمدن اليمنية

١ ـ أَبْيَن :

وفى الحديث « . . . من كذا وكذا إلى عدن أَبْيَن» ؛ أَبْيَن ـ بوزن أحمر ـ قرية على جانب البحر ناحية اليمن . وقيل : هو اسم مدينة عدن [6] .

وفيه ذِكْرُ «عَدَنِ أبْين» هى مدينة معروفة باليمن ، أضيفت إلى أَبْيَن بوزن أبيض ،

---

(١) أقول : لعل« الجيم» هنا غير الجيم الشجرية الفصيحة ، بل هى الجيم الأعجمية ، وهى التى بقيت فى لغة أهل العراق والخليج فى وقتنا فى كاف الخطاب للمؤنث ، كما ههنا .

(٢) المصدر السابق ٣/ ٣٠٣ .

(٣) انظر المصدر السابق ٤ / ١٢٢ (قول) .

(٤) المصدر السابق ٤/ ١٣٣ .

(٥) المصدر السابق ٤ / ٢٤٢ .

(٦) المصدر السابق ١/ ٢٠ .

وهو رجل من حمير ، عَدَنَ بها ، أى أقام [١] ومنه سميت جنّة عَدْن ، أى جنّة إقامة ، يقال : عَدَن بالمكان يَعْدِن عَدْنًا ؛ إذا لزمه ولم يبرح منه[٢] .

٢ ـ بَرْك الغِماد :

وفى حديث الهجرة : «لو أمرتَنا أن نبلُغ معك بها بَرْك الغِماد» ؛ تفتح الباء وتُكسَر ، وتُضمّ الغين وتُكسَر ، وهو اسم موضع باليمن . وقيل هو موضع وراء مكّة بخمس ليالٍ[٣] .

٣ ـ تَبالة :

وفيه ذِكْر «تبالة» ؛ هو بفتح التاء وتخفيف الباء : بلد باليمن معروف [٤] .

٤ ـ جرش :

وفيه ذكر «جُرَش» ؛ هو بضم الجيم وفتح الراء : مخلاف من مخاليف اليمن [٥] .

٥ ـ الجند :

وفيه ذِكْرُ «الجَنَد» ؛ هو بفتح الجيم والنون : أحد مخاليف اليمن ، وقيل : هى مدينة معروفة بها [٦] .

٦ ـ ذِمار :

وفيه ذِكْرُ «ذِمار» ؛ وهو بكسر الذال ، وبعضهم يفتحها : اسم قرية باليمن على مرحلتين من صنعاء . وقيل : هو اسم صنعاء . [٧]

٧ ـ رمع :

وفيه ذِكْرُ «رِمَع» ؛ هى بكسر الراء وفتح الميم : موضع من بلاد علكٍّ باليمن[٨] .

---

(١) أقول : هذا هو قول اللغويين والمفسرين المسلمين ، والذى نجده فى اللغة العبرانية עדן أن «عدن» اسم موضع .
(٢) المصدر السابق ٣ / ١٩٢ .
(٣) المصدر السابق ١/ ١٢١ .
(٤) المصدر السابق ١٨٠/١ . وفى المثل «أهون من تبالة على الحجّاج» ؛ وكان عبد الملك ولاّه إياها ، فلما أتاها استحقرها فلم يدخلها .
(٥) المصدر السابق ٢٦١/١ .
(٦) المصدر السابق ٣٠٦/١ .
(٧) المصدر السابق ٢ / ١٦٨ . أقول : وهى بفتح الذال فى عصرنا ليس غير . وانظر «غريب الحديث» للهروى .
(٨) المصدر السابق ٢/ ٢٦٤ ، وانظر «غريب الحديث» للهروى .

٨ ـ سبأ :

وفيه ذِكْرُ «سَبَأ» وهو اسم مدينة بلقيس باليمن . وقيل : اسم رجل وَلَدَ عامة قبائل اليمن . وكذا جاء مفسرًا فى الحديث . وسُمِّيت المدينة به [(١)] .

٩ ـ شَبْوَة :

وفى حديث وائل بن حُجْر : «أنه كتب لأقوال [(٢)] شَبْوَةَ بما كان لهم فيها من ملك» . شَبْوَة : اسم الناحية التى كانوا بها من اليمن وحضرموت [(٣)] .

١٠ ـ صَبير :

وفيه : «من فَعَل كذا وكذا كان له خيرًا من صبير ذهبًا» ؛ وهو اسم جبل باليمن . وقيل : إنما هو مثل جَبَلِ صِير ، بإسقاط الباء الموحّدة ، وهو جبل لطيِّئ . وهذه الكلمة جاءت فى حديثين لعلىّ ومُعاذ ؛ أما حديث على فهو صير ، وأما رواية مُعاذ فصبير ، كذا فرَّق بينهما بعضُهم[(٤)] .

١١ ـ غمدان :

وفيه ذُكْرُ «غمدان» بضم الغين وسكون الميم : البناء العظيم بناحية صنعاء اليمن . وقيل : هو من بناء سليمان ـ عليه السلام ـ له ذِكْرٌ فى حديث سيف بن ذى يزن[(٥)] .

١٢ ـ مأرب :

قد تكرر فى الحديث ذكر «مأرِب» بكسر الراء ، وهى مدينة باليمن كانت بها بلقيس[(٦)] .

١٣ ـ يبعث :

فى كتاب النبى ـ ﷺ ـ لأقوال شبوة ذكر «يَبْعُث» ؛ هى بفتح الياء وضم العين المهملة : صقع من بلاد اليمن ، جعله الله لهم . والله أعلم . [(٧)] .

---

(١) المصدر السابق ٢ / ٣٢٩ .

(٢) «الأقوال» بمعنى الأقيال ، وقد مرّ بنا «الاقيال» فى «قيل» ومعناها اللغوى ، فالكلمة من بنات الياء والواو ، وهى بالياء أكثر .

(٣) المصدر السابق ٢/ ٤٤٢ .

(٤) المصدر السابق ٣ / ٩ وانظر «غريب الحديث» للهروى .

(٥) المصدر السابق ٣ / ٣٨٣ وانظر : «غريب الحديث» للهروى .

(٦) المصدر السابق ٤ / ٢٨٨ .

(٧) المصدر السابق ٥ / ٣٠٤

١٤ - يمن :

وقد تكرر ذِكْرُ «اليُمْن» فى الحديث وهو البَرَكة . .

أقول : و«اليَمَن» من أسماء البلاد الخاصة بهذه الديار التى وُسِمت بالبدء بالياء وهى كثيرة . أو بالتاء نحو «تريم» و«تعز» وغيرهما كثير .

وهى أسماء بُنيت من الأفعال ، ومن هنا كان لى أن أقول إن «الفعلية» فى لغات اليمن أَشهَرُ ، ومنها غلبت على الأسماء فى أسماء البلاد والمواضع وأعلام الناس ، والشواهدُ كثيرةٌ .

وأعود إلى «يمن» فأقول : هى من «مَنَن» وتعنى الخير والبركة ؛ فهى من الفعلية والياء ياء المضارعة كالتاء . وكان من العلم أن تدرج فى «المعجم السبئى» فى باب الميم ، فإذا وصل المعجم إلى باب الياء أحيل على باب الميم «منن»[١] .

أصنام اليمن

وفيه : «لا تقوم الساعةُ حتى تضطرب أليات نساء دوس على ذى الخلصة» . وهو بيت كان فيه صنم لدَوْس وخثعم وبجيلة وغيرهم . وقيل : «ذو الخلصة» هو الكعبة اليمانية التى كانت باليمن ، فأنفذ رسولُ الله - ﷺ - جرير بن عبد الله فخرّبها . وقيل : ذو الخلصة : اسم الصنم نفسه ، وفيه نظر لأنّ «ذو» لا يضاف إلا إلى أسماء الأجناس ، والمعنى : أنهم يرتدّون ويعودون إلى جاهليتهم فى عبادة الأوثان ، فيسعى نساء بنى دَوْس طائفات حول ذى الخلصة فترتجّ أعجازهن ، وقد تكرر ذِكْرُها فى الحديث[٢] .

ومن مجازات الحديث

وفيه عن عمرو بن عَبَسة : «ومأكول حمير خير مِن آكلها» ؛ المأكول : الرعية ، والآكلون : الملوك جَعلوا أموالَ الرعيّة لهم مأكلة ، أراد : عوامّ أهل اليمن خَيْرٌ مِن ملوكهم . وقيل : أراد بمأكولهم مَن مات منهم فأكلتهم الأرضُ ، أى هم خير مِن الأحياء الآكلين ، وهم الباقون[٣] .

---

(١) انظر المعجم السبئى (mnn) وانظر (yaman) .

(٢) المصدر السابق ٢/ ٦٢ .

(٣) المصدر السابق ١/ ٥٩ . وانظر «غريب الحديث» للهروى .

ومن غريب الحديث

وفى حديث أنس : «شفاعتي لأهل الكبائر من أمّتى حتى «حَكَم وحاء» ؛ وهما حيّان مِن اليمن مِن وراء رمل يَبرين .

قال أبو موسى : يجوز أن يكون «حا» من الحوّة ، وقد خُفِّفت لامُه . ويجوز أن يكون من «حَوَى يحوى» . ويجوز أن يكون مقصورًا غير ممدود [١] .

الثياب اليمنية وأدوات الزينة

١ ـ حَضور :

وفى حديث عائشة «كُفِّنَ رسول الله ﷺ فى ثوبين حَضْوَرِيَّيْنِ» ، هما منسوبان إلى «حَضْوَر» ؛ وهى قرية باليمن .[٢]

٢ ـ حضرم :

وفى حديث مصعب بن عُمَير : «أنه كان يمشى فى «الحضرمى» ، وهو الفعل المنسوب إلى حضرموت المتّخذة بها [٣] .

٣ ـ خميس :

وفى حديث مُعاذ «كان يقول فى اليمن : ائتونى بخميس أو لبيس آخذُه منكم فى الصدقة» .

و«الخميس» الثوب الذى طوله خمس أذرع . ويقال له «المخموس» أيضًا . وقيل سُمِّى خميسًا لأن أول مَن عمله مَلْكٌ يقال له «الخِمْس» بالكسر .

وقال الجوهرى : «الخِمس ، بالصاد ، قيل : إن صحّت الرواية فيكون مذكَّر الخميصة ، وهى كِساءٌ صغير فاستعارها للثوب[٤] .

(١) المصدر السابق ١/ ٤٦٦ . وانظر « غريب الحديث» للهروى .
(٢) المصدر السابق ١/ ٤٠٠ .
(٣) المصدر السابق ١/ ٤٠٠ .
(٤) المصدر السابق ٢/ ٧٩ .

٤ ـ اليُمنة :

وفى حديث مصعب بن عمير : «كان مترفًا فى الجاهلية يَدَّهِن بالعبير ، ويُذيل سُمْنة اليَمَن» ؛ أى يُطيل ذيلها . واليُمْنة : ضرب من برود اليمن [١] .

٥ ـ ثوب صُحارى :

وفيه «كُفِّن رسول الله ـ ﷺ ـ فى ثوبَيْن صحاريَّيْنِ» ، و«صُحار» قرية باليمن نُسِب الثوب إليها . وقيل : هو من الصُّحرة ، وهى حُمرة خفيّة كالغُبْرة . يقال : ثوب أصحَر وصُحارى[٢] .

٦ ـ جَزْع ظَفار :

وفى حديث الإفْك : «عِقْد من جَزْع ظَفار» ، هكذا رُوِى ، وأريد به العِطر المذكور أوّلاً ، كأنّه يؤخَذ ويُثقَب ويُجعل فى العِقد والقلادة . والصحيح فى الروايات أنه «من جَزْع ظَفار» بوزن قَطام ، وهى اسم مدينة لحميَر باليمن .

وفى المثل : «مَن دَخَلَ ظَفار حَمَّرَ» . وقيل : كل أرض ذات مَغْرة[٣] ظَفار [٤] .

٧ ـ البُرد «المَعافرىّ» :

وفيه «أنّه بعث معاذًا إلى اليمن وأمره أن يأخذ من كل حالم دينارًا أو عِدْلاً من المَعافرىّ» ؛ وهى برود باليمن منسوبة إلى مَعافر ، وهى قبيلة باليمن ، والميم زائدة [٥] .

٨ ـ حلّة أفواف :

وفى حديث عثمان : «خَرج وعليه حُلّة أفواف» ، الأفواف : جمع فُواف ، وهو القطن ، وواحدة الفُوف : فُوفة ، وهى فى الأصل : القشرة التى على النواة . يقال : بُرْدُ أفواف ، وحُلّة أفواف بالإضافة ، وهى ضَرْبٌ من بُرود اليمن ، وبُرْدٌ مُفوَّف : فيه خطوط بيض[٦] .

٩ - ثياب مَراجل :

وفيه «وعليهما ثيابٌ مَراجل» ، يُروى بالجيم والحاء ؛ فالجيم معناه أن عليهما نقوشًا تمثال

(١) المصدر السابق ٢/ ١٧٥ .
(٢) المصدر السابق ٣ / ١٢ .
(٣) المَغْرة ، ويحرك : طين أحمر ، كذا فى المعجم .
(٤) المصدر السابق ١٥٨/٣ .
(٥) المصدر السابق ٢٦٢/٣ .
(٦) المصدر السابق ٤٧٩/٣ ، وانظر : صحيح مسلم .

الرجال ، والحاء معناه عليهما صُوَر الرجال ، وهي الإبل بأكوارها . ومنه ثوب مُرَحَّل ، والروايتان معًا من باب الراء ، والميم فيهما زائدة ، وقد تقدّم[1] .

ما قيل فى مدح أهل اليمن

١ - بخع :

وفيه : «أتاكم أهل اليمن أرقُّ قلوبًا وأبخَعُ طاعةً» ؛ أي أبلغ وأنصح في الطاعة من غيرهم ، كأنهم بالغوا فى بَخْع أنفسهم : أى قهرها وإذلالها بالطاعة .

قال الزمخشريّ : هو مِن بَخَعَ الذبيحةَ إذا بالغ فى ذبحها ؛ وهو أن يقطع عظم رقبتها ويبلغ بالذبح «البخاع» بالباء ـ وهو العرق الذى فى الصُّلْب . والنَّخْع بالنون دون ذلك ، وهو أن يبلغ بالذبح النخاع ، وهو الخيط الأبيض الذى يجرى فى الرقبة ، هذا أصله ، ثم كثر حتى استعمل فى كل مبالغة ، هكذا ذكره فى كتاب «الفائق فى غريب الحديث» ، وكتاب «الكشاف» فى تفسير القرآن[2] ، ولم أجده لغيره . وطالما بحثت فى كتب اللغة والطب والتشريح فلم أجد البخاع ـ بالباء ـ مذكورًا فى شىء منها[3] .

٢ - يمن :

وفيه : «الإيمان يمان ، والحكمة يمانيّة» . إنما قال ذلك لأنّ الإيمان بدأ من مكّة . وهي من تهامة ، وتهامة من أرض اليمن ، ولهذا يقال : الكعبة اليمانية .

وقيل : إنه قال هذا القول وهو بتبوك ، ومكة والمدينة يومئذٍ بينه وبين اليمن ، فأشار إلى ناحية اليمن وهو يريد مكة والمدينة[4] .

خاتمة :

وبعد فهذا عرض موجز لما ورد فى الحديث الشريف ممّا يتّصل باليمن .

---

(١) المصدر السابق ٣١٥/٤ .
(٢) انظر كتاب الفائق (بخع) ، والكشاف ﴿لعلك باخع نفسك﴾ .
(٣) المصدر السابق ١٠٢/١ .
(٤) المصدر السابق ٣٠٠/٥ ، انظر «غريب الحديث» للهرويّ .





من تراث النصرانية



لقد أُخِذتُ بتصدير الأستاذ الدكتور محيى الدين صابر المدير العام للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم الذى جاء فيه تعريفًا بما يقوم به معهد المخطوطات العربية فقال :

«وها هو ذا (أى المعهد) يشرف على إعداد كتاب من كتب التراث الثقافية الموسوعية المهمة ، والمتميِّز فى بابه ، فكرةً وتأليفًا وعرضًا . وهو كتاب «الدلائل» الذى وضعه العلامة الحسن بن البهلول» .

ثم أضاف : «والكتاب يضمّ دلائل العلوم الطبيعية والحيوية والطبّية والهندسية والرياضية والفلكية والعلوم الإنسانية ، بما فى ذلك الآداب والتاريخ والجغرافية ، ومفهومات النظرية الفلسفية ، وأصول الأفكار الدينية ، السماوية منها ، والوثنية . وفيه توثيق مقارن لحضارات الشعوب وعاداتها ، وتقاليدها ومعارفها ، بما فى ذلك مواسمها الاجتماعية كالأعياد وتقويمها الزمنى أسماء شهورها . وقد رصد المؤلف كل ذلك وفقًا للتقويم العربى . . »[1] .

ثم أشار الأستاذ صاحب التصدير إلى قدرة المؤلف فى التصنيف وحسن إفادته من المصادر التى نوّه بها . ثم كان منه إشادة بصنعة المحقق الدكتور يوسف حبّى ، كما أشاد بجهد معهد المخطوطات الكويتى .

أقول : لا أستطيع أن أنفى أن صاحب التصدير كان على بعض العلم من قراءة عابرة للكتاب لم يقف فيها على جلٍّ ما فى الكتاب ، وعلى عَواره . ولا أدرى ما كان للمُراجع للكتاب ، وهو الدكتور محمد عبد الهادى أبو ريدة ، وما الذى أضافه أو استدرك به على الكتاب ، وهو أستاذ له دُربة فى هذه النصوص؟ .

أقول : لم يكن من شىء لهذا المراجع الأستاذ الجليل ، وإنى لأشك أن كان منه قراءة جادة .

ولو أن شيئًا من هذا كان مِن صاحب التصدير مدير المنظمة العربية . . . ومن المُراجع أستاذ الفلسفة لَكان لأىٍّ منهما أن يُطالبا المحقق ، وهو فى حماسته العارمة فى صنعته ، أن يُعرِّف بالمُصنِّف الحسن بن البلهلول تعريفًا جيدًا ولا يقتصر على شذرات لا تفى بالحاجة .

(١) الدلائل ص ٥ .

إن التعريف بالمصنِّف ، أو قُلْ ترجمته ، شىء لا بد منه فى «المقدمة» التى شمَّر فيها الدكتور يوسف حبّى المأخوذ بحماسة تتجاوز الحدَّ للتراث النصرانىّ .

أقول : إنّى لأحمد للأستاذ حبّى هذه الحماسة فى نشر التراث النصرانى ، وإنى لأوثره على غيره من أهل الدرس الفلسفى الدينى من المسلمين . غير أنى لا أعذره أن يبتعد عن هذا الأمر ، وهو شىء لابدّ منه فى «تقديمه» . إن القارئ القريب من هذه المعرفة الدينية التأريخية يطلب هذا وهو محتاج إليه فضلاً عن عامّة القرّاء الذين يعنيهم الدرس التاريخى .

أقول : كأنى بالمحقق قد بحث فى «الأعلام» للزركلى وغيره من مصادر الدرس فى تراجم المصنِّفينَ فلم يجد ضالّته فطوى المسألة وأغفلها ، وكأنّه لم يعلم أنّها مما يجب أن يُذكَر . وكأنى به لم يهتد إلى صاحبه الحسن بن البهلول فى المصادر النصرانية . ولو أنى قريب من خزانتى فى بغداد التى غادرتها منذ سنين لكان لى أن أبسط بين يَدَى أخى الدكتور حبّى بعض شىء يتصل بالتعريف بالمصنِّف أتجاوز به «شذراته الموجزة» .

وأتجاوز هذه الفسحة التى قدّمتها بين يَدَى هذا الدرس ؛ فأعرض لـ «تقديم» الدكتور يوسف حبّى الذى مهَّد به للكتاب ؛ فأقول :

إن المحقق الفاضل لم يكن من أهل اللغة العربية ؛ ولذلك جاء فى تقديمه الكثيرُ من الجديد الذى حفلت به العربية المعاصرة التى لا يمكن أن تكون فى تقديم لمادة عتيقة تاريخية نصرانية ، ومن هذا :

١ ـ جاء فى الصفحة ٩ قوله :

«وأنا أُعنَى بتاريخ العلوم مركِّزًا على البواكير» .

أقول : قول المحقق هذا وهو «مركِّزًا» عربية جديدة لا تصلح أن تكون فى حشو تقديم لمادة عتيقة تاريخية ؛ لأنها مأخوذة من فرنسية قذف بها التراجمة الذين اقتصروا فى صنعتهم على ما يُسمَّى :«الترجمة الحرفية» وهى من قول الفرنسيين Concentré sur .

أقول : إن «التركيز» فى العربية ذات صلة بَركْز الشىء فى موضعه ؛ كأن يقال : رَكَزت العمود أو نحو هذا . ولو استعمل المُعرِب فى عصرنا هذه العبارة المنقولة فى مقالة صحفية تتصل بما يهمنا فى السياسة والاقتصاد وغيرهما ، ما كان لى هذا التنبيه .

٢ ـ وجاء فى هذه الصفحة قوله :

«وأحصر نطاق بحوثى ضمن مناطق معينة وفترات محدّدة ومجالات أقرب إلى الحياة ، خشية التشتُّت والسطحية» .

أقول : لقد ميَّز المحقق بين «النطاق» و«المنطقة» فخصّ كُلاًّ منهما بدلالة ، وفاتَه أن «النطاق» مثل «المنطقة» . وله عذره فهذه عربية معاصرة تصلح فى غير هذا «التقديم» . ثم إن «الفترات» فى هذه العربية الجديدة قد صُرفت إلى معنى الزمن ، وكأنها «الحِقَب» ولم يكن «للفترة» هذا المعنى ؛ و ذلك أنها تعنى «الانقطاع» .

وهذا نتبيّنه فى قوله تعالى : ﴿يا أهلَ الكتابِ قد جاءكم رسولُنا يبيّن لكم على فَتْرَةٍ من الرُّسُل . . . .﴾ .

وأقول : و«المجالات» جمع «مجال» استعمال جديد لا بد أن يكون منقولاً من فرنسية أو إنكليزية .

ثم نأتى إلى «السطحية» مصدرًا صناعيًا أريد به ما هو supberficiel .

ولو أن هذا كلّه فى غير هذا «التقديم» ما كان لى أن أثبته فى هذا الدرس .

٣ ـ وجاء فى هذه الصفحة أيضًا قوله :

« فترانى أتناول مُعطَيات أولى الحضارات . .» .

أقول : «المُعطَيات» جمع «مُعطى» اسم المفعول من الفعل «أعطَى» ؛ غير أن هذا الجمع لا صلة له بـ «العطاء» بل أريد به لما هو Les Dannees فى الفرنسية .

والكلمة فى الفرنسية ذات دلالة فلسفية وهى ما يمكن أن يستفاد من الشىء الذى يعرض لصاحب العلم . وأنت تجد سبيل هذه الكلمة فى المعجم الفلسفى بـ La Land .

وأتجاوز هذه الصفحة إلى قوله :

٤ ـ «يطيب لى أن أقدّم اليوم سِفْرًا جليلاً بل موسوعة حضارية . . . بحيث يمكننا التعرّف على علوم الأقدمين . . . . . » .

أقول : إن وصف هذا الكتاب بـ «موسوعة» شىءٌ فيه تفريطٌ بما يسمَّى «موسوعة» التى أريد بها «أنسكلوبيديا» ؛ ذلك أن مادة الكتاب لا يمكن إلاّ أن تصنَّف فى الأدب القديم الذى يختلط فيه الجدّ بالعبث . غير أننا معنيّون به لأنه تراث قديم فيه العلم

وغيره. وسيجد صاحبى القارئ، فيما سأبسط من مادة الكتاب، أنه بعيد كل البعد أن نتسمّح فيه فندعوه «موسوعة».

لم يكن هذا الكتاب بعيدًا عن كتاب «الأنواء» لابن قتيبة الذى سرد فيه طائفة من نظرات تتصل بالعلم القديم من الفَلَك والتنجيم الذى لا يأنف مما هو موضوع من خرافة أو أسطورة، ولكنه فى جملته: تراث لا بد من احترامه.

ثم أقول: إن كتاب «الأنواء» لابن قتيبة قد أفاد منه المصنف الحسن بن بهلول وإن لم يذكره بالاسم بل قال: قال ابن قتيبة.

غير أن المحقق لا يعرف أن لابن قتيبة هذا الكتاب، ولو أنه عرف لاهتدى إليه وصحح مادة كتابه التى أخذها ابن بهلول من كتاب «الأنواء»؛ مع العلم أن هذا الكتاب من مطبوعات الهند (حيدرآباد ـ الدكن).

لقد أفاد المحقق من كتاب البيرونى «الآثار الباقية...» وكتابه فى «القانون المسعودى». وقال المحقق عبارته التى أثبتناها: «بحيث يمكننا التعرّف على علوم الأقدمين».

أقول: إن الفعل «تعرَّفَ» متعدٍّ وليس قاصرًا؛ فكان يجب أن يقول: أن نتعرّف علوم الأقدمين؛ قال الشاعر الهذلى القديم:

وقالوا تَعَرَّفْها المنازلَ من مِنًى   وما كلُّ مَن وافَى مِنًى أنا عارفُ

٤ ـ وجاء فى الصفحة ١٠ قوله:

«إنه كتاب الدلائل» لجامعه... ومؤلّفه الحسن بن البهلول أنشأه فى العقد الرابع من القرن الرابع للهجرة العاشر للميلاد فى مدينة السلام بغداد...».

أقول: كيف اهتدى المحقق إلى التاريخ، وهو قد أغفل كل ما يتصل بالمؤلف وسيرته، ولم يكن فى الكتاب أيّة إشارة إلى هذا سوى شذرات لا تبرد غلّة ظمآن.

ثم قال: «أنشأه فى مدينة السلام بغداد».

أقول: إن «مدينة السلام» هى مدينة أبى جعفر المنصور وقد وسمها بهذا الاسم، وهى كائنة فى «بغداد» وهذه أعمّ منها. وهذا معروف للمطّلعين على خطط بغداد.

٥ ـ وجاء فى هذه الصفحة أيضًا فى كلامه على فؤاد سزكين، وقال: إنه وعده أن يرسل

إليه مخطوط الكتاب ثم أضاف : كتقدير لما بذلت من عمل فى مهرجان أفرام - حنين .

أقول : فى قوله : «كتقدير» نجد الكاف التى لا تفيد التشبيه ، بل إنها أسلوب فرنسىّ فى قول الفرنسيين Comme ، ونظير هذا فى الإنكليزية .

٦ - وجاء فى هذه الصفحة كلام المحقق فى طبعة ثانية للكتاب إذا ما توفرت له موجبات الطبع من تصويبات ودراسات

أقول : أراد بـ«التصويبات» ما يفيد التصحيح للخطأ . وحقيقة «التصويب» الحكم على ما هو صواب وليس تصحيح الخطأ .

٧ - وجاء فيها أيضًا قوله :

« . . . يكفينا استعراض أبواب سِفْره الشيّق . . .» .

أقول : إن «الشيِّق» هو المشتاق كقول الشاعر :

ما ناحَ طَيْرٌ أو تَرَنَّم شاعرٌ إلا انثنَيْتُ ولي فؤادٌ شيِّقُ

وأجتزئ بهذا القدر مما ورد فى «التقديم» الذى لا يمكن أن يكون فى درس لمادة قديمة تاريخية .

* ثم أتحوّل إلى كلام المحقق على المصنِّف الحسن بن البهلول جاء فيه :

«ثَمّة غموض يكتنف حياة الحسن بن البهلول فنحاول جهدنا تبديد شىء منه بالرجوع إلى ما يتيسّر من مصادر ومراجع أهمها» :

ثم ذكر جملة مصادر نصرانية لمؤلفين نصارى قدماء ومحدثين وفيها مصادر بلغات أجنبية .

أقول : ليته خلص من هذه المصادر إلى بسط موجز مفيد عن «سيرة ابن البهلول» ، إنه لم يفعل هذا وكان خليقًا به أن يفعله بل هو مما يقتضيه صنعة المحقق ولا سيما إذا كان المصنف لا يعرفه إلاّ الخواصُّ وهم قليلون ، وليست شذراته فى هذا الأمر كافية . إنه استعمل مصطلح «حياة» لما هو «سيرة» والحياة هذه منقولة عن Lavie أو The Life .

إن «السيرة» هى المصطلح القديم وقد وردت فى أسماء الكتب نحو «المغازى والسِّيَر» و«سِيَر أعلام النبلاء» وغير هذا .

إن النبذة اليسيرة التى أثبتها المحقق التى لا تتجاوز الثلاثة الأسطر فى الصفحة ١٥ لم تكن سيرة المؤلف الذى انصرف إليه المحقق بحماسته الزائدة .

ثم أضاف إليها شيئًا لا يفى بحاجة أهل الدرس التاريخى فقال : كان مولعًا فى صغره بالتصاوير ، ولم نعلم على وجه الحقيقة ما المراد بـ «التصاوير» .

وقال أيضًا مما لم يكن مادة سيرة :

«ويبدو أنه تعلّم فى مدارس بغداد ، وعلّم فيها ، وقد كان له ضلع فى انتخاب الجاثليق عبد يشوع الأول . . . فى بغداد عهد ذاك» . وليس من مصدر يذكره فى هذا اليسير .

أقول : إن هذه الفوائد ـ التى لا تومئ إلى ما هو خبر تاريخى موثوق ـ غير مؤيَّدة بمصادر يرجع إليها الدارس على نحو ما يفعل الدارسون فى عصرنا .

ثم أختم كلامى فأشير إلى أن المحقق لم يكن له من العربية الوافية ما يعينه على تحقيق أثر قديم ، وسنجد شيئًا كثيرًا من هذا فى تعليقاته وحواشيه التى أثبتها فى صفحات الكتاب .

ونأتى إلى الصفحة ٢١ فأجد المحقق يتحدث عن أبواب الكتاب فيقول :

«ويتصدّر الكتاب عنوانه ، أبوابه ، ومقدمة بسيطة . . . مع التأكيد على العنوان . . .» .

أقول إن وصف المقدمة بـ «بسيطة» جاء مما هو Simple ، وهذا غير معنى «البسيط» فى العربية الذى هو «المبسوط» أى الواسع ، ومن هذا كتاب «المبسوط» فى الفقه الحنفى للسرخسى . وأما قوله : «التأكيد على» فصوابه «تأكيد العنوان» . وأما استعمال «على» مع «أكّدَ» و«التأكيد» فمن اللغات الأجنبية فرنسية وإنكليزية .

وقال فى الصفحة ٢٢ :

«فجاء كتابه موسوعة تَضمُّ كل ما هو ضرورى لحياة أناس زمانه . . .» .

أقول ليس لنا أن نسىء استعمال الألفاظ العلمية ومنها «الموسوعة» ونحن فى موادّ هذا الكتاب الذى جمع فوائد تتصل بفهم الناس للأزمنة وما يتصل بها كما سنرى . وليس الذى بسطه المؤلف قد تفرّد به ؛ فكثير منه من معارف الناس فى عيشهم وسلوكهم . ولا يخلو هذا من عبث فيه خرافة ما يقرب وما نُبز فى أدبنا القديم بـ «أساطير الأوّلين» . وجاء فى الصفحة ٢٣ فى كلام المحقق على تاريخ الكتاب ونسخته :

« . . . . لكان مصير هذا الكتاب مصير العديد من المصنّفات التى عفاها الزمن» .

أقول : والصواب : التى عفا عليها الزمن .

ويقول فى مخطوطة الكتاب : «لكنه مشوّش التنقيط» .

أقول : و«المشوّش» من الكلم العامى ، وقد أراد بـ «التنقيط» النَّقط .

وجاء فى كلامه على مصادر الدلائل فى الصفحة ٢٦ :

«وهى تُرجعنا إلى كتب اليونان وما تُرجم منها إلى السريانية والعربية . . .» .

أقول : والصواب «تَرجعنا» والفعل «رَجَع» متعدٍّ ولازم .

وجاء فى الصفحة ٢٩ :

«لكنها لا شك المصادر الطقسية الكنسية . . .» .

أقول : إن الحسن بن البهلول كثيرًا ما كان يقول : قالوا وذكروا ونحو هذا وهو يشير إلى العلماء الإغريق . وهو يذكر حنين بن إسحاق ويذكر ابن قتيبة ويذكر أبقراط وجالينوس وديمقراطيس دون أن يشير إلى المصدر الذى أفاد منه .

وقد ذكر المحقق فى حواشيه ما كتبه العلماء السريان مما ألّفوه وما ترجموه من الإغريقية ، وما قرأه فى «الآثار الباقية» و«القانون المسعودى» للبيرونى ، ولم يكن للحسن ابن بهلول مثلاً أى إفادةٍ من مصادر يذكرها بأسمائها .

وأعود إلى قول المحقق «المصادر الطقسية الكنسية» فأقول : إن «الطقسية» أراد بها المحقق وغيره من الكتبة النصارى ما سمّاه المؤلفون العرب «الرسوم» كما فى كتاب «رسوم دار الخلافة» للهلال الصابى والمراد به ما يُدعَى فى عصرنا «بروتوكول» Proto-cole . وليس «الطقسية» إلاّ «الرسوم» الدينية الخاصة بالنصارى . وهى مما عُرِّب عن «Taxe» .

وقد عُرِّب هذا لدى أهل الجغرافية فى عصرنا فذهبوا به إلى ما يتصل بـ «النشرة الجويّة» وهو «الطقس» .

وأما «الكنسية» فهى النسبة إلى «الكنيسة» .

أقول : إن مادة «كنَس» مادة ساميّة عرفتها العربية وغيرها من اللغات السامية ؛ فقد جاءت في العربية بمعنى الاستقرار واللجوء في مكانٍ ما ، ومنه قوله تعالى ﴿الجوارى الكُنَّس﴾ ومنه «الخُنَّس» أيضًا ، و«الكِناس» بيت الظبى . ومثل هذا فى العبرية כנסת ثم «الكنيسة» معبد النصارى ، وهى كذلك فى الأصول الآرامية .

وقد أخطأ أهل التعريب ؛ فزعم ابن الجواليقى فى «المعرَّب» أن «الكنيسة» من الفارسية ، وأضاف وقيل :إنها حبشية . وهذا ضرب من التخليط ؛ فأين الفارسية من الحبشية؟!!

وأعود إلى النسبة إلى «الكنيسة» فأقول : هى الكنيسيّة مثل الطبيعية . وأنا فى هذا أفيد مما أثبته ابن قتيبة فى «أدب الكاتب» ؛ إذ قال :

النسبة إلى «فعيلة» لا تحذف فيه الياء إلاّ إذا كانت فى عَلَم مشهورٍ كالنسبة إلى أسماء القبائل ؛ فقالوا : بَجَلىّ وحنَفَىّ ومَدَنىّ وهذه نسبة إلى حنيفةً وهى قبيلة ، وبجيلة كذلك ، وإلى المدينة وهى مدينة الرسول ﷺ كما فى قولنا : السُّوَرُ المَدنيّة .

وجاء فى الصفحة ٣١ :

«ولا بد من التنويه إلى أن الحسن بن البهلول . . . . . . » .

أقول : والصواب : «ولا بد من التنويه بأن الحسن . . . . والتنويه يوصل بالباء من حروف الجرّ . كأنى أدركت أن ليس لدى صاحبى المحقق الكثيرُ من علم العربية ؛ فهو يخطئ القول ويبتعد عما هو صواب اتفق فيه أهل العلم .

أقول : وقد أثنى المحقق على صاحبه الحسن بن بهلول فذهب فيه إلى قوله :

« . . . . فكان له أن ينتزع منّا حقّ المفاخرة به كاتبًا لامعًا ، لم يُكرِّر الأقدمين تكرارًا مُملاً ، بل اختار خطّاً بيانيّاً ، وسياقًا متكاملاً وفكرة موحّدة هى العلامات والدلائل . . . » .

أقول : لقد ذهب المحقق فى حماسته فانتصر لصاحبه فى كل شىء ، وقد ألبسه لبوس عصرنا فزعم أن صاحبه «اختار خطّاً بيانيّاً» وغير هذا . . .

وأثبت المحقق فى الصفحة ٣٤ ما كان لدى صاحبه الحسن بن البهلول فيما أثبته فى كتابه «الدلائل» التى أشار إلى أن من يقرؤه قد يذهب إلى أن بعض ما جاء فيها من المخاريق والخرافات .

وقد كان له أن دافَع عما أورده فى كتابه ، فكان للمحقق أن ذهب إلى أكثر من هذا حماسةً فى دفاعه عن صاحبه .

وتحوّل المحقق إلى صنعته ؛ فعقد فصلاً وسمه بقوله : «أسلوبنا فى التحقيق» .

وقد أشار فى هذا إلى صنعة الناسخ ، وخلو الرسم من الهمزة ، وقلّة النقط ، وأشار

إلى ما سمّاه : الأمور الإملائية . وقد أراد بـ «الإملائية» ما نعرفه فى مادة «الإملاء» التى تُعطَى للصبية الصغار فى المدرسة الابتدائية فى تعلم رسم الحروف .

وأخلص فيما اجتزأت به عن كثير ممّا غضضت الطرف عنه ؛ لأتحول إلى الكتاب في الصفحة ٤٧ فأجد : كتاب الدلائل والعلامات تصنيف الحسن بن البهلول .

أقول : لقد اختار المحقق أن يكون صاحبه ابن البهلول وليس بن بهلول كما هو فى المخطوطة الوحيدة التى اعتمدها والتى حصل عليها من الأستاذ سيزكين ولم يُشر إلى مصدرها .

والذى أراه أن المؤلف هو ابن بهلول ؛ وذلك لأن «بهلول» هذا عُرِف لدى القدماء لقبًا ؛ فهو لقب ثعلبة بن مازن بن الأزد ، إن الأعلام التى اشتهرت لدى القدماء محلاّة بالألف واللام هى صفات ومصادر ومن هذه : الحسن والحسين والعباس والفضل والمقداد وغيرها . وقد قال أهل العربية إن زيادة الألف واللام تفيد فى لمح الوصف أو المصدر قبل العلمية . وهذا بعض فوائد علم الرجال .

وسأتابع صفحات الكتاب فأشير إلى النص وإلى ما كان من إضافات مما صنعه المحقق ؛ فأقول :

١ - جاء فى أوّل هذه الصفحة (٤٧) :

«لخزانة سيدنا ، الحكيم الأجلّ للسيد الكامل موفق للد (كذا) الملوك شرف الحكماء أبى علىّ الحسن بن عيسى النجمى أدام حياته (كذا)» .

أقول : هذه بداية غير موفقة قد عرض فيها الكلام لنقص فغام وجه المعنى ، وكأنّى أرى النص كما أُثبته :

لخزانة سيدنا الحكيم الأجلّ السيد الصدر الكامل موفق الدين؟ الملوك شرف الحكماء أبى على . . . . . . أدام الله حباءه .

أقول : هذه البداية ليست من نص الكتاب بل إنها إهداء من المؤلف أو الناسخ إلى هذا المُهدَى إليه أبى على الحسن بن عيسى . . . ثم يبدأ نص الكتاب بالبسملة .

وأجد فى الحاشية١٢ من الصفحة ٤٨ قول المحقق :

وضعنا نقطتين لكى يصحّ العنوان . وهذا فى .

الدلائل : تشرين الأول .

أقول : هل من حاجة إلى هذه الحاشية التى قال فيها المحقق إنه وضع نقطتين : لكى يصحّ العنوان؟! وكنت قد مررت فى تقديم المحقق بقوله : إنه قلّل من حواشيه إلى الحدّ الأقل .

ومن حواشيه فى هذه الصفحة وما بعدها قوله : المدّ ، والشدّة ، والهمزة مِن وضعنا . ومن عجب أن المؤلف يثبت «دلائل المحرّم» فى حين يذهب المحقق إلى قوله «دلائل محرّم» ؛ و«المحرّم» من الشهور العربية تلزمه الألف واللام .

٢ - وجاء فى الصفحة ٥٢ :

«الباب التاسع والعشرون حساب السابوع الثالث وهو صوم السليحين» .

قال المحقق : لفظة «سابوع» وجمعها «سوابيع» تعريب «شابوعا» السريانية ، والسليحين وواحدها «سليح» تعريب «شليحا» .

٣ - وجاء فى الصفحة ٥٣ : «حساب السابوع الخامس وهو صوم مار إليا» .

وقد علّق المحقق فقال : «مار» كلمة سريانية ومشرقية قديمة تعنى السيد أو الرب ، وهى هنا القدّيس . . . . أقول : وفات المحقق أن يقول : إن الكلمة سامية فهى فى العربية «المرء» وقد وردت غير مهموزة فى قوله تعالى : ﴿بين المَرِ وزوجه﴾ ، والمؤنث «مرأة» . وقد كان من المذكر والمؤنث امرؤ وامرأة . وهى مثل هذا فى العبرانية والاكدية الآشورية ، فليست اللفظة خاصّة بالسريانية .

وإن «إليا» هنا هو إيليا النبىّ كما فى سفر الملوك الثالث والرابع . و«إلى» أو «إيل» كلمة تتصل بما هو «إلاه» و«الإلّ» فى العربية الحلف والقسم ومثل هذا الفعل ألَى .

٤ - وجاء فى الصفحة ٥٦ : ذكارين النصارى أبى التذكارات ، والجمع بالياء والنون جمع قديم آرامى ورثته السريانية بفرعيها الغربى والشرقى .

وهذه هى : «دوخرانا» وتعنى «الذكر» . والدال والذال يعرض فيهما البدل ، وقد وردت الدال فى قوله تعالى : ﴿وادّكَرَ بعد أمّة﴾ وهو فى الأصل «اذدكَرَ» .

٥ - ولنقف على الصفحة ٥٧ فى الباب الأول الذى وسمه المؤلف بـ «الدلائل العامة فى سائر الشهور مما لاينسب إلى شهر بعينه» . جاء فيه :

«دليل ينسب إلى ديمقراطيس من جهة الشمس والطير على المطر» .

أقول قبل أن أبسط ما فى هذه الصفحة ليقف القارئ على بعض ما فى هذا الكتاب «الدلائل» الذى وُسم من لدن المحقّق ومدير منظمة التربية والثقافة والعلوم بـ «الموسوعة» :

إن الأصل المخطوط لهذا الكتاب نسخة فريدة نُسخت سنة ٥٥٦ للهجرة كما أفاد المحقق فى «تقديمه» . ولم يكن الناسخ صاحب صنعة حسنة ؛ فقد أهمل الحروف المعجمة ، ولم يُشر إلى ما هو مهموز ، كما صحّف كثيرًا من الكلم . أقول هذا لأشير إلى العبارة التى اقتبستها من أوّل الباب الأول فى الصفحة ٥٧ التى لم يتّضح لى منها شىء . أكان فيها «جهة الشمس» أم «جبهة الشمس» وليس لى فى أىٍّ منهما طريق إلى الفهم .

ثم ما علاقة «الطير على المطر» وما معناها ودلالتها؟ .

وأبسط بعد هذه الوقفة القصيرة شيئًا من «الدلائل» الأولى التى بدأ بها مصنِّف الكتاب ، قال :

«إذا طلعت الشمس وفيها حمرة وسواد دلّت على مطر ، وإذا قارَبت الغروب ، فرأيتَ من يَسْرتها سحائب قريبة منها ، فينبغى أن تتوقع المطر ، فإنه قريب ، وإذا طلعت فرأيت أمام شعاعها سحابًا سودًا[1] (كذا) دلّت على مطر . والرعود والبروق ، إذ[2] رأيتَها من بُعد ، فهى تدلّ عل مطر . وإن كانت من جانبيها بالبُعد ، فاعلم أن المطر يجىء ، من بعد . والقوس إذا رأيتها متضاعفة فإنّها تدلّ على أمطار» .

أقول : أجتزئ بهذا القدر فأتساءل ما معنى قوله : «إن كانت من جانبيها بالبعد ، فاعلم أن المطر يجىء من بعد»؟ ثم ما معنى «القوس» الذى جاء فى هذه الصفحة الأولى من الكتاب؟ أهو شىء من أحوال الشمس؟ وإذا كان هذا فلِمَ لم يتوقّف المحقق فيشرحه؟ .

وممّا يدلّ على الشتاء كثيرًا ، الطير أيضًا ، إذا رأيتها تثب وتسبح فى الماء . والزاغ والغراب الأبقع إذا قام على شاطئ الماء وصاح وغمس رأسه فى الماء وسبح . والصقور إذا أدمنَت الذهاب إلى القبلة والجنوب . والنمل إذا ألحّ على نقل طعمه (الصواب : طعامه) . والدجاج إذا تواثب وتساعى . والعقارب إذا خرجت من الأرض فى الشتاء ،

---

(١) أقول : لقد توقف المحقق فى الحاشية (٢) فقال : هكذا على أنها جمع مؤنث . وفاته أن الصواب : «سُحُبًا سُودًا» ولم يعرف أن جمع التكسير لا يوصف بـ «فعلاء» ، قال تعالى : ﴿ومن الجبال جُدَدٌ بيض وحُمرٌ مختلف ألوانها وغرابيب سود﴾ ٢٧ من سورة فاطر .

(٢) أقول : «إذ» صوابها «إذا» .

والكراكى إذا ظَهَرت بغتةً تصيح . والخطاطيف إذا طارت فى الأنهار والبحار . والذباب إذا اشتدَّ عضّه . والخشاف (كذا) (والصواب : الخفّاش) إذا سقط على ضوء السراج . والبطّ والإوزّ إذا تبادر إلى الطعم (كذا) بصياح شديد . والعنكبوت إذا هبط من تلقاء نفسه . وضوء السراج إذا ضرب إلى السواد ، وقدح إذا أبطأ . . . . . .

أقول : وقد علّق المحقق على كلمة «أبطأ» هذه الأخيرة ؛ فقال :

«جاءت بالألف المقصورة «أبطى» .

إنه أراد بالألف المقصورة تلك التى تُرسَم ياءً مثل هذه «أبطى» ، وهو يحسب أن كلمة «دَعَا» ليست مقصورة لأنها ترسم ألفًا قائمة . إن هذا الفهم الخاطئ لمعنى القَصْر من مصطلحات علم الصوت القديم ، شائعٌ لدى طلاب الدرس تلاميذ ومدرّسين ، وكأن الرسم بالياء هو الألف المقصورة ، فإذا رُسمت ألفًا قائمةً فهى ليست مقصورة .

لقد كان هذا الخطأ بسبب أن المتعلم لم يدرس فى راحل الدرس ما يسمَّى : علم الأصوات La Phonétique .

أقول : لقد بسطت بين يدى القارئ ما بدأ به المؤلف الحسن بن البهلول كلامه لأثبت أن هذه الملاحظات المتعثّرة لا تشير إلى علم «موسوعىّ» كما ذهب المحقق فى حماسته وكما ذهب مدير المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم .

وأقول أيضًا : إنى لأحمد لصاحبى الدكتور يوسف حبى حماسته فى نشر التراث النصرانى ، ولكنى أقول له ولغيره من أهل الحماسة فى نشر ذخائر العرب : ألا يذهبوا فى حماسة تجور على العلم فيغضّوا الطرف عن المساوئ . وكان ينبغى أن يعرفوا أن التراث القديم ، بصرف النظر عن كونه نصرانيّاً أو إسلاميّاً أو غير هذا وذاك ، مُبَرّأً من العيوب ، وأن كلمة «التراث» تنصرف لديهم إلى ما هو إيجابىّ بل مقدّس . إن «التراث» صنع البشر[١] .

والبشر يخطئ ويصيب ، «وكلُّ ابن آدمَ خَطّاء» كما قيل .

ولكنّ هؤلاء المتحمّسين يذهبون مع المثل القديم : «كل فتاة بأبيها مُعجَبة» .

٥ – وأتحول إلى الصفحة ٥٨ فأجد فيها قول المؤلف : «دليل نسب إلى جالينوس» . قال :

---

(١) أقول : أحسن من أدرك دلالة «البشر» وهو المسيو ربلاشير فى ترجمته الفرنسية للقرآن ، لقد أثبت هذا الأستاذ المجتهد ـ رحمه الله ـ أن «البشر» هو الهالك الفانى في الآيات ومنها : ما هذا بشرًا .

«إذا كانت الشمس عند طلوعها نقية دلّت على صحو ، فإن رأيتَ أمامها سحابًا صغيرة ، ينبغى أن يُتَوقَّع المطر» .

أقول : والصواب : «سُحُبًا صغيرة أو سحائب صغيرة» .

ثم هل لنا أن نجعل هذا الذى جاء به ابن البهلول شيئًا مما وسمه بـ «دلائل»؟ .

أقول أيضًا : الكتاب كبير ولابد لى أن أقتصد مخافة أن أتفسّح فيكون منّى كتاب كبير .

٦ - وجاء فى الصفحة (٥٩) فيما نسبه المؤلف إلى جالينوس :

«قالوا : وإن انكَسَفت الشمس فى الساعة الأولى ، فإنه يحدث شرٌّ عظيم ، ومَوَتان كثير ، ويقلّ المطر ، وتحدث حروب ومخافة (لعلها مخاوف)[١] ، ويقتل الخسيسُ الأصيلَ الشريف ، ويموت الناس بالمطر والثلج ، ويكون بنَينَوَى والموصل وأعمالها (لعلها أعمالهما) حرب ، والأحرار يتحاربون ، وتكون حرب عظيمة فى سائر العالم ، ويُقتَل كبراء مصر ، وتكون هناك حرب ، وتنقطع الطرقات ، وتبطل الأمانة من الدنيا كلّها ، وإن انكسَفَت فى الساعة الثانية كان ببابل شرٌّ عظيم ، وتقلّ الغَلاّت ، ويموت الملك وعظماؤه . وإن انكَسَفَت فى الساعة الثالثة ، أكل الفرس بعضهم بعضًا ، ومات ملك ، وحدَث العصيان فى الدنيا كلها . وإن انكَسَفَت نصف النهار ، كان البلاء فى الناس عظيمًا . وإن انكسَفَت فى تسع ساعات (كذا) ، كان بالماهات[٢] والموصل البلاء أصعب ، وكان المَوَتان عظيمًا فى الناس فى المدينة»[٣] .

أقول : إنى لأدعو القارئ أن يقرأ معى هذه الأسطر ليرى أتكون هذه من دلائل علم تتصل بالأفلاك وأحوال الزمان والمكان مما ندعوه فى عصرنا حال الجوّ وما يكون مما يحدث فيه؟ أم إنه سيذهب إلى جعلها شيئًا مما يُنْبَز بـ «أساطير الأوّلين»؟ ولا أدرى كيف ساغ للمحقّق وهو المتعلّم الدكتور يوسف حبّى ألا يجعل هذا مما عبر عنه ابن البهلول بـ «المخاريق» والخرافات!!

ثم أيكون فى نشر هذا العبث إخلاصٌ مِن المحقق لنصرانيّته أو نَصرانيّة صاحبه المؤلف الحسن بن البهلول؟ .

(١) أقول : لم يتوقف المحقق وهو يقرأ هذه «المخافة» .

(٢) أقول : الصواب «الماهان» بالنون وهى مدينة بكرمان . انظر معجم البلدان .

(٣) هذا كلام جالينوس وهو Galenus شارح كتب أبقراط وصاحب مصنفات عدّة فى الطب اليونانى القديم جاء شىء منها عن طريق السريانية إلى العربية .

وإنى لأرفض أن يكون من أيٍّ منّا فى هذا العصر تصديق للعبث ، ونحن فى عصر العلم والتكنولوجيا ، ولو أن شيئًا قديمًا فيه إشعار لتوجّهٍ ذى أصالة لكان لنا نحن أهل هذا العصر أن نحرص على التنويه به سواء كان إسلاميّاً أو نصرانيّاً أو بوذيّاً أو غير هذا .

ولا أدرى أين للقارئ أن يجد معنى ما هو «موسوعىّ» فى هذا الكتاب مما أفاد به المحقق وجعله شيئًا تفرّد به صاحبه ابن البهلول طوال العصور .

وأعود إلى هذا الذى بسطته من كلام جالينوس لأقول : ألم يكن من التفريط أن نجعل بعض ما وصَلَنا مِن عِلْمِ الإغريق شيئًا لايمكن أن نَمسَّه ، بل إنه مبرّأ من كلٍّ عيب!!

٧ - وأتحوّل إلى شىء آخر فى هذه الصفحة نسبه المؤلف ابن البهلول إلى ابن قتيبة فقال : «قال عبد الله بن مسلم بن قتيبة : كانوا يقولون :

«إذا أترى (كذا) على الشاء عند طلوع نجم من النجوم نُتِجت بنوء ذلك النجم بالغداة . وإذا أترت نخلة عند طلوع نجم من النجوم نُتجت بنَوء ذلك النجم بالغداة جُذّتْ أى صُرمت حين ينوء ذلك . . .» .

أقول : لقد نَسب المؤلف هذا إلى ابن قتيبة ولم يُشِر إلى المصدر ؛ ذلك أن لابن قتيبة كتبًا عدّة . ولم يُكلِّف المحقق نفسه بهذا الذى أغفله صاحبه ابن البهلول . وكأنّ المحقق يجهل أن لابن قتيبة كتابًا فى «الأنواء»[1] ، ولو أنّه كان على عِلْمٍ بهذا لكان له أن يُصحِّح ما جاء فى كتاب صاحبه «الدلائل» .

جاء فى «كتاب الأنواء» لابن قتيبة ص ٩٥ :

«وكانوا يقولون : إذا أُنْزِىَ (وليس أترى فى توهم المحقق) على الشاة عند طلوع نجمٍ من النجوم بالغداة نُتِجَت . . . وإذا أُبِّرَت (وليس أترت) نخلة . . . .»[2] .

---

(١) كتاب الأنواء لابن قتيبة من مطبوعات الهند بحيدر آباد الدكن سنة ١٣٧٥هـ/ ١٩٥٦م .

(٢) لقد فات المحقق وهو ينظر إلى ما فى كتابه من ذكر «الشاة» التى حولّها إلى «الشاء» أن يدرك ما يقتضيه النص وهو «النزو» أو «النزوان» . إنه لم يعرف هذه اللغة ولا الأدب القديم ولم يعرف أن صخرًا أخا الخنساء قال :

أهُم بأمر الحزم لو أستطيعه وقد حيلَ بين العَيْر والنَّزَوان

ولم يدرك «تأبير النخلة» وهو لقاحها بـ «الإبار» ، والمحقق من بَلَد النخل !!

أقول : أين هذا مما أثبت المحقق صاحب الحماسة لصاحبه ابن البهلول؟! ولو أنه أدرك هذا التصحيف فرَدّه إلى أصله لَحمدتُ حماسته ـ غفر الله له ـ .

أقول : ولم يُعرِّف بابن قتيبة إلاّ بعد أربعين صفحة ــ أي فى الصفحة ٩٧ ، وقد ذكر فى تعريفه مصنفاته وكان منها كتاب «الأنواء» ، ولم يُثِرْه هذا الكتاب فيَسْعَ إلى الوقوف عليه ليكون منه بعض الفائدة فى صنعته .

وأقول أيضًا : إنه لم يَسْعَ إلى ما هو ضروريّ مفيد فى تعليقاته (هوامشه) بل زاد فيها وفرّط ؛ فذكر مثلاً فى هذه الصفحة ٥٩ : جَذّ بمعنى قطع !!

أقول : إن الشُّداة يعرفون معنى «جَذّ» فلا حاجة إلى شرحها ، وهو الذى قال فى «تقديمه» : إنه قلَّل من «هوامشه» واقتصَد فيها .

٨ – وجاء فى الصفحة (٦٠) من قول ابن قتيبة :

«قال مؤرخ الجنوب (كذا) : إنها تُثير البحر حتى تسود (كذا) ، وتُظهر الندى الكامن فى بطن الأرض حتى تلتق (كذا) الأرض ، وإذا صادَفت بناءً بُنى فى الشتاء والأنداء ، أظهرت نداه وحثته (كذا) حتى يتناثَر . . . . .» .

أقول : ولو أنه قرأ كتاب الأنواء وعَرَفه لَوَقَف على النَّصّ فى وجهه الجيد الصحيح وهو : «قال مُؤرّج : من خواصّ الجَنوب» .

وليس كما توهَّم المحقق فى قراءته الخاطئة : قال مؤرّخ الجنوب !!

إن «مؤرّج» هو القائل ، وقد ذكره ابن قتيبة مرَّات عدّة فى كتاب «الأنواء» ، وهو أبو فيد مُؤَرّج بن عمرو السدوسى من كبار أهل العربية ، أخذ عن أبى زيد الأنصارىّ ، وصحب الخليل بن أحمد ، وكان من كبار أصحابه . . .[1] .

أقول : كنت أودّ لو أن صاحبى المحقق قد جدّ واجتهد مفيدًا فى حماسته لنشر هذا التراث النصرانى الذى هو تراث العربية أيضًا .

وأعود إلى قول «مؤرّج» الذى نقله ابن قتيبة فى كتابه الأنواء ؛ وهو :

---

(١) انظر ترجمته فى أخبار النحويين للسيرافى ، وإنباه الرواة للقفطى ، وبغية الوعاة للسيوطى وغيرها من مصادر النحويين واللغويين .

« . . . . من خواصّ الجنوب أنّها تثير البحر حتى تُسوِّده (وليس حتى تسود كما أثبت المحقق) وتظهر كل ندًى . . . . حتى تلين (وليس حتى تلثق فى قراءة المحقق) الأرض . . . . . . وإذا صادَفَت بناءً . . . . . أظهَرَت نداه وحَتَّته (وليس حثته كما أثبت المحقق) و«الحَتُّ» : التأكُّل الذى يصيب الحجر وغيره .

أقول : لو كان للمحقق أن يصل إلى هذا الصواب لَحَمِدتُ له اندفاعه وحماسته(١) .

وأعود إلى كلام ابن قتيبة فيما حكاه مؤرّج أبو فَيْد :

«والشمال ذرى الشجر ؛ وذلك أن التراب يجتمع على ذرى الشجرة من جهة الشمال ، ولا يجتمع من جهة الجنوب ، بل يكون من جهة الجنوب مكشوفًا عاريًا ؛ لأنّ ذمّ الشمال أنها تقشع الغيم وتجىء البرد (كذا) . . . . وأنها صاحبة الضباب ، تصبح الأرض عنها كأنها ممطورة ، ويصبح الغصن ينطف . . . . والشمال أدوم الرياح فى الشتاء والصيف ، والدَّبور عندهم مذمومة . . . . . . » .

أقول : وقبل أن أثبت هذا الكلام الذى ذكره ابن قتيبة فى كتاب «الأنواء» فيما حكاه من قول مؤرّج ، أودّ أن أعرض لشىء من تعليقات المحقق بل تخليطه وبُعده عن العلم ، وكان حقيقًا به أن يُشرك معه بعض أهل العلم بالتاريخ واللغة والأدب . قال المحقق فى «ذمّ الشمال» :

الذمّ : ندًى يسقط بالليل . وهذا غريب لا أدرى من أين أتى به وهو «الذّمّ» مصدر الفعل «ذَمَّ»؟! وسنرى هذا فيما سأثبت من «كتاب الأنواء» .

وقال فى «أدوَم» : ورد بالتفضيل فى الكتاب بصيغة «أفعَل» ، والكلمة من دامَ يدوم . أقول : كأنّه أراد أن الصواب : «أشدّ أو أكثر دوامًا» .

ولو أنه شدا شيئًا يسيرًا من النحو لَعلم أن «أفعل» يُصاغ من «دام» لأنه ثلاثىّ تامٌّ متصرّف لازم ليس الوصف منه على أَفْعَل فَعْلاء ، ولا فَعْلان فعلى . . . . .

(١) كنت أود أن أقول لأخى إن الاهتمام بالتراث النصرانى قد يسعى إليه غير النصرانى ، وهو مخلص للعلم دون أن تنال منه هِزّة تعصّب مقيت . لقد أقبلت على هذا فى درسى فى المعهد الكاثوليكى فى باريس ، وفى المدرسة العليا بباريس Ecole de hautes études ، وأفدت من الأستاذ دورم فى سفر أيّوب أى فائدة جليلة . وقد كان لى من هذا معجم صغير فى الألفاظ النصرانية وهو فى بناء «فاعول» .

وقال فى تعليقه على «تلثق» (وصوابها تلين) :

«لثق اليوم : سكنت ريحه وكثر نَداه . . . .!!

وأعود فأثبت هذا من «كتاب الأنواء» ليقف القارئ على القدر الذى فرَّط فيه المحقق .

«وللشمال ذرى الشجر وذلك أن يجتمع التراب من قِبَلها فيَستذرى بالشجر . . . والشمال تُذَمّ بأنها تقشع الغيم وتجىء بالبرد . . . . . . وتصبح الغصون تنطف . . . . . والشمال أدوم الرياح فى الشتاء والصيف . . . . والدَّبور عندهم مذمومة . . . . . .

أقول : وقد رأى المحقق الوصف للدَّبور وهو «مذمومة» ولم يستفد منه وذهب إلى ما اخترَعَه من معنى «الذَّمّ» وأنه ندًى يسقط فى الليل!!

٩ - وجاء فى الصفحة (٦١) قول المؤلف :

«وإذا كانت السحابة نَمِرةً فهى محيلة للمطر . والنَّمِرة التى يكون سحابها يتدانَى بعضه عن بعض ونحوها الكرفسىّ»!

أقول : الصواب «مُخيلة» ، وسحابة مُخيلة تلك التى يخال فيها الناظر المطر .

والصواب أيضًا : ونحوها الكِرْفِئ . والكِرْفِئ (وليس الكرفسى) : سحاب متراكم واحدته كِرفئة .

وقد علَّق المحقق على الفعل «يتدانَى» فقال :

«جاءت بالألف الممدودة (يَتَدانا)» .

وأراد أن الفعل رُسم فى المخطوط بالألف القائمة ، وهو يجهل فى قوله «الألف الممدودة» أن «الممدودة» مصطلح لغوى قديم للألف فى «فعلاء» من الصفة والاسم وهى التى ينتهى فيها المدّ الصوتى فيستقرّ المتكلِّم على الهمزة إنهاءً للمدّ . وهذا يقابل الألف المقصورة التى يقصر المتكلِّم مدّها .

١٠ - وجاء فى هذه الصفحة أيضًا من كلام المصنِّف :

«وإذا كان البرق وليفًا وثقوا بالمطر ، وهو الذى يلمع لمعتَين . . .» .

أقول : هذا ما ورد فى «كتاب الأنواء» لابن قتيبة ص ١٧٧ - ١٧٨ مع فوائد أدبية ، ولم يُشر ابن البهلول إلى هذا .

١١ - وجاء فى الصفحة (٦٢) فى الاستدلال على الغيث :

«قال : ويستدل بالحمرة إذا اشتدّت جداً على السحاب المخيل ، وكانت تلك الحمرة من شعاع الشمس عند الطلوع والغروب إلى صوب الحيل (كذا) فإنها تغيّر ما فى البيوت من قر أو عصب أو فضة أو شراب أو عسل أو سمن» .

أقول : قوله : «قال» أراد ابن قتيبة ؛ ذلك لأنى وجدت العبارة إلى قوله : «عند الطلوع والغروب» فى «كتاب الأنواء» لابن قتيبة ص ١٧٩ وتكملة الكلام فى هذا : على المطر .

إن هذه التكملة غير موجودة في كلام ابن البهلول ، والذى فيه وهو : «صوب الحَبْل» إلى آخر ما أثبت مما لايمكن فهمه ولا ربطه بأوّل العبارة!!

أقول : إنى لم أفد هنا مما ورد فى كتاب ابن البهلول ، وعدم الفهم والوصول إلى الصواب قد عَرَض من غَيْرِ شك للمحقق ولكنه أغضى عنه وابتعد .

إن الزيادة غير الواضحة التى وردت فى هذا الصدد التى يُفترَض أن تكون من «كتاب الأنواء» لم ترد فيه . ثم أضاف ابن البهلول شيئًا آخر زيادةً وتكملةً فقال :

«وعلّة ذلك أن الشمس والكواكب تغيّر الهواء بحركاتها . . . .

وأن الجنوب إذا هبّت بأرض العراق تصفّى الحواس وتحسّن اللون ، وتهيّج السعال ووجع الصدر . وهذا بيِّن ظاهر ؛ لأنها تغيِّر لون الورد ويتناثر ورقه ، وتُشقّق القنبيط[1] وتسخن الماء ، وترخى الأبدان وتكدّر الهواء . . . .

أقول : وهذا ما لم أجده لدى ابن قتيبة ، وهو فيما ذكر ابن البهلول من كلام ابن قتيبة . ثم إنه متناقض مضطرب . وقد خلا كتابُ الأنواء من هذا العبث .

ولو أنى عقدت موازنة بين كتاب «الأنواء» لابن قتيبة وكتاب ابن البهلول كان لى أن أقرِّر أن الأول قد خلا من التناقض والغرائب التى لا يتّجه إليها العقل ، ولكنك فى الكتاب الثانى تجد مثلاً مما نُسب إلى أبقراط ص ٦٣ :

---

(١) أقول : «القنّبيط» بقلة تطبخ تُدعَى فى بلاد الشام «زهرة» . و«القُنَّبيط» كلمة سريانية . وهذه لدى العراقيين فى عصرنا «قَرْنبيط» . إن مجيئها فى لغة العراقيين العامية من فكّ إدغام النون وتعويض النون الأولى من الراء ، وهذا جارٍ فى الألسن الدراجة ؛ فيقال مثلاً : «فَرْقَعَ» والأصل «فَقَّعَ» بتشديد القاف .

إذا كان الشتاء مطيرًا ، ورياحه الجنوب ، وكان الربيع يابسًا ، ورياحه الشمال ؛ فإنّ النساء يُسقطن ، وتضعف الولدان ، ويعمّ الناس برد يابس واختلاف (كذا) البطون ، من قروح الأمعاء ، ونَزَلاتٍ قاتلةٍ للشيوخ .

أقول : أين كلام ابن قتيبة الخالى من هذا العبث من الكلام الذى أتى به المؤلف وادّعى نسبته إلى أبقراط؟ .

وتعجب من صنعة المحقق فى تعليقاته فى حواشيه على كلام المؤلف : «إن الصيف أوبَى من الشتاء ، وإنْ هبّت الجنوب سخن الخاتم وضاق ، واسترخى البَدن وحدَث فيه الكسل والوهن» .

قال المحقق فى تعليقه : الأصحّ : أكثر أو أشدّ وَباءً ، وكأنّ «أوبَى» خطأ ؛ فانظر أخى الدارس إلى علم المحقق فى نحو العربية!!

ثم إنه يرضى هذا الخلط الذى نسبه المؤلف إلى أبقراط ؛ فقال المحقق فى الحاشية (٢٣) من الصفحة (٦٢) : هكذا الأصل : سخن الخاتم وضاق ، والمقصود أن الخاتم ضاق بسبب ارتخاء الجسم .

أقول : إنى لأقرأ هذا العَبَثَ المنسوب إلى أبقراط وقد أباح المؤلِّفُ لنفسه الإتيانَ بهذا العبث ، وكأنه يَسعى إلى جذب القارئ بغرائب يدّعيها وينسبها إلى أبقراط .

ثم يأتى المحقق فيحسب هذا فتحًا من الفتح وأن الكتاب موسوعة كل العصور!!

١٢ - وجاء فى الصفحة (٦٣) فيما نُسب إلى أبقراط :

«قال : ويَتولّد من مثل ذلك (أى إسقاط النساء لحملهنّ ، وضعف الولدان . . .) الشتاء الحارّ بلغم مُرٌّ ومالح . . . . وحدث مما ارتفع منه إلى الرأس رمد (كذا) يابس» .
أقول : ليس هذا من الطبّ الذى يَقبله مَن أَلِفَ قراءة القانون لابن سينا ولا غيره .

ثم ما معنى «الرمد اليابس»؟ لم يسأل المحققُ نفسَه عن هذا ، وغاب عنه أن «الوَمْد» قد صُحِّف إلى الرمد . وفات المحقق أن «الوَمَد ندًى يجىء فى صميم الحرّ من قِبَل البحر مع سكون ريح .

وأضيف شيئًا آخر مما نُسب إلى أبقراط من هذه «الغرائب» التى اشتمل عليها

«كتاب الدلائل» «الموسوعى» فى الصفحات : (٦٣ ، ٦٤ ، ٦٥) :

١٣ - جاء فى «٦٣ و٦٤ »تكملة لما مرّ موصولاً به :

«ومما سال إلى الحلق والصدر ركام ، ومما يجرى إلى المعدة بعد الشهوة ، ومما جرى إلى الأمعاء الاختلاف (كذا) ، ومما وقع إلى الأرحام استرخاؤها ورطوبتها . فإن لم يكن ذلك الشتاء مطيرًا ، وجاء بعقبه ربيع مطير ، حدث فى الشيوخ علل ، وفى الصبيان ضعف شديد» .

وقد علّق المحقق على «الركام» فقال : لعلّه زكام ، وكأن «الزكام» فى الصدر وليس فى الأنف! وقال فى «الاختلاف» : ربما يكون المقصود اختلاف البطون . . . .!!

أقول : وقد يكون ما نسبه المؤلف إلى أبقراط مستغلقًا ، ولكن المحقق يمرّ به دون تعقيب ؛ ومن هذا :

«إذا كانت رياح الصيف الشمال ، وكان الخريف مطيرًا ورياحه الجنوب ، هاجَ فى الشتاء السعال والبحوحة وقروح فى الرئة وصداع . . . .

ثم يعقب هذا قول «المفسرِ» وهو جالينوس فيأتى شىء آخر لا يخلو من غرائب وفيه اضطراب كثير ؛ ومن هذا قول المفسر :

«إن الصيف والجنوب يورثان الرأس سخافة وتخلخلاً بحرارتهما ، فإذا جاء الشتاء ، هاجت تلك العلل التى ذكرنا لما يصل إلى الرءوس وسائر البدن من البرد والعفونة» .

أقول : ومثل هذا من «الغرائب» الكثير فى هذا الكتاب «الموسوعى» !!

ومن هذه مما نسب إلى أبقراط فى ص (٦٥) :

« . . . . فأمّا أصحاب البلغم فإنّهم يصحّون لأنه يقلّ منهم البلغم (أى فى الربيع والصيف) والشعرَى تطلع وسط الصيف ، وحافظ الدُّبّ تطلع فى أوّل الخريف ، والكوكب الكلب يطلع عند إدراك الثمار . . . .

وقال أيضًا : « . . . . وربّما نزلت (أمطار الصيف) فى أيلول . . . فيجب أن تجتنب (كذا) حينئذٍ الأطعمة والأشربة الغليظة الرطبة ، والإقلال من الجماع . . . .

أقـول : أَيحقّ لنا فى هذا العـصـر أن نجـعل هذا ، الذى يُحـمَل على العِلْمِ ، عِلْمًـا موسوعيًاً؟

ثم ما علاقة هذه الأغراض المرضية بالكواكب والنجوم؟! .

وقد يرد فى الكتاب من كلام المؤلف الفعل «قالوا» فيعلِّق المحقق ويقول :

«كثيرًا ما لجأ المؤلف إلى هذا القول ، فلم يذكر مصدره بوضوح ، واكتفى بقوله : «قالوا» ، ومصدره حينذاك أحد المصادر العامّة . . .» الحاشية ٢٩ ص ٦٦ .

وأختم هذا فأذكر ما جاء به المؤلف حين بدأ القول بـ «قالوا» :

١٤ - جاء من هذا فى الصفحة (٦٦) :

«وقالوا : إذا أولع الصبيان والرجال بلعب الصوالجة وإظهار الرقص والسرور ؛ دلّ على خصب وقلّة أمراض . . . .» .

«وإذا ولعوا (كذا) باللعب الذى فيه الحرب ومخاتلة بعضهم بعضًا ، دلّ على ظهور المتلصّصة والدُّعار وأصحاب الشرّ . وإذا رأيت الدابّة تكسر عينها كثيرًا من غير علّة ولا لسع ذباب وتسيل دمعتها دلّ ذلك على آفة تصيب صاحبها أو بيعه إيّاها . . . .» .

أقول : بَخٍ بَخٍ لصاحبى الأستاذ الدكتور يوسف حبّى محقق الكتاب والأستاذ الجليل الدكتور محيى الدين صابر مدير المنظمة العربية للتربيةوالثقافة والعلوم ، ومدير معهد المخطوطات الذى كان مقرّه فى الكويت التابع لجامعة الدول العربية ؛ لِما لهؤلاء جميعًا من خدمةٍ فى نشر تراثنا الذى نُحسن معرفته ولم يكن منّا فى رعايته شىء حسن من صلة الرحم .

خاتمة :

ولو أنى عمدت إلى استيفاء ما فى الكتاب من مسائل هى غرائب لا تمتُّ للجانب الحسن من التراث القديم ، واستيفاء حواشى المحقق ، وتنبيهاته على عدم وضع المؤلف النقطةَ والهمزةَ وأنه رسم ياءً والصواب كذا ، وهو مخطئ فى ظنّه وحدسه ؛ لَكان لى مِن هذا كلّه كتابٌ يقع فى أكثر من مائتى صفحة .

وأقول : فى الكتاب «أسجاع» تتصل بأحوال الجوّ كما بقى لنا منها شىء فى الألسن الدارجة ؛ مثل قول العامّة فى عصرنا : «تمّوز يُنشِّف الماء بالكوز» ومثل هذا كثير . وفى الكتاب شىء من هذا ؛ كما أن ابن قتيبة قد أثبت من هذه الأسجاع القديمة على أنها أسجاع ، ولكن المحقق أدرجها وكأنها أبياتُ شِعْرٍ .

وفى الكتاب خطأ نحوىّ لم يفطن له المحقق ، وهو مِن عمل الناسخ مِن غير شكٍّ ، وقد بقى فى الكتاب المطبوع ، ومنه ما يعرفه الصبية الشداة . وللتصحيف فى هذا الكتاب نصيبٌ وافرٌ . وفى الكتاب شىء عن «نسطور» والنساطرة ، جعل المحقق له تعليقًا مفيدًا ، وكان ينبغى أن يشير فى هذا السياق إلى «اليعاقبة» فى الجزء الغربى أى فى بلاد الشام . وفى الكتاب إشارات إلى «السليحين» وكان ينبغى للمحقق أن يتجاوز إثبات أصلها السريانى «شليحا» فيعود إلى الأصول السامية ومنها العربية . وقد ذكر «السليح» فى أدبنا القديم ولا سيما لدى شعراء العصر العباسى ، وفى حديث الديارات .

وفى كتاب «الديارات» للشابشتى شىء من هذا .

وأقول بعد هذا الموجز : لولا ما أنا فيه وقد وهن العَظْمُ منّى وقد تَهَضّمنى البِلَى لَكان لى فى هذا الكتاب «الدلائل» مَسِيرةٌ طَويلةٌ .

أَإِحياء لتراث أم إساءة له!

كتابان حُملا على الخليل بن أحمد ليسا له

يُهرَع نفر من المحققين إلى نشر نصوص مزيفة ، ويجتهدون فى تحقيقها بل يبالغون ويتجاوزون الحدّ ، ويقدِّمون بين يدى هذه النصوص مقدِّمات يبسطون فيها أن النصَّ مزيف وأنه نسب إلى الخليل بن أحمد ، ولم يعرف للخليل بن أحمد شىء من هذا . ولكنهم يثبتون على غلاف الكتاب شيئًا غير هذا ؛ فيقول الدكتور رمضان عبدالتواب مثلاً :

١ - كتاب الحروف للخليل بن أحمد الفراهيدى[1] .

أَتراه ظَنَّ أن بصنعته هذه قد يوهم الدارسين أن الكتاب للخليل ، وأنهم بذلك يُقبِلون عليه ، ثم هو يروج بعد ذلك ، أم تراه قد فعل هذا استجابةً لرغبة الناشر التاجر الذى لا يهمه إلا رواج الكتاب؟ ولو أنه أثبت على غلاف الكتاب عبارة : «المنسوب إلى الخليل ابن أحمد» ، لم يكن للكتاب قيمة ، ولم يفز الناشر بما يحقق له الربح .

إن كان هذا أو ذاك ، فالرغبة فى النشر ، أو الشهوة فيه ، إن جاز لى هذا التعبير ، ضَرْبٌ من التَّدْلِيس .

ولننظر فيما أثبته الدكتور عبدالتواب فى «مقدمته» ثم نضيف إلى ذلك ما وقفنا عليه من فوائد ، وكل ذلك يجعلنا نطمئن إلى أن «الكتاب» لم يكن للخليل ، بل هو مَنحولٌ عليه فى حقبة متأخرة .

قال الدكتور رمضان فى «مقدمته» (ص ١٢ - ١٣) :

«والكتاب الذى ننشره اليوم فى «الحروف» ينسب للخليل بن أحمد ، ولم يذكره واحِدٌ ممن ترجموا له ؛ فقد ذكروا أنه أَلَّف : الإيقاع ، والجمل ، والشواهد ، والعروض ، والعوامل ، والعين ، وفائت العين ، والمعمّى ، والنغم ، والنقط والشكل . ولم يعدّوا هذا الكتاب من مؤلّفاته .

---

(١) كتاب الحروف : رسالة صغيرة تقع فى خمس عشرة صفحة ، ولم تكن هذه الصفحات كلها مادة الكتاب ، بل كان نصيب الكتاب من كل صفحة دون الثلث ، وأكثر من ثلثى الصفحة هو تعليق المحقق الدكتور رمضان . وهذا يعنى أن نص الكتاب لا يتجاوز أربع صفحات . والكتاب جزء من مجموع «فى الحروف» نشرته مكتبة الخانجى بالقاهرة ودار الرفاعى بالرياض (سنة ١٤٠٢ - ١٩٨٢) .

ويضيف الدكتور رمضان :

ويبدو أن الكتاب مزيّف ، ومع ذلك فقد كان معروفًا لدى الإمام أحمد بن محمد الرازى (المتوفى حوالى سنة ٦٣٠هـ) الذى ذكر له روايتين فى كتابه : «الحروف» . كما كان معروفًا لدى الحافظ الذهبى (المتوفى سنة ٧٤٨هـ) الذى اختصره وكتبه بخطه . كما أن الإمام الفيروزابادى (المتوفى سنة ٧٤٨هـ) نقل عنه فى كتابه : «بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز» . وكذلك اقتبس منه الإمام السيوطى (المتوفى سنة ٩١١هـ) فى كتابه : «المزهر . . . .» .

أقول : كأن المحقق الدكتور رمضان قد عزَّ عليه بعد قوله : «ويبدو أن الكتاب مزيف» أن يذهب إلى آخر المطاف ؛ فراح يعطى نصَّه المزيف شيئًا من الثقة فى ذِكْره أن الرازى والذهبى والسيوطى قد ذكروا الكتاب ونقلوا منه .

ولكن المحقق سكت عن خلو كتب المتقدمين الذين جاءوا بعد الخليل من شىء من هذا النص المزيف ؛ فلم يشر ابن فارس فى «معجم المقاييس» ولا فى «المجمل» إلى الكتاب .

وليس فى «جمهرة ابن دريد» ، ولا فى «لسان العرب» شىء من هذا الكتاب .

والغريب أن مادةَ الكتاب المنسوبةَ إلى الخليل فى هذا النص قد أخذها المتأخرون وقيّدوها بالخليل ، وأنها لم تُرْوَ عن أحدٍ مِن معاصِرِى الخليل ولا مَن سبقه بقليل أو خلفه بقليلٍ أيضًا .

ثم قال الدكتور رمضان عبد التواب :

«ومن العجيب اختلاف مخطوطاته فيما بينها فى التعبير ، ونسبة البيت الواحد من أبيات الاستشهاد إلى أكثر من شاعر ، فى هذه المخطوطات ؛ بمعنى أن ينسب البيت فى مخطوطة إلى شاعر معيّن ، ثم ينسب البيت نفسه فى مخطوطة أخرى إلى شاعر آخر ، ويروى الفيروزابادى معظم أبيات الكتاب غير منسوبة إلى شاعر معين» .

ثم يتساءل المحقق الدكتور رمضان فيقول :

«فمَن هو الذى زيَّف هذا الكتاب؟ وما عُمْرُ هذا التزييف؟ إننا لا نعرف ذلك بالطبع .

وعلى أيّة حال ، فإن مخطوطة «أيا صوفيا» مكتوبة فى القرن الثامن الهجرى هذا إلى أن كُلاً من الفيروزابادى فى : «بصائر ذوى التمييز» ومرتضى الزبيدى أخذًا (كذا) عنه فى «تاج العروس» قد نقلا من كتاب «الحروف» ولم يَشكّا فى نسبته إلى الخليل بن أحمد ، وكذلك الإمام السيوطى فى كتابه : «المزهر» والإمام الرازى فى كتابه : «الحروف» . . . . .

أقول : كأن المحقق الدكتور رمضان أراد بعبارته الأخيرة أن يرمّ بناءه الذى شاده بادئ ذى بدء فذهب إلى أن «الكتاب مزيّف» .

ولكنه لم يستطع أن يذهب إلى آخر الشوط فيدّعى نسبة الكتاب ؛ ذلك أن مادة الكتاب تعلن أنه مزيّف كما يستفاد من قول المحقق :

«غير أن ما يثير العجب حقّاً ، هو معانى الحروف نفسها ، تلك الحروف التى تطلق على حروف الهجاء كذلك ؛ ففى قليلٍ من الحالات يمكن إيجاد علاقة بين معنى الحرف وأصله ؛ مثل «الباء» و«النون» . ومع حرف «الكاف» يمكن ربط معناه : «المصلح للأمور» بالأصل : «كافٍ» . وما عدا ذلك من المعانى فهو خَيالٌ مَحْضٌ .

أقول : لقد اعترف المحقق بأن المعانى المثبتة التى ادَّعى نسبتها إلى الخليل «خيال محض» وكان عليه أن يقول : إنها كَذِبٌ وافتعالٌ .

وقال المحقق :

«وأبيات الاستشهاد فى الكتاب لاتوجد فى دواوين الشعراء الذين تنسب إليهم ، ولا فِى أى مكان آخر ، فيما عدا حالةً واحدةً ، ذكر فيها بيت من أبيات الكتاب فى غير سياق الخليل ، وهو :

نونان نونان لم يخططهما قلمٌ   فى كل نون من النون عينان[1]

فهو ثانى بيتين فى كتاب فيه ما يُقرأ مِن آخِره كما يقرأ مِن أوّله ، للتبريزى ، نشره كروتكوف فى مجلة كلية الآداب والعلوم ، ببغداد سنة ١٩٥٨ . . . . .

---

(١) أقول : هذا بيت من بيتين من أبيات الألغاز المصنوعة ، والبيت الأول وهو ما كنا نحفظه ونحن صبية شداة وهو :

عينانِ عينان لاعينان باصرة   فى كل عينٍ من العينين نونان

وبعده : نونان نونان . . . .

كما يوجدان فى كتاب : «ألف باء» للبلوى (٣٥٢/٢) ، وفى كتاب : «إعراب ثلاثين سورة» لابن خالويه . . . .

ويخلص المحقق فى آخر «مقدمته» إلى القول :

ومع ما يكتنف هذا الكتاب من شك فى مؤلفه ، فلن يخلو نشره من فائدة . . . .
أقول : إذا كانت المادة مزيفة ، ومعانى الحروف«محض خيال» كما قال المحقق فأية فائدة نلتمسها فى المكذوب المفتعل؟!

ألم أقل : إنها شهوة للنشر ؛ ولِمَ لم يثبت على غلاف الكتاب أنه منسوب منحول؟!

ثم تكلم المحقق على الأصول المخطوطة للكتاب وهى سبع ، وكل منها يختلف عن الآخر فى المادة وفى نسبة الشواهد ، وفى الطول والقصر[1] .

ولننظر إلى شىء من مادة الكتاب دليلاً على أنه مادة مزيفة لا قيمة لها لايمكن أن تكون مِن عِلْمِ الخليل بن أحمد :

الألِفُ : الرجل الحقير الضعيف ؛ قال أوس :

* هنالك أنت لا ألِف مهينا *

وقد عَلّق المحقق فقال :

فى (ب و ز)[2] : هو الرجل . وفى (جـ) : هو الفرد من الرجال ، وقيل هو الرجل الغريب . وفى (هـ) : الألف الفرد من الرجال . وفى (م) : الألِف الرجل الذى لا زوج له ، ولكن كل فرد لا شبيه له ألِف . وفى البصائر ١١/٢ : الألف الرجل الفرد .

أقول : إذا كان هذا هو النص على اختلافه فى هذه الأصول المخطوطة ، فكيف جاز للمحقق أن يختار كلامًا مغايرًا مضاداً من نسخة أخرى ، وهو «الرجل الحقير الضعيف»؟!

---

(١) أشار المحقق إلى وجود نص الكتاب فى «أعيان الشيعة» للسيد محسن الأمين ، وقد نبّه المحققَ إلى هذا صديقُه الدكتور حاتم الضامن .
أقول : وصاحب أعيان الشيعة يدرج الخليل بن أحمد بين رجال الشيعة ، وهو يذكر النص بهذه المناسبة . والذى نعرفه من مصادرنا أن الخليل كان شديدًا فى السنّة ، وأنه تحول إلى مذهب الإباضية فردّه إلى السنة صاحبه أيوب السختيانى .

(٢) الأحرف هى من رموز المخطوطات التى اختارها المحقق .

ثم إن الشاهد قد نُسب فى اختيار المحقق إلى أوس ، وهو فى (ب) : أبو نواس ، وفى (جـ) : قيل للسيد الحميرى ، وفى (هـ) : ومنه قول السيد (كذا) .

ثم اختلفت الأصول المخطوطة فى نص الشاهد ؛ ففى (ج) : «فلا ألف هناك ولا مهيب» ، وفى (هـ) : «هنالك لا ألف ولا مهينا» ، وفى البصائر ١١/٢ :

هنالك أنت لا ألف مهين كأنك فى الوغَى أسد زئير

وفى (و ز) : «وقيل السخى والفرد فى الفضائل» .

أقول : وهذا الاختلاف والعبث فى كل معنًى من المعانى المثبتة فى الكتاب بحسب ما جاء فى الأصول المخطوطة .

ولابد من اختيار معنًى آخر وهو ما جاء فى «الخاء» :

الخاء : شعر الاست (إذا كثر وطال) قال المنقرى :

لاستك خاء فى التواء كأنه حبال بأيدى الساقيات المواتحِ

وقد جاء فى تعليقات المحقق :

فى (ب و ز) : «هو شعر . . .» ، وفى (م) : «الخاء شحم الاست إذا كثر ، وقيل العجلة!!» ، وفى البصائر ٥٢٠/٢ : قال الخليل : «الخاء عندهم شعر العانة وما حولها» ، وفى تاج العروس : «والخاء شعر العانة وما حواليها . وأنشد الخليل . . .» .

وأما ما ورد في قائل البيت فالاختلاف كثير ؛ ففى (أ) : «المنقر (كذا) ، وفى (هـ) :

«وقال بعض الأعراب» ، وفى (ج) : «قال الشاعر» ، وهو غير منسوب كذلك فى البصائر ٥٢٠/٢ ، وتاج العروس .

أقول : فكيف اختار المحقق النسبة إلى المنقرى؟ سامحه الله .

ثم يأتى الاختلاف فى كلمات الشاهد ، وهو أمر عجب ، وقد أثبتَ ذلك المحققُ .

وشاهد ثالث أختم به هذا الموجز ، وهو معنى «الذال» :

الذال : عُرف الديك ؛ قال الحارث اليشكريّ :

به بَرَص يلوح بحـاجـبـيـه كـذال الديك يأتلق ائتـلاقـا

وقد علق المحقق فقال :

فى البصائر ٣/٤ : «قال الخليل : الذال عرف الديك» ، وفى تاج العروس :

«ومما يستدرك عليه الذال عرف الديك ، قال الخليل» ، وفى (ب) : «هو عرف . . . ،

أقول : وينبغى أن نلاحظ أن الفيروزابادى فى «البصائر» والزبيدى فى «التاج» يقيدان المعنى بأنه مما قاله الخليل .

ولكن أليس عجيبًا ألا تكون هذه الغرائب مذكورة فى «كتاب العين» وهو صنعة الخليل؟!

ثم إن «الحارث اليشكرى» الذى اختاره المحقق هو فى (ب) : الحارث البكرى ، وفى (ج) : أبو العسنجور!! ، وهو غير منسوب فى «البصائر» ولا «تاج العروس» .

كما أن فى نص الشاهد اختلافًا كبيرًا فى هذه الأصول المخطوطة .

أقول : أَفَبَعْدَ هذا يحتفل المحقق فينشر هذه الصنعة؟!!

٢ - كتاب الجمل فى النحو

تصنيف الخليل بن أحمد الفراهيدى

تحقيق الدكتور فخر الدين قباوة

الناشر : مؤسسة الرسالة ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م

أقول : هكذا كان مثبتًا على غلاف الكتاب ؛ وعلى هذا يكون الكتاب من مصنفات الخليل بن أحمد .

نعم لقد ورد فى مصنفات الخليل كما ذكر فى المصادر كتاب «الجمل» . والسؤال الآن : أهذا هو كتاب الجمل الذى أشارت إليه المصادر؟ .

أقول : لِنحتكم إلى ما قاله المحقق الدكتور فخر الدين قباوة فى «مقدمته» :

«أما بعد فهذا «كتاب الجمل فى النحو» المنسوب إلى الخليل بن أحمد الفراهيدى ، أضعه بين أيدى العلماء والباحثين ، ليكون مادة للدراسة والتوثيق والتحقيق ،

ولَسوف يثير ، فيما أرى ، أمواجًا مختلفة أو متناقضة من الآراء والتوجيهات والنقد والتقويم ، تساهم فى توضيح معالمه ، وتسديد منعطفاته ، وحل مشكلاته» .

أقول : كأن المحقق أدرك أن هذا الكتاب غريب فى مادته ، بعيد عما عرفناه مِن علم الخليل فى «كتاب سيبويه» . اتصف بأقوال وتوجيهات نحوية لا نجدها فى غير هذا الكتاب ، بل إن جلّ ما فيه قد عبّر عنه النحاة المتقدمون والمتأخرون بشىء يبتعد عما فى هذا الكتاب .

ثم إن المحقق قد أثبت فى هذه الأسطر أن الكتاب منسوبٌ إلى الخليل بن أحمد ، فما باله لم يثبت مثل هذا على غلاف «الكتاب»؟ أكان هذا الضرب من التمويه بل التدليس إرضاءً للناشر وعملاً على ترويج الكتاب؟ .

ليس هذا مِن أمانة العلم ولا مِن شرائط النشر العلمى .

ولنتابع المحقق فى مقدمته التى أراد أن يرمّ بناءها فتوجّه إلى الدارسين مستعينًا بهم على اجتياز «العقبات» و«المعضلات» و«التحدّيات»[1] . . . . .

هذه كلها «تفتح أبوابًا جديدة فى ميادين المصطلحات والمذاهب والتوجيهات والأحكام النحوية ، وفى الهياكل الكبرى التى سيطرت على تاريخ النحو والنحاة» .

أقول : هذا الذى يهذ إليه طالبًا عَوْدنَ الدارسين لا يعفيه مِن تَبِعات نسبة باطلة ، ألم يفطن إلى أن هذا الجديد الغريب فى مادة الكتاب ومصطلحه لا يوجد فى «كتاب» سيبويه ، وهو من مصادرنا فى معرفة عِلْم الخليل فى النحو واللغة!!

لقد احتفل المحقق بهذا الكتاب المنسوب إلى الخليل ؛ فقال :

«فهو يحمل بين دفتيه ألوانًا مِن العلم متميزة ، ولمحات من الفكر قديمة مستجدة ، ونماذج من النظرات النحوية واللغوية والبيانية تقتضى الاهتمام والتدقيق والتحرير .

أقول : لقد أطال الدكتور قباوة فى إطراء كتابه هذا وتجاوز الحدّ ، وأهلُ الرأى يتفقون على غير هذا ؛ لأن ما فى الكتاب بَعيدٌ عن علم النحاة المتقدمين ؛ فأين هى «النظرات النحوية واللغوية والبيانية» التى «تقتضى الاهتمام والتدقيق والتحرير»؟!

(١) التحديات : كلمة رزقت الشيوع واستعملت جمعًا لتقابل الأصل الأجنبى الذى ترجمت عنه . وليس لنا أن ندخل «التحديات» و«الأطر» فى الكلام على مادة نحوية قديمة .

وقال الدكتور قباوة :

«وهو وإن كان يعتمد منهجًا تقليديًا فى تصنيف موضوعات الإعراب ، يضع لهذه الموضوعات أطرًا خاصة ، وتفريعات متشعبة متشاجرة (أراد مشتجرة) تمثل مرحلة عريقة فى القدم لفهم معانى النحو وجزئياته وكليّاته . . . . .

أقول : كأن كل هذا أراد به المحقق أن يقلل من قولته : «المنسوب إلى الخليل . . .» فراح يشير إلى دقائق تميّز بها «الكتاب» .

ثم قال المحقق : وهو يَنسب إلى الخليل إمام العربية تبويبات غريبة متميّزة وتقسيمات وتوجيهات وأحكامًا وأقوالاً ومصطلحات ، ما كان يعرفها المؤرخون والدارسون . . . .

أقول : هلاّ كان هذا دافعًا إلى أن يتحقق «المحقق» فينظر فى «كتاب سيبويه» فينظر علم الخليل ومصطلحه؟ .

ويقول المحقق فى هذا : «وهو يقدّم عددًا وافرًا من المصطلحات ، فى الإعراب والصرف والأدوات ، بعضه غريب كل الغرابة لا تجد له صدًى فى الكتب القديمة والمتأخرة والمعاصرة ، وبعضه الآخر حَمل فى التاريخ دلالات انقرضت ، أو خالفت ما عرفه النحو فى مذاهبه واتجاهاته ورجالاته» .

أقول : كان على المحقق أن يفطن إلى هذا فيتأكد أن هذا الكتاب ليس للخليل وأنه منحول عليه ؛ ذلك أن المصطلح النحوى اللغوى غَيْرُ وافٍ فى «كتاب سيبويه» ، وأن الخليل كان يصل إلى المادة النحوية بجملة يشرح بها ما يريد ؛ فأين هذا من هذه الكثرة فى المصطلح؟!

ولنا دليل آخَرُ على أن الكتاب مَصنوعٌ مَحمولٌ على الخليل ؛ نلتمسه فيما ذكر المحقق :

«وهو يورد مجموعة من الآيات الكريمة ، فى صور لا نجدها فيما وصل إلينا مِن تاريخ القراءات والتفسير للقرآن الكريم . وقد بدا لى أن بعض تلك الصور هو مِن أوهام المصنِّف أو النساخ أو . . فرددته إلى طريق الصواب ، وأن البعض الآخر توجيه نحوى ليس له فى القراءات نصيب» .

أقول : وهل يُعقل أن يكون هذا مِن عِلْمِ الخليل؟!

ويقول المحقق أيضًا : «وهو يروى عشرات من الشواهد الشعرية فى مسائل الإعراب ومعانى الحروف لا تجد لها موئلاً أو لروايتها مصداقًا فى مصادر النحو والشعر ومراجعهما المعروفة ، أو لا تستطيع تحقيق نسبها ، أو تحديد أصحابها من الشعراء والرجّاز» .

أقول : وهذا كله لم يَثْنِ المحققَ عن عمله وعن نسبة الكتاب إلى الخليل ، وهو مَحْضُ ادّعاء وكذب .

ويقول المحقق أيضًا : «وهو يبسط أحكامًا وتوجيهات فى الإعراب واللغة والبيان تفتقدها كتبُ النحو والمعاجم وأمّهات المطوّلات والحواشى ومصادر علم العربية فى تاريخه ودراساته وتقويمه» .

أقول : ومع كل هذا يبقى هذا المجموع المزيف من صنع الخليل كما يريد المحقق!!

ويلتمس المحقق المعاذير ليظل متشبثًا بنسبة الكتاب إلى الخليل ؛ فهو يقول :

«وهو يضمّ فى طياته نصوصًا وعبارات وشواهد ، لا يُشَكّ فى أنها مقحمة ألحقها علماء أو نسّاخ أو قرّاء بعد الخليل ، فالتبست بالأصل وتناقلها الناسخون على أنها جزء منه ، فى حين أنه يضمّ أيضًا أمثالها عرفت فى مذهب الخليل وأقواله ....» .

ويقول المحقق فيشير إلى مسائل هى حجة عليه كقوله :

« .... فبينا أنت مشدود إلى دقة التقسيم وعمق الفكرة وجلاء المعنى ، وبعد النظر .... إذ يفجؤك ظواهر من الاضطراب والتداخل والإحالة . وبينا أنت مأخوذ بالتعريفات الدقيقة الوافية ، والأحكام والقيود المحكمة المسدّدة ، ..... إذا بك تصدمك شذرات من التعريفات السطحية العامة الفضفاضة والأحكام القاصرة ..... وبينا أنت مستسلم لفصاحة الكلم ونصاعة العبارة .... إذ تتعثر بنتوءات من تلوِّى التعبير وهلهلة النسج وانقطاع السياق» .

أقول : وكأن الكتاب قد أخذ على المحقق تفكيره وجهده ؛ فهو على عَواره مشغول به ، وهو يقول :

«وقد كنتُ كلّما قرأتُ هذا الكتاب منذ اطلعت عليه عام ١٣٨٠ ، تحضرنى هذه المعالم والمعانى متلاحقةً تثقل كاهلى ونفسى ، وتشعرنى بالقصور والعجز أن أتصدّى لها أو أَسيرَ فى ركابها ، فإذا بى أعرض عنها ، وفى ضميرى وخزات وحسرات» .

ويبدأ المحقق شيئًا آخر يدعوه «تاريخ حياة الكتاب» أشار فيه إلى أن المؤرخين والمعاصرين قد ازورّوا عن الكتاب واستخفّوا به ، وأحاطوه بالطعن فى النسب والتوهين للسبب ، والازدراء للقيمة العلمية .

وقال : «فأول ما يصادفك فى هذا الكتاب مشكلة الاختلاف فى اسمه . إنه يسمّى : الجمل ، وجمل الإعراب ، ووجوه النصب ، والمحلّى ، وجملة آلات الإعراب ، وجملة آلات العرب ، وجملة آلات الطرب ، والنقط والشكل . . . . .» .

أقول : إن هذه الاختلافات الغريبة تدفعنا إلى أن نقول : إنه مادة مصنوعة يملؤها الزيف ، لا يمكن أن تكون للخليل .

ثم إذا كان الكتاب هو «الجمل» فكيف تخلو مادته مما يتصل «بالجمل» ، وليس فيه من «الجمل» إلا قول صاحبه فى فاتحته :

هذا كتاب فيه «جملة الإعراب» . . . ثم يشرع بوجوه النصب ، وهى كثيرة ، يتبعها وجوه الرفع ، ثم وجوه الخفض ، ثم يتحول إلى جُمَل الألِفات ، وهى أنواع الألفات كألف الوصل وألف القطع وألف الاستفهام و . . . .

ويتحول إلى جمل اللامات كلامِ الصفة ولامِ الأَمْر ولامِ الخبر ، ولامِ الجُحود ، و . . . . ويأتى بعد ذلك جُمَل الهاءات كهاءِ التَنبيه ، وهاءِ التأنيث ، و . . . . وكذلك التاءات ، والواوات ، واللامات ، والفاءات ، والنونات ، والباءات . . . ومواد أخرى .

وجملة هذا كله لا يتصل بـ «الجمل» فى أى وجه من الوجوه .

ويقول المحقق :

«ولعل مصدر نبذ الناس له أنه أقدمُ خبر ، وصل إلينا عنه ، يتضمن الطعن فى نسبه ، وزعزعة الثقة به . فأول ما نلقاه من تاريخ : «كتاب الجمل» هذا هو موقف ابن

مسعر المفضّل بن محمد المعرّى (ت ٤٤٢) ؛ فهو فى ترجمته لأبى بكر بن شقير (ت ٣١٧) يقول عنه : «له كتاب لقّبه الجمل ، وربما نُسب هذا الكتاب إلى الخليل ، يقول فيه : النصب على أربعين وجهًا ، والرفع على كذا»(١) .

وقال المحقق : «وعندما ترجم ياقوت (ت ٦٢٦) للخليل بن أحمد الفراهيدى ، ذكر له بضعة مصنفات فيها «كتاب الجمل»(٢) . غير أنه كان قد عرض من قبل ، لترجمة ابن شقير ، وأورد فيها ما يلى : «قرأت فى كتاب ابن مسعر أن الكتاب الذى ينسب إلى الخليل ، ويسمى الجمل ، من تصانيف ابن شقير هذا» .

ولمّا ترجم صلاح الدين الصفدى (ت ٧٦٤) لابن شقير جاء فى تلك الترجمة : ويقال : «إن «الجمل» الذى نسب للخليل هو لابن شقير»(٣) .

وكأن السيوطى (ت ٩١١) يعتمد فى ترجمتَى الخليل وابن شقير على معجم الأدباء . . . .

ويقول فى حديثه عن ابن شقير : «وقرأت فى طبقات ابن مسعر أن الكتاب الذى ينسب للخليل ، ويُسمَّى المحلَّى ، له»(٤) .

ويأتى صاحب «روضات الجنات» محمد بن باقر الخونسارى (ت ١٣١٢) فيورد مصنَّفات الخليل كما هى عند ياقوت والسيوطى(٥) .

وصاحب «الذريعة إلى تصانيف الشيعة» محمد محسن يشير إلى أن العنوان هو «النقط والشكل (١)» . وهكذا يستمر الشكُّ فى الكتابِ ونسبتِه إلى الخليل لدى بروكلمان والزركلى وكحالة ورمضان ششن .

وقطع محمد خير الحلوانى بعدم نسبة الكتاب إلى الخليل مستدلاً على ذلك بما فيه من إشارة إلى كتابٍ مختَصرٍ للمؤلف نفسه ، ومن نقله عن الخليل وعمن عاصره أو

(١) تاريخ العلماء النحويين من البصريين والكوفيين ص ٤٨ - ٤٩ ، ومعجم الأدباء ١١/٣ ، وبغية الوعاة ٣٠٢/١ .
(٢) معجم الأدباء ٧٤/١١ .
(٣) الوافى ٣٤٩/٦ .
(٤) بغية الوعاة ٣٠٢/١ .
(٥) روضات الجنات ٣٩٣/٣ .

تأخر عنه ، ومِن ألغازٍ نحوية ، ومصطلحات كوفية أو غريبة ، واضطراب وتخليط لا يمكن أن يَصدرا عن الخليل[١] .

أقول : والكلامُ فى تراثِ الخليل وأمرِ نسبته إليه كثيرٌ جداً .

ثم عرض المحقق للنسخ المخطوطة ، وما تشتمل عليه من شجون فى اختلاف النص وأسماء المخطوطات وغير هذا .

ولكن المحقق مضى فى التحقيق والدربُ وعرٌ موحشٌ ، ولكنه اجتهد فأكثر من تعليقاته خدمةً للنص ، وهذا هو دأبه فى أعماله الجادّة الأخرى .

ثم آتِى إلى نص الكتاب فأجد فيه وجوه النصب (ص ٣٤ - ١١٦) وفيها الغرائب التى تتّسم بخصوصية لا نعرفها فى كتب المتقدمين والمتأخرين .

ومن هذا : «النصب من قطع» .

مثل قولك : هذا الرجل واقفًا ، وهأنذا عالمًا ، قال الله جلّ ذِكْره : ﴿وهذا صراط ربّك مستقيمًا﴾ ومثله ﴿وهذا بَعْلى شيخًا . . . .﴾ على القطع .

وكذلك : ﴿وله الدِّين واصبًا﴾ وكذلك ﴿وهو الحقُّ مصدِّقًا . . . .﴾ .

معناه : وله الدِّين الواجب ، وهو الحق المصدِّق .

فلما أسقط الألف واللام نصب على قطع الألف واللام .

أقول : وهذا كله لدى النحاة من باب «الحال» ، ولم أجد مَن قال بهذا «القطع» ، والحال غير الصفة .

وجاء فى الكتاب : «النصب من التفسير» .

قولهم : عندك خمسون رجلاً نصبتَ «رجلاً» على التفسير .

أقول : والتفسير مصطلح كوفىٌّ بمعنى «التمييز» ، وكيف يكون هذا مِن علم الخليل؟! ومن الغريب أن مصطلح «التمييز» موجود فى الكتاب ؛ فقد ورد :

والنصب على التمييز كقولهم : أنت أحسن الناس وجهًا وأسمحهم كفاً .

---

(١) المفصل فى تاريخ النحو العربى ١/٢٥٨ - ٢٦٢ .

وفى الكتاب : النصب بـ «حتى» وأخواتها .

أقول : القول إن «حتى» ناصبةٍ هو قول الكوفيين ، وأما الخليل وبعده سائر البصريين فعندهم أن النصب بـ «أنْ» مضمرة بعد «حتى» .

وفى الكتاب إشارة إلى الكوفيين فى باب «النصب بالتعجب» فقد ورد :

« . . . . . وحدّ التعجب ما يجده الإنسان من نفسه عند خروج الشىء من عادته . وقال الكوفيون : هذا لا يُقاس عليه ؛ لأن قولهم : «ما أعظَمَ اللهَ» لا يجوز أن نقول : شىء عظَّم اللهَ . فرُدَّ عليهم قولهم . وقال البصريون : لا يذهب القياسُ بحرف واحد .

أقول : الكلام على الكوفيين والبصريين لا يمكن أن يرد فى نص للخليل بن أحمد ؛ ذلك أن الكوفيين لم يكن لهم وجود حقيقى فى حقبة الخليل بن أحمد .

ونقرأ فى هذا الكتاب من الغرائب التى يشوبها الغموض قول صاحب الكتاب :

«والنصب الذى فاعله مفعول ومفعوله فاعل»

مثل قول الله ـ جلّ وعزّ ـ فى «آل عمران» : ﴿قال ربِّ أنَّى يكون لِى غلام وقد بَلَغني الكِبَر﴾ والحَدَثان للمخلوق لا للكبر . ومثله فى «مريم» ، ﴿واشتعل الرأس شَيْبًا﴾ . والحدثان للشيب لا للرأس . ومثله : ﴿ما إنّ مفاتحه لتنوء بالعُصْبَةِ أولى القوّة﴾ معناه : لتنوء العصبة بمفاتحه ، وقيل : معنى «تنوء» تذهب . . . .

ومن خصوصيات هذا الكتاب وطريقة تأتّيه إلى الغرض شىء ينفرد به ومنه :

«والنصب فى اسم بمنزلة اسمين» مثل قولهم : أتانى خمسةَ عَشَرَ رجلاً ، ومررتُ بخمسةَ عشَرَ رجلاً ، وضربتُ خمسةَ عَشَرَ رجلاً ، صار الرفع والنصب والخفض بمنزلة واحدة ؛ لأنه اسم بمنزلة اسمين ، ضُمَّ أحدهما إلى الآخر فأُلزمت فيهما الفتحة التى هى أخفُّ الحركات .

وكذلك تقول فى مَعْدِ يكرب ، وحضَرَموتَ وبَعْلَبَكَّ بمنزلة اسمين .

أقول : ليس العدد المركَّب كأحدَ عشَر وأخواته كالاسم المركَّب مَزْجًا .

خاتمة :

وأنت تجد فى هذا الكتاب من الغرائب والخصوصيات ما لا نعرفه مِن كلام الخليل الذى أُثبت فى «كتاب سيبويه» ، ولا تسأل عن الموضوع المصنوع من الشواهد ، ولا عن التفسير والتأويل الذى لم نعرفه لدى النحاة متقدميهم ومتأخريهم ، فكيف ندعى نسبته إلى الخليل؟!

وهذا نظير ما عرضنا له فى الكتاب الأول وهو «الحروف» ، وكلاهما مزيّف منحول محمول على الخليل ، وفى الذى بسطناه مِن كلام المحقّقَيْنِ وكلام أهل العلم ، وما عرضناه من تعليقاتنا ؛ دليلٌ كافٍ على ما ذهبنا إليه .

وهذا يدفعنا ألا نغلو فنتجاوز العلم حُبّاً فى النشر وتسويد الصفحات .

مع كتاب «قِصَر الأمل»

لأبي بكر عبد الله بن محمد بن أبي الدنيا

المتوفى سنة ٢٨١ هـ

حقّقه محمد خير رمضان يوسف



بسم الله الرحمن الرحيم

أحمده وأستعينه وأستغفره وأصلّى وأسلّم على صفوة خلقه

النبى المصطفى الذى بعثه هدًى ورحمةً للعالمين .



مع كتاب «قِصَر الأَمَل»[١]
لأبى بكر عبدالله بنَ محمد بن أبى الدنيا
المتوفى سنة ٢٨١هـ
حقّقه محمد خير رمضان يوسف

أقول : أقبلتُ على قراءة هذا الكتاب ، وقد كنت قد قرأت له كتابًا فى «الصمت وآداب اللسان» ، وكتابًا آخر فى «ذم الدنيا» ، ثم كتاب «الرقّة والبكاء» .

وقد أشار محقق هذا الكتاب[٢] «قِصَر الأمل» فى ترجمته الموجزة للمصنف ابن أبى الدنيا أن له أكثر من مئتى كتاب ، وكأنه أفاد هذا مما ذكره الذهبى الذى نوَّه بما فيها من «عجائب ومخبّئات» . وكأن محقق كتاب «الصمت وآداب اللسان» زاد على ما أثبته الذهبى .

ولا أدرى أَ أَراد الذهبى بمخبّآت ابن أبى الدنيا وعجائبه مدحه والثناء عليه أم أراد أنه فطن إلى مسائل ذات خصوصية فى المعارف الإسلامية .

غير أن المحقق معجب بل مأخوذ بفوائد الإمام ابن أبى الدنيا ، وقد بسط هذا فيما بسطه بين يدى الكتِاب ؛ فقال فيما قال :

«فهذا كتاب آخر من كتب الحافظ ابن أبى الدنيا الذى وفّقنى الله لتحقيقه بعد

---

(١) كتاب «قِصَر الأمل» نُشر فى دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع ببيروت سنة ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م .

(٢) لابد لى أن أبسط شيئًا عن الأستاذ محقق الكتاب محمد خير رمضان يوسف وليس لى فى هذا إلاّ ما أثبته هو فى آخر هذا الكتاب بعد فهرس المراجع وهو فيما قال : كتب المحقق :

أقول اشتملت كتب المحقق على شىء من كتب الرجال والتراجم فكان له فى «الخضر» و«لقمان الحكيم» و«ذو القرنين» مصنَّفات منشورة . وله فى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز وسفيان بن عيينة والحسن البصرى وغيرهم كتب . وأتجاوز هذا إلى كتب الحديث الشريف والأخبار فأجده قد اندفع فى هذا العلم بحماسة وله فيه مصنفات وكتب أخرى حققها وعلّق عليها .

وكأنه عنى بما يتصل بعصرنا فكان له مشاركات فيما ابتدعه المعاصرون من أهل الحفاظ فى مواد هى كما أثبت هو وغيره تتصل بما أسموه «الإعلام الإسلامى» ، وما يكون من هذا من قريب أو بعيد بـ «الدعوة الإسلامية» .

لقد اقتضاه هذا أن يكتب فى «صفات مقدّمى البرامج الإسلامية فى الإذاعة والتليفزيون . وكتب فى المعاصرين من أهل العلم ومصنفاتهم ومنهم الشيخ محمد بن صالح العثيمين ، ومؤلفات الشيخ ابن باز . وجال فى كتب التاريخ والحديث والتراجم شارحًا ومؤلفًا .

واستدرك وأضاف على «الأعلام» للزركلى ، و«معجم المؤلفين» لكحالة .

ولم يفته أن يصنف فى النساء من أهل العلم ذوات الفضل من العرب والكرد .

وأنت تجد له فيما أثبته من مصنّفاته طائفة من الكتب جال فيها جولات آمل أن تكون موفّقة .

وقد كان لى بعد هذا أن أخص كتابه فى «قِصَر الأمل» بشىء من عناية مما قد يكون لى أن أبسطه .

كتابه «الرقة والبكاء» وهو كتاب نفيس نادر فى موضوعه ، لا أعرف مَن خصَّه بتصنيفٍ غيره ، على الرغم من أهميته وخطورة أمره» .

أقول : ليس للمحقق أن يذهب إلى أن الكتاب «نفيس نادر فى موضوعه ، وأنه لايعرف من خصّه بتصنيفٍ غيره ، على الرغم من أهميته وخطورة أمره» .

قلتُ : ليس له أن يذهب إلى هذا كلّه ؛ ذلك أنه لايعرف الكثير الكثير من الأصول التى ضاعت ولم يصل إلينا منها شىء . وأن الذي وصل إلينا وعُرف فى خزائن المخطوطات قليلٌ مِن كثيرٍ ، وأن شيئًا يسيرًا منه قد طبع ونشر . وما زال شىء من الأصول فى الخزائن الخاصة مما لم يفهرس ولا نعرفه ، ومنه ما هو مِلْكٌ خاصٌ لقومٍ لا يخبرون عنه . فهل لنا أن نذهب إلى ما ذهب إليه المحقق الفاضل؟!!

ثم إن المحقق قد رجع فى صنعته إلى مصادر عدّة وكان فيها جملة كتب فى «الزهد» هى :

الزهد للإمام أحمد بن حنبل ، ونظيره لأبى بكر بن عمرو بن أبى عاصم ، وآخر للحسن البصرى ، ومثله لوكيع بن الجراح ، والزهد الكبير لأبى بكر أحمد بن الحسين البيهقى ، والزهد والرقائق لعبد الله بن المبارك المروزى .

إن مادة «الزهد» فى هذه الكتب تعنى الزهد عن الدنيا ، وأن الدنيا هى الدار الفانية . وأنها لَعِبٌ ولَهْوٌ ، وغير هذا من المنكرات والبدع والأباطيل . وهذا يعنى أن ما يلزم عبادَ الله هو الانصرافُ إلى الباقية الخالدة وهى الحياة الأخرى .

وأعود إلى مادة كتاب ابن أبى الدنيا وهو «قِصَر الأمل» فأجده بعض ما يكون لدى الزّهّاد والذين انصرفوا عن دنياهم فضيّقوا آمالهم وابتعدوا عن الزهو والتظاهر عن كل ما هو من لوازم الدنيا ؛ كالتوسّع فى البنيان والتطاول فيه ؛ فكان لنا من مروياتهم فيما رواه البخارى فى «الصحيح» وفى «الأدب المفرد» فى «باب التطاول فى البنيان» وهو قوله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ :

«لاتقوم الساعة حتى يتطاول الناس فى البنيان» .

وكان هذا دافعًا وحاثًا للزهّاد أن ينفروا من «العاجلة» ويتوقّعوا الموت للقاء الله فى

«الآجلة» . وعلى هذا لم يكن كتاب ابن أبى الدنيا فريدًا فى بابه ، لم يؤلف أحد فيه غيره ، وهو بعض مواد كتب الزهد .

غير أنى أجد أن أهل الزهد ، على صدقهم وإخلاصهم ، قد نكروا الحقّ وأنكروه وابتعدوا عن عالم الناس الذى التزم به الإسلام ، ولنا فى قوله تعالى فى كثير من آياته البينات ؛ شواهد فى العمل الصالح فى الدنيا يعمله العبد ليستقبل حُسن العاقبة ، قال ـ سبحانه ـ :

﴿إنّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنّا لا نُضيع أجر مَن أحسن عملاً﴾ ٣٠ سورة الكهف .

وإذا كانت الحياة كما أبصرها أهل الزهد الذين انقطعوا عن دنيا الناس وخلوا إلى أنفسهم ينتظرون ساعة الأجل ، وكأنّ الأجل يتَرصَّدهم ، فكيف لنا أن نفهم قول الرسول الكريم القائل :

«اعمل لدنياك كأنّك تعيش أبدًا واعمل لآخرتك كأنك تموت غدًا» .

وهو القائل : «إنما بُعثتُ لأُتَمِّم مكارم الأخلاق» .

وأنت تجد فى أقواله ﷺ فوائد تشير إلى ما يحزب المرء فى عيشه ، ومن هذا ما ورد فى الحديث الشريف : «إنّ من الذنوب ذنوبًا لا تكفِّرُها الصلاة والزكاة والعمرة ، ولكن يكفرُها الهمُّ فى طلب المعيشة» .

أقول : أين هذا كله من اقتصار أهل الزهد فى خلواتهم وابتعادهم عن دنيا الناس !!

وأعود إلى كتاب «قِصَر الأمل» لأقف على صنعة محققه الفاضل محمد خير رمضان يوسف ؛ فأبدأ بما دعاه «مقدمة التحقيق» فأقول ولا أريد التصحيح :

١ – إن كلمة «مقدمة» قد وصلت إلينا فيما وصل من علم الغربيين Introduction وقد كان أهل العلم يقولون : «خطبة الكتاب» ؛ لما يبسطونه قبل البدء بمواد كتبهم .

٢ – وجاء فى أول هذه «المقدمة» قولُ المحقق :

« . . . . . على الرغم من أهميته (أى أهمية كتاب قِصَر الأمل) وخطورة أمره» .

أقول : قد ابتعد المعربون فى عربيتنا المعاصرة عن حقيقة استعمال «الرغم»

فاستعملوه ليقابلوا به in spite فى الإنكليزية أو malgré فى الفرنسية .

وهذا الاستعمال الجديد لكلمة «الرغم» بعيد عن الأصل ؛ فقد استعمل المعربون الأوائل «الرغم» قريبًا من أصله فقالوا مثلاً : «إنى لأحصل على حقِّى منه رغم أنفه» .

أقول : إن حضور «الأنف» فى هذه العبارة يشير إلى صلة هذا العضو بهذا المصدر الذى هو «الرغم» . إن هذا المصدر أُخِذ من الأصل البعيد الذى هو اسم ذات جامد وهو «الرَّغام» ومعناه «التراب» . فأى صلة للرَّغام ـ بمعنى التراب ـ بالأنف؟ .

إن هذه الصلة تأتى من أن المعرب القديم يشير فى عبارته إلى إذلال خَصْمِه وقَهْرِه بحيث يضطره أن يطرحه أرضًا فيمس أنفه الرغام . وكان للمعرب القديم أن رأى فى «الأنف» رمزًا للإباء والامتناع ، ومِن هنا جاءت «الأنفة» لديهم بما منحوها مِن دلالة .

ولا أقول : إن ما جدَّ فى العربية المعاصرة هو خطأ ، ولكنى أقول إنه جديد له مكانه ، وينبغى أن نذكر أنّ لكل مقام مقالاً .

٣ - وجاء فى الصفحة الأولى من المقدّمة أيضًا قولُ المحقق :

«وقد رأيت أن الإمام الغزالىّ قد أخذ «روح» هذا الكتاب (أى قِصَر الأمل لابن أبى الدنيا) ومعظم شواهده ، ووزّعها على ثلاثة موضوعات أساسية فى كتابه «إحياء علوم الدين» وهى : «ذم الدنيا» و«الزهد والفقر» و«ذكر الموت وما بعده» .

والأخير هو الكتاب العاشر من ربع المنجيات ، الذى اختتم به كتاب «الإحياء» ، والباب الثانى منه هو «فى طول الأمل وقِصَر الأمل ، وسبب طوله وكيفية معالجته» ، الذى اقتصر فيه على الاستشهاد بما ورد فى كتاب «قِصَر الأمل» الذى بين يديك . . .» .

أقول : كأن صاحبى الأستاذ المحقق قد هُرِع إلى القول بـ «السرقة» ومَن «السارق»؟ إنه الإمام أبو حامد الغزالى الزاهد المجتهد الفيلسوف . ولو كان شىء من هذا لأشار إليه أهل العلم فى عصره وبعد عصره؟ إنها بعض ما نخترعه فى عصرنا وما نقترفه من إثم فى إسراعنا إلى الشرّ ، ونتعجل الأمر .

أقول : إذا كان دليل المحقق أنه رأى شواهد كتاب «قِصَر الأمل» مبثوثةً فى فصول «إحياء علوم الدين» فأنا أقول له : وهذه الشواهد قد نجد شيئًا منها فى «كتب الزهد» التى

أشار إليها المحقق فى صنعته . فهل أقول : إن أصحاب هذه الكتب قد اقتبسوها من كتاب ابن أبى الدنيا أو غيره؟ .

على رسلك أخى الأستاذ الفاضل ، وعلى هينتك ؛ فالأمر فى حقيقته غير هذا ، والشواهد هى هى لدى أهل العلم ؛ ألا ترى أن شواهد البلاغيين وشواهد النحويين وشواهد اللغويين هى هى طوال العصور ؛ فهل لنا أن نقول إن اللاحق قد سرق مِن الأوّل السابق؟ .

وإذا كان الإمام الغزالى فى كتابه «إحياء علوم الدين» قد عوّل أو اقتبس ما فى «قِصَر الأمل» ، فلِمَ ذهبت فى الصفحة الثانية والثالثة والرابعة فعرضت لما ورد من اجتهاد الإمام الغزالى وتوضيحه وشرحه فى كتابه «إحياء علوم الدين»؟ .

٤ - ثم أتى إلى ترجمة المؤلف فى الصفحتين٩ و ١٠ وهى فى غاية الإيجاز ؛ عرض فيها لقول الذهبى فى تصانيفه من أن فيها «مخبّآت وعجائب» .

أقول : وهذه الفائدة مما ورد فى «ميزان الاعتدال» فى ترجمة ابن أبى الدنيا .

٥ - وجاء فى الصفحات ١٠ إلى ١٥ كلامُ المحقق على الأصل المخطوط وما كان منه ، وقد أشار فيه إلى أن مجموع أوراق الأجزاء الثلاثة للمخطوطة تِسْعٌ وعشرون ورقةً .

أقول : إذا كانت هذه عدّة أوراق المخطوطة فقد يكون من التزيّد أن يصبح الكتاب ، وهو فى هذه النشرة المحقّقة ، فيما يقرب من مائتى صفحة . لقد ألزم المحقق نفسه بما لا يلزم فعلق فى حواشيه على الأعلام التى وردت فى الأسانيد ؛ فعرَّف بشىء منها مما استطاع أن يجده وترك كثيرًا منها مما لم يَهتدِ إليه . وهو حين بدأ هذه الصنعةَ الناقصةَ وعرَّف بعض الأعلام لم يذكر فى تعريفه المصادر التى اهتدى فيها إلى الترجمات . وسَأعرض لشىء مما كان له على سبيل المثال وأترك الكثير مما تركه غفلاً دون تعريف .

٦ - جاء فى أول الصفحة ٢٥ فأجد فيها :

«أخبرنا الشيخ أبو محمد جعفر بن أحمد بن الحسين المعروف بالسرّاج البغدادى القارى . . .» أقول : وقد علّق المحقق على هذا السرّاج البغدادى القارى ، أبو محمد ، وهو

الذى بدأ به المؤلف ابن أبى الدنيا مادته فقال : أخبرنا . . . . فكان تعليق المحقق عليه فى الحاشية الأولى رقم ١ قائلاً وفاته سنة ٥٠٠ هـ ولم يزد على هذا التعريف ـ الناقص كل النقص ـ حرفًا .

أقول : هل يكون لى أن أعدّ هذه الصنعة تحقيقًا؟!!

ثم كيف قال المؤلف : أخبرنا الشيخ أبو محمد جعفر . . . المعروف بالسرّاج . . . . ، وهو ممن توفى سنة ٥٠٠ هـ ، والمؤلف ابن أبى الدنيا كان قد توفى كما هو معروف مشهور سنة ٢٨١هـ!!

وكيف يسمِّى المحقق هذا السراج البغدادى شيخًا لابن أبى الدنيا ؟!!

٧ – وأعود إلى هذا السند فى هذا الخبر نفسه فأجد السرّاج البغدادى القارى (أى القارئ) قد قال بين يدى خبره : أخبرنا أبو على الحسن بن أحمد . . . البزّاز قراءة عليه فى شهر ربيع الأول من سنة ٤٢٣ ، قال : أخبرنا أبو جعفر عبد الله بن إسماعيل بن . . . . بن بُرَيه الهاشمى . . . . فى منزله فى مدينة المنصور أبى جعفر . . . . .

أقول : فأما المخبر الثانى أبو على الحسن بن أحمد . . . . البزّاز فقد أهمله المحقق ولم يُعلِّق عليه بشىء وكأنه معروف مشهور ؛ وليس الأمر كذلك . وأما الثانى وهو . . . . . . بن بُرَيه الهاشمى فقد علّق عليه تعليقًا مُعوزًا ، وكأنه لم يُعرِّف به ، قائلاً : هو ممن روى عن ابن أبى الدنيا ، كما فى تهذيب الكمال ٧٥/١٦ .

أقول : مع أن المؤلف ابن أبى الدنيا قد أثبت فى هذا السند فقال : أخبرنا !!

وأعود إلى المخبر الأول السرّاج البغدادى أبو محمد الذى بُدئ به الإخبار فأجده فى التعريف بالمخطوطة فى الصفحة (١١) وهو أحد مَن رواها منوّها به : السيد (كذا) أبى محمد . . . . . وكان حريًا بالمحقق أن يُعرِّف بهذه الشهرة التى عرفناها فى القرن الخامس الهجرى ولم تشتهر اشتهار «الشريف» .

وأقول أيضًا : وكان مِن تعليق المحقق المعوز الناقص الذى يفتقر إلى ما يجب فيبتعد فيه عما لا يجب ، أن عرَّف بـ «مدينة المنصور أبى جعفر» فقال :

ويعنى مدينة بغداد ؛ حيث بناها ثانى خلفاء بنى العباس عبد الله بن محمد

المعروف بأبى جعفر المنصور . ت ١٥٨هـ !! أقول : وهل لهذا التعليق من حاجة وعامّةُ أهل الدرس يعرفون مدينة المنصور أبى جعفر ، مدينة السلام ، وهل لهذا كلّه ضرورةٌ تقتضى المحقق إلى ما أثبتَه !!

٨ - ثم أجد بعد إخبار «ابن بُرَيه الهاشمى» الذى مرّ حديثُ ابن أبى الدنيا عنه فى قول «ابن بُرَيه» : حدّثنا أبو بكر ..... المعروف بابن أبى الدنيا قال : حدّثنا خالد بن خداش بن عجلان المهلبى قال : حدثنا حماد بن زيد عن ليث عن مجاهد عن عبدالله ابن عمر قال : أخذ رسول الله ﷺ يومًا ببعض جسدى ....

أقول : وقد أهمل المحقق فى هذا الذى بسطته التعريفَ بـ خالد بن خداش ولاحماد بن زيد ولا مجاهد ولا عبدالله بن عمر . وإذا كان الدارس عارفًا من هذه الأعلام (مجاهدًا وعبد الله بن عمر) أتراه عارفًا بالآخَرَيْنِ وهما خالد بن خداش وحماد بن زيد . وقد ترجم لليث ترجمة دون ذكر مصدر لذلك .

أقول : هذا هو منهج المحقق وصنعته فى تعليقاته وحواشيه المعوزة .

٩ - وقد جاء فى الصفحة ٢٦ حديث شريف بعد أن سبقه سلسلة من الأعلام إسنادًا ، وقد أغفلها المحقق كلها ، وفيها :

حدّثنا داود بن عمرو بن زهير الضبىّ قال : حدّثنا محمد بن الحسن الأسدى قال : حدّثنى حذيفة بن اليمان بن حذيفة عن على بن أبى حنظلة مولى على بن أبى طالب عن أبيه .... قال رسول الله ﷺ :

«إن أشدّ ما أتخوَّف عليكم خَصلتَيْنِ (كذا) : اتّباع الهوى وطول الأمل» .

وقد علّق المحقق على «خصلتين» فقال : كذا فى النسخ التى نقل منها العلماء أيضًا ، وقال الحافظ العراقى : صوابه : خصلتان .

أقول : من واجب المحقق أن يثبت الصواب سواء ذكره أحد رجال الحديث كالحافظ العراقى أم لم يذكره أىّ منهم .

وهذا يؤيد ما ذهب إليه أهل العربية من نحاة ولغويين فى نقدهم للمحدّثين وما عرض لهم من وهم فى العربية .

١٠ - وجاء فى الصفحة ٢٧ الحديث :

«ألا وإنكم توشكون فى يوم حساب وليس فيه عمل» .

وعلّق المحقق فقال : الصحيح أنه موقوفٌ على علىّ ﷺ كما سيأتى تخريجه . . . والمرفوع فى سند ابن أبى الدنيا هنا أورده ابن الجوزى فى «العلل المتناهية» وقال : هذا لايصح عن رسول الله ﷺ ؛ فإن على بن أبى حنظلة (وقد كان هذا فى السَّنَد) ليس بمعروف ، ولا أبوه . واليمان قد ضعّفه الدارقطنى (العلل المتناهية ٣٢٩/٢ - ٣٣٠) .

أقول : وهذا يشير إلى أن أهل الضبط والإحكام لم يجدوا فيما أثبته ابن أبى الدنيا ما يطمئنون إليه .

١١ - وجاء فى هذه الصفحة أيضًا مما أثبته ابن أبى الدنيا :

«وهذه الدنيا مرتحلة ، وهذه الآخرة قادمة . . . . وأنتم غدًا فى دار جزاء ولا عمل » .

وقد علق المحقق على هذا فذكر ما أشار إليه الحافظ العراقى فى «إتحاف السادة المتقين ٢٣٧/١٠» ، وقال : إن هذه الروايةَ أيضًا التى رواها ابن أبى الدنيا ضعيفةٌ .

أقول : وهذا وغيره يُثبِت أن ابن أبى الدنيا ممن قمّشوا فى الحديث الشريف ، وأنه مِن ساقتهم وليس من أهل الثقة . غير أن المحقق جعله من رجال الحديث أهل الحفاظ والصون .

١٢ - وجاء فى الصفحة ٢٨ :

«حدّثنا عبد الله قال : حدّثنا أبو إسحاق الأدمى قال : حدثنا سعد بن عبد الحميد ابن جعفر قال : حدّثنا على بن ثابت عن . . . .

أقول : لعلّ على بن ثابت فى هذا السند هو أبو بكر أحمد بن على بن ثابت الخطيب البغدادى كان له مشاركة فى رواية الجزء الثالث من المخطوطة كما بيّن المحقق فى كلامه على الأصول المخطوطة .

١٣ - وجاء فى الصفحة ٢٨ حديث :

«أَتجمعون ما لا تأكلون ، وتأملون ما لا تدركون ، وتبنون ما لا تعمرون» .

وقال الحافظ العراقى : رواه ابن أبى الدنيا ، ومن طريقه البيهقى فى «شعب الإيمان» بإسناد ضعيف . «إتحاف السادة المتقين ٢٣٧/١٠» .

أقول : وقد ذكرت هذا لأشير إلى أن ابن أبى الدنيا متعجل فى روايته . وإنى لأجتزئ بما قدّمت مما أورده ابن أبى الدنيا ونُسب إلى الضعف ، وهذا كثير فى هذا الكتاب الصغير .

١٤ - وجاء فى هذه الصفحة إسنادٌ لحديث جاء فيه : حدثنا محمد بن حمير قال : حدثنا أبو بكر بن مريم عن عطاء بن أبى رباح عن أبى سعيد الخُدرىّ قال : . . . .

فلم يكن من المحقق إلاّ أن يعرِّف بستة أسطر بأبى بكر بن مريم ، ويترك الآخرين ، ولا أدرى كيف أجاز لنفسه هذه الصنعة!! ومثل هذا كثير كثير .

١٥ - وجاء فى الصفحة ٣١ :

حدّثنا عبد الله (أى ابن أبى الدنيا) قال : حدثنا محمد بن سلام الجمحى قال : حدّثنا حمّاد بن سلمة عن . . . . . .

أقول : ورد فى هذا السَّنَد «حماد بن سلمة» وقد عرَّف به المحقق فى الصفحة ٣٧!!

١٦ - وجاء فى الصفحة ٣٤ :

«قال : حدّثنا عبد الله قال : حدثنا محمد بن الحسين . . . .

وقد علق المحقق على محمد بن الحسين فعرّف به وقال : هو شيخ ابن أبى الدنيا .

أقول : ويتردّد محمد بن الحسين الذى يروى عنه ابن أبى الدنيا فى هذا الكتاب ، والمحقق فى كل مرّة يُنَوِّه به ، وحَسْبُه مِن ذلك المرةُ الأولى ، وكان ينبغى أن يعرِّف بآخرين لايصل إليهم القارئ أو أن يُقوِّم ما ورد مصحَّفًا أو ناقصًا . وقد أشرت إلى استحالة أن يكون أبو محمد السراج شيخ ابن أبى الدنيا .

١٧ - وجاء فى هذه الصفحة أيضًا الحديث :

«جلس رسول الله ﷺ ذات يوم ، فأدار مدة (كذا) فقال : «هذه الدنيا» . . . .

أقول : وكان على المحقق أن يقف على كلمة «مدة» ويقول شيئًا .

١٨ – وجاء فى الصفحة ٣٦ :

«حدّثنا عبد الله قال : حدثنا سلمة بن شعيب قال : حدثنا مروان بن محمد عن ابن لهيعة عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه . . .

أقول : عبد الله بن لهيعة معروف بضعفه بين المحدثين . وقد ذكر أبو حاتم الرازى فى «المراسيل ص ١١٤» أنه لم يسمع من عمرو بن شعيب شيئًا .

وقد جاء مثل هذا غيره فى هذه الصفحة . . . .

١٩ – وجاء فى الصفحة ٣٨ الحديث :

«بينما عيسى جالس وشيخ يعمل بمسحاته يثير بها الأرض ، فقال عيسى : اللهم انزع منه الأمل» .

أقول : لم يعلّق المحقق على هذا الحديث الذى لا أرى كيف جاء لحمّاد بن سلمة عن داود بن أبى هند وغيره !! ولكنه علّق فشرح عبارة «يثير الأرض» فقال : يحرثها للزراعة !!

٢٠ – وجاء فى الصفحة ٤٠ :

«قال مطرّف بن عبد الله : «كلهم أحمق فيما بينهم وبين ربهم ، ولكن بعض الحمق أهون من بعض» .

وقد شرح المحقق هذا القول فقال : يعنى لعدم معرفتهم بقدره العظيم ، ولعدم قيامهم بعبادته حقّ العبادة .

أقول : وليس لى أن أتبين هذا الشرح .

٢١ – وجاء فى الصفحة ٤١ :

«حدّثنا عبد الله قال : حدّثنى أحمد بن عبد الأعلى قال : حدثنا . . . . عن مالك مِغول عن الحسن . . .

أقول : ولم يُعرّف المحقق بأحدٍ من هؤلاء ، لكنه رجع إلى مالك بن مغول فى الصفحة ٤٤!!

٢٢ - وجاء فى الصفحة ٤٢ :

«حدثنا وكيع عن سفيان . . .

أقول : وجاء المحقق ليعرف بـ «وكيع» ، وهو مشهور ، بقوله : وكيع بن الجرّاح الرؤاسى!!

ثم أضاف فى «سفيان» فقال : هو سفيان بن سعيد الثورى ، وكان ينبغى أن يؤيد هذا بمصدر من مصادر الحديث .

٢٣ - وجاء فى الصفحة ٤٣ :

«حدَّثنا عبد الله (أقول هو ابن أبى الدنيا) قال : حدَّثنى «محمد» قال : . . . . .

أقول : و«محمد» هذا هو ابن الحسين صاحب ابن أبى الدنيا الذى عرَّف به المحقق مرّاتٍ عدّة .

٢٤ - وجاء فى الصفحة ٤٤ :

«حدَّثنا عبد الله قال : حدثنا محمد بن الحسين قال : حدّثنا الحميدى ، عن «سفيان» . . . . .

وعلَّق المحقق على «سفيان» فقال : هو سفيان بن عيينة ، ولم يثبت مصدرًا يؤيد ما ذهب إليه .

أقول : قد يُحمَل المرء على الشك فى هذا الذى ذهب إليه المحقق ؛ لأن «سفيان» قد يكون سفيان بن سعيد الثورى ، والمصدر الحسن يقطع هذا الشكّ .

٢٥ - وجاء فى الصفحة ٤٥ :

«من قَصَرَ أمله هان عليه عيشه» .

أقول : والصواب : قَصُرَ مثل كَرُمَ .

٢٦ - وجاء فى الصفحة ٥٠ :

«أخبرنا سفيان الثورى عن زبيد الإيامي . . . .

أقول : وهو اليامي كما أفاد المحقق ، وهو زبيد بن الحارث أبو عبد الرحمن . . . . مات سنة ١٢٢هـ وهو اليامى أيضًا . انظر : الأنساب ٣٩٥/١ (ط . بيروت ١٩٨٠) .

٢٧ - وجاء فى الصفحة ٥١ الحديث :

«أما تعلمون أن ليس بين الجنّة والنار منزلة؟ وأنكم صائرون إلى أحدهما (كذا)» .

أقول : وفى «إحياء علوم الدين ٦٦٣/٤» : إحداهما ، وهو الصواب ، وكذلك فى «إتحاف السادة المتقين ٢٤١/١٠» ، وكان على المحقق إثباتُ الصواب .

٢٨ - وجاء فى الصفحة ٥٣ :

« . . . . . أنشدنا أبو بكر بن على قوله :

أقول : لَعلّه : أبو بكر أحمد بن على بن ثابت الخطيب البغدادى . . .

٢٩ - وجاء فى الصفحة ٥٥ :

« . . . . فأعطوه إداواتهم (والإداوة إناء صغير يحمل فيه الماء) فجاءهم بماء ، فناوله بعضهم رغيفًا ، فأخذه ، فقام غير بعيد فأكله ، ثم غطّى رأسه فنام ، فزوّله (كذا) صاحب الرغيف ، وكانوا قد طعموا ، فعمد إلى رغيفين . . . . . .» .

أقول : وقد غم الفعل «زوّله» على المحقق فقال : إما أن تكون بمعنى فارقه ، أو أنها من «الزول» وهو الفطن . . . . .

وليس لنا أن نوافق المحقق على ذلك ؛ لأنه ربما كان هذا «فتناوله» . . . .

٣٠ - وجاء فى الصفحة ٥٨ فى تتمة قول سابق :

« . . . . . فالعجب كل العجب لمن لا يصدّق بدار الحيوان . . . .» .

وقد شرح المحقق «الحيوان» فقال : هو الحياة الحقيقية .

أقول : وليس للمحقق أن يجعل «الحيوان» الحياة الحقيقية ؛ بل إنه مصدر مثل «الحياة» ، والفعل حَيىَ يحيا . وكأن المحقق أراد «الحيوان» فى قوله تعالى :

﴿وإن الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون﴾ ٦٤ سورة العنكبوت .

٣١ - وجاء فى الصفحة ٦١ :

« . . . . أم على مَلَك الموت تجترؤون (كذا)»؟ .

أقول : وصواب رسم الهمزة «تجترئون» .

٣٢ - جاء فى الصفحة ٦٤ :

«وكونوا من الله على حذر ، ومن لقائه على عَتاد» .

أقول : وقال المحقق فى «عَتاد» : أى زاد .

أقول : وليس كما قال المحقق : و«العَتاد» هو العُدّة التى يُعدّها الرجل ليومه وغده فقد تكون زادًا كما تكون سلاحًا أو شيئًا آخر .

٣٣ - وجاء فى الصفحة ٦٥ :

«هل فيهم مغبوط بشىء .... أم هل منهم ظاعن بشىء معه ، أم هل منهم مردود منهم ...» .

أقول : إن النحويين على حق فى نقد لغة المحدِّثين وتساهلهم بالعربية ؛ فالصواب :

أفيهم مغبوط بشىء أم منهم ظاعن ..... أم منهم مردود ....

٣٤ - وجاء فى الصفحة ٦٨ :

«حدثنا عبد الله (أى ابن أبى الدنيا) قال : حدّثنى محمد بن الحسين قال : حدَّثنى محمد بن سلام الجمحى قال : سمعت الربيع بن عبد الرحمن يقول .....» .

وعلق المحقق : ويعرف بالربيع بن بُرّة ....

وقال ابن الجوزى : زعم بعض نقلة الحديث أن الربيع بن بُرّة أسند عن الحسن (البصرى) وذكر له حديثًا .

وإنما الربيع المذكور فى ذلك الحديث هو الربيع بن صبيح ، وأما ابن برّة فلا نعلم له مسندًا .

انظر حلية الأولياء ٢٩٦/٦ ، صفة الصفوة ٣٥٢/٣ .

٣٥ - وجاء فى الصفحة ٦٩ :

«كان فى تيم الله شيخ متعبّد يجتمع إليه فتيان الحىّ ونُسّاكهم ....» .

وعلّق المحقق فقال : تيم الله اسم قبيلة .

أقول : هذا معروف للدارسين فى التاريخ والرجال ، وكنت أطمح أن يذهب إلى أصل العربية فيقول : «تيم» بمعنى «عبد» ، وتيم الله هو عبد الله أبو قبيلة لدى العرب .

٣٦ – وجاء فى الصفحة ٧٣ فى شرح ألفاظ للمحقق :

الجَذَل : الفَرَح ، بنات الدهر : صروفه . تنتضل : تستبق .

أقول : والدارسون للحديث الشريف والأدب القديم يدركون هذا الذى يقدّم للشُّداة .

٣٧ – وجاء فى الصفحة ٧٤ شرح «القصّار» للمحقق فقال :

القصّار هو الصبّاغ .

أقول : قد يقوم «الصبّاغ» بـ «قَصْر» الثياب ؛ ذلك أن مهنة «الصبّاغ» هى «الصِّباغة» ، وأما «قَصْر» الثياب فهو تبييضها بالغسل والصابون ، وهو بعض عمل الصبّاغ .

٣٨ – وجاء فى الصفحة ٧٦ :

« . . . حدّثنا حَنَش بن الحارث عن أبيه قال : إن كان الرجل تُنْتِج فَرَسُه . . . .» .

أقول : والصواب : «تُنْتَج» بالبناء للمفعول ومعناها الدلالة على المفعول مثل : حُمَّ وغُمَّ وأُسقِطَ وغيرها .

٣٩ – وجاء فى هذه الصفحة في تتمة هذا الكلام : فجاءنا كتاب عمر ، أن أصلحوا ما رزقكم الله ؛ فإن فى الأمر تنفّسًا . . . .» .

أقول : هذا ما رواه الإمام البخارى فى الأدب المفرد ص ١٦٨ .

وأود أن أشير إلى كلمة «التنفّس» التى تعنى هنا شيئًا من الراحة ، وأذكر أن الفرصة التى كانت تعطى للتلاميذ قبل سنين طويلة بين حصص الدرس كنا ندعوها «تنفُّسًا» .

٤٠ – وجاء فى الصفحة ٧٧ :

«كان مصعب بن عبد الله الزبيرىّ رُبّما تمثّل بهذه الأبيات :

تعلّقتَ بآمـــالٍ طوالٍ أى آمـــالِ وأقبلتَ على الدنيا ملحاً . . . .
فيا هذا تجهَّز لفراق الأهل والمال فلا بدَّ من الموت على حال من الحالِ

أقول : كأن المحقق لا يدرك الشعر القديم ، ولكنه جرىء يتصدّى لنشر الكتب القديمة . إن هذا الشعر أربعة أبيات من بحر الهزج جعلها المحقق بيتين ، ولم يشعر بذلك ؛ وهى :

تعلّقتَ بآمالِ طوال أى آمالِ
وأقبلت على الدنيا مُلحّاً أىَّ سئّالِ

أقول : وترك فى آخر هذا البيت الثانى فراغا وقال : الكلمة ممحوّة ولا تظهر حروفها ، وهى من غير شكّ كما اجتهدتُ أنا :

فيا هذا تجهَّز لفراقِ الأهل والمالِ
فلا بدَّ من الموت على حالٍ من الحالِ

وتقطيع كلٍّ من هذه الأبيات :

مَفاعِيلُنْ مَفاعِيلُنْ مَفاعِيلُنْ مَفاعِيلُنْ

أقول : هذه صنعة صاحبى فى التحقيق وأمانته على صون التراث الإسلامى .

٤١ – وجاء فى الصفحة ٧٨ فى كلام لداود الطائى أحد الزُّهّاد قولُه :

«واعلم أن أهل الدنيا جميعًا من أهل القبور ، إنما يندمون على ما يُخلّفون ، ويفرحون بما يُقدّمون ، مما عليه أهل القبور ندموا أهلُ الدنيا عليه يقتتلون» .

أقول : وكان يحسن بالمحقق أن يفصل بشولة (،) بين الفعل «ندموا» وبين «أهل الدنيا» ليتبين القارئ المعنى المطلوب .

٤٢ – وجاء فى الصفحة ٧٩ فى كلام لأبان بن سُلَيم الصورى :

« . . . . وإنما نصرت حديدًا باردًا» .

وقد علّق المحقق فقال : الكلمات الواردة فى هذا السطر غير منقوطة فى الأصل . . . .

أقول : كان عليه أن يثبت الأصل الصحيح ، وهو معروف : وإنما ضربتَ حديدًا باردًا» ، وليس «نصرتَ» ، ولا معنى للنصرة هنا .

٤٣ - وجاء فى الصفحة ٨٠ البيت من قصيدة فى أربعة عشر بيتًا هو :

لو رأى المـــرء عـــينيـــه يومًـــا كـيـف صـول الآجــال بالآجـالِ

تتناهى وقـصَّـر الخطوَ فى اللهـو ولـم يغـــــتَــــــرَّ بدار الزوالِ

أقول : والصواب الذى يقتضيه الوزن ، وهو بحر الخفيف : ولم يَغْتَرِرْ

٤٤ - وجاء فى هذه القصيدة فى الصفحة ٨١ .

ثم لا ترعوى وقد أعذرَ الله بطول البقا والإمهال

أقول : والصواب : بطول البقاء .

وفى سائر أبيات هذه القصيدة سوء فى رسم الكلمات مما يشير إلى أن المحقق لا يدرك الوزن .

٤٥ - وجاء البيت الأول فى هذه الصفحة :

فـإذا الـسـاعـة الخـفـيـة حُـمَّت لم يكن عَـثْـر عـاثرٍ بمُـقـالِ

وقد شرح المحقق «مُقال» فقال : متجاوز عنه .

أقول : وهذا غير صحيح ، ولا أظن أن شُداة طلاّب العربية لا يعرفون العبارة : أقالَ العثرة .

٤٦ - وجاء فى هذه الصفحة قول لمحمد بن أبى توبة :

«أقام معروف الصلاة ثم قال لى : تقدَّمْ . فقلت : إنّى إن صلَّيتُ بكم هذه الصلاة ، لم أُصلِّ بكم غيرها» .

أقول : و«معروف» هو معروف الكرخى أحد الزهّاد المتصوفين ، وهو معروف مشهور .

وقد علّق ابن الجوزى فى «صفة الصفوة» فقال : وذلك أن معروفًا كان لايؤمّ ، إنما يؤذّن ويقيم ، ويقدّم غيره .

وعلّق المحقق على الجملة الثانية فقال : سياق الجملة يقتضى أن يكون : لن أصلّى . . . .

أقول : من أين جاء المحقق بهذا العلم النحوى ، وكلام القائل صحيح لا شبهة فيه .

ثم تحولّت إلى الباب الثانى من هذا الكتاب وهو فى «المبادرة فى العمل» فأقول :

٤٧ - وجاء فى الصفحة ٨٩ :

« .... حدّثنا شعبة عن سعيد الجُرَيرى قال : ....»

أقول : والنسبة إلى جُرَير بن عبّاد من أهل البصرة . انظر الأنساب ٢٤٤/٣ - ٢٤٦

٤٨ - وجاء فى الصفحة ٩٥ :

«إن النبىّ ﷺ خطب عند مُغيربان الشمس فقال : ...» .

أقول : وردت «مغيربان» فى مسند الإمام أحمد ١٩/٣ ، وهى «مغربان» فى المستدرك للحاكم ....

والصوابِ ما فى مسند الإمام أحمد ، والتصغير هنا مع الألف والنون يشير إلى قُرب المغرب .

٤٩ - وجاء فى الصفحة ٩٧ :

« ...... حدّثنا أبو خيثمة ، حدّثنا وكيع .....» .

أقول : وقد عرَّف هنا المحقق بـ «وكيع» ، وكان قد مرّ قبل هذا الموضع غير مرّة ولم يحفز المحقق فيُعرِّف به .

٥٠ - وجاء فى الصفحة ١١٧ فى كلام لعون بن عبد الله :

«اليوم المضمار وغدًا السباق ، والسَّبَقة الجنّة ، والغاية النار» .

أقول : هو «السَّبَق» بفتحتين ، وهو ما يُجعل من المال رهنًا على المسابقة .

٥١ - وجاء فى الصفحة ١٢٣ مقطوعة شعرية لسابق البربرى فرأى المحقق أن يُعرِّف به ولكنه زاد فى تعريفه وأشار إلى أنه صاحب القصيدة التى فيها :

لسان الفتى نصف ونصف فؤاده   فلم يبق إلا صورة اللحم والدم

وقال : انظر الوافى للصفدى ٦٩/١٥ .

أقول : وليس البيت لـ «سابق البربرى» ؛ وهو لزهير بن أبى سلمى ، وهو من مطولته المشهورة ، وفى ديوانه ، وكتب المطوّلات (المعلقات) وغيرها[١] .

٥٢ - وجاء فى الصفحة ١٣١ البيتان :

صحح نفسك حتى ينجح العمل ‏ ‏ ما دام معترضًا فى شأوك المهل

أرسلت فى طول فاسدٍ ديدنك ‏ ‏ من قل أن لا يرسل الطول؟؟

أقول : إن عامّة ما ورد من شعر فى الكتاب قد أخلّ به المحقق فليس مِن وزنٍ ، والعربيةُ مهمَلة فى كلماتها ونحوها وصرفها ، وهذان البيتان بعض النماذج الرديئة .

ومثل هذا فى الصفحة ١٣٢ وفى الصفحة ١٣٥ والصفحة ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٤٧ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٨٧ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ، ٢٠٥ .

٥٣ - وجاء فى الصفحة ١٩٦ البيت :

بَنَوا مقاصير فى الدنيا مشيّدة ‏ ‏ فمن لهم بخلود فى المقاصير

وقد علق المحقق فقال :

لا أعرف أن القصر يجمع على مقاصير ؛ بل ذكر صاحب القاموس المحيط أن المقاصر والمقاصير هى العشاء الآخرة . ومقاصير الطريق : نواحيها .

قلت : رأيت أن أختم هذا الفصل بهذه الفائدة الأخيرة التى تضحك الثَّكْلَى لأبسط أن الجرأة من سمات عصرنا ، فنسأل الله العافية .

المصادر

١ - ابن أبى الدنيا ، كتاب الرقة والبكاء ، ط . دار ابن حزم ببيروت . كتاب آداب الصمت ، ط . السلفية .

---

(١) أقول : إذا قصّر محقق الجزء الخامس عشر لكتاب «الوافى» وهو أعجمى ألمانى لايعرف شذور العربية حين وجد فى الأصل المخطوط لهذا الجزء من الوافى أن البيت : (لسان الفتى . . . . منسوب لسابق البربرى ، ومعه البيت التالى : «وكائن ترى من صامت لكَ معجب . . أقول : إذا حصل هذا فى المخطوطة ، والخطأ من الناسخ ، كان على المحقق العالم المستشرق أن يدرك الخطأ ويعلّق ويصحّح فى تعليقه مشيراً إلى أن البيتين من مطوّلة زهير .
وإذا كان هذا الخطأ الذى وقع فيه المستشرق ، فهل يجوز أن يتبعه صاحبنا المحقق الحريص على التاريخ والتراث وهو محمد خير رمضان يوسف؟؟

٢ – ابن الجوزى ، صفة الصفوة ، ط . مصر .

العلل المتناهية ، ط . مصر .

٣ – ابن السمعانى ، الأنساب ، ط . بيروت ١٩٨٠ .

٤ – الأصفهانى ، حلية الأولياء ، ط . مصر .

٥ – أحمد بن حنبل ، المسند ، ط ، مصر .

٦ – البخارى ، الإمام ، الأدب المفرد ، ط . مصر .

٧ – الخطيب البغدادى تاريخ بغداد ، ط . المكتبة العربية ببغداد .

٨ – الذهبى ، ميزان الاعتدال ، ط . مصر .

٩ – الرازى ، أبو حاتم ، الجرح والتعديل ، ط . مصر .

١٠ – الصفدى ، الوافى ، ط . المعهد الألمانى ببيروت .



المَشوف المُعلَم

فى

ترتيب «الإصلاح» على حروف المعجم

لأبى البقاء عبدالله بن الحسين العكبرىّ الحنبلىّ



المَشوف المُعلَم

فى

ترتيب «الإصلاح» على حروف المعجم[١]

لأبى البقاء عبدالله بن الحسين العكبرىّ الحنبلىّ

(٥٣٨ - ٦١٦هـ)

تحقيق : ياسين محمد السوّاس

أقول : بدأ الأستاذ المحقق كلامه في الصفحة الخامسة فأثبت قبل أن يبدأ كلمة «المقدمة» .

لقد توقّفت فى هذه الكلمة فرأيت أن أقول : إنها مولّد جديد قَبِله أهل العلم وفات الكثير منهم أنها من الكلمة الأعجمية Introduction .

قلت : لقد درج أهلُ الدرس على «المقدمة» وليس مِن ضَيْرٍ فى استعمالها . غير أنى أجدها فى هذا الكتاب السابع والعشرين من سلسلة «التراث الإسلامى» فى منشورات جامعة أم القرى فأقول : كان الأَوْلى أن نعود إلى التراث الإسلامى فنستعمل كلمة «خطبة الكتاب» ؛ تلك التى درج عليها أهل العلم فى «التراث الإسلامى» .

وأعود ثانية إلى «المقدمة» لأقول ليس من بأس أن يكون لنا هذا «الجديد المولّد» .

قال المحقق :

* وبعدُ ، فإن كتاب «إصلاح المنطق» لابن السكيت[٢] المتوفى سنة ٢٤٦هـ من أوائل كتب اللغة ....[٣] .

---

(١) من منشورات جامعة أم القرى (مركز البحث العلمى ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م (جزآن) .

(٢) انظر ترجمته فى : طبقات النحويين للزبيدى ص ٢١١ وفهرست ابن النديم ٧٢/١ وتاريخ بغداد ٢٧٣/١٤ ووفيات الأعيان ٤٣٩/٥ ......

(٣) أقول : لابد من الإشارة إلى أن المراد بـ «المنطق» هو العربية فى ألفاظها واستعمالها فى القول والكتابة . وأن المراد بـ «إصلاح» هو التصحيح أو إثبات الصواب الذى يعرض له الخطأ فى كلام المعربين وكتابتهم . ومن المفيد الإشارة إلى أن بناء «أفعَلَ» فى عربيتنا الفصيحة أكثر وروداً من «فَعَّلَ» المضاعَف ؛ فكانوا لايقولون «صَلَّح» كما نقول فى عصرنا بل ذهبوا إلى «أصلَحَ» .

أقول : ولغة التنزيل تشير إلى غَلَبَة «أفعَلَ» على «فَعَّلَ» .

وعرض المحقق فى «مقدّمته» هذه لأقوال المتقدمين فى كتاب «إصلاح المنطق» واهتمام الدارسين القدماء به .

ثم عرض المحقق لكون «إصلاح المنطق» على شهرته وإكبار أهل العلم فيه ؛ من كتب «الاختصارات» ؛ فهو موجز مضطرب . ومن أجل ذلك تصدّى له أهل العلم فشرحوه وهذّبوه . . . .

ومن هذه المصنَّفات الكتاب الذى تناوله الأستاذ السواس بالتحقيق وهو «المَشوف المعلَم» الذى أخلُصُ إليه فى «وقفاتى» فى هذا الدرس .

غير أنى أبدأ قولى فأقول : إن المحقِّق قد أنجز تحقيقه على خير وجه ؛ فزوّد الكتاب بفوائد سنيّة . ثم إن «الكتاب» يُنشَر أوّل مرّة ، ومن شأن كل ما ينشر أوّل مرة أن ينال المحقق فى عمله الجزاء الأوفى كفاءَ ما تحمَّل مِن عناءٍ فى الإفادة من الأصول المخطوطة .

أقول : ما زلت فى «مقدمة» الأستاذ المحقق ؛ فأجده فى الصفحة ١١ يبسط ترجمة لأبى البقاء العكبرىّ مصنِّف الكتاب ؛ فيقول :

١ - حياته وسيرته .

وأنا أقول : لا يعرف أهل الدرس القديم كلمة «حياة» ؛ بل إنها جديد مولَّدة مأخوذة من فرنسية «vie» أو إنكليزية «Life» . ولم يكن لدينا فى أساليب أهل «الطبقات» وكتب «الرجال» إلا «السيرة» . غير أن المحقق جمعهما هنا ولا وَجْهَ لهذا الجمع .

أقول : و«السيرة» هى الكلمة التى عرفناها فكان لنا سيرة الرسول الكريم ﷺ وكان لنا كتاب «المغازى والسير» للواقدى ، و«سير أعلام النبلاء» للذهبىّ ، وغير هذا كثير .

وأقول : لايحسن أن يدخل المولَّد الجديد فى كتب «التراث» مع شيوع «حياة» المنقولة من اللغات الأعجمية فى عصرنا .

٢ - وجاء فى هذه الصفحة الكلام على «عُكبَرا» المدينة التى ذكرها ياقوت فى «معجم البلدان» . أقول : والذى ذكره ياقوت كافٍ ، وليس بنا حاجة أن نزيد على «عُكبرا» بما أفاده المحقق من مجلة «الأقلام» العراقية (تموز ١٩٦٥) .

إن مجلة «الأقلام» لايمكن أن تكون مصدرًا لدرسٍ قديم يتصل بـ «التراث» . وكنت أطمح أن يفطن المحقق إلى هذا الاسم وهو من الأسماء الآرامية التى شاعت فى أسماء الحواضر فى العراق القديم وبلاد الشام ومنها : حيفا ويافا وكثير غير هذا . وهذه الأسماء قد خُتمت بالألف علامة للتعريف في آخر الأسماء الآرامية .

ولكن المحقق لم يفطن لهذا ، وأنا لا آخُذ عليه هذه المسألة اللغوية التاريخية . ثم إن ما أثبته المحقق منقولاً عن مجلة الأقلام زيادةٌ لاضرورة لها .

٣ - ثم أثبت المحقق مَن نُسب إلى عكبرا من العلماء ، وقد أفاد هذا من «مجلة الأقلام» ، وكان يحسن به أن يفيد من ياقوت فى «معجم البلدان» ، وفى «معجم الأدباء» .

٤ - وجاء فى ترجمته هذه فى الصفحة ١٣ ، وهو يعرض لشيوخه ؛ أن ذَكَر فى حواشيه : «سير النبلاء» وهو يعود إلى هذا الكتاب مخطوطاً قبل أن ينشر فى «دار الرسالة» . والاسم الكامل هو «سير أعلام النبلاء» الذى ورد لدى المحقق فى بعض صفحات الكتاب .

كما أثبت فى الصفحة ١٤ : «مختصر الدبيثى» .

أقول : وهو «المختصر المحتاج إليه» الذى حقّقه مصطفى جواد فى جزأين ونشر فى بغداد ، وكأنه اختصر كتابًا له أوسع منه .

٥ - وجاء فى الصفحة ١٦ :

قال ابن الفوطى« نقلاً عن ياقوت . . . . .

ومصدر المحقق فى هذا «مجلة الأقلام»!

أقول : ألم يعرف السيد المحقق أن مجلة الأقلام العراقية مجلة الأحداث الشبّان ذوى الثقافة الحديثة وأصحاب ما يسمَّى اليوم : «الحداثة»؟!

٦ - وجاء فى الصفحة ١٧ كلام المحقق على «شعر العكبرى» .

لقد جعل المحقق صاحبه العكبرى شاعرًا واستدل على ذلك بخمسة أبيات بعيدة كل البعد عن أن يكون قائلها شاعرًا .

أقول : وقد درج المحققون وهم يحقِّقون كتابًا قديمًا على أن يكون لهم حماسة عارمة فى إطراء المؤلِّفينَ الأقدَمِينَ فيعطوهم ما ليس لهم . وفى هذا بُعْدٌ عما ندعوه فى عصرن : «الموضوعية» .

٧ – وجاء فى الصفحة ٢٦ فى صنعة المؤلف فى الكتاب فقال :

أدرك المصنِّف (العكبرى) أن مَن سبقه إلى تلخيص الكتاب أو تهذيبه أو شرح أبياته لم يتمكنوا من تذليل الصعاب كلِّها التى تعترض سبيلَ الانتفاع به ؛ فانبرى هو إلى ترتيبه على حروف المعجم جامعًا موادّه إلى بعضها .....

أقول : وكأن المؤلف قد أصلح مما كان فى الكتاب من سوء الترتيب ؛ فكان له جَمْعُ شوارده لتزدوج مفترقاتُ فرائده . وعبارةُ المحقق : «إنه جمع موادّه إلى بعضها» قاصرةٌ ؛ والصواب : إنه جمع موادّه بعضها إلى بعض . إن إفراد «بعضها» لُغةٌ معاصرةٌ بعَيدةٌ عن فهم كلمة «بعض» فى العربية ، وتكرارُها شىءٌ يلزمه المعنى فى هذا السياق . قال تعالى :

﴿وإذا خَلا بعضُهم إلى بعضٍ قالوا ......﴾ ٧٦ سورة البقرة .

﴿ولولا دَفْعُ اللهِ الناسَ بعضَهم ببعضٍ لَّفسدتِ الأرضُ﴾ ٢٥١ سورة البقرة .

وتكرارُ «بعض» فى لغة التنزيل العزيز كثيرٌ يقتضيه السياق .

وقد تَرِدُ دون تكرار وهو شىء يقتضيه المعنى ؛ كقوله تعالى :

﴿قُلْ عَسَى أن يكون رَدِفَ لكم بعضُ الذى تَستعجلون﴾ ٧٢ سورة النمل .

أقول : ودلالة «بعض» على الواحد ، وهى تدل على الجمع عند تكرارها كقوله تعالى : ﴿وإن الظالمين بعضُهم أولياءُ بعض﴾ ١٩ سورة الجاثية .

أقول : ودلالتها على الجمع فى هذه الآية غير محكومة بتكرارها ؛ بل إن معنى الجمع فيها وفى غيرها من آيات واضحٌ بيِّن .

وقد أفضتُ قليلاً فى بيان دلالة «بعض» على الجمع لأقول : إنها أكثر ورودًا من دلالتها على المفرد بخلاف ما ذهب إليه مصطفى جواد ـ رحمه الله ـ فى كتابه «قل ولا تقل» . إن دلالة بعض على المفرد نتحقّقها فى لغة التنزيل فى قوله تعالى :

﴿ولو نزّلناه على بعض الأعجمِينَ* فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمِنينَ﴾ ١٩٨ – ١٩٩ سورة الشعراء .

٨ – وجاء في الصفحة ٢٧ قول المحقق :

«وقد سار في «ترتيبه» على طريقة ابن فارس في كتاب المجمل ؛ أي تبعًا للحرف الأبجديّ الأوّل . . . .» .

أقول : أراد المحقق بقوله : «تبعًا للحرف الأبجديّ الأول» أن يقول : تبعًا لحروف المعجم المرتَّب ترتيبًا هجائيًاً (أ ب ت ث . . . . . .) ، وهذا الترتيب هو غير الأبجديّ (أبجد هوّزَ حُطى . . . . . .) .

٩ – وجاء في الصفحة ٢٩ قول المحقق :

وفي «المشوف المعلم» عبارات لانجدها في «إصلاح المنطق» المطبوع .

أقول : وهذا يعني أن في المطبوع نقصًا عرفه العكبرى في بعض نسخ «إصلاح المنطق» . وأضاف المحقق فقال :

وفي المقابل نجد بعض المواد والعبارات التي وردت في «الإصلاح» ولم ترد في «كتاب المشوف» .

أقول : وأراد المحقق بقوله : «وفي المقابل» أن يقول : ويقابل هذا . . . . .

١٠ – وجاء في الصفحة ٣٠ قولُ المحقق :

« . . . . . وإن كان لايكاد يصرِّح دائمًا بمصادر أخذه» .

أقول : وقد أراد أن يقول «وإن كان (ابن السيرافي) لم يصرِّح دائمًا . . . . ولا معنى للفعل «يكاد» ، المعروف في دلالته على المقاربة ، أن يكون هنا .

١١ – وجاء في الصفحة ٣١ قول المحقق :

«وفي حواشي الكتاب عدد من التصويبات . . . .»

أقول : أراد المحقق بـ «التصويبات» التصحيح . وهذا استعمال جديد لانعرفه في العربية ؛ وذلك لأن «التصويب» بمعنى الحكم بصواب ما يُقال أو يُكتب ؛ تقول : أبدى صاحبي رأيه فصوَّبتُه ؛ أي حكمتُ بصواب ما أبداه .

وأتحوّل بعد «مقدّمة» المحقق إلى الكتاب فأجد فى أوّل الصفحة ٤٩ :

١٠ - أَبَرتُ النخلَ وأَ أْبُرُه أَبْراً .....» .

أقول : وكان ينبغى أن يكون : وآبُرُه .....

والمدّ هنا مطلوب ابتعادًا من ثقل اجتماع همزتين ، وهذا هو الفاشى فى العربية . وكان ينبغى أن يفيد المحقق مما ورد فى الصفحة ٥٠ فقد ورد فيها : أَبَّلَ الرجلُ فهو مُؤَبِّل ، وآبَلَ فهو مُؤْبِل . أقول : ولم يذكر المؤلف «أَ أْبَلَ» كما جاء فى الصفحة ٤٩ أَ أْبَرَ .

١١ - وجاء فى الصفحة ٥٠ قول خفاف بن ندبة :

جلاها الصَّيْقلون فأَخْلَصوها خفافًا كلّها يَتَقِى بأَثْرِ

أقول : ورد الفعل تَقَى يَتْقِى مثل رَمَى يَرْمِى ، والبيت قَديمٌ ومما يُستشهد به على أنه شاهد حجّة . ومثله قول عبد الله بن همام السلولى ؛ وهو شاعر إسلامى أدرك زمان معاوية يخاطب النعمان بن بشير :

زيادَتنا نعمانُ لا تنسيَنّها تَقِ اللهَ فينا والكتابَ الذى تتلو

وأقول : أصل الفعل «وَقَى يقى» وذهاب الواو لعِلّة صوتية في بناء هذا الفعل «افتَعَل» ، وذوبها فى المصدر فى «تقاة» و«تَقوى» و«تقيّة» ذهب أهل اللغة إلى ما أسموه : «توهُّم أصالة التاء» كالتاء فى «التُّكلان» وفى الفعل «تَخِذ» ، وكان من هذا بابٌ مِن سعة العربية[1] ، والشواهد كثيرة .

على أنى أقول : إن فتح التاء فى «يَتَقى» في بيت خفاف بن ندبة شيءٌ اقتضاه الوزن .

١٢ - وجاء فى الحاشية ٤ فى الصفحة ٥٤ بيت الطمحان القينى :

متى ما يسوء (كذا) ظنّ امرئٍ بصديقه يُصدِّقْ بلاغاتٍ يَجِئْه يقينُها

(١) لقد كان لى قبل سنين طويلة أن استوفيت باب ما دُعى بـ «توهّم الأصالة» فى المعجم القديم فكان لى منه كتاب برأسه ما زال مخطوطاً . أقول : ولهذه العربية سعة لا أعرفها فى عامّة ما نسمّيه اللغات السامية ولا فى أىّ لغة أخرى . وصحّ فيها قول الإمام الشافعى فى «الرسالة» : «ولايُحيط بالعربية إلا نبىّ» .

أقول : لو قرأ المحقق الفاضل الفعل «يسوء» الذى حقه الجزم لأنه شرط وأداة الشرط «متى» لكان ينبغى أن يكون رسم الفعل بغير الواو فيكون «يَسُؤْ» ، وهو الصواب وبذلك يستقيم الوزن .

ثم إن الشاعر ارتكب الضرورة فجاء بالفعل «يَجِئْه» مجزومًا ، وليس مِن جازمٍ ولا سببٍ للجزم ، وقد يَعرض مثلُ هذا للشاعر القديم .

١٣ - وجاء فى الصفحة ٥٨ قول العكبرىّ فى شرحه «لإصلاح المنطق» :

أد و : أداله(كذا) ودَأى يأدوا (كذا) أدْواً : خَتَلَه ؛ قال الشاعر :

أدَوتُ لـه لآخـذه فـهـيـهـات الفـتى حَـذُرا

أقول : ضاعت دلالة الفعل «أدا» بسبب سوء الرسم «أداله» الذى حوَّل الفعل إلى متعدٍّ والهاء مفعول به ، وليس هذا فالصواب أن الفعل «أدا» قاصر يصل إلى مدخوله باللام «أدا له» .

ثم جاء من سوء الرسم «يأدوا» وكأنه فعل أسند لجماعة الذكور حُذفت نونه ؛ وذلك بدلالة الألف «يأدوا» . وكان ينبغى أن يفطن صاحبى إلى هذه «اللطائف اللغوية» ؛ لأن الكتاب الذى اضطلع بتحقيقه كتابُ لغةٍ قَديمٌ .

وأقول : إن مقلوب الفعل «أدا» هو «دأا» وليس «دأى» كما أثبت المحقق ، والفعل واوىّ لا يائىّ .

١٤ - وجاء فى الصفحة ٥٩ :

«ورجل أُذانيّ : عظيم الأُذنَيْن ، وكَبْش آذَن ونعجة أَذْناء . . .» .

أقول : وبناء «فُعال» من أبنية الصفة ، والياء فيه زيادة للمبالغة مثل «الرُّؤاسىّ» للعظيم الرأس . وقد فرَّقت العربية في البناء لِما يَعقل ولِما لا يَعقل .

١٥ - وجاء فى الصفحة ٦٢ قول العكبرىّ :

«وأرِضَت القَرْحةُ تأرَض أرَضًا إذا مَجلَت (كذا) وتَمَشَّت وتَفَشَّت ، أى اتَّسَعَت» .

١٦ - وجاء فى الصفحة ٦٤ قول المصنِّف :

«والصَّفَرُ فيما زعموا : حيّة تكون فى البطن ، وتَعَضّ على الشُّرسوف إذا جاع صاحبها ، ولا تسكن حتى يشبع» .

أقول : هذا مما توهّمه العرب وتخيّلوه من فوائدهم الطبية ، وهو شىء لم يَنَلْ موافقة أهل العلم . ويدلّ على هذا قول المصنف : «فيما زعموا» ، والزعم ينصرف فى الأغلب إلى ما يبعد عن الصدق والحقيقة ، ومن هذا قولُ جرير :

زَعَم الفرزدقُ أن سَيَقتُل مِربَعًا أَبْشِرْ بطُول سلامةٍ يا مِرْبَعُ

١٧ - وجاء فى الصفحة ٦٥ :

والأَرَبون والأُرْبان : لغة فى العُرْبان والعَرَبون .

١٨ - وجاء فى الصفحة ٦٦ :

«الأَزْل : الضيق والحَبْس . وأزَلوا مالهم يأزِلونه : حبسوه» .

أقول : و«المال» فى الأدب القديم هو الإبل وغيرها كالبقر والغَنَم .

١٩ - وجاء فيها أيضًا :

«آزيته : حاذيته ، ولا يقال : وازَيتُه» .

أقول : والفعل الذى قال عنه المؤلف : «لا يقال» هو الشائع فى الألسن الدارجة ، وقد أجراه العامّة بمعنى أن يضطَرّوا أحدًا من الناس على قول شىء أو عمل لا يرضاه .

٢٠ - وجاء فى الصفحة ٦٩ :

«وأَسْد شَنوءةَ ، بالسين ، والزاى لُغيَّة» .

أقول : والذى نعرفه أن المشهور المعروف هو «الأَزْد» بالزاى للقبيلة المعروفة وفيها «أزْد شنوءة وأزْد عُمان» بالزاى . وإذا ورد هذا بالسين فهو لُغَيّة . وأظن أن كلمة «الزاى» قَبْلُ «لُغَيّة» فى نصّ الكتاب من زيادات النُّساخ ، وهذا معروفٌ مَشهورٌ كما بيّنت . وكان خليقًا بصاحبى المحقق أن يدرك هذا .

٢١ - وجاء فى الصفحة ٧٢ قول المصنِّف :

«يقال : رجلٌ أَفَقيٌ ، بفتح الهمزة والفاء ، إذا نَسَبتَه إلى الآفاق ، وأُفُقيّ ، بضمّهما» .

أقول : وفى هذا غَلَبة النسبة إلى المفرد ، وقد تأتى النسبة إلى الجمع .

وفى قوله : «أفَقيّ» بفتح الهمزة والفاء ، فائدة لطيفة ، هى مَيْلُ العرب إلى الفتح وإتباعه بفتح بعده «أَفَقيّ» ، والأصل «أُفق» بضمّ الهمزة .

وأضيف : أن المعاصرين ولّدوا «الأَفّاق» على «فَعّال» وصرفوه إلى النَّبْز .

٢٢ - وجاء فى الصفحة ١٠١ قول المصنِّف :

«بَرَأ من المرض ، وبَرِئ من الدَّين .... يَبْرَأ فى كليهما ، وكل فعلٍ آخِره حرفُ حَلْق فمستقبله يفعَل ، بفتح العين .

ولى أن أضيف أن ما كان عينه حرف حلق فمستقبله فى الأغلب يفعَل كذلك بفتح العين . ومن هذا : بأَرَ يبأَر وقَحَل يقحَلُ وغيرهما . ويندرج فى هذا ما كان على فعِلَ يفعلُ مثل سَئِمَ يسأم ، وما جاء على فَعَلَ يفعَلُ نحو شَغَرَ يشغَرُ .

٢٣ - وجاء فى الصفحة ١٢٠ قول المصنِّف :

«بينهما بَون بعيد ، أى تفاوت وقد بانَه يبونه بَونًا ، والياء لغة ؛ يقال : بانَه يَبينه بَيْنًا ، وبينهما بَيْنٌ بعيد» .

أقول : قول المصنف : بانَه يَبونه بَوْناً ، وبانَه يَبينه بَيْنًا» مما لم نجده فيما وصل إلينا من كلام العرب شعرًا أو نثرًا ، ولو كان شىء من هذا لأمسَك به المصنِّف .

وليس لنا قبول ما يصنعه اللغويون فى أمثلتهم ، شأنهم فى ذلك شأن النحويين الذين وضعوا قوالبهم مؤلّفة مِن الفعل «ضَرَب» ومِن زيد وعمرو وهند .....

والذى أراه أن الأصل فى «البَوْن والبَيْن» هو الظرف «بَيْن» وأصله للمكان ؛ كما فى قولك مثلاً : دار زيد بين دار عمرو ودار هِندٍ . ثم اتُّسع فيه فذهبوا به إلى الزمان ؛ كقولك : موعدنا بين الساعة الخامسة والسادسة .

أقول : ومن هذا الظرف المكانى ذُهب إلى معنى البعد والفِراق ؛ فإذا أردنا الخاصَّ من المعنى ذهبنا إلى الواو فأردنا المسافة فقلنا : البون بعيد .

٢٤ - وجاء فيها أيضًا قوله فى قولهم :

«حيّاك الله وبيّاك» : بيّاك : اعتمدك بالتحيّة .

أقول : كأنّى أرى أن أصل «بيّاك» مِن «بَوّأك» ، وقد صاروا إلى الياء للتناسب مع الفعل الذى يسبقه وهو «حيّاك» . وهذه الأقوال التى سارت سيرورة الأمثال يحسن فيها التناسبُ كما يحسن السَّجْعُ .

٢٥ - وجاء فى الصفحة ١٢١ قول المصنف :

«البيت : من البيوت ، ويقال : ما عنده بَيتُ ليلة وبَيتةُ ليلة ومبيت ، أى قوت ليلة .....» .

أقول : ومن «البيت» المكان أخذ المعربون الأقدمون الفعل «باتَ يبيت» . وقد أمدَّ المكانُ والزمانُ العربيةَ بطائفةٍ مِن الأبنية ؛ فكثرت الفوائد ؛ فكان لدى المعرب القديم سعة فى القول .

٢٦ - وجاء فى الصفحة ١٢٢ قول المصنف :

«يقال : كلّمته فما ردّ علىَّ بيضاء ولاسوداء ، أى كلمة حسنة ولا رديّة» .

أقول : والصواب : ولا رديئة .

وقد جاء هذا بسبب أن النسّاخ طوال العصور كانوا يتخففون من الهمز فلا يرسمون الهمزة وقد يذهبون إلى الألف والواو والياء . وكان ينبغى أن يتنبّه إلى هذا المحقِّقُ .

٢٧ - وجاء فى الصفحة ١٢٣ قوله أيضًا :

«ثوب مبيع ومبيوع ، وأكثر ما جاء من ذوات الياء محذوفًا ....» .

أقول : وهذا يعنى أن بناء «مبيوع» ليس عاميّاً دارجًا ، وأرى أن المعربين قد ذهبوا إلى الإيجاز فى الصيغة التى أحسوا فيها كثرة الأصوات .

وإنى لأذهب إلى هذا ؛ لأَصِلَ إلى أن ما ذهب إليه الصرفيون مُصْطَنَعٌ مُفتعَلٌ . قال الصرفيّون : إن فى «مبيوع» جاءت الياء متحركة ، وهى ضعيفة لا تتحمّل الحركة ؛ فنقلت حركتها وهى الضمّة إلى الصحيح الساكن قبلها وهو الباء ؛ فالتقى ساكنان ؛ فحذفت الواو ، ثم أبدِلت ضمّة الباء كسرةً لتناسب الياء بعدها .

أقول : هذا قَوْلُ مَن لا يعرف حقيقةَ الأصوات ؛ فالياء ليست ضعيفة ، ثم هى كيف تكون ساكنة بعد نقل الضمة المزعومة ، ثم كيف يلتقى ساكنان .

إن الياء فى «مبيوع» صوت صامت كالباء Consonne ، والواو فى «مبيوع» صوت صائت طويل Voyelle وهو ضمٌّ ممطول كما ذهب إليه ابن جنى فى «سرّ صناعة الإعراب» و«الخصائص» .

وعلى هذا فقد جهل الصرفيون عِلْمَ الأصوات الذى أقرّه العِلْمُ .

أقول : ومثل هذا يقال فى : طعام مَكيل ومكيول ، وثوب مَخيط ومخيوط .

٢٨ - وجاء فى الصفحة ١٤٠ قول المصنِّف :

«ثاخت رجله فى الوَحْل تثوخ وتثيخ» .

أقول : الثاء فى «ثاخت» على البدل ، والأصل «ساخت» بالسين ، وقد جاء هذا فى المعجم القديم ، ولم تَرِدْ صيغةُ الفعل بالثاء .

٢٩ - وجاء فى الصفحة ١٥٧ قوله :

«ومما تقوله العرب عن ألسنة البهائم .....» .

أقول : والصواب : على ألسنة البهائم .

٣٠ - وجاء فى الصفحة ١٥٨ قوله :

«وفى مَثَل : «وعند جُفَينة الخبر اليقين» وهو اسم خمّار ، ولا يقال جُهَينة» .

أقول : وهو يرد «جفينة وجهينة» فى كتب الأمثال والمعجمات (جفن ، جهن) .

٣١ - وجاء فى الصفحة ١٦٢ قوله :

«وجَلَّد الجزور : أخذ عنها جلدها ، ولا يقال : سَلَخها» .

أقول : يقال : سَلَخ الشاة والجدى وغيرها كما يقال «جَلَّد» ، والتضعيف فى اللام فى هذا الفعل للسَّلْب ؛ مثل : «قَشَّر» و«مَرَّض» ونحوهما .

٣٢ – وجاء فى الصفحة ١٧٥ قوله :

«واليَلْمعىّ : الحاذق بالأمور الفطن» .

أقول : وهو الألمعىّ أيضًا .

٣٣ – وجاء فى الصفحة ١٨٦ قول المصنِّف :

«أجد لهذا الطعام حراوة من الفُلفُل وأشباهه ، ولا يقال : حرارة» .

أقول : وهذا المنع لاستعمال حرارة لم أجده فى كتب اللغة .

٣٤ – وجاء فى الصفحة ١٩٥ قوله :

«ورجلٌ حَشٍ ، إذا أصابه الحَشَى وهو الرَّبو» .

أقول : والأصل واوىّ ويائيّ : حشا يحشو ، وحَشِيَ يحشَى .

٣٥ – وجاء فى الصفحة ٢٣١ البيت

ألم تعلمى يا أُمَّ عَمرةَ أنّني   تخطّانى رَيبُ الزمان لأكْبَرَا

أقول : وتمام الوزن يقتضى هَمْزَ «تَخَطَّأَنِى» .

٣٦ – وجاء في الصفحة ٢٣٦ :

«خَرْص النخل ، بفتح الخاء وكسرها : حَزْرُ ثمرها» .

أقول : والصواب : تمرها .

٣٧ – وجاء فى الصفحة ٢٧٧ قوله :

«ورجلٌ داءٌ ، أى به داءٌ» .

أقول : وهو داءٍ ، منقوص مثل راءٍ .

٣٨ – وجاء فى الصفحة ٣٤٩ :

«زأَرَ يَزْئِر زَأْرًا وزئيرًا» .

٣٩ – وجاء فى الصفحة ٤١٠ قوله :

«رجل شايك فى السلاح وشاكٍ» .

أقول : والصواب : شائك . . . . . .

٤٠ - وجاء فى الصفحة ٤٣٧ البيت :

فإن يعذرِ القلبُ العشيّة فى الصبا فـؤادك لايعـذرك فيـه الأقـايمُ

أقول : هو «الأقائم» بالهمز الذى رسمه الناسخ ياءً .

٤١ - وجاء فى الصفحة ٤٤١ قول المصنف :

«يقال : أَلْفٌ صَتْم ومُصْتَم أى تامٌّ» .

أقول : وهو ألف مُصْمَت ، وهذا هو الأصل ، وأمّا «مُصْتَم» فعلى البَدَل .

٤١ - وجاء فى الصفحة ٥٥١ :

«غَلِت فى الحساب» .

أقول : وهذا من لطائف العربية أن المعربين خَصُّوا الفعلَ وهو بالتاء لما يَعرض فى الحساب مِن خطأ ، وجعلوا «غَلِط» بالطاء لما يكون فى الكلام .

٤٢ - وجاء فى الصفحة ٥٥٢ :

«والعَمَمُ أن يسيل الشَّعَر حتى تضيق الجبهة والقفا . . . .» .

أقول : هو «الغَمم» بالغين ، ولعلّ هذا غَلَطٌ مطْبَعِىّ .

ثم إن القول : «أن يسيل الشعر» صوابه : أن «يُسْبَل» بالباء ، ولا وجه لـ «يسيل» .

٤٣ - وجاء فى هذه الصفحة أيضًا قول هُدبة بن الخشرم فى أوّل أربعة أبيات :

«فـأوصيكِ إنْ فارقتِنا أمّ معـمـر وبعض الوصايا في أماكنَ تنفعا»

أقـول : فى هذا البـيت إقـواء فى قـول هدبة «تنفعـا» ، والوجـه «تنفعُ» بالرفع ، إذ لا ناصبَ ولاجازمَ ، ولكن الشاعر القديم ولا سيما الجاهلىّ يعرض له الإقواءُ وغيره مِن «العِلَلَ» .

٤٤ - وجاء البيت الثالث :

ضَـروبًا بلَحـيَـيْـه على عظم زَوره إذا القـوم هَشّوا للفِـعـال تَقَنَّعـا

أقول : والصواب : للفَعال بفتح الفاء وهو فِعْلُ الخير ، وهو مَصْدَرٌ صُرف إلى هذا المعنى الخاصّ ، وليس «الفِعال» بكسر الفاء الذى قد يكون جمعًا لـ «فِعلة» ، ولا مكانَ لهذا فى البيت .

٤٥ – وجاء فى الصفحة ٥٥٨ :

«وهى مَغيثة ومَغيوثة» .

أقول : لقد مرّ بنا قول المؤلف فى «مَبيع ومبيوع» ، وقد قلت فى ذلك ما ينبغى أن يُقال مثلُه هنا .

خاتمة :

أقول : وهذا الكتاب من الكتب ذات الفوائد العالية ؛ ذلك أنه يبسط شيئًا من عربية تاريخية . والكتاب على أنه شرح وإيضاح لـ «إصلاح المنطق» قد يَسَّر ما كان غَيْرَ واضحٍ من الأصل .

فهرس المصادر والمراجع

١ – أساس البلاغة للزمخشرى ، تحقيق عبد الرحيم محمود ، القاهرة ١٩٥٣ .

٢ – إصلاح المنطق لابن السكيت ، تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون ١٩٤٩ .

٣ – الأعلام للزركلى ، طبعة رابعة ، بيروت ١٩٧٩ .

٤ – بغية الوعاة للسيوطى ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة ١٩٦٥ .

٥ – تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ، القاهرة ١٩٣١ .

٦ – جمهرة اللغة لابن دريد ، حيدر أباد الدكن ١٣٤٤ .

٧ – سير أعلام النبلاء للذهبى ، تحقيق شعيب الأرناؤوط وآخرين معه ، بيروت ١٩٨١ وما بعدها .

٨ – المختصر المحتاج إليه لابن الدبيثى ، تحقيق مصطفى جواد .

مع «ياقوت»
فى
«معجماته»



مع «ياقوت» فى «معجماته»

أقول : غلب ياقوت هذا على سائر من عُرف بهذا الاسم مِن «المملوكين» ؛ فليس لى أن أخصّصه تعريفًا به بـ «الحموى» أو «الرومى» أو البغدادى[1] . ولا أريد أن أَعرض لسيرته التي حررها محقِّقو «معجم البلدان» وسائر كتبه . وفى مقالة : «دائرة المعارف الإسلامية» بطبعاتها الإنكليزية والألمانية والفرنسية فائدةٌ جليلةٌ . ولكنى سأَعرض لِما كان لى فى «معجماته» التى بدا لى أن شيئًا مِن هذا لم ينله الدارسون .

وكأن الدارسين عامّة ولا أستثنى منهم مَن اضطلع بنشر كتبه ؛ قد أدْرَكوا إدراكًا كافيًا الصلةَ الوثيقةَ بين معجماته وهى : معجم البلدان ، ومعجم الأدباء ، ومعجم الشعراء الذى أشار إليه كثيرًا فى معجمَيْه الأول والثانى ، ولم يصل إلينا غير ما وقفنا عليه فى «إشاراته» و«إحالاته»[2] .

وقد يكون لى أن أقرِّر أن هذه المعجمات نسيج متحد ؛ التحم سداه بلحمته ؛ فأنت تلمح أو تتبيّن وشيجةَ رحِمٍ بين كلٍّ منها بعضها مع بعض .

ولى أن أذهب في هذا فأقول : إن هذه «المعجمات» الثلاثة من مصادر الأدب ، وأريد بـ «الأدب» دلالته العامّة لدى القدماء . إنه يتجاوز الشعر والنثر والخطابة إلى

---

(١) أقول : قد عرف الأندلسيون «ياقوت» وكانت شهرته لديهم «البغدادى» كثيرة ، وهم فى هذا قد جروا على ما كثر وروده من بغداد فقالوا : أبو على البغدادى ، وهو «القالى» صاحب «الأمالى» . ولابد أن أبسط فى هذه الحاشية موجزًا أفدته من الزركلى فى «الأعلام» وغيره ولا سيما مما بسطه الأستاذ إحسان عباس فى مقدمته الفائقة لـ «معجم الأدباء» فى نشرته الأخيرة :

أقول : هو ياقوت ابن الرومى الذى جُعل «عبد الله الحموى ، أبو عبد الله شهاب الدين» ، وهو مؤرخ أديب من أشهر من كتب فى «البلدان» . لقد جيء به مملوكاً فابتاعه ببغداد أحد التجّار وهو عسكر بن أبى نصر بن إبراهيم الحموى ، وقد لحقته شهرة صاحبه هذا فعرف بـ «ياقوت الحمويّ» . لقد ربّاه هذا التاجر وهو طفل ابن خمس سنوات وعلّمه ثم استعمله فى مصالحه التجارية التى اقتضته السفر فى البلاد ، ثم أعتقه سنة ٥٩٦هـ . لقد عاش ياقوت ورّاقًا يتجر بالكتب ويتكسب بنساختها . وقد عاد إليه مولاه وعطف عليه فأعطاه شيئًا من المال واستخدمه فى تجارته ، ومضى فى عمله إلى أن توفى «عسكر» فاستقل بعمله بعد ذلك . لقد رحل رحلة طويلة إلى مرو فى خراسان وأقام فيها يتّجر ، ثم انتقل إلى خوارزم . واتفق ، وهو فى خوارزم ، أن خرج التتر سنة ٦١٦هـ ، فهرب منهم مخافة أن يلحقه ظلمهم تاركاً ما يملك ، ونزل الموصل ، ثم رحل إلى حلب ، وهو معوز مكدود إلى أن توفى سنة ٦٢٦هـ . ومصنفاته معروفة بسطها كثير من الدارسين ، وقد ترجم له ابن خلكان وغيره .

(٢) وأنا أومئ بهذا إلى ما أفاده الأستاذ المجتهد إحسان عباس من كون ياقوت قد اعتمد فى «معجم البلدان» على «كتاب الأنساب» لابن السمعانى ، وهو قد سبق أن أفاد أن ياقوت فى عمله هذا غير مسبوق به ؛ فقد أبدعه وأتى بما هو جديد . وليس لنا أن نسلّم بهذا كما سنرى .

مَعارِفَ أخرى مِن الصرف والنحو واللغة والأخبار والأنساب والتاريخ وما يتصل بسلوك الناس وعاداتهم وطرائق تفكيرهم . وأنت واجد هذا وغيره فى هذه «المعجمات» ، كما أنك تجد نحوًا من هذا وغيره فى المطوّلات من المعاجم كلسان العرب وغيره .

لقد أدرك هذا المستشرقُ الروسيُّ الذى صنَّف كتابه الشهير فوسمه بـ «الأدب الجغرافى» ، وأشار فيه إلى أن العرب عرفوا هذا التوجّه «الموسوعى» فى عصورهم القديمة . وقد تَعجَب أن تجد الكتب التعليمية فى عصرنا قد ذهب أصحابُها إلى أن «كتب البلدان» هى كتب جغرافية . وقد يكون لى أن أبتئس بهذا الوصف وهو «الجغرافى» ؛ لأن ذلك يحجب معارف جمّة أوعبها أصحابُها فى هذه المصادر .

أقول : لقد غاب عن أهل الدرس أن ياقوت وغيره من أصحاب المعجمات والمطوّلات أهلُ أَدَبٍ ونَقْدٍ ، فأنت تجد فى هذه المعجمات رأياً نقديّاً يتجاوز حدود «البلاغة» وما يكون من أجناسها وضروبها . ومن المفيد أن أبسط قدرًا من مواد «معجم البلدان» لأَتبيّن المادة الأدبية فى سعتها التى تتجاوز ما نعرفه ، وأبدأ بما أجده فى :

«آبة»[1] قال : مِن قُرَى أصفهان ، وقيل : مِن قُرى ساوة .

أقول : هذا كل ما ذكره من فائدة بلدانية ، ولكنّه أضاف : وأهل آبة شِيعة ، وأهل ساوة سُنِّيَة ، لا تزال الحروبُ بين البلدين قائمةً على المذهب .

قال أبو طاهر ابن سِلَفة : أنشدَنى القاضى أبو نصر أحمد بن العلاء الميمنديّ بأهَرَ ، من مدن إذرَبيجان ، لنفسه :

وقــائلةٍ أَتُبـــغِضُ أهلَ آبَهْ ... وهم أعـــلام نظم والكتـــابهْ؟
فــقلتُ : إليكِ عنّى إن مِــثلي ... يُعــادي كلَّ مَن عــادَ الصــحابهْ

أقول : فأنا أرى أن هذا الذى بسطه ياقوت فى هذه «البليدة» يعطى الدارسَ صورة واضحةً عن أهل أصفهان وتوزّعهم بين سُنّةٍ وشيعة . ثم إننا نجد أن الأدب القديم يقدِّم للمؤرخ مادة مفيدة تتجاوز مادة الخبر التأريخى .

(١) أقول : سأفيد في استقرائى هذا مما ورد فى «معجم البلدان» (ط . صادر) على حروف المعجم ؛ فليس من حاجة إلى بيان الجزء والصفحة .

وأتحوّل إلى موضع آخر هو «آسَك» .

أقول : وكأن الاسم «معجم البلدان» أثبته ياقوت على التغليب ؛ ذلك أن «آسك» هو موضع ذكره أهل المواضع والأمكنة فى مصنفاتهم . وقد أشار ياقوت إلى كثير منهم فذكر الأصمعى من المتقدمين صاحب ما أثر عن كتابه «جزيرة العرب» أو «بلاد العرب» ، وذكر بعده الأصفهانى كما ذكر غَيْرَ هذا كالزمخشرى مثلاً ؛ فليس لنا أن نقول كما قال أحدُ الدارسين : إن معجم ياقوت فى البلدان غَيْرُ مَسبوقٍ ، ولو أنه قال إن سعة ما فى هذا المعجم من مواضع وبلدان وآثار وفوائد لايضاهيها ما فى غيره .

وأعود إلى «آسَك» فأجد قول ياقوت :

موضع قرب أرّجان . . . .

ثم قال : وهى بلدة ذات نخيل ومياه ، وفيها إيوان عالٍ فى صحراء على عينٍ غزيرةٍ وَبيئةٍ ، وبإزاء الإيوان قبّة منيفة ينيف سمكها على مئة ذراع بناها الملك قباذ والد أنوشروان .

أقول : فى هذا فائدة «جغرافية» تاريخية ، ولكنه يجد أن الفائدة تضطره إلى أن يبسط ما أفاد من المصادر التاريخية فيقول :

حدَّث أهلُ السِّيَر قالوا : كان أبو بلال مِرداس بن أُدَيَّة ، وهو أحد أئمة الخوارج ، قد قال لأصحابه : قد كَرِهتُ المُقام بين ظِهْرانَي أهل البصرة ، والاحتمال لجور عبيد الله بن زياد ، وعزمتُ على مفارقةِ البصرة ، والمقامِ بحيث لايجرى عليّ حكمه من غير أن أشهر سيفًا أو أقاتل أحدًا ؛ فخرج فى أربعينَ من الخوارج ، حتى نزل آسَك ، موضعًا بين رامهرمز وأرّجان ، فمرَّ به مالٌ يُحمَل إلى ابن زياد من فارسَ ، فغَصَبَ ما عليه ، حتى أخذ منهم بقدر أُعطيات جماعته ، وأفرج عن الباقى . فقال له أصحابه : عَلامَ تفرج عن الباقى؟ فقال : إنّهم يُصلّون ، ومَن صلّى إلى القِبلة لا أُشاقُّه .

وبلغ ذلك ابنَ زياد ، فأنفذ إليه معبد بن أسلم الكلابى . . .

أقول : وكانت الموقعة بينهما ، واستطاع الخوارج ، وهم أربعون ، أن يغلبوا جيش ابن زياد ؛ فقال فى ذلك عيسى بن فاتك الخطّى أحد بنى تيم الله بْن ثعلبة فى كلمة له :

فلَمّـا أصـبحـوا صلَّوا وصـامـوا　　إلى الجـرد العـتـاق مُـسـوّمـينا

وجاء فيها :

أ أَلفـا مُـؤمنٍ فـيـمـا زَعَـمْـتُمْ　　ولـكنّ الخَـــوارجَ مـــؤمنونا

هُمُ الفـئـة القليلة غـيـر شكٍّ　　على الفـئـة الكثـيـرة يُنصَـرونا

وأنت تجد أن الفائدة البلدانية فى هذا الموضع حاشيةٌ موجزة مع هذه السعة الأدبية التاريخية . وإنى لأجد هذه الفوائد الأدبية كانت من موادّه فى «معجم الأدباء» و«معجم الشعراء» .

وأتحوّل إل «آمِد» التى قال فيها ياقوت :

بلد قديم حصين ركين ، مبنىّ بالحجارة السود ، على نَشَز دجلة ، محيطة بأكثره ، مستديرة كالهلال . قال : وأظنها رومية :

يُنسَب إليـهـا الآمـدى أبو القـاسـم الحسن بن بشـر المـتـوفّى سنة ٣٧٠هـ صـاحـب «الموازنة» ، وينسب إليها مِن المتأخرين أبو المكارم محمد بن الحسين الآمدى ، شاعر بغدادى مكثر مجيد ، مدح جمالَ الدين وزير الموصل ، ومِن شعره :

ورَثّ قـمـيص الليل حـتّى كـأنّه　　سليب بأنفـاس الصـبـا مـتـوشّح

ورَفّع منـه الذيل صـــبح كـــأنّه　　وقد لاح مسحٌ أسود الليل أجلح

ولاحت بطيـئـات النجـوم كـأنهـا　　على كبـد الخـضـراء نَورٌ مُـفـتّح

ومات أبو المكارم هذا سنة ٥٥٢ هـ .

أقول : وكـأنى هنا فى هذا المـوضع وغـيـره أتبيّن الصلةَ الوثيـقـةَ بين «معـجـمات» ياقوت .

وإذا كان لنا أن نفيد هذه الفائدة فى «آمد» فإنا لَنجد شيئًا آخر فى «آمل» التى جاء فيها : وقد خرج منها كثير من العلماء ، ولكنهم قلّ ما ينسبون إلى غير طبرستان ، ومنهم أبو جعفر الطبرى صاحِبُ التفسير والتاريخ . وأصله ومولده مِن آمل ؛ ولذلك قال أبو بكر محمد بن العباس الخوارزمى ، وأصله من آمل أيضًا :

بأمل مـــولدي وبنو جـــرير فأخوالي ، ويحكى المَرْءُ خالَهْ
فـــهـــا أنا رافـــضيٌّ عن تراثٍ وغـيـرى رافـضيٌّ عن كـلالَهْ

أقول : وأنت تجد في سعة أدب «معجم البلدان» فوائد جمّة لا حصر لها .

وأذهب إلى «أُباغ» فأجدها فى قول ياقوت :

قرية بعِرْض اليمامة ، وفيها كانت وقعة خالد بن الوليد مع مسيلمة الكذّاب ، قال شبيب بن يزيد بن النعمان بن بشير يفتخر بمقامات أبيه :

أتنسَـون يوم النَّعف نَعْف بُزاخـةٍ ويوم أباض إذ عَـتـا كُلُّ مُـجـرم
ويوم حنينٍ فى مـواطن فـتلةٍ أَفَـأنا لكم فـيـهن أفـضل مَغْنَم

وقال رجل من بنى حنيفة فى يوم أباض :

فللّهِ عـينا مَن رأى مـثل مـعـشرٍ أحـاطت بهم آجـالهم والبـوائقُ
فلم أرَ مثل الجيش جيش محمّدٍ ولا مثلنا يوم احـتـوتنا الحـدائق
أكرَّ وأحـمى من فـريقَيـن جمّعوا وضاقت عليهم فى أباض البوارق

أقول :

وليس لقائلٍ أن يقول : إن ياقوت قد اقـتـفى صاحب «الأنساب» وهو يحرِّر «معجم البلدان» الذى كان له فى درس واسع فى جملة من المصادر القديمة .

قال :

وقرأت بخط أبى الحسن بن الفرات : وسُمِّى آكل المرار ؛ لأنّ امرأته هندًا سباها الحارث بن جبلة الغسانى ، وكان أغار على كِنْدة ، فلما انتهى بها إلى عين أُباغ ، هكذا قال أبو عبيدة (أى بالضم) ، وقال الأصمعى : أَباغ بالفتح . . . . . .

ثم أورد أبياتًا .

وفى «عين أباغ» يوم بين ملوك غسان ، ملوك الشام ، وملوك لخم ، ملوك الحيرة . قتل فيه المنذر بن المنذر بن امرئ القيس اللخمى . . . .

وقد يكون لنا أن نتبيّن فى «معجم البلدان» غلبة العروبة والعربية حين نجد العرب شعوبًا وقبائلَ قد تفسحوا فى البلاد البعيدة عن ديارهم فكانت مواطن لهم ؛ فأنت تجد حين تقرأ فى «معجم البلدان» «أَبَرْ شْتَويم» وهو من جبال «البُذ» من أرض موقان من نواحى إذرَبيجان ، أنها المكان الذى أوَى إليه بابك الخرّمي ، وأن أبا تمّام الشاعرَ قد مدح أبا سعيد محمد بن يوسف الثغرى فقال :

وفي أَبْرَ شْتَويمَ وهَضْبتَيْها طلعتَ على الخلافة بالسعود

قلت : إن هذه المعجمات صنعةُ حاذقٍ ماهرٍ جمع بين أجزائها فكان فيها ما يشدّ سداها إلى لحمتها من الفوائد . وقد نجد إشاراتٍ فى بعضها إلى بعضها الآخر .

ولك أن تنظر فى «إسْبيل» وهو حصن بأقصى اليمن ، وقيل : حصن وراء النُّجَير ، وقيل : جبل فى مخلاف ذمار . . . .

وقد جاء فيه فيما ذكره ياقوت :

حدَّث مسلم بن جُندَب الهذليّ قال : إني لَمع محمد بن عبد الله النميري ثم الثقفي بنعمان ، وغلام يشتدّ خلفه يشتمه أقبح شتم ، فقلت له : مَن هذا؟ فقال : الحجاج بن يوسف ، دعْه فإني ذكرت أخته في شعري ، فأحفَظَه ذلك ، فلما بلغ الحجاجُ ما بلغ ، هرب منه إلى اليمن ، ولم يجسر على المقام بها فعبر البحر ، وقال :

أتتنى عن الحجاجِ والبحرُ دوننا عَقاربُ تسرى ، والعيون هواجعُ

والقصيدة فى عشرة أبيات . . . .

وأضاف ياقوت : وكان عاقبة أمره أن عبد الملك بن مروان أجاره مِن الحجاج فى قصّةٍ فيها طولٌ ذكرتُها فى كتاب «معجم الشعراء» بتمامها .

وجاء فى «شأم» من «معجم البلدان» :

. . . .

وقال جبلة بن الأيهم ، وهو ببلاد الروم بعد أن تنصّر أنفةً من غير أن يقتنص في قصة فيها طول فذكرتها فى أخبار حسان من «كتاب الشعراء» .

وجاء فى «عسكر مكرم» :

وقد نُسب إليها قوم من أهل العِلْم منهم العسكريّ أبو أحمد الحسن بن عبد الله ، وقد ذكرت أخباره فى «كتاب الأدباء» .

وقد يكون لنا أن نعد كتاب «المشترك وضعًا والمفترق صُنعًا» شيئًا يسيرًا من «معجم البلدان» .

* ولنتجاوز هذا العملَ الكبيرَ الفائقَ وهو «معجم البلدان» إلى ما بَقِىَ مِن «معجماته» ، ولنقف على «معجم الأدباء» فأقول :

جاء فى هذا الكتاب[١] : أنه اختار له اسم «إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب» ، ولكنه (أى ياقوت) دعاه «معجم الأدباء»[٢] كما دعاه «أخبار الأدباء»[٣] ، و«كتاب الأدباء»[٤] . وهو «أخبار النحويين»[٥] .

وقد سمّاه ابن الشعّار «معجم أئمة الأدب»[٦] .

أقول : وقال الزركلى فى «الأعلام»[٧] : وفى النسخة المطبوعة (أراد طبعة دار المأمون بتحقيق أحمد فريد رفاعى) استدرك بتراجم ملفّقة دُسَّت فيه .

وقد وجدت فى «كشف الظنون» أنه «إرشاد الألبّاء إلى معرفة الأدباء» وكأنه أفاده مما ورد فى «وفَيَات الأعيان» لابن خلكان .

وقد استدرك الأستاذ إحسان عباس ثلاثَ تراجم ذكرها فى مقدمته للكتاب أفادها من «الوافى» للصفدى ، ومن «فوات الوفيات» لابن شاكر الكتبى وغيرهما .

ولكني لايمكن أن أغفل ما وجده الأستاذ مصطفى جواد ـ رحمه الله ـ من «معجم الأدباء» مما اهتدى إليه فى المخطوطات والمطبوعات ودعاه : «الضائع من معجم

---

(١) معجم الأدباء (ت . إحسان عباس) ١٥/١ ، وكذلك دعاه ابن المستوفى .
(٢) المصدر نفسه ٤٧٦/١ ، وهو بهذا الاسم فى بعض ما ورد فى «معجم البلدان» .
(٣) المصدر نفسه ٥٠٨/١ .
(٤) المصدر نفسه ٦١٢/١ .
(٥) المصدر نفسه ٧٢١/١ . أقول : وقوله : «أخبار النحويين» يشير إلى أن مصطلح النحويين لدى المصنفين الأقدمين يندرج فى «الأدباء» ؛ ولذلك جعل الأنبارى كتابه فى النحويين «نزهة الألبّاء فى طبقات الأدباء» .
(٦) قلائد الجمان ٣٤٠/٩ .
(٧) الأعلام للزركلى . أقول : والطبعة الأولى للكتاب باسم «إرشاد الأريب .....» وهى ما اعتنى بها مرجليوث فى مطبعة هندية فى القاهرة ١٩٠٩ - ١٩١٦ في سبعة أجزاء .

الأدباء» ، ونشره في مجلّد من مجلّدات المجمع العلمى العراقي . وهذه تراجم كثيرة تؤلف جزءاً وافيًا من الكتاب .

وقد رأى الأستاذ إحسان عباس هذا الذى استدركه مصطفى جواد ، ولم يشر إليه في درسه الجادّ فى مقدمته . غير أني وجدته يذكره فى آخر صفحة من الجزء السابع الذى صرفه إلى «المقدمة» والفهارس ، وهذه الصفحة باللغة الإنكليزية . ولكنى لم أجد فى موادّ الكتاب إشارةً إلى مصطفى جواد .

أقول : كأن الأقدمين قد أدركوا العلم خيرًا منا ؛ فقد عرفنا مما يتصل بـ «تاريخ بغداد» للخطيب أن ابن الديثى قد ذَيَّل على ابن السمعانى الذى استدرك وذيّل على تاريخ الخطيب ، ومثل هذا كثيرٌ لدى الأوائل الذين واصَلوا المسيرة فأكمل بعضُهم واستدرك على ما لم يكن لِمَن سبقه . ومن هذا ما كان للمنذرى في «التكملة» ، وما كان من «طبقات ابن شهبة» وغير هذا .

أقول : لقد كان لي مسيرةٌ مضنيةٌ فى نشرة الأستاذ إحسان عباس كى أتبيّن فيها أين دُسَّت التراجمُ التى كانت فى مستدرك الأستاذ مصطفى جواد ، وكيف اجتهد فيها الأستاذ إحسان ، ولكنى لم أتبين ذلك . ولم يكن لَدَىّ مجلد مجلة المجمع العلمى العراقى ؛ ذلك أنى لم أجده فى مكتبة الجامعة الأُرْدُنّية ، ولا فى مكتبة مجمع اللغة العربية الأردنّى .

وقد أشار أهلُ الدرس إلى أن ياقوت راعَى حروف المعجم فى إثبات التراجم ، ولكنه قدَّم وأخَّر فأخلّ بالترتيب . وقالوا : إن فيه أغلاطًا فى الترتيب ، وأشاروا إلى أنه أورد ترجمة أحمد بن أمية بين ترجمتَيْ أحمد بختيار وأحمد بن بشر . وأورد ترجمة إبراهيم بن مسعود وسط التراجم المختلفة للعَلَم إبراهيم بن محمد[1] .

أقول : وقد يكون هذا من صنعة النسّاخ .

قلت : وقد كان من «مسيرتى» التى أشرتُ إليها أنى وجدت ترجمةً لأبى عمرو عثمان بن سعيد الدانى[2] ، ثم وجدتها ترجمة ثانية للرجل نفسه فى موضع آخر[3] .

(١) انظر مقدمة «معجم الأدباء» ط . دار المأمون .
(٢) معجم الأدباء (ت . إحسان عباس) ١٦٠٣/٤ .
(٣) المصدر السابق ١٦٠٤/٤ .

ومثل هذا قد ترجم لعلى بن حمزة البصرى فى موضعين[١] من الكتاب .

وكنت فى سنين خلت أتابع تراجم الرجال فوجدت صاحب «روضات الجنات» قد أتى بشىء من تراجم الرجال ونَسبَها إلى «معجم الأدباء» ، وكأنه أفاد ذلك من السيوطى فى «بغية الوعاة» .

وفى «فوات الوفيات» و«الوافى» شىءٌ مِن هذا أيضًا .

وكأنى هنا أجدنى مضطرًا إلى الحديث عما عرض من تداخل بين معجم الأدباء ، وما كان من «معجم الشعراء» الذى لم يَصِلْ إلينا .

فقد ذكر ياقوت[٢] فقال : وكنت قد شرعت عند شروعى فى هذا الكتاب أو قبله (أي معجم الأدباء) فى جمع كتاب في أخبار الشعراء المتأخرين والقدماء ، فأودعت ذلك الكتاب كل من غلب عليه الشعر فدُوّن ديوانه فشاع ذِكْره وشأنه ، ولم يشتهر برواية الكتب وتصنيفها .

أقول : ولا أراه قد التزم بهذا ؛ فقد جعل مِن الشعراء نحويين عُرِفوا بالنحو واللغة ، ولكنه استحسن لهم بعضَ ما أُثر عنهم مِن شِعْرٍ ولو كان قليلاً ، وسنرى هذا .

وقد نجد من الشعراء مَن ترجم لهم فى «معجم الشعراء» وأشار إلى هذا فى «معجم الأدباء»[٣] ، ومن هؤلاء محمد بن أميّة وكلثوم بن عمرو العتابى وغيرهما .

وقد تنبّه إلى هذا التداخل الأستاذ إحسان عباس فى «مقدمته» فقال :

ومن المقطوع به أن بعض تراجم «معجم الشعراء» قد اختلطت مع ما نشر من «معجم الأدباء» ؛ ذلك لأن أناسًا لا يُعرفون إلا بالشعر فى عصورٍ لم يكن التأليف فيها شائعًا فى صدر الإسلام وعصر بنى أمية ، ومن هؤلاء : أبو ذؤيب الهذلى ، وأبو زبيد الطائى ، والفرزدق ، ويزيد بن مفرِّغ ، وابن الطثرية ، وابن ميادة ، وشبيب بن البرصاء ، ورؤبة بن العجاج ، وشعراء من المُحدَثين مثل أبى دلامة وحماد عجرد فهؤلاء وأمثالهم يجب ألا يُذكَروا فى معجمٍ للأدباء . بل ربّما ذهبنا إلى ما هو أبعد من ذلك فتوقفنا عند

---

(١) المصدر السابق ١٧٥٤/٤ ، ١٧٥٥/٤ .
(٢) المصدر السابق ص ٨ .
(٣) المصدر السابق ٢٢٠٣ ، ٢٢١٣ .

بعض المذكورين فى «معجم الأدباء» واستنتجنا من بعض الظواهر فى تراجمهم أن ترجماتهم ليست مما كتبه ياقوت[١] .

أقول : وقد بدا لى شىء من هذا وقيّدته فى جذاذات لي[٢] .

غير أن الأستاذ إحسان قد خلص مِن زعمه هذا فأوجز وقال : ولكن دعنا لا نسرف فى التقدير ؛ فإثبات هذا أَمْرٌ عَسِيرٌ .

وأعود إلى «المعجمات الثلاثة» لأقول : إن بينها وشيجةَ رَحِم ؛ فكلُّها عُنيت بالرجال ، وقد يكون لي أن أستدرك قليلاً فأقول : إن ما فى «معجم البلدان» مما يخص العلم «الجغرافى» فى كثير من موادّه حاشيةٌ لا تقدّم فائدة كبيرة ، وكنت قد أشرت إلى هذا فى أوّل هذا الموجز . ولي هنا أن أقف على ما سُمِّى فى «كشف الظنون» : (إرشاد الألباء فى معرفة الأدباء) وقد جاء فى التعريف به : «وفيه ذكر النحاة واللغويين والقرّاء وعلماء الأخبار والأنساب والكتّاب وكلّ صنف فى الأدب» .

وكأنى هنا أقول : إن مواد هذه «المعجمات» ترجع إلى ما أفاده من درسه وقراءة الآثار وهذا يفوق ما أخذه عن شيوخه وأصحابه . وقد أستظهر على هذا بما نعرف من «سيرته» ، وفيها أنه شغل بحاجات مولاه عسكر بن إبراهيم ، وأنه كان يرسله إلى بلدان عدّة . ثم انصرف إلى نسخ الكتب سنة ٥٩٦هـ ، ثم عاد إلى صلته بمولاه كما بيّنا حتى توفى صاحبه . وكأنه استأنف النِّساخة وقراءة الكتب بعد سنة ٦٠٠هـ .

وقد رحل رحلةً واسعةً انتهى فيها إلى مرو فى خراسان وأقام يتّجر ، ثم انتقل إلى خوارزم . لقد عرف فى خزائن مرو : الخزانة العزيزية ، والخزانة الكمالية ، وخزانة نظام الملك محمد بن إسحاق ، وخزانَتَي السمعانيينِ وغيرها .

ثم إنه توارى عند خروج التتر سنة ٦١٦هـ ، ونزل الموصل وعاش معوزًا لا يجد حاجته مِن القُوت ، ثم غادر الموصل إلى حلب .

أقول : كأني أراه لايملك الوقتَ الكثيرَ ليخلص إلى ما ذُكر من شيوخه فيأخذ عنهم

(١) المصدر السابق ص ٢٩٢٠ .

(٢) كان من جذاذتى جملة كبيرة بدا لي وأنا أعتمد على إشارات مفيدة فى «معجم الأدباء» وغيره من المصادر ، أنها من تراجم «معجم الشعراء» ، وهى مودعة فى خزانتى ببغداد التى عزّ عليّ الوصول إليها .

ما رَوَوْه ؛ فكيف يكون له أن يأخذ الكثير من شيوخه وهم :

سالم بن أحمد بن سالم أبو المرجّى الأديب النحوى العروضى[١] .

والوجيه الكبير المبارك بن المبارك الضرير الذي قال عنه ياقوت : هو شيخى الذى به تخرّجت وعليه قرأت . وهو صاحب النحو فى «النظامية . . . .[٢] .

وتاج الدين أبو اليمن الكندى ، زيد بن الحسن من علماء النحو ، وهو شيخ ابن النجّار[٣] .

وأبو البقاء العكبرىّ عبد الله بن الحسين المعروف بالنحو واللغة . . . . .[٤] .

وابن الدبيثى ، محمد بن سعيد ، قال فيه ياقوت : شيخنا الذى استفدنا منه ، وعنه أخذنا ، ذيّل على ذيل ابن السمعانى على تاريخ الخطيب . . . .[٥] .

قال الأستاذ إحسان عباس : سقطت ترجمته من معجم الأدباء .

وأبو المظفر عبد الرحيم بن عبد الكريم السمعانى . . . .[٦] .

وعبد العزيز بن مبارك بن محمود الجنابذى . . . . .[٧] .

والحسن بن أحمد بن يوسف الأوقى[٨] .

ومحمد بن الخضر بن محمد الحرّانى ، ابن تيمية الباجدّى . . .[٩] .

وأما أصحابه وغيرهم ممن اتصل بهم فكثيرون ، ومنهم ابن النجّار ، والقفطى (صاحب الإنباه) .

---

(١) معجم الأدباء ١٣٣٩ .
(٢) سير أعلام النبلاء ٨٨/٢٢ .
(٣) معجم الأدباء ١٣٣٠ ، سير أعلام النبلاء ٣٤/٢٢ .
(٤) معجم الأدباء ١٣٣٠ ، سير أعلام النبلاء ٩١/٢٢ - ٩٢ .
(٥) تاريخ الإسلام للذهبى/ الطبعة الرابعة والعشرون ص ٣٢٠ - ٣٢٢ ، والوافى ٣ /١٠٢ .
(٦) سير أعلام النبلاء ١٠٧/٢٢ .
(٧) معجم البلدان ١٤١/٢ .
(٨) المصدر السابق ٤٠٨/١ .
(٩) المصدر السابق ٤٥٣/١ (باجدا) . وقد أفدت هذا كله من مقدمة الأستاذ إحسان ، ولكنى رجعت إلى مظانها للفائدة .

أقول : ولست أنفى هذه الصلة بأولئك الشيوخ ومَن كان له اتصالٌ بهم مِن أصدقائه ، ولكنى أقول : إن معارفه بالرجال من أهل الأدب ، على سعته فى ذلك العصر ، تجعلنى أذهب إلى ما اختص به من الكتب والإخلاد إلى خزائنها[١] . ثم إن الحقبة التى خلص فيها إلى الدرس بعد أن أعتقه مالِكُه ، وانقطاعِه إلى النِّساخة من أجل كسب قوته ، أقول : كل ذلك يدفعنى إلى القول : إنه لم يعوّل على القليل الذى أتيح له أن يأخذه من شيوخه .

وقد جاء فى «معجم الأدباء» أنه يزور «حلب» ويدق الباب على القاسم بن القاسم الواسطى[٢] ، فيخرج إليه الواسطى ويملى عليه عند باب داره أسماء تصانيفه الكثيرة[٣] .

وإذا كان لنا أن نعرض لتصانيف ياقوت ، غير المعجمات الثلاثة ، نجدها محصول ما كان له من قراءات ، وهى تشير إلى خصوصيته الأدبية بما كان للأدب فى عصره من دلالات .

وكأنى أرى «المبدأ والمآل» من كتبه التاريخية ، الذي لم يصل إلينا ، شيئًا من أخبار الأمم والملوك والدول ، ومثل هذا غيره فى «أخبار الدول» .

وكتاب الأبنية لابد أن يكون ما كان له من قراءات فى كتاب سيبويه والأصول لابن السراج وغيرهما . ومن هذا كتابه «الردّ على ابن جنى فى كتابه سرّ صناعة الإعراب»[٤] .

ولعلّ «أخبار المتنبى» شيء مما قرأه من مصادر المتنبى[٥] ، ولعل شيئًا منه فى «معجميه» .

وقال ياقوت : نقلت عن الأغانى فى كتابى الموسوم بـ «أخبار الشعراء» فأكثرت[٦] .

---

(١) أقول : ويندرج فى هذا «معجم البلدان» الذى حفل بأسماء الرجال من أهل الأدب ومنهم الشعراء . وكأنى أجده وهو يعرض للشعراء وأخبارهم مخالفًا لما عرفناه من كتب المواضع والأمكنة التى اقتصرت على الإشارة للموضع بأشد ما يكون الإيجاز .

(٢) له ترجمة فى «معجم الأدباء» .

(٣) معجم الأدباء ٢٢١٨/٥ .

(٤) ومن هذه الكتب ما اختصره فى النسب الذى أسماه «المقتضب فى النسب» عن «جمهرة» ابن الكلبى ، وما اختصره من «تاريخ بغداد» .

(٥) قلت : كان ياقوت أديبًا فكان أن عرض لفنون الأدب فى عصره فكان من تصانيفه كتاب فى «ضرائر الشعر» .

(٦) معجم الأدباء ص ١٧٠٧ - ١٧٠٨ .

وقد كان لى أن أفدتُ مِن الكتب المطبوعة والمخطوطة ، أيّام الطلب فى باريس فى دار الكتب الوطنية وفى مكتبة مدرسة اللغات الشرقية ، شيئًا كثيرًا من موادّ «معجم الشعراء» ، وأذكر من ذلك ما كان من ذيل ابن الدبيثى وذيل ابن النجار وغيرهما ، وهذا كلّه مما بقى فى خزانتى فى بغداد التى تركتُها وقد غادرت إلى «عالم الضياع» . ولو كان بين يدى ما كان من أوراقى العتيقة لَكان لى الكثير من «معجم الشعراء» .

وأذكر أن شيئًا مما وقفتُ عليه وجدتُه فى «معجم البلدان» غَيْرَ مُشارٍ إليه أنه من مواد «معجم الشعراء» ، وكان من ذلك أن جعلت أغلب ما ورد من الشعراء فى «معجم الأدباء» من المعجم الآخر وإن كان لياقوت بعضُ القيود فى التفريق بين ما يجب أن يكون هنا أو هناك . وقد كان هذا مما اتفق عليه الدارسون الذين اطمأنوا إلى ما كانَ مِن خلطٍ بين المُعجمَيْنِ .

وأقول : إن جمهرةً من مواد معجم البلدان قد جَمعتْ بين الإفادة فى المواضع والبلدان وبين الإفادة الأدبية ، وأنا أميل إلى أن ما فيها من الشعراء ممن عُرفوا بالشعر وممن قلّ لديهم ، ولكن هذا القليل حفز المؤلف إلى أن يضمهم إلى معجمه فى الشعراء .

وسأَعرض لطائفة من هؤلاء ، وأنا أشير إلى «الموضع» الذى جاءوا فيه ؛ فأقول :

آمــد :

بلد حصين ..... على نشز دجلة ....

ينسب إليها [1] الآمدى .... صاحب «الموازنة» .....

أقول : وهذا لا يهمنى ، ولكن الذى يهمنى ما ورد فى قوله :

وينسب إليها من المتأخرين أبو المكارم محمد بن الحسين الآمدى ، شاعر بغداد ، مكثر مجيد ، مدح جمال الدين وزير الموصل ، ومِن شِعره :

وَرَثٌ قميص الليل حتى كأنّه ـــ سليب بأنفاس الصبا متوشّحُ

(ثلاثة أبيات) . مات أبو المكارم هذا سنة ٥٥٢ هـ[2] .

(١) أقول : جُعل «البلد» مؤنثًا ، وهو شىء معروف نجده فى العصور المتأخرة .
(٢) معجم البلدان «آمد» .

أبان :

أبان الأبيض شرقيّ الحاجر فيه نخل وماء لبنى فزارة وعبس . وأبان الأسود . . . .

حدَّث أبو العباس بن يزيد المبرد[١] قال : كان بعضُ الأعراب يقطع الطريق فأخذه والى اليمامة فى عمله فحبسه فحنّ إلى وطنه فقال :

أقــول لبــوّابَىَّ والســجن مُـغلق وقــد لاح برق : مــا الذى تَرَيانِ؟

(خمسة أبيات) .

قلت : وفوائدُ ياقوت فى «مجعم البلدان» كثيرةٌ تذهب فى أشتاتٍ من المعارف ، قال :

و«الأبانى» منسوب إلى «أباتَيْن» ، وأضاف :

وكان مهلهل بن ربيعة أخو كليب ، بعد حرب البسوس ، تنقّل فى القبائل حتى جاور قومًا من مذحج يقال لهم : بنو جَنب ، وهم ستة رجال : منبّه والحارث والعلي وسَيْحان وشِمران وهِفّان ، ويقال لهؤلاء الستة : جَنْب لأنهم جانبوا أخاهم صُداء ، فنزل فيهم مهلهل ، فخطبوا إليه ميّة أخته ، فامتنع فأكرهوه حتى زوّجهم ، فقال :

أنكَحَــهــا فــقــدُها الأراقِمَ في جَنْبٍ وكــان الخِــبــاء من أَدَمِ

(أربعة أبيات)[٢] .

الأبرشية :

موضع منسوب إلى الأبرش :

قال الأحيمر السعدي :

ونُبِّـئْتُ أن الحيّ ســعدًا تخــاذلوا حمــاهم ، وهم ، لو يعصمون ، كثيرُ

(خمسة أبيات)[٣] .

---

(١) أقول : وهذا يشير إلى أن ما كان من المعارف الكثيرة فى معجمات ياقوت يرجع إلى ما كان له من قراءات فى مصادر الأدب .

(٢) معجم البلدان (أبان) .

(٣) معجم البلدان (أبرشية) . أقول : وقد حسب أحد النصارى هذه الكلمة فى هذا البيت من الرموز النصرانية .

الأبرقان :

تثنية الأبرق ، وإذا جاءوا بالأبرقين فى شعرهم فأكثر ما يريدون به أبرق حُجر اليمامة ، وهو منزل على طريق مكة من البصرة . . . .

وقال بعض الأعراب يذكرهما :

أقول وفوق البحر نخشى سفينةً　　　تميل على الأعطاف كل مَميلِ

(خمسة أبيات) .

وقال أعرابىّ من طيّئ :

فسُقْيًا لأيّامٍ مَضَيْنَ مِن الصبا　　　وعَيْشٍ لنا بالأبرَقَيْنِ قصيرِ

(سبعة أبيات) . [١]

أبو قُبيس :

جبل . . . . . .

وقالت امرأة ولها ولدان :

وقد زعموا أنّى جزعتُ عليهما　　　وهل جَزَعٌ إنْ قلتُ وا بأباهما

هما أخوا ، فى الحرب ، مَن لا أخا له　　　إذا خافَ يومًا نَبْوَةً فدعاهما[٢]

أُثول :

موضع فى أرض خوزستان ، له ذِكْر فى الفتوح .

قال سلمى بن القين ، وكان فى جيش أبى موسى الأشعرى لمّا فتح خوزستان :

أُكَلَّف أن أُزيرَ بنى تميمٍ　　　جموعَ الفرس سَيرًا شُوتريًا[٣]

(ثلاثة أبيات) .

---

(١) المصدر السابق (الأبرقان) . أقول : وفى «الأمكنة والمياه والجبال» للزمخشرى : أن «الأبرقان» ماء لبنى جعفر .
(٢) المصدر السابق (أبو قبيس) .
(٣) المصدر السابق (أثول) .

الأُثَيل :

موضع قرب المدينة . . . . وكان النبي ﷺ قتل عنده النضر بن الحارث بن كِلدة عند مُنْصَرَفِه من بدر ، فقالت قتيلة بنت النضر ترثي أباها وتمدح رسول الله ﷺ :

يا راكــــبـــاً إن الأثـيل مَظِنّـة ... من صـبح خـامـسـةٍ وأنت مـوفّقُ

فلمّا سمع النبيُّ ﷺ شِعرها رَقّ لها وقال : لو سمعت شعرها قبل قتله لَوَهبتُه لها .

(تسعة أبيات)[١] .

أجنادَين :

قال ياقوت : وأصحابُ الحديث يقولون : إنه بلفظ التثنية ، ومن المحصّلين مَن يقول : بلفظ الجمع ، وهو موضع بالشام مِن نواحى فلسطين .

أقول : ووقعة أجنادين معروفة فى خبر الفتوح الإسلامية الأولى . . . .

وقال : وانتهى خبر الوقعة إلى هرقل فنُخب قلبه . . . وهرب إلى أنطاكية . . . .

فقال زياد بن حنظلة :

ونحن تركنا أرطبـــونَ مطرَّدًا ... إلى المسجد الأقصى ، وفيه حُسورُ

(ستة أبيات)[٢] .

أُحُد :

وهو الجبل الذى كانت عنده غزوة أُحُد ، وهو جبل أحمر شمالي المدينة . . . .

وورد محمد بن عبد الملك الفقعسي إلى بغداد ، فحَنّ إلى وطنه وذكر أُحُدًا وغيره من نواحى المدينة فقال :

نَفَى النومَ عنّي ، فالفؤادُ كئيبُ ... نَوائبُ هَمٍّ مـــا تَزال تَنوبُ

(عشرة أبيات)[٣] .

---

(١) معجم البلدان (أثيل) .
(٢) المصدر السابق (أجنادين) .
(٣) المصدر السابق (أحد) .

الأحزاب :

حدّث الزبير بن بكار قال : لما وُلّي الحسن بن زيد المدينة ، منع عبد الله بن مسلم ابن جندب الهذليّ أن يؤمّ الناس في مسجد الأحزاب ، فقال له : أصلح اللهُ الأميرَ ، لِمَ منعتَنى مقامي ومقام آبائى؟ قال : ما منعك منه إلاّ يومُ الأربعاء ؛ يريد قوله :

يا للرجال ليوم الأربعاء أما ينفكّ يُحدث لي بعد النهى طَرَبا

(تسعة أبيات)(١) .

وأختم هذا الموجز بما اجتزأتُ به مما هو مِن «معجم الشعراء» وإن لم يشر ياقوت ولكني تيقّنتُ من ذلك بما أفدتُه من المصادر المخطوطة وغيرها مما ادخرته فى خزانتى التى أُقصيتُ عنها . وهذا وغيره ، مما كان فى «معجم الأدباء» وما كان قد أشار إليه فى «معجم البلدان» وقد أشرت إليه فى صفحات سبقت ، يؤلف هذا «المعجم» الذى لم يصل إلينا . وأشير إلى ما أورده ياقوت فى «صنعاء» مما علمت أنه يندرج فيما أنا فيه .

أقول : وقد ورد هذا الأدب فى مادة «أُشَيّ» :

وهو وادٍ باليمامة فيه نخل ..... قال زياد بن منقذ أخو المرّار وهما من تميم :

لاحبّذا أنتِ يا صنعاء مِن بَلَدٍ ولا شَعوبِ هوًى منّي ولا نُقُمُ
وحبّذا حين تمسى الريح باردةً وادي أُشَيٍّ وفتيانٍ به هُضمُ

وهى فى ثلاثة عشر بيتًا وقد ذكرها فى «صنعاء»(٢) .

أقول : وهى مما اختاره أبو تمّام فى «حماسته» .

وجاء فى «صنعاء» أيضًا قولُ أبى محمد اليزيديّ يَمدحها ويفضّلها على غيرها من الحواضر وكان قد دخلها :

قلتُ ، ونفسى جمٌّ تأوُّهُها تصبو إلى أهلها وأندهُها :
سقيًا لصنعاء لا أرى بَلَدًا أوطنه الموطنون يُشبهها

والقصيدة فى ثلاثة عشر بيتًا(٣) .

(١) المصدر السابق (الأحزاب) .
(٢) المصدر السابق (أشيّ) .
(٣) المصدر السابق (صنعاء) .

أقول : وأبو محمد اليزيدىّ هذا هو أحد «اليزيديّين» الذين ترجم لهم أصحابُ «طبقات النحو» ، ومنهم : أبو عبد الله محمد بن أبى محمد اليزيدىّ الذى قيل فيه : إنه كان شاعرًا مجيدًا على كونه عالمًا باللغة[1] .

وقد وجدت أبا محمد اليزيدى الذى ذكره ياقوت فى «صنعاء» فى «الأغانى» يقول :

فى غابر الناس الذين بقوا ... والفُرَّط الماضين إذ سَلَفوا[2]

وله أيضًا فى أخبار سلم الخاسر :

رُبَّ مغموم بعافيةٍ ... غمط النَّعماء من أشَرهْ [3]

وأقول : ولابد أن يكون عدىّ بن زيد الشاعر وعدىّ بن الرقاع وغيرهما ممن لم أجدهم فى كتاب «الأدباء» لياقوت من معجمه الثالث الذى حبسه على «الشعراء» .

(١) انظر : الأنبارى : نزهة الألباء (ط . المنار فى الأردن) ص ١١٨ ، ١٨٢ . أقول : ولأبى محمد اليزيدى أخباره فى «الأغاني» ٢٠/٢٤٠ - ٢٤٨ (تح . على النجدى ناصف) .

(٢) الأغانى ٢٠/٢٣٢ . أقول : «والغابر» فى البيت بمعنى الباقى . وقد وهم فى هذا محقق كتاب «العبر . . .» للذهبى (ط . الكويت) فى إثبات الاسم «العبر فى خبر من غَبَر» والصواب هنا : «فى خبر من عَبَر» أى الذاهب ؛ فقد ذهب ظنه إلى أن «الغابر» هو الماضى ، وهو الشائع فى عربيتنا المعاصرة .

(٣) هذه رواية الأستاذ صبحى البصام المصححة لما ورد فى الأغانى ١٩/٢٦١ - ٢٨٧ وهو

ربَّ مغمومٍ بعاقبةٍ ... غمط النعمة من أشرهْ

مع المرزوقي في «أماليه»[1] و«شرح الحماسة»

قد يكون أصل «الأمالى» ما أملاه الشيخُ على جماعته الذين أخذوا عنه ، وكأن الكلمة جَمْعُ المصدر «إملاء» ولا أراها جمع «أُملية» ؛ ذلك أني لا أجد هذا المفرد فى مصطلحهم القديم . وكأنّ الذى ذهب إلى هذا حملها على نظائرها كقولك فى أمنية وأضحية : أمانى وأضاحى . وإني لأَميلُ إلى أن ما كان من «الأمالى» ليس إلا شيئًا مجموعًا ، وكأني أرى هذا المجموع من علم المرزوقى فى اللغة والنحو والأدب وغير ذلك ، ثم الاختيارات الشعرية الذى رُسم بـ «أمالي المرزوقي» مما جمعه وضمَّ أجزاءه بعضها إلى بعض .

*ولي بعد هذا أن أخلص إلى الكتاب الثاني وهو «المرزوقي شارح الحماسة ناقدًا» فأقول :

لقد عرفت كما عرف أخي علي جواد الطاهر «شرح الحماسة» للتبريزى ، وأفدت منه كما أفاد غيرى حتى إذا كان للأستاذين أحمد أمين وعبد السلام هارون نشر هذا «الشرح للحماسة» للمرزوقي سنة ١٩٥٣ أدركت فوائدَ جديدةً .

وقد يكون من المفيد للقارئ وأنا أبسط ما لدىَّ من كتاب أخى الطاهر «المرزوقي شارح الحماسة ناقدًا» أن أعرض لشىء مما أثبته الأستاذ أحمد أمين ، قال :

«قرأت أوّل عهدي بالأدب «شرح ديوان الحماسة» هذا للتبريزى فلم يعجبنى لأنّ التبريزىّ لغويّ أكثر منه أديبًا وناقدًا ؛ فكنت أقرأ الشرح أحياناً ، وأنا متعطش جدّاً لأفهم معنى بيت فلا أجده لأنّ الشارح انصرف إلى شىء آخر . ثم عثرت على نتف للمرزوقي فرأيتها تسدّ هذا النقص ، ثم قرأتُ شرحه على مشكلات أبى تمّام ، فرأيته إمامًا عظيمًا لايتهرّب من المشاكل ، ولكن يتصدّى لها ، فوددت أنْ لو عُثر على شرحه لديوان الحماسة ونُشر لأنه يكمل نقص التبريزى ، فلما عُثر عليه وجدته فوق ما أتوقّع ، ووجدت له مقدمة فى النقد لم أرَ مثلها فى اللغة العربية ؛ فكم كنا نقرأ فى كتب الأقدمين عن «عمود الشعر» ولانفهم معناها حتى شرحها المرزوقي شرحًا دقيقًا وافيًا ، وكم له من حسنات أخرى غير هذا ؛ فإخراجه للقرّاء يسد ثلمة ويكمل نقصًا .

(١) أمالي المرزوقي فى كتاب حققه الدكتور / يحيى الجبوري ، ونشره الحبيب اللمسى (دار الغرب الإسلامى ، بيروت) .

وقد اشتركتُ فى إخراجه مع الأستاذ المحقق عبد السلام هارون ، والحق يقال إنه كان له حظٌّ فى نشره أكبرُ من حظّى ، فله الشكر على ما بذل من جهد فى إخراج الكتاب ، وفي نسبة ما ورد فى الشرح إلى قائله ، والتعريف بأعلام الشعراء وغيرهم ، وتصحيح ما حصل فيه من خطأ الناسخ ووضع فهارسه الفنية ، فاللّه يجزيه عنّا وعن الأدب خير الجزاء» .

أقول : وقد أثبت الأستاذ علي جواد الطاهر مشاركة أحمد أمين هذه في تحقيق الكتاب وإقراره بما كان من حظّ الأستاذ هارون فيه وأنه أربَى كثيرًا على ما كان منه فاستحقّ الشكر لما قام به وأنجزه .

وإذا كان هذا هو ما أثبته أحمد أمين وإقراره بما كان منه وما كان من الأستاذ هارون أَفَلا يكون هذا مانعًا ألا يذهب أخي ـ رحمه الله ـ فى النّيْلِ من أحمد أمين تلميحًا وتصريحًا ؛ فيقول فى «تمهيده» ص ١٨ :

«صدر الشرح من «لجنة التأليف والترجمة والنشر» التى يرأسها أحمد أمين ، وعن مطبعتها عام ١٣٧١هـ/ ١٩٥١م - ١٣٧٢/ ١٩٥٣ بأربعة أجزاء كتب على غلافها «نشره أحمد أمين (و) عبد السلام هارون . . . . .» ومعروف جيدًا أن الفعل الحقيقى فى التحقيق الجادّ المثمر الدقيق يرجع إلى عبد السلام هارون الذى ورد اسمه ثانيًا . ولم تأتِ المعرفةُ استنتاجًا لما يعلمه الناس مِن بُعد أحمد أمين من عالَم التحقيق ، واستغلاله منصب الرئاسة فى اللجنة ، وإنما اقتربَ الاستنتاج الصحيح بمقدمة قصيرة لأحمد أمين قال فيها :

وقد اشتركت فى إخراجه مع الأستاذ المحقق عبد السلام محمد هارون . . . .

. . . .

أقول : وقد مرَّ قبل أسطر كلام أحمد أمين ، الذى نوّه فيه بفضل الأستاذ هارون . غير أنى أقول أيضًا ألم يشفع هذا الأدب لأحمد أمين فَنَكُفَّ أقلامنا ونكبحها فلا تنال من أهل الفضل؟!

ثم كيف لنا أن ننكر معرفة أحمد أمين فى التحقيق وهو المؤرّخ الذى عرض للخبر التأريخى الإسلامى القديم فى تصانيفه الإسلامية ، وهى تؤلف موسوعة؟ ألم يحقق

«الإمتاع والمؤانسة» مع الأستاذ هارون؟ وإنى لَواثق أن جهده فى هذا الكتاب يعدل جهد الأستاذ هارون إنْ لم يتجاوزه ؛ ذلك أن مادة «الإمتاع والمؤانسة» أدبية تاريخية وهى من خاصٍّ ما يملكه أحمد أمين .

ثم إن الأستاذ أحمد أستاذٌ فى النقد الأدبى فى كلية الآداب من جامعة فؤاد الأول القديمة ، وقد يكون بين الأحياء فى عصرنا مَن أخذوا هذه المادة فى تلك الكلية ، وله فى هذه المادة «كتاب» مطبوع . ولهذا ليس لقائلٍ أن يقول ما قاله أخى الأستاذ الطاهر ــ رحمه الله ــ : إنه بعيد عن التحقيق ، وأهل العلم من المصريين وغيرهم يعرفون هذا .

وليس لنا أن نقبل كلمة «الاستغلال» وإيحاءاتها الحديثة ، وننبز بها الأستاذ أحمد أمين ــ رحمه الله ــ .

وكان أخى الأستاذ الطاهر ـ رحمه الله ـ قد ذكر فى «مقدمته» ص ٧ :

«صدر (أى الكتاب) بأربعة أقسام (أجزاء) مع تصدير أحمد أمين بصفحتين ونصف وتقديم عبد السلام محمد هارون بتسع عشرة صفحة . . . . .

أقول : وقد أشاد الدكتور على جواد الطاهر ـ رحمه الله ـ بجهد الأستاذ عبد السلام هارون فى «مقدمته» و«تمهيده» ، كما أشاد بما صنعه أهل الجدّ فى نشر ما يتصل بالمرزوقى ، وما كان منهم ولاسيما العراقيين فى نشر ما يتصل بأبى تمام من أخباره وأشعاره ، وما كان للمرزوقى من نصيب غير «شرحه للحماسة» . وحقٌّ هؤلاء جميعًا على أهل العلم الوفاءُ ، لهم ولما كان منهم .

ولي أن أعود إلى «مقدمة» الأستاذ عبد السلام محمد هارون وما أثبته فيها من قيمة المرزوقى ، وما كان من صنعة أبى تمام الشاعر العالم فى «حماسته» .

لقد أثبت الأستاذ هارون قول التبريزىّ فى أبى تمام فى «شرحه» فقال :

أبو تمام قصد عبد الله بن طاهر بخراسان فمدحه وأثابه . وعاد من خراسان يريد العراق ، فلما دخل العراق اغتنمه أبو الوفاء بن سلمة فأنزَله وأكرمه ، فأصبح ذات يوم وقد وقع ثلج عظيم قطعَ الطريق ومَنَع السابلة فغمّ أبا تمّام ذلك وأحرج صدره . . . . علىٰ حين

سَرَّ ذلك مضيفه أبا الوفاء ؛ فأقبل على أبى تمّام وقال له : وَطِّنْ نفسك على هذا المقام فإنّ هذا الثلج لاينحسر إلا بعد زمان . وأحضره خزانة كتبه فطالعها واشتغل بها ، وصنف خمسة كتب فى الشعر منها : كتب الحماسة ، والوحشيات (ودُعيت الحماسة الصغرى) وهى قصائد طوال .

وقال التبريزى أيضًا : إن أبا تمّام ألّف حماسته فى همذان ، وحمله عنه رَجُلٌ إلى أصبهان[1] ، فأقبَل أدباؤها عليه . ورفضوا ما عداه من الكتب المصنفة فى معناه ، فشُهر فيهم ، ثم فيمن يليهم . . . . .[2] .

وقد أثبت الأستاذ هارون فى «مقدّمته» ص ٣ من كلام المرزوقى فى أبى تمام ، قال :

«وهذا الرجل (أي أبو تمّام) لم يعمد من الشعراء إلى المشتهرين منهم دون الأغفال ، ولا من الشعر إلى المتردّد في الأفواه ، المجيب لكلّ داع ، بل اعتَسَف فى دواوين الشعراء جاهليّهم وإسلاميّهم ومولّدهم ، واختَطَف منها الأرواحَ دون الأشباح ، واخترف الأثمار دون الأكمام ، وجمع ما يوافق نظمه ويخالفه ؛ لأنّ ضروبَ الاختيار لم تَخْفَ عليه ، وطرقَ الإحسان والاستحسان لم تَستتر عنه ؛ حتى إنك تراه ينتهى إلى البيت الجيّد فيه نقطة تشينه فيجبر نقيصته من عنده ، ويبدل الكلمة بأختها فى نقده ، وهذا يبين لمن رجع إلى دواوينهم فقابَل ما فى اختياره بها» .

وقال الزمخشرى فى أبي تمّام[3] :

«وهو (أي أبو تمام) وإن كان محدَثًا لا يُستَشهد بشعره في اللغة ؛ فهو من علماء العربية ، فأجعل ما يقوله بمنزلة ما يرويه . ألا ترى إلى قول العلماء : الدليل على هذا بيت الحماسة فيقنعون بذلك لوثوقهم بروايته وإتقانه» .

وقد بسط الأستاذ هارون فى «مقدمته» موازنة بين شرحَي التبريزي والمرزوقي فقال : «المرزوقي متقدّم فقد توفّي سنة ٤٢١هـ ، والتبريزي متأخّر فقد توفّى سنة ٥٠٢هـ ، وبين

---

(١) للأستاذ الجليل العلامة مصطفى جواد فى مجلة المجمع العلمي العراقي ١٩٧٠ مبحث وافٍ وسمه بـ«أصفهان مركز من مراكز الحضارة العربية» عرض فيه لأهل العلم فى مختلف الفنون .

(٢) عن المرزوقي شارح الحماسة ناقدًا ص ٣ .

(٣) الخزانة (ط . بولاق) ٤/١ .

وفاتيْهما إحدى وثمانون سنةً . وشرح المرزوقي أكبر الشروح (لقد كان للحماسة ثلاثون شرحًا أوّلها شرح الصوليّ المتوفّى سنة ٣٣٥هـ ، وآخرها شرح بهاء الدين عبد القادر بن لقمان وقد طبع فى الهند سنة ١٢٩٩هـ) وفيه عناية باللغة والاشتقاق ، وفيه نحو وتصريف دون إسراف . لكنه قد فاته كثير من أخبار الشعر ، ومناسباته والكلام على أسماء الشعراء واشتقاق أعلامهم ، وهما الميزتان اللتان امتاز بهما التبريزي عليه . والتبريزي في هذه الناحية قد أفاد من «شرح أبي رياش» للحماسة . ويبدو أن كتاب أبي رياش لم يقع للمرزوقي حتى يمكنه الانتفاعُ به كما صنع التبريزي . ومن الناحية الأخرى قد أفاد من شرح أبى هلال العسكرى ، ومن «المبهج» لابن جنّى .

أقول : فى هذا الذي بسطه الأستاذ عبد السلام هارون من أمر الموازنة بين شرح التبريزي وشرح المرزوقي فائدةً نعلم منها أن التبريزي على تعويله على شرح المرزوقي الذى سبقه كان له إضافات وزيادات تبعده عن أن يكون «سارقًا» كما ذهب إلى هذا الأستاذ الطاهر ـ رحمه الله ـ . وعلى هذا كان على الأستاذ هارون أن يخفّف من عبارته فى كلامه على المرزوقي الذي ورد فيه شيء نبز به التبريزيّ ؛ وهو قوله فى «مقدمته» أيضًا :

«والمرزوقي ذو عبارة رصينة متخيَّرة يتكلّف لها الصنعة حينًا ، ويعمد حيناً آخر إلى السجع الهيّن . ومن عجب أن التبريزي ينقل عبارته هذه ذات الطابع الخاص ، ولا يجهد قلمه فى نسبة العبارة إليه فى القليل النادر . بل إنه فى مقدّمة كتابه لم يشر إلى إفادته منه ؛ مع أن المُوازِن بين الشرحَيْنِ يدهشه التقاربُ الشديدُ بين عبارات التفسير واتجاهاته ، ثم لا يرتاب فى أن التبريزي كان فى جمهور شرحه عالةً على المرزوقي . ومن عجب أيضًا أن التبريزي ينعَى على هؤلاء الذين يهملون نسبة أقوال أهل العلم إلى أصحابها ؛ فيقول فى تفسير الشطر الثالث من الحماسيّة ٨٩ (هى الحماسية ٨٨ عند المرزوقى) :

قال المرزوقى : وذكر بعض المتأخرين (يعنى ابن جنّى ولم ينصفه حيث لم يُسمِّه فى كتابه) .

وقد علّق الأستاذ عبد السلام هارون :

«مما هو جدير بالذكر أن المرزوقي لم يصرِّح باسم ابن جنّى ، وكأنه كان يستضعفه ولا يرى مكانه ، وتكاد تكون عبارة «قال بعضهم» فى شرح المرزوقي يقصد بها ابن جنّى فحسب . وليس يذكر هذه العبارة إلا فى مقام الاعتراض فى أغلب الأمر» .

وقال أيضًا :

«ويمتاز شرح المرزوقي بمقدمته النفيسة الجريئة التى تُعدّ وثيقةً هامّةً فى تاريخ النقد الأدبى : نقد الشعرِ ونقد النثر ، ضمّنها مسائل تتعلق بموازنة النظم والنثر أيّهما أَشْرَفُ وأَعْلَى قَدْرًا . . . .» .

وكلمة أخرى فى هذين الشرحَين : أن متن الحماسة فيهما يخالف بعضُه بعضًا فى الرواية وعدد الأبيات ، وفى ترتيب المقطوعات وترتيب الأبيات ، بَلْهَ عدد المقطوعات . وقد لحظت أن المرزوقي لم يَرْوِ الحماسية التى أوّلها :

أقول لها وقد طارت شَعاعًا من الأبطال وَيْحكِ لن تُراعِي

وترتيبها عند التبريزي الرابعة عشرة ، ونَتَج عن ذلك أن نجد المقطوعات التى تلى المقطوعة الثالثة عشرة يزيد رقمها واحدًا عند التبريزى ، على حين نجدها برقم أَدْنَى عند المرزوقى ؛ أي أن الحماسية برقم ١٥ عند التبريزى يقابلها رقم ١٤ عند المرزوقى . . . . وهلمّ جرًّا .

أقول : مع إقرارى وثقتى بأن التبريزيّ قد أفاد من شرح المرزوقى كثيرًا جداً بل عوّل عليه فى «شرحه» لا أرانى أتشدّد فأقسو عليه كما فعل قليلاً الأستاذ هارون وكما تعسف الأستاذ الطاهر وظلم التبريزيّ فنبزه بـ السارق» . وسآتى إلى هذا .

وأتحوّل إلى كتاب «المرزوقي شارح الحماسة ناقدًا» لأخى الأستاذ علي جواد الطاهر فأقول : إنه من ذخائر العلم الذى يتسم بالدرس الجادّ الذى يشير إلى إخلاص كاتبه . غير أن لى فى هذا الكتاب النفيس وقفتين :

الأولى : تتصل بوسم المرزوقى بالناقد ، ولا أقول إنه ليس ناقدًا ؛ فالنقدُ فى شرح المرزوقي للأبيات وتفسير الكلم واضحٌ كل الوضوح . غير أنى وجدت موادّ الكتاب فكان فيها :

خروج الخبر عن مقتضى الظاهر ، وخروج الإنشاء على مقتضى ظاهره ، والتشبيه ، والمجاز ، والاستعارة ، والمثل ، والكناية ، والتعريض ، والمطابقة والمقابلة ، والالتفات ، والاعتراض ، والنظم ، الترابط بين الأبيات ، العروض والقافية ومصطلحات الشعر ، الأحكام . . . .

أقول : إن فى جملة هذه المواد نظرات نقدية نتبيّنها فى توجّه المرزوقي إلى مادته ، فليس جزافًا أن يُنعَت المرزوقي بالناقد . ولكن أقول أيضًا إن جملة هذه المواد تندرج فى علوم البلاغة فى الأصل ، وجلّها مواد بلاغية في علم المعانى وعلم البيان ، وإنْ لم نعدم أن نجد فيها شيئًا نقدياً يتصل بالقافية وغير هذا من موادَّ عَرَضَ لها أهلُ البلاغة .

فهل لنا أن نلغى هذه المواد العلمية الأصيلة ونذهب إلى صفة فى هذه المواد هى النقد ، فنذهب لننعت المرزوقي ونبعده عن الحيّز البلاغي؟

وإنى لأؤكد ما كان لدى المرزوقي فى «شرحه» هذا من النظر النقدى .

والثانية : تتصل بالمقدّمة والتمهيد ، وقد كان فى كلّ منهما عِلْمٌ اتّصف بالجد والإخلاص . غير أن الأستاذ الظاهر حين عرض للمرزوقي اقتضاه الأمرُ أن يعود إلى شرح التبريزىّ ، ورأى ما كان من إفادته من شرح المرزوقي ، فهالَه الأمْرُ ، ودفعه إلى نبز التبريزىّ بـ «السارق» وهو المغتصب لعلم المرزوقي . وقد دفعه إلى حماسته فى الذهاب إلى هذا النبز للتبريزيّ ما وجد القليلَ منه لدى الأستاذ هارون فى «مقدمته» . ولم يفد مما ذكره هارون من أن التبريزىّ قد كان له شىء اختلف فيه عما كان من المرزوقي .

أقول : ومما جاء في مقدمة الأستاذ الطاهر قوله فى التبريزىّ[1] :

«ومن عجب أيضًا أن التبريزىّ مع ذلك ينعَى على هؤلاء الذين ينسون نسبة أقوال أهل العلم إلى أصحابها . . . .» وإن ما سرقه من المرزوقى فى شرحه ديوانَ أبي تمام

(١) المرزوقي شارح الحماسة ناقدًا ص٤ . .

وضوحًا عما فعله فى شرح الحماسة .

خاتمة :

أقول لِمَن يذهب إلى السرقة فى عصرنا ، وإلى نسبة هذه السرقة للأقدمين بعضهم من بعض : ألاّ يتعجّلوا فى هذا الأمر ؛ فقد عرفنا هذا فاشيًا لدى القدماء .

أقول : ماذا نقول مثلاً إذا وجدنا الإمام السيوطى يصنِّف «كتاب الاقتراح» فى أصول النحو ، وهو يصرِّح أن هذه المادة لم يُسبَق إليها ، ولكننا نجد مادة هذا الكتاب بنصّها وفصّها فى كتاب الأنبارى «الإغراب فى جَدَل الإعراب»[1] ، ومثل هذا الكثير الكثير .

---

(١) الإغراب فى جدل الإعراب ، حقّقه الأستاذ سعيد الأفغانى وطبع فى دمشق ١٩٥٣ . ولو كان الأستاذ الأفغانى رحمه الله قد وقف على هذا لكان له أن يجعل كتاب الاقتراح أصلاً مع الأصول التى اعتمدها فى التحقيق .

خاتمة

أخي القارئ

أَرأيتَ كيف أني سقتُ إليكَ أشتاتًا جمعتُها وما أظن أني قسرتها على الاجتماع ، فكان كلٌّ مع نظيره . وإني لأَطمح أن أقدم من هذا الكثيرَ الذى أحسستُ أنى أدركتُ فيه مَيْلاً إلى أن يكون ذا رَحِمٍ مع أجزائه .

والله الموفِّق للصواب



د. إبراهيم السامرائى :

* ولد فى مدينة العمارة فى جنوب العراق سنة ١٩٢٢م.
* قضى فى هذه المدينة مرحلة الدراسة الابتدئية، ثم انتقل إلى بغداد فأكمل الدراستين الإعدادية والثانوية، وانتسب إلى دار المعلمين الابتدائية فتخرج معلما ابتدائياً.
* قضى سنتين فى التعليم الابتدائى.
* ثم انتسب إلى دار المعلمين العالية (قسم اللغة العربية)، وذلك سنة ١٩٤٢م.
* تخرج مدرسًا فى المدارس الثانوية وذلك سنة ١٩٤٥م وقضى سنتين.
* التحق بالبعثة العلمية إلى فرنسا (السوربون) سنة ١٩٤٨م.
* تخرج بعد ذلك يحمل شهادة دكتوراه الدولة فى اللغات السامية وذلك سنة ١٩٥٥م.
* رجع إلى بغداد مدرسًا فى كلية الآداب، ثم أستاذًا مساعدًا، ثم أستاذًا.
* كان له إنجازاتٌ كثيرة فى التأليف والتحقيق والترجمة، وهى تتجاوز المئة كتاب. وله كثير من البحوث التي لا يستطيع إحصائها والتى تفرقت فى المجلات العلمية فى الشرق والغرب.
* انتخب عضوًا عاملاً فى مجمع اللغة العربية فى القاهرة، وفى مجامع لغوية أخرى فى البلاد العربية وخارجها.
* طلب أن يُحال على المعاش سنة 1981م، وحصل على ذلك، وغادر بغداد إلى عمّان، إلى الجامعة الأردنية.
* قضى فى الجامعة الأردنية خمس سنوات، وتركها لأسباب خاصة.
* التحق بجامعة صنعاء سنة ١٩٨٧ وما زال بها .
* كان له وهو فى صنعاء مشاركة في دراسة التراث اليمنى فى كتب وبحوث وترجمات.
* شارك فى مؤتمرات وندوات ثقافية فى عدد من البلدان .
* شارك فى تحرير مواد الموسوعة التى تعدها المنظمة العربية للثقافة والتربية والعلوم.
* وله مواد أخرى فى موسوعة المجمع لبحوث الحضارة الإسلامية فى الأردن.



مطبعة دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة